

مهرجان القراءة للجميع

العمل الفكرية

مكتبة
الأسيرة
1999

تراث العالم القديم

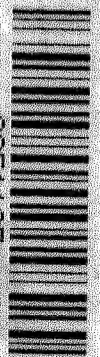
و.ج. دي بـورج
ترجمة: زكى سوس



لوحات: زكى سوس



Bibliotheca Alexandrina



0851195

لغاية الكتاب

تراث العالم القديم

تراث العالم القديم

تأليف: و. ج. دي بورج
ترجمة: زكى سوس



مهرجان القراءة للجميع ٩٩'

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الفكرية)

تراث العالم القديم

تأليف: و. ج. دي بورج

ترجمة: زكى سوس

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: هيئة الكتاب

الغلاف

والإشراف الفنى:

الفنان: محمود الهندى

المشرف العام:

د. سمير سرحان

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام، وها هي تصدر لعامها السادس على التوالي برعاية كريمة من السيدة سوزان مبارك تحمل دائماً كل ما يثرى الفكر والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ الذى يتلها شبابنا صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجل والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان

هذه ترجمة الجزء الاول من كتاب :

THE LEGACY OF THE ANCIENT WORLD

تأليف

W. G. DE BURGH

مقدمة

ان الغرض من هذا الكتاب هو أن يكون تمهيدا لدراسة المدنية القديمة لأولئك الذين لا يلمون بتاريخها. فتوجد نم رغبة متزايدة بين الرجال والنساء من جميع الطبقات والوظائف ، فى الحياة - ممن لا يعرفون الا القليل عن العبريين واليونان وروما - فى أن يحيطوا بشئ من جلائل أعمالهم . ولا يمكن نلبية هذا الطلب بكتيبات أولية . وأولئك الذين لهم عقول ويريدون استخدامها ، ليسوا فى حاجة الى مجرد موجز عن الوقائع ، ولكن الى مرشد لأحسن أفكار الأزمنة الغابرة عن الانسان والأسباب التى تربطه بالعالم وبالله . ومن الخط الظن أن الجمهور لا يأبه أو لا يقدر على فهم مشاكل الدين والفلسفة . فثمة كثيرون ، لا فى الجامعات والمدارس فحسب ، ولكن فى العالم الفسيح فى الخارج وخاصة بين العمال فى المدن الصناعية ، يميلون الى اجتلاء هذه المعارف ويتوقون برغبة أكيدة الى الاحاطة بها وتقصى أخبارها . انهم يتحولون صوب تراث الماضى اعتقادا منهم بأنهم سيفيدون منه ضياء فى حل صعابهم الخاصة . انه لمثل هؤلاء - فى الاعتبار الأول - وضع هذا الكتاب .

والى جوار هؤلاء كثيرون ، أصابوا تعليما كلاسيكيا الا أنهم لم يكونوا رأيا متماسكا عن المدنية القديمة ككل . لقد درسوا أجزاء من العهد القديم وكتبنا مختارة لطائفة من المؤلفين الاغريق واللاتين ومجلا من التاريخ اليونانى حتى الاسكندر ، والتاريخ الرومانى حتى أوغسطس . ولكنهم مع ماتعلموه لا يحيطون الا بأفكار غامضة عن الروابط والعلاقات التى تكون منها بناء حياة الأزمنة العتيقة أو عن الطريقة التى تألفت بها مدنياتها العديدة لتؤثر فى عالم العصور الوسطى والحديثة . يا لهم من قلة أولئك ، حتى بين من تخرجوا فى الآداب فى جامعاتنا ، الذين يمكنهم أن يذكروا ، فى حدود قرن ، تواريخ قسطنطين وأوغسطين وجوستنيان ومحمد (صلى الله عليه وسلم) وشارل الأعظم ، أو يدلوا ببيان فطن عن أهميتهم التاريخية! ويا لهم من قلة أولئك الذين لديهم حتى مجرد فكرة مبهمة عن أثر امبراطورية الاسكندر فى حياة المسيحية الباكرة أو عن مكانة القسطنطينية فى تاريخ العالم ! ومرة أخرى يا لهم من قلة أولئك الذين واتاهم العلم بأن عاموس وهوشع قاما بدور ، خالد فى الأذهان ، فى تقدم البشرية الدينى كالدور الذى قام به كبرنيكس (Copernicus) وجليليو (Galilio) فى حياة العلم الحديث ! ان دراسة الأزمنة القديمة لاتزال محدودة لدرجة كبيرة ، فى غرف محكمة الغلق .

ان دراسات فى التاريخ العام يجب ، بكل تأكيد ، أن تكون جزءا من المنهج العادى فى كلياتنا ومدارسنا ^(١) .

وما هو حقيقة واقعة من أن العصر الحاضر هو عصر تخصص تاريخى ، هو سبب آخر فى أن كتابا من هذا النوع يجب أن يؤدى خدمة • ان تقدم المعرفة التاريخية يجرى فى الأصل ، بالعمل فى اتجاهين : عن طريق البحوث الدقيقة فى مناطق التخصص العالى ، التى تشتمل عليها المجلات الدورية التى يكتبها العلماء ، والمطبوعات التى تعتمد اعتمادا مباشرا على هذه البحوث والتى يكون لها مجال أوسع وتعالج حقبا عديدة من التاريخ ومظاهره • وتقع هذه المهام على عواتق المهرة المتربين الذين تكون كتاباتهم موجهة الى الباحثين المعترف بهم وليس للقارئ العام • ولكن يوجد خطر حقيقى فى الوقت الحاضر ، ليس فى التاريخ وحسب ولكن فى جميع فروع المعرفة ، فى الانفصال بين علم الاختصاصى وعقل الجمهور الذى لا يسير على النهج العلمى • والتاريخ نفسه يستطيع أن يعلمنا أنه اذا بقى هذا الانفصام دون التثام ، فإن النتيجة ستكون وخيمة • وكان الأمر كذلك - على سبيل المثال - فيما نجم عن احتكار رجال الدين للعلوم اللاهوتية فى العصر الذى سبق عصر الإصلاح • وفى هذه البلاد ، على أية حال ، جهد التفكير العلمى والفلسفى على الدوام فى أن يكون على اتصال بتفكير العالم الأوسع • وكلما سارت المعرفة الى تخصص أعظم والجمهور القارئ الى ديمقراطية أعظم ، يجب ألا يسمح لهذا التقليد الكريم بالتوقف •

وقد حاولت ، وهذه المطالب لا تغيب عن بالى ، بأن أورد الى الأنفهام التواصل الحى للتاريخ القديم • وأحسست أنه يكون من المجدى عرض سلسلة التقدم بأجمعها ، مع قصور هذا عن الكمال ، فى نظرة واحدة • ان تاريخ الأزمنة القديمة ليس مجرد حاصل مجموع حقب وشعوب ولكنه كل يشتمل على أجزاء توثقت عراها فى تلاحم داخلى ، وعندما تدرس الأجزاء منعزلة ، يكون من شأن الوحدة أن تتوارى عن الإدراك •

Dann hat er die Teil in seiner hans.

Fehlt leider nur das geistige Band.

عندما يكون الجزء فى يده

ينقص السفر الروحى وحسب

ولقد اعتبرت لفظة (تاريخ) فى شىء من معناه الواسع الذى كان يحمله

(١) ستأتى مثل هذه الدراسات بأعظم نفع على طلاب الجامعات فى العلوم وعلى الكليات بخلاف كلية الآداب •

لأول واضعيه ، الاغريق ، أى كامل سجل حياة الانسان بالنسبة الى العالم الذى يحيط به وأنه يشمل التفسير وكذلك الوصف القصصى^(١) واستندعت محاولة الامام بمثل هذا النطاق الواسع التكثيف والاستبعاد جميعا ، ويغلب أن تذكر الآراء العامة دون الدلائل التى تدعمها . اذ أن وفرة التفاصيل يكون من شأنها أن تربك عقل القارىء . واذا كانت الأمثلة قد استمدت من قادة الشخصيات وليس من مستويات الأعمال الوسيطة فإن الهدف لم يكن وضع مجمل لحياة الشعوب القديمة فى مدارها كله ولكن لتبيان تراثهم للعالم الحديث . ولا يوجد فى أى جزء من الكتاب معرفة سابقة بالوقائع ، سبق افتراضها . لقد وضع بحيث يترك القارىء غير راض وبحيث يوحى اليه بالرغبة فى دراسة مدنيات العبريين واليونان وروما ، دراسة أكثر استيفاء بمعاونة المصادر الأصلية .

أمران أهملتا يحتاجان لشرح موجز :

١ - فى معالجة التراث الهلنسى ، لم أشر الى الفن والفخار الامما ولو أنهما مظهرتا الهلنسية اللذان لهما أحسن وقع مباشر لدى جمهور القراء ، ولكنى أشترب بعدم ثقة عميقة فى حديث عن الفن والفخار يوجه الى أولئك الذين ليس لهم علم بأصولهما . ان نماذج الأدب الاغريقى العليا ، فى متناول الجميع ، فى الترجمات الانجليزية . فليبدأ القارىء بها . أما فيما يتعلق بالفن الاغريقى فعليه أن يزور غرفة الجن (Elgin) وأبهاء العرض فى متحفنا القومى . وعلى هذا ، فقد اقتصرت على تقديم الكثير من الشرح التمهيدى الذى يمكن أن يبين الأوضاع التاريخية والعقلية التى أنتج الشعراء والفنانون الاغريق فى غمرتها ، عملهم .

٢ - فى الفصل التاسع ، عن المسيحية ، قد يظهر أن تركيزا فى غير موضعه ، أضيف الى تاريخ الكنيسة التأسيسى والى تطور العقيدة اللاهوتية . ولقد ذكرت فى صراحة أن هذين الأمرين لم يكونا الا المظاهر الخارجية للحياة الروحية الداخلية ، وهما اللذان أوحيا بالمجتمع المسيحى . ولكنى لم أقل الا القليل أو لم أقل شيئا عن طبيعة ذلك المبدأ الداخلى أو مصدره فى شخصية وتعليم يسوع الناصرى . ان المهمة تتطلب مؤهلات ، ليس فقط فى سعة التفقه ولكن فى البصر الدينى ، ولست أستطيع أن ادعى أنى أملكها . وبينما أؤكد اعتقادى بأن تاريخ المسيحية يمكن فقط الرجوع بسببه الى

(١) راجع قول يوربيدس الرائع (fr 902, Dindorf) « سعيد ذاك الذى تمكن من تعليم التاريخ (historia) . . . ساعيا الى مشاهدة النظام الذى لا عمر له (Kosmos) والطبيعة التى لا تموت (physis) وطريقة تكوينها ومن أى مكان نشأت وكيف نهضت » . عن معنى (physis) للاغريق ، راجع ما سيجىء فى الفصل الرابع القسم الخامس .

شخصية مؤسسها الفريدة فقد حصرت الانتباه في أصولها في اليهودية واتصالاتها بروما والهلينية .

ان الغرض من التذكرات يعود بعضه الى الرغبة في ذكر المراجع لمثل هذه المصادر التي توجد في يسر في الترجمات ، ومثال ذلك ، العهدان القديم والجديد ، وأشهر ما عرف لدينا من المؤلفين الاغريق واللاتين ، وبعضها لتحديد العبارات التي تتطلب الحال استيعابها في تحفظ والبعض لاقتراح نظائر ، أقرب الى الاستدلال ، للتطورات والمشاكل الحديثة . وليست قائمة الكتب الملحقه شاملة ، انها مجرد مختارات ، لهذه المناسبة ، لتوالت انجليزية جيدة للهداية الى مزيد من الدراسة .

واني أرغب في التعبير عن شكرى لجميع من عاونوني في اعداد هذا الكتاب . واني مدين بصفة خاصة الى زميلي الاستاذ ف.ن. يور (P.N. Ure) الذي قرأ وعلق على مسودة الكتاب، والسيد فرنون رندال (Vernon Rendall) الذي لم يقدم الى فقط خدمة مشابهة ولكن وضع في سخاء ، تحت تصرفي علمه الواسع بالادب الكلاسيكي والحديث ، والى زوجتي التي كان في مساعدتها ونقدها من البداية الى النهاية أعظم تشجيع لي .

اشمور ، أغسطس ، ١٩٢٣

و ج . دى ب .

تذكرة

لقد أكمل زوجى اعداد هذه الطبعة الجديدة من (تراث العالم القديم) قبل وفاته فى أغسطس عام ١٩٤٣ ، بزمان وجيز . وقد سجل أنه يرغب تقديم الشكر الى محرر (أعمال الجمعية الارسططالية) (Aristotelian Society's Proceedings) ومحرر صحيفة هبرت (Hibbert Journal) للاذن بطبع مواد ظهرت فى مطبوعاتهما . وكذلك كان يريد أن يقول انه عند مراجعة الفصول الأولى ، تلقى مساعدة عظيمة من سر جون ميرز (Sir John Myres) وفى الفصل الثالث لقي عوناً من دكتور هويلر روبنسن (Dr. Wheeler Robinson) . وبينما هو المسئول دون سواء عما طبع ، فانه كان يشعر أنه مدين ديناً عظيماً جداً لاهتمامهما الرفيق ومعاونتهما . وكان أيضاً يرغب فى الاعتراف بتقدير اقتراحات سر ريتشارد لفنجستون (Sir Richard Livingstone) ، رئيس المجموعة ، والاستاذ فوردريس (Prof. Fordyce) من جلاسجو والاستاذ نوكس (prof. Knox) من سانت اندروز ، وأن يعبر عن دينه الى مراجعى الطبعة الأولى والى مراسليه عنها وعلى الأخص المغفور لهما الاستاذ اى. تيلور (A.E. Taylor) والراعى ف. هـ. وكستيد (Rev. P.H. Wicksteed) . وقد شعر بالتشجيع عند القيام باعداد طبعة هذا الكتاب لعلمه أنه لقي تقديراً وتقريظاً من رجال لا يمكن انكار ما لحكمهم من شأن وخاصة جون بورنت (John Burnet) وصموئيل الكسندر (Samuel Alexander) والاستاذ تيلور (Prof. Taylor)

ويلاحظ أنه علاوة على تغييرات صغيرة متنوعة فى النص وادخال مواد جديدة فى شتى المواضع ، فانه يوجد ثلاثة ملاحق فى خاتمة هذه الطبعة الجديدة الغرض منها تعزيز أدلة ونتاج الكتاب .

ريدنج ، يناير ، ١٩٤٧

ى . دى ب .

تراث العالم القديم

الفصل الأول

مقدمة :

١ - بين شعوب العالم القديم ، ثلاثة خلفوا تراثا هو قوة حية فى الزمن الحاضر . أولئك هم العبرانيون والاغريق والرومان ومبتكرات عبقرتهم : نبوة العبريين ، وفلسفة اليونان وشعرهم ونحتهم ، والقانون والتنظيم السياسى لروما ، وكلها تكون تراثا فيه وحى دائم للانسانية . ولقد اضطلعوا بسهم لا يعزب عن البال فى تكييف مدينة ما ترادف من زمن . ولفظ « مدينة » كالألفاظ كثيرة تدور على اللسان من العسير تحديده ، ويوحى آنا بمعنى أوسع وآنا آخر بمعنى أكثر حصرا . وتعريف رسمى كالذى يتلاءم فى مستهل عجلة حسابية علمية ، اذا كان ليؤدى خدمة فى كتاب كهذا ، يجب ألا يعجز فى البداية ولكن فى الختام ، عندما يكون القارى قد ألم بمختلف أنواع المدينة فى مدارجها المتباينة ، فى النمو والازدهار والنضوج والانحلال ويكون قد عرف أن عملا ثقافيا جليلا لن يفنى أبدا ، ولكنه يحمل ، حتى فى تفككه الظاهرى ، ما يكون فى الغالب أطيّب ثماره فى بعث الحياة فيما يعقبه « ان ما تبذره لا ينشط الا اذا مات » ، وهذه الكلمات تصدق على الشعوب وعصور الثقافة كما تصدق على الأفراد ، وهكذا انحطت الامبراطورية الرومانية ولكن لم تسقط كما سقطت الهلينية ومسيحية القرون الوسطى ، وانها لباقية فى حيوية تتجدد أبدا فى مدينة العالم الحديث .

وفى هذه الصفحات نعى بلفظ مدينة نوع الحياة الذى أبرزته السلالات العليا فى مختلف حقب تاريخها . انها تحيط بعالم من المثل العليا وعالم من الحقائق المنجزة . انها تشمل مجموعة باتمها من العادات الاجتماعية والقانون الموضوع والنظم الدينية والخلقية والسياسية ، والصناعة والتجارة والفنون والعلوم والآداب والفلسفة التى تمثل ما تجمع من جهود شعب . ولكنها تشتمل على أكثر من هذا . ان الانسان حيوان يصور المثل العليا ويحفزه فى كل مرحلة من مراحل تدرجه نحو الرقى مطامح تسمو على المستوى الذى وصل اليه فعلا . ومدينة فى أية حقبة بعينها تشمل أيضا عالم قيمه الدينية والخلقية والاقتصادية ونظرته العقلية للحياة ومعتقداته الشخصية فيما يتعلق بوظيفته ومصيره ومعايره فى الصلاح الخلقى وفى خير المجتمع .

واننا في ضوء مثل هذه المثل العليا التي تجدد تصوراتنا للتقدم الانساني. نفرق بين المدنية والهمجية ^(١) . واذا طبقنا هذا التفريق على تاريخ الأزمنة القديمة ، نجد أنه قبل أن ينهض أسلافنا الكلتيون والالمانيون والاسكندانيون من غمرات الهمجية بآمد طويل ، كانت هذه السلالات الثلاث التي سلف ذكرها قد ظفرت بمستوى رفيع من المدنية . ولقد تاح لها ، عندما حانت ساعة الاتصال ، ان تؤثر تأثيرا عميقا في الشعوب الاقل ثقافة التي أصبحت في مكان القيادة من أمم عصرنا الحاضر . وعلى سبيل المثال ، عندما قبل أجلاف الهمج ، المسيحية ، فانهم تقبلوا أيضا معها تراث تقاليد العبريين الدينية والخلقية والفلسفة الاغريقية والمذهب الروماني التشريعي والسياسي . وهدف هذا الكتاب هو تتبع قصة هذا الارث ، وسنبدأ بإشارة موجزة الى الخدمة الخاصة التي قدمها كل من هؤلاء الشعوب الثلاثة لمدنية العالم الحديث .

٢ - **العبرانيون** : ان الدين الذي تحمله مدينتنا الحديثة للعبرانيين يقع بكليته تقريبا في مجال الدين . وشعرهم ، وهو أصدق مرشد الى أفكار ومشاعر شعب ، هو في جوهره شعر ديني . وقيمته ليست في أسلوبه الأدبي او البرهان النظري أكثر منها في البصر الروحي العميق الذي يعبر عنه . ولم يكن للسلالة العبرية الا شأن يسير في الحرب أو السياسة فيما عدا فترة قصيرة وجيزة في عهد الملك داود وعلى هذا فان ما حققته من عمل دنيوى جليل يمكن أن يمر دون أن يسترعى النظر تقريبا ، في تاريخ العالم . انها العبرية الروحية لانبيا مثل عاموس وهوشع في اسرائيل واشعيا في يهوذا في القرن الثامن قبل الميلاد ، هي التي كانت أول ما أحال عقيدة قبلية مقصورة الى دين ذى معنى عام للعالم . ولم يعد يظهر يهوه بعد كاله قبل غيور يقود شعبه الى النصر على آلهة أعدائهم القبليين الذين يقفون معه على قدم المساواة ولكن كحاكم الهى للكون يوقع القصاص على العبريين عن طريق أعدائهم لما يقتربون من خطيئة ، والذي كان يريد رحمة لا ذبيحة ويدعو لعبادته ليس بالهبة الشخصية ، ولكن بالمعاملة البارة بين الانسان والانسان . وهذا التحول في الدين العبرى ، عاون في الحق ، على حطم وحدة الدولة العبرية السياسية . ولكن البذرة التي بذرها الانبياء الأوائل نضجت خلال التجربة المريه من المذلة القومية والاسر ، الى دين خالص النقاوة . وهو الذى ، فى الحين المناسب ، أنجب العقيدة التي غزت العالم المتمدين ، وكان العبرانيون أول شعب من الشعوب التي عرفها التاريخ ، وصل الى الاعتقاد بالله واحد خالق وحاكم الكون وأبى البشر أجمعين .

والمسيح الذى ولد من أم عبرية ، وكانت تنشئته على المحافظة الدقيقة للناموس العبرى أتى لا لينقض ذلك الناموس بل ليكمله . وأثر اليونان

(١) انظر السفر الثانى ملحق ١ .

وروما على نمو المسيحية - الذى سنتحدث عنه فيما بعد فى هذا الكتاب - حجب ، ولكن لم يمح أبدا طابع أصله العبرى . وحسبنا أن نذكر الطهرين (Puritans) فى القرن السابع عشر لنذكر العمق الذى استغرقت فيه الروح العبرية المسيحية الحديثة .

٣ - الاغريق : انه أكثر عسرا أن نعبر فى كلمات قليلة عن عمل الاغريق أو الهلينيين كما نعتوا أنفسهم فى التاريخ . لقد أثروا فى الديانة الحديثة عن طريق فلسفتهم أكثر مما أثروا فيها عن طريق دينهم . ولقد صورت آلهة الاولمب (Olympian) فى شبه الناس ولهم عواطف البشر ومصالحهم ، ولو أنهم أعظم صولة وأوفر جمالا وأكثر غيرة وأشد تدلها فى الحب ، ولو أنهم كانوا خالدين ويستمتعون بحياة أكثر خصبا من حياة الآدميين ، فانه فى جميع الامور الجوهرية كانوا يشعرون ويفعلون كما كان يشعر ويفعل الرجال والنساء من الاغريق . وسنرى كيف جهد الفلاسفة فى أن يجعلوا من العقائد النسبية عقائد روحية ، وكيف أنه نتج عن هذا الجهد انفصام بين النتائج العقلية التى وصلت اليها القلة وبين معتقدات الكثرة الدينية .

ولقد أوجد دين الاغريق فى جميع الازمنة حقلا يانعا للفن والشعر مما لا تزال فصصه بهجة للخيال . ولكن لم يكن ليستطيع أن يرضى المطامح العقلية أو الخلقية التى تجيش فى جيل أكثر امعايا فى التفكير . هذا الى أن ما ندين به للاغريق يشمل نطاق الثقافة الدنيوية بأجمعه .

ففى الفلسفة والعلم وفى الفن والادب حققت العبقريّة الاغريقية نتائج هى فى مداها وقدرها منقطعة النظير فى تاريخ البشر .

« ان الفترة التى وقعت بين ميلاد بركليس (Pericles) وموت أرسطو ، أى القرنين الخامس والرابع ق م . فى تاريخ الاغريق هى دون ريب ، اذا اعتبرت لذاتها أو بالاشارة الى ما كان لها من نتائج على أقايد الانسان المتمسدين باللاحقة ، أكثر الفترات رسوخا فى الأذهان ، فى تاريخ العالم » . هكذا كتب شلى ، والمفكرون والشعراء قاطبة ، شهود على صدق قوله . والحرية والفردية موجودتان فى كل مكان فى حياة قدامى الاغريق ، وأعظم ما يؤثر فى روعنا هو نشاطهم العجيب . وتاريخهم بأجمعه سجل للتجربة الجريئة فى الفكر والمراس ، ولقد كان يحدوهم الشوق والشجاعة جميعا فى البحث العقلى وتغمرهم البهجة بالحياة والعمل . وعبقريتهم العقلية كانت أصل نبع الفلسفة والعلم ، وعبقريتهم العملية ، وجدت مخلصا لها فى النشاط السياسى وفى الحرب والتجارة ، وفيما ابتكروا من أدب وفن . وكل أنواع الشعر والتفكير تقريبا ترجع فى نشأتها الى الاغريق وقد ساروا بها فى طريق الكمال . ومثلهم الأعلى كان شخصية موهوبة منسجمة يسيطر عليها مبدأ داخلى وعقل ، ونشاط ليس جامعا ولا ضابط له ولكن تتحكم فيه المعرفة بالذات وتراث العالم القديم

والحكم الجلى . ولا توجد سلالة تعدلها فى التحرر من النزوع الى عالم أفضل أو جهدت فى ادماج أهداف وقيم يمثل هذا الشمول فى أحوال الاختبار الانسانى ، الراهنة . وبمقاومة كل نزوع الى المستحيل وطنوا أنفسهم فى عزيمة ، على فهم طبيعة الانسان والعالم الذى يعيش فيه ، وبفهم واضح لحقائق الأشياء ، على استخدام العالم كحقل لتحقيق مثلهم العليا فى الحياة .

ومواهب السلالة التى اختصت بهم حملت معها لعنتها ، ان الفردية والحربة اللتين جعلتا للاغريق المكانة العليا فى الفن والعلم نجم عنهما دمار استقلالهم السياسى . انه حق كما سنرى فيما بعد ، أن الثقافة الاغريقية وجدت دافعها ومجالها فى جو النقاش المتحرر الذى كان سائدا فى دولة - المدينة وأن العبقرية الاغريقية تجلت فى نظريتهم السياسية وفى مراسيم السياسى على السواء . ولكن يوجد جانب آخر للصورة . ان الحياة السياسية فى مدن الاغريق تعرض مشهدا مظلما للمطمح القلق والتحاسد الشخصى والتشيع الحزبى والعزوف عن توثيق العرى الاتحادى ، والثورة المستمرة والتشاحن المدنى . ولقد كان انعدام الوحدة القومية ذاك ، هو الذى ترك اليونان فريسة سهلة لاعدائها ، أولا للملوك المقدونيين وبعد ذلك للجمهورية الرومانية .

ولكن الروح الاغريقية استوفت جزاءها ، وكما فى عهد الاسكندر أثرت فى ثقافة الشرق فان الغزاة الرومان ، بعد ذلك تشبعوا بها وعن طريق روما صاغت فكر العالم الحديث وثقافته .

٤ - **الرومان** : كانت روما حكومة الازمنة القديمة ، القيصرية ، وكان الرومان بناء الامبراطورية العظام ، فى تاريخ العالم . وكان دينهم خاضعا خضوعا تاما للسلطة السياسية . ونورد مثلا يساعد على تفهم هذا .

لقد جازف قيصر - وهو المتشكك، الصريح ، ولم تكن حياته الخاصة على اليقين ، فوق مستوى الشبهة ، جازف قيصر بكل شئ ، فى ظرف حاسم - بحياته العملية عند انتخابه كاهنا أعلى ، انها كانت مجرد خطوة فى سلم المطمح السياسى .

ان تأثير روما على المسيحية يتجلى فى أعظم وضوح فى مجال التنظيم الكهنوتى . والرومان بطبعه كان لديه اليسير من التقدير للفن أو العلم ، وفى الزمان الأول كان يعتبر الشاعر متشردا والفلسفة خطرا على الاخلاق . وعلى النقيض من هذا كثيرا كانت حال الاغريق فى شعر هومر (Homer) وعندهم كان الالهة هم الذين حرّموا الشاعر الضرب من البصر ولكن بدلا عنه منحوه القدرة على الصمدح بالاغنية الربانية . ولقد أتى الوازع للشعر والفن الى روما من الاغريق ، ولو أنه بمجرد أن تلقن الرومان درسهم عبروا عن روحهم القومية ، دون محاكاة وضعية ، فى شعر لا يأتى عليه الفناء .

ولقد علم شعراؤهم الموطن الذى تسنقر فيه عبقرية سلالتهم الحقة وتعرفوه .
 « قد يشكل غيرنا فى خطوط أكثر رقة البرنز الذى يزفر بالنفس - نعم ،
 ويعملون على ابراز القسمات الحية ، من الرخام وقد يكونون أكثر اجادة فى
 الجدل دفاعا عن قضاياهم القانونية ويتتبعون حركات السموات ومطلع
 النجوم - ليكن قصارك يا ابن روما أن تحكم الأمم : ستكون هذه فنونك أن
 تفرض عادة السلم وأن تعفو عن المهزوم وتحطم المتعالي بالسيف »^(١) ،
 وكجميع بناء الامبراطورية الذين قاوم عملهم ضغط الزمن لم يكن عند
 الرومان تعطش جامع للغزو . لم يكونوا سلالة محاربين أكثر مما كانوا
 شامخين واداريين . ولقد كانت رسالتهم الخاصة وضع قانون السلم ، سلم
 روما (Pax Romana) وكبح الفوضى وعدم النظام ، حول أملاكهم التى
 تنطرد رقعتها فى الازدياد . ولما كانوا بجانب الاغريق أطفالا فى الثقافة
 وفيهم نزعة ظاهرة من التجرد عن الانسانية وغلظة فى طبيعتهم فان الرومان
 كانوا أقوىاء حيث كان الاغريق ضعافا فى توثيق عرى السلالة والاتحاد
 السياسى وفى اخضاع الفردية لخدمة الدولة . وكانت الفضيلة التى يتجمل
 بها المواطن الرومانى هى أن يفعل فى روما ، كما تفعل روما . ان تاريخ
 الاغريق تاريخ مدن وأفراد، وتاريخ روما هو تاريخ شعب . ولما لم تكن تتحكم
 فى الرومان سياسة مدبرة للغزو وانما كان الحكم لمنطق الواقع الصارم فان
 أقدار الشعب الرومانى أدت بهم الى أن يضموا فى نطاق امبراطوريتهم العالم
 المتمدين بأجمعه كما كان فى زمن ميلاد المسيح .

ان جمع الرومان شعوب ومدنيات الازمنة القديمة فى منظمة واسعة موحدة،
 والقيام بحراسة البحر المتوسط وفرض السلام على عالم يسوده عدم النظام
 وتسليم برابرة شمال وغرب أوروبا ثقافة الماضى ، وقد هذبته عبقريتهم
 الخاصة فى القانون والحكومة ، ان كل أولئك كانت مهام روما ومصيرها .
 وبها سار المثل « كل الطرق تؤدى الى روما » وكما كانت الطرق العسكرية
 العظيمة التى أنشأها الرومان تتشعب من روما وتجتاح الامبراطورية فان
 تيارات التاريخ القديم والحديث على السواء تجد نقطة تجمعها فى روما وتدين
 أهم العالم الحديث بجانب عظيم من شرائعها ولغاتها ونظمها الى عبقرية روما
 القيصرية .

٥ - ان هذه الشعوب الثلاثة بأجمعها كان موطنها شواطئ البحر
 المتوسط . ولقد كان البحر المتوسط وأراضيه الساحلية عالمهم . ولما كنا قد
 تدربنا منذ الطفولة على أن يتجه تفكيرنا الى نصفى الكرة الأرضية بما فيها
 من قارات ومحيطات فمن العميق أن نقدر زمنا كان يعنى فيه العالم مجرد

حلقة ضيقة من الأقطار تتجمع حول بحر داخلي ، وإلى ما يوالى هذه الأرض الساحلية في كل صوب ، يوجد خواء لا حد له يكتنفه الغموض وإلى الغرب يقع المحيط الاطلنطي الذي لا يمكن اجتيازه وإلى الشمال والجنوب تقع مواطن الهمج المتوحشين الذين كانوا يهبطون بسلعهم للمقايضة مع سكان سواحل البحر المتوسط . وفقط صوب المشرق رفع الحجاب إلى البعد الذي يقوم فيه خط هضبة ايران (فارس) عالياً فوق سهول ما بين النهرين وبابل ، وداخل هذه الحدود كانت توجد مدينة .

وعلى هذا يظهر لشعوب الزمن القديم أن التفريق بين ثلاث قارات : أوروبا وأفريقيا وآسيا ، كان تفريقاً اصطلاحياً لا طائل تحته ^(١) . وقبل أن يبدأ العبريون والاعريق والرومان القيام بدورهم في التاريخ ، بزم مستطيل كان البحر المتوسط ، مكان تجمع تجارة العالم . وفي جميع العصور نمت التجارة والمدينة جنباً إلى جنب . ان الطرق التجارية وهي حلقات الاتصال الدولي ، تعاون على توزيع ، ليس مجرد المحاصيل المادية ، ولكن أفكار وعادات الحياة أيضاً ، وعلى هذا كان تاريخ المدينة منذ بواكير الزمن المدون ، هو تاريخ منطقة البحر المتوسط ، وظلت الحال كذلك حتى أتت كشوف عظام الملاحين في ختام القرن الخامس ، ثمارها في مدينة المحيط التي نعيش اليوم بين ظهرانيها ^(٢) . ان رحلات دياز (Diaz) ودي جاما (da Gama) وكولمبس (Columbus) فعلت أكثر من اظهار أسواق جدد ، ومناطق للتوسع الامبراطوري في جزر الهند والعالم الجديد . ولقد غيرت مركز الثقل في الثقافة الانسانية . ومدينة المحيط التي قامت على أسسها لم تكد تنضج بعد لوضع تاريخها .

واذا صدق القول ان ما تفكر فيه لنكثير اليوم تفكر فيه انجلترا غداً وإذا لم تعد جزيرتنا بعد عملاً خارجياً على تخم المدينة الشمالي الغربي ، ولكنها تحتل مكاناً مركزياً في التواصل الاقتصادي والعقلي بين الأمم ، وإذا كانت حياة العالم تنبض في أصقاع لم تكن معروفة للأقدمين - في أمريكا وفي المستعمرات البريطانية فيما وراء البحار - فان مرجع ذلك إلى

(١) هيرودوت : ٤ - ٤٥ : « لا أستطيع أن أفهم لماذا أطلق على الأرض وهي واحدة ثلاثة أسماء مختلفة استمدت كلها من النساء ... ولا يمكنني أن أعلم من هم الذين وضعوا الحدود أو ممن استمدوا الأسماء التي أطلقوها » .
 (٢) قال دكتور جونسون (Dr. Johnson) : « ان الغرض العظيم من السفر هو مشاهدة شواطئ البحر المتوسط . وعلى تلك الشواطئ قامت أربع امبراطوريات عظيمة في العالم : الاثورية ، والفارسية ، والاعريقية ، والرومانية . وكل ديانتنا ومعظم شرائعنا ومعظم فنوننا ، وكل ما يرفعنا فوق البرابرة ، تقريباً ، وصل إلينا من شواطئ البحر المتوسط » (بوزول (Boswell

تغيرات نشأت منذ أربعة أو خمسة قرون فقط ، ونتائجها التي يتسع نطاقها من ساعة الى ساعة أمام أعيننا تصلح بالجرى لأن تكون مادة للصحفى وليس للمؤرخ . والأزمنة التي أخضعت فيها الامبراطورية الرومانية فى منطقة البحر المتوسط ، العالم المتمددين بجمعه تحت سيطرتها تظهر فى الحق سحيقة فى القدم .

ولكن هكذا يترابط التاريخ خلال حقب نموه المترادفة ترابطا وثيقا ، حتى ان هذه الثورة الهامة كان الوازع لها ارث الثقافة الاغريقية الرومانية . ولا توجد فجوة لا يمكن اجتيازها فى التواصل بين مدنية المحيط فى زمننا وتلك المدنية التى صاغها منذ أكثر من عشرين قرنا خلت ، شعوب عالم البحر المتوسط .

٦ - والعبريون والاغريق والرومان ولو أنهم كانوا يسهمون فى موطن مشترك على البحر المتوسط فقد كان يفرقهم اختلاف المنشأ الذى كان الى حد بعيد السبب فى قيام صفة مميزة لحضاراتهم .

كان العبريون فرعا من الجنس السامى الذى كان موطنه بلاد العرب احدى مراضع الجنس البشرى العظيمة . وفى الفصل التالى سنقابل أمما أخرى ، بابليين وأشوريين ، والقاطنين فى فينيقيا وسوريا الذين كانوا أعضاء فى الأسرة السامية عنها .

وعلى النقيض كان الاغريق والرومان ينتمون أصلا فى جميع الأحوال الى الأسرة الهندية الأوروبية التى ربما كان موطنها أرض السهوب (الاستبس) الى الشمال من القوقاز .

وفى العصور السحيقة فى القدم كانت هذه الأسرة قد انقسمت الى شعبتين عظيمتين . ولقد سارت احدهما صوب الغرب الى أوروبا ومنها لم ينشأ فقط الاغريق والاطاليون ، ولكن أيضا أسلافنا ، الكلتيون والالمان والاسكندناويون .

وأخذت الشعبة الأخرى سمتها الى الجنوب الشرقى واستقر جزء منها على هضبة ايران ونسلوا الميديين والفرس الذين جاء ذكرهم فى التاريخ القديم بينما اجتاز جزء الجبال الى وديان السند والكنج واستعمر الهند الشمالية .

وقد حدثت كل هاتيك الهجرات فى العصور البعيدة . أما الشعوب القديمة التاريخية فيندر أنهم تحرروا من تمازج الأجناس ، اذا كانوا تحرروا إطلاقا منه .

٧ - ان تباين هذه الشعوب الثلاثة فى الحياة والصفات لم يكن بالقدر الذى يمتنع فيه التوحد النهائى . والحقيقة ، بالجرى ، على النقيض من هذا .

ولقد خلقت كل منها وورثت العصور التالية ، واحدا من العناصر الجوهرية فى فكرة مدنية كاملة . وكان الاغريق أول من أدرك فى مذهبهم العمل ، كما فى مذهبهم النظرى ، قدر الحرية الفردية وأنها التربة التى يمكن فيها فقط أن يزدهر خيال الانسان وعقله ويأثيان ثمارهما . وفى مجالى الفن والفلسفة تكون الروح الانسانية الشرعة لنفسها ، ولكن الانسان مطلوب منه العمل أيضا ويستندعى تحقيق اغراضه العملية ، تحقيقا فعلا ، توطينها على حقائق طبيعة الانسان الصارمة ، ودنيا الظروف .

والتسوية يمكن انجازها فقط بمعاونة السلطة الخارجية والحكومة . وهذه الوظيفة التأديبية فى تاريخ المدنية نهضت بها روما . ولكن فى مجال الفكر كما فى مجال العمل ، فإن مصير روح الانسان الذهاب بددا فى الفوضى أو العبودية الا اذا ألهم العلم بمرماها المثالى .

« بلا رؤيا يغنى الشعب » ^(١) ، كان العبريون قد رأوا الرؤيا ونقلوها عن طريق عقيدة تأصلت جذورها فى حياتهم الروحية الى شعوب الغرب الآرية . الحرية والشرعة وملكوت الله - انهن تراث العالم القديم ، تراثه الثلاثى الذى ورثه عالمنا الحديث .

٨ - ان المؤرخ الذى يرجع ببصره الى الماضى ، من مدى عشرين قرنا يجد لزما عليه. أن يجلى فى صورة بارزة الاوجه الهامة المميزة لهذه المذنيات، ولكن يجب ألا يدور تفكيرنا فيها وكأنها صبت فى قوالب جامدة أو أن نغالى فى وضوح خطوطها ، وستبين النتيجة كيف أن حياة الشعوب ، العبرية والاغريقية والرومانية ، كحياة الافراد الذين كانوا يكونونها ، كانت أبدا دائبة على السير وتكييف نفسها كلما نمت وتتغير من لحظة الى أخرى وفقا لمجالها الطبيعى والاجتماعى .

انه لشوط بعيد بين العبرانيين الذين تجمعوا حول ايليا على جبل كرمل والعبرانيين الذين كانوا بعد ذلك بتسعة قرون يصيرون أمام وال رومانى لاطلاق سراح بارباس .

ان الفريسي فى اورشليم فى زمن المسيح كان يسير فى عالم مغاير لذلك الذى كان يسير فيه اليهودى الذى اصطبغ بالصبغة الهلينية فى الاسكندرية .

ان أوجه الخلاف بين أمراء التجارة الاغريق فى القرن السادس والمستعنين للقدس بولس فى كورنث أو أثينا كان مردها فى اتساع الهوية التى تفصل الأولين عن جوارى البحار الجامحين الذين هجروا مقابر جدودهم وآلهة أسلافهم والتمسوا مواطن جديدة فى بحر ايجاء فى نهاية السنوات الالف الثانية ق.م .

٨١ أمثال ٢٩ - ١٨ (النسخة الانجليزية المعدلة « يجمع الشعب ») .

ان الثقافة الهلينية كانت تعني شيئا في سيراكوز وشيئا آخر في مليتوس (Miletus) وروما التي عملت على تائيس الأسباني أيام كاتو (Cato) يشق على السلاف والبلغار ، الذين عرفوا فقط الامبراطورية المسيحية والبيزنطية في بواكير العصور الوسطى ، تعرفها كروما .

ونستطيع أن نقدر هذا التغير المستمر في المدنية ، على أفضل وجه اذا وجهنا الفكر الى العالم كما هو اليوم . ان جميع مصادر البراعة الحديثة لتسهيل الاتصال السريع واذاعة الأفكار مثل آلة الطباعة والبخار والكهرباء والطائرة والمذياع لم تأت بجدوى في تحطيم الحواجز التي تفصل بين معاصرين من جذع مشترك . ان فلاحا في دورست (Dorset) وعاهل منجم في نورثمبريا يعيشان في عالمين غريبين . ونظرة عالم اكسفورد الى الحياة لا تشترك الا بقدر يسير مع نظرة مواطن له في مانيتوبا أو نيوزيلند . وأكثر اتساعا الهوة التي تفصل واحدا من هؤلاء الانجليز الذين يعيشون في القرن العشرين عن أحد أسلافه في القرن الثالث عشر . واذا أعملنا الفكر في التباين بين انجلترا التي نعرفها وانجلترا البلاتاجنييت (Plantagenets) فسيحتاج لنا أن نتصور شيئا عن صعوبة جمع أوجه مدنية الأزمنة القديمة دائمة التغير ، في منظر واحد .

وكذلك سنرى كلما سرنا قدما كيف اعترى التراث التحوير خلال انتقاله الى العالم الحديث . ان ثمار العبقرية العبرية والاغريقية والرومانية انصهر بعضها مع البعض الآخر ومع عناصر استمدت من مصادر تيوتونية (Teutonic) . واسكندناوية ، ولقد تغير مغزاها بدخولها في شكول من النماذج جدد .

ان الحاضر بتمثيله الماضي يضيف عليه معنى قد يكون أزر أو أضحل من ذاك الذي كان يحمله مرة ، ولكنه أبدا جديد . ان أوضح شرح لهذا تقدمه اللغة .

لا حاجة للانسان أن يكون ماهرا في فقه اللغة ليتعرف أصل الكثير من مفردات اللغة الانجليزية . ان بعضها مثل (Law, order, state, colony, responsibility, person) من الواضح أنها استمدت من اللاتينية وأخرى مثل (dogma, atom, history, biology, logic) من الاغريقية وغيرهما مثل : (friend, body, king, God) تنم عن أسلاف لهن اسكندناوي أو ألماني .

ولقد تحورت أشكال هذه الكلمات في أثناء ورودها فان لفظ (lex) أصبح (law) ولفظ (atomon) أصبح (atom) .

وفي بعض الحالات نجد التغير أكثر أن يكون أساسيا ويتطلب الأمر شيئا من المراس ليستبين المرء اللفظ اللاتيني (metipsimum) من اللفظ الفرنسي الحديث المشتق منه (même) .

وما يصدق على الصيغ اللفظية يصدق أيضا على معانيها • وتبين أمثلتنا كيف أن الالفاظ التى تدل على أفكار قانونية أو سياسية كان توارثها فى الغالب عن الرومان الذين كانوا أساتذة العالم فى هذين المجالين بينما تميل المصطلحات العلمية الى الاحتفاظ بلغة المبتكرين للعلم ، اليونانيين القدماء • ومع هذا فانه على الرغم من هذا التسلسل الذى لا تشوبه شائبة فإن ألفاظا مثل (law - responsibility) تحمل لنا فى مضمونها معنى مستمدا ليس فقط أو أصلا من تجارب شارعى الرومان ولكن من تجارب الأجيال التى ورثت تراثهم وزادته غنى خلال الفين من السنين •

ان المؤرخ وعالم الطبيعة فى القرن العشرين يختلفان اختلافا عظيما عن هيروdot (Herodotus) ودموقريطس (Democritus) فى تصور لفظى (history, atom)

وما قلناه عن اللغة ينطبق على كل مظهر من مظاهر المدنية والماضى فى تحوله الى الحاضر يغير صفته كماض ويموت ، كما تموت العنقاء ^(١) ليعود مولده فى شكل جديد •

٩ - وهذه العملية من التواصل بين تغير لا ينقطع من العسير كشف القناع عنها • ويمكن معالجة الأمر بوسيلتين مختلفتين ، يمكننا أن نعتبر مدينة اليوم نقطة بداية ، ونفقل راجعين الى الوراء خطوة خطوة ، الى مصادرها فى الماضى • أو يمكننا أن نبدأ من البداية بسلالات العالم القديم ونقتفى المؤثرات على الأجيال اللاحقة الى أن نصل الى أكناف التاريخ الحديث • والمنهج الأخير هو الذى ننوى تتبعه ، ومعالجته مع هذا ستكون خاضعة الى شرطين • ففى المكان الأول ، يجب أن نختار من المواد الموجودة بوفرة تلك المظاهر فى حياة العبريين والاعريق والرومان التى أثرت على الحقب التالية أعظم تأثير • ويوجد دائما الخطر فى أن نحسب الجزء كلا ونخال أن الأشجار هى الغابة •

وعلى هذا فسنركز الانتباه على ديانة العبريين وعلى علم الاعريق وفلسفتهم وعلى رسالة روما التى كانت الوسيط فى مرحلة الانتقال من المدنية القديمة الى مدنية القرون الوسطى ، بعد أن نلمس لمسا خفيفا مظاهر تاريخهم الأخرى مهما بلغ من عظم أهميتها الجوهرية • والشرط الثانى يشير الى السلالات الأخرى التى عمزت العالم القديم • يمكننا أن نضع فارقا بينها من ثلاث شعاب ، فتوجد :

١ - سلالات كالسكان البدائيين فى جزء عظيم من أفريقيا الذين لم ينجحوا أبدا فى الخروج من حالة الهمجية • وهى موضع اهتمام بالغ عند عالم الانثروبولوجيا (علم الانسان) والباحث فى العادات الاجتماعية والدينية

(١) عنقاء مغرب أو فينقس • (Phoenix) (المترجم)

البديئيتين ، ولم تترك أية علامات مميزة في مدنية الأزمنة القديمة العليا ، وعلى هذا فلا تدعو الحال الى التنويه عنها في هذا الكتاب . ويصدق هذا على :

٢ - الشعوب المتمدنية في الشرق الأقصى ، وفي الهند والصين واليابان ولقد نحتنا الحواجز الجغرافية تنحية تكاد تكون تامة ، عن الاتصال الفعلي بثقافة منطقة البحر المتوسط ^(١) والآن عندما توطد الاتصال بفتح طرق المحيطات العامة ويسرته الطائرة واللاسلكي ، فان فن الصين واليابان والفكر الديني لدى الشعوب الهندية ، العليا ، يثيران اهتماما متزايدا بين الأوروبيين وقد يكون لدى المؤرخ ، بعد خمسة قرون من الآن الكثير مما يقوله عن نتائج هذا الاتصال في الشرق والغرب جميعا ولكنها الى الآن لاتزال محجوبة عن أعيننا . ان منح الحكم الذاتي ، مع نمو التجارة والتصنيع سيكون مآلهما ان يصبحا مؤثرات انفصال ، في النظرة التقليدية للحياة بين شعوب الهند ، وهذا ليس في مجال الاقتصاديات والسياسة وحسب ، وما اذا كان تعرف ارثهم الديني والمتافيزيقي عن قرب سيكون ذا أثر على مدنيتهما الغربية الى مدى مماثل فان هذا الأمر متنازع فيه كثيرا . ان الانقسام بين عقل الغرب وعقل الشرق بعيد الغور جدا . ان الغرب يسلم بالكثير مما يكون غريبا او حتى قد يكون معاديا للفكر الهندي الذي يجد نفسه وقد جابهته عوائق لا يكاد يمكن اجتيازها ، أمام تفاهم متبادل .

وأحد الأسباب هو أن مفكرى الهند لم يهتموا اهتماما جديا بالزمن والعملية الزمنية التي تكون مادة التاريخ ظهرت لهم أنها أكثر قليلا من خدعة مايا (Maya) تحجب حقيقة المطلق التي لا تتغير . وهذا هو السبب في أن الهند التي انجبت عظماء الفلاسفة والمتألهين الدينيين لم تخرج أى مؤرخ ^(٢)

(١) والاستثناء الظاهر لهذه العبارة العامة جدا هو غزو الاسكندر الأكبر للبنجاب ، ولهذا فان ما توطد من اتصال بين الغرب والهند ، كان قصير الأمد وذكره باقية للتأثير الاغريقي على الهند أكثر منه لتأثير الهند على الاغريق . ولقد استمرت التجارة على طرق القوافل البرية من الشرق الأقصى طوال الأزمنة القديمة ولكن آثارها على المدنية الغربية كانت ثانوية وغير مباشرة . كذلك لم ينجم عن غزوات التتار للغرب في الأزمنة التي وقعت بعد قيام المسيحية ومن الهون في القرن الخامس وما بعده أى شيء ايجابي للثقافة الغربية .

(٢) في أيامنا أخرجت الهند رامانوجان (Ramanujan) عالم الرياضيات العبقري ، ولكن الرياضيات كعلم ما وراء الطبيعة (المتافيزيقيا) لا شأن لها بسير الحوادث الزمنية . حتى مؤرخو العصر الحديث للفلسفة الهندية مثل (رادهاكرشنان Radhakrishnan) وداسجوبتا (Dasgupta) بينا واتاهم النجاح في عرض المذاهب العديدة فانهم يعجزون عن استعراض تتابعها التاريخي في نشأة الواحد عن الآخر في ترتيب النمو الطبيعي .

وكذلك يظهر أن القادة السياسيين الهنود يجدون صعوبة في إدراك ما يكون لدى العقل الغربي شيء عادي ، وهو أن الحكومة الذاتية يكون لها نفع دائم إذا وصل إلى تحقيقها كثرة عملية نسقية تدرجية للتعليم السياسي وإذا ، كما تعترف جميع الجهات ، كانت صالحة ، وعلى هذا مرغوبا فيها ، فما السبب في تأجيل إقامتها ؟ لماذا لا ننجز العمل الصالح على التو بجرة قلم ؟

وعقل الغرب على التقيض ، بكل إيضانه بحقيقة خالدة لعالم أفضل - لم ينكر الا فيما ندر - وجود قدر من الواقعية الصادقة للعملية النسقية الزمنية (١) . وبوجود انقسام آخر يدعو للانتباه . ان عقيدة بقدر الشخصية الانسانية ، الذي لا يمحي متصلة الجذور تأصلا عميقا في العقل الغربي الذي يكاد لم تمسه الرغبة للاستغراق في المطلق تلك الرغبة التي استولت على قلوب الحكماء الهنود .

هنا يوجد الاختلاف الاصيل بين التاله المسيحي والتاله الهندوسي (٢) وهذه التاملات تؤدي الى الرأي أنه اذا كان قدر للحواجز الروحية التي تفصل الثقافتين الغربية والهندية أن تحطم فانما يكون ذلك بذويع الدراسات التاريخية والمسيحية في الهند . ومهما يكن من امر هذا ، فان مستقبل الشعب الهندي كمستقبل الشعوب الشرقية الأخرى يقع خارج نطاق هذا السفر . والحال غير ذلك بفريق ثالث هو المدينيات التي قامت في الأزمنة القديمة جدا على شواطئ نهرين عظيمين النيل والفرات وفي جزيرة كريت وهي تسترعى انتباهنا ليس فقط لقيمة ثقافتها الجوهرية ولكن لأنها قدمت السوابق التاريخية لقصة العبريين والاغريق وروما .

انها جزء من حياة عالم البحر المتوسط . وهذا جلي في حالة كريت . ولكن مدينة مصر انتقلت بفعل ثقلها صوب الشمال الى شواطئ الدلتا . بينما كانت ممتدة مدينة سهل بابل أبدا صوب الغرب الى بحر ايجيه والمشرق .

(١) فمثلا اسبينوزا (Spinoza) الذي كان يذهب الى أن الزمن هو نتاج تفكير من درجة دنيا (Auxilium Imaginationis) لم يناقش أبدا واقعية الحوادث الزمنية . لقد أنكر ببساطة انها ، كزمنية ، كانت حقيقية على الوجه الاتم . لقد علق الفكر المسيحي دائما أهمية عظيمة على العالم الزمني المكاني (Spatis temporal) كمشهد لفترة اختبار الانسان ، ووظيفته هي أن يجوس خلال الأشياء الزمنية بحيث لا يخسر نهائيا الأشياء الأزلية . وهذا يحمل في معناه أن الأشياء الزمنية ليست الا خدعة .

(٢) يطمح المتألهون المسيحيون الى الاتصال الروحي المباشر وليس بامتزاج الذات مع الله .

انه حق أن تأثيرها على العصور التالية كان تأثيرا غير مباشر وكانت
الواسطة فيه ثلاثة شعوب هي التي تكون الموضوع الرئيسي لهذه الدراسة •
ولكنها تركت طابعها على العمل الذي استغرق حياة العبريين والاغريق
وروما ، وكانت المجال التاريخي الذي قامت فيه هذه الأمم ، وأدت دورها •
وعلى هذا فاننا سنحاول القاء نظرة موجزة على هذه المدينيات الاولى في الفصل
التالى • وسيعيننا هذا على ادراك التلاحم الجوهرى فى العالم القديم وعلى أن
نعتبر شعوبه العديدة ، ليس كذرات منفصلة يمكن أن يعكف على دراستها
مقسطة الى أجزاء • ولكن كأعضاء مجتمع من الأمم لها علاقات متبادلة من
العداء أو التعاون كيفت ما اختصت بتقديمه لسير تاريخ البشر •

الفصل الثاني

أقدم مدنيات الشرق

١ - مقدمة

١ - ان أقدم المدنيات التي تسترعى انتباهنا ، كتمهيد لدراسة العبريين واليونان وروما هي : (١) مدينة مصر (٢) مدينة الأمم التي سيطرت ، على الولاء ، على وادى دجلة والفرات - البابليين والآشوريين (٣) مدينة الشعوب التي قطنت بالأراضي الواقعة بين هذه الأصقاع ، ورقة البحر المتوسط الساحلية ، سوريا وكنعان ، وآسيا الصغرى الشرقية (٤) ومدينة كريت التي تغلغت في بحر ايجا ، وشطر عظيم من منطقة البحر المتوسط . وسنسير قدما بنظرتنا الموجزة على هذه المدنيات الى الزمن الذي كانت فيه ، في جل أمرها مستغرقة في امبراطورية فارس العالمية ، العظيمة (القرن السادس ق م) . وأخيرا (٥) سنلمح الى طبيعة الامبراطورية الفارسية ومدنيتها حتى الغزو اليوناني المقدوني ، الذي قام به الاسكندر الأكبر (٣٣٤ - ٣٢٣) . وأما التاريخ اللاحق لمصر والشرق الأوسط تحت السيادة اليونانية - المقدونية ، والسيادة الرومانية فإنه يتعلق بطبيعة الحال بالفصول الأخيرة التي تعالج اليونان وروما .

٢ - مصر (١)

٢ - كتب هيرودوت المؤرخ اليوناني الذي زار البلاد في القرن الخامس قبل الميلاد « ان مصر هبة النيل » (٢) والتربة والحاصلات والنبات والحيوان

(١) في موضوع التاريخ المصري المبكر ، كما في كثير غيره في هذا الفصل اقتفيت ما استخلصه برستد من نتائج كما وردت في تاريخ مصر الذي وضعه (الطبعة الثانية سنة ١٩١٩) ، وبينما الغالبية من علماء الآثار يتفقون في الجوهر على تاريخ برستد للأسرات الأولى إلا أنه يجب ألا يغرب عن البال أن التواريخ لاتزال موضوع مساجلة قبل الأسرة الثامنة عشرة (١٥٨٠ ق م) وعلى القارئ أن يرجع الى جداول الأزمدة المتعادلة في الأسفار الأولى من تاريخ كامبردج القديم في جميع مسائل التاريخ التي تعرض له ، فيما يتصل بهذا الفصل .

(٢) هيرودوت ٢ ، ٥

والحياة الانسانية كلها على السواء ، يقرر أمرها النهر العظيم وهو الذى ، قبل مجيء الانسان بزمان مديد ، عمل على توسيع كسر فى الحجر الجيرى ، الى فجوة وملاء الفجوة بركام من المرتفعات الجنوبية وبطغيانه على البحر المتوسط كون الدلتا . والقطر واحة طويلة ضيقة تمتد سبعمائة وخمسين ميلا من الشلال الاول ، الحد الجنوبى القديم ، الى الدلتا . والوادي ، ويتراوح اتساعه من عشرة الى ثلاثين ميلا ، تحصره حواجز صحراوية فى الشرق والغرب . ويعتمد رخاؤه ، الآن ، كما كان يعتمد منذ سبعين قرنا غبرت ، على ظاهرة طبيعية عظيمة واحدة ، فيضان النيل السنوى ، الذى تسببه أمطار الربيع وذوبان الثلوج فى مرتفعات الجنوب القاصية . وانتظام هذه الأحوال الطبيعية البسيطة يعادله انتظام مماثل فى حياة وعادات الشعب . ولقد عكف الفلاحون تحت حكم محمد على فى القرن التاسع عشر الميلادى على المهام الراتبة عينها من فلاحه التربة وأعمال السخرة كعبيد لأرض أولئك الذين لا نعرف لهم اسما ، الذين بنوا الأهرام فى الألف سنة الثالثة قبل الميلاد . ان ثروة مصر الاقتصادية كانت دائما زراعية وقد أطلق المصريون على بلادهم اسم الأرض السوداء فى التفرقة بين الصحراء « الحمراء » على الجانبين والتربة الفيضية السوداء فى وادي النيل التى قام الدليل على أنها ، تحت نظام للرى محكم ، ذات خصب يفوق المعتاد .

والنهر كان الطريق العام الذى تمر عليه تجارة الحنطة الى مرفأى الدلتا وحلقة الاتصال بين مصر والعالم الخارجى . ومن عهد سحيق حفز عدم انتظام فيضان النيل جهد الانسان الى صد غائلة المجاعة التى تحل من حين الى آخر . ولا يوجد مكان آخر صاول فيه مكر الانسان الطبيعة فى دؤوب على مثال ما صاول هنا . كانت البلاد تشيع فيها القنوات والسدود والخزانات ، وأظهر المهندسون فى مصر القديمة فى انشائها تمكنا من الفن الآلى . وخزان بحيرة مورييس الفسيح ، وهو من عمل فراعنة طيبة فى الأسرة الثانية عشرة لا فى أوائل الألف سنة الثانية) ينهض دليلا على نفس الهمة لبلوغ القصد كخزان أسوان ، الذى أتمه المهندسون البريطانيون تحت إرشاد اللورد كرومر (١) .

٣ - ولقد كان منشأ علمنا ببواكير تاريخ مصر القديم أثناء غزو نابليون (سنة ١٧٩٨) . وفى سنة ١٧٩٩ كشف ضابط فرنسى بالقرب من رشيد

(١) نحن لا نقر المؤلف الى ما ذهب اليه من نسبة مشروع خزان أسوان تنفيذا ورأيا الى البريطانيين فان تعاون هؤلاء المهندسين البريطانيين مع زملائهم المهندسين المصريين الذين حملوا العبء الأكبر فى المشروع كان يحكم وظائفهم فى الحكومة المصرية ولا شأن للورد كرومر به اذ قامت بتنفيذه نظارة الأشغال المصرية فى ذلك الحين .

(المترجم)

عن حجر ، موجود الآن فى المتحف البريطانى ، يحمل كتابة بسلامة أنواع من الخطوط ، الهيروغليفى ، والديموطيقي أو الشعبي ، والاغريقى . وأسماء الأعلام التى كانت هى بذاتها فى الاغريقية كما فى الهيروغليفى ، هى التى أرشدت ، بعد دراسة مستطيلة ، عن الدليل الى تعرف الكتابة الهيروغلويفية على الآثار المصرية ، ولقد رأى القرن الماضى كشف الغطاء الذى يخفى الماضى البعيد ، بالتدرج . ان الخيال يبهز عندما جلى العلماء حقبة بعد حقبة من التاريخ الماضى ، الذى يمتد الى الوراء ، على الأقل ، الى الألف الرابعة قبل الميلاد . وهو ليس مجرد تاريخ حروب وغزوات ملوك ، ولكن تاريخ عمائد وعادات وفن وثقافة يشمل سلسلة من المدينيات الزاخرة لم تكن تدور فى خلد الناس الى ذلك الحين .

٤ - وتقدم قصة مصر من أول توحيد لها تحت حكومة واحدة فى الألف سنة الرابعة حتى الغزو الفارسى فى سنة ٥٢٥ ق.م سلسلة من حقب المدنية ، كل حقبة بعهدوها من الصعود والهبوط ، وتفصل الواحدة عن الأخرى فترات من الركود والانحطاط . وقد رجعت أبحاث علم الآثار الحديثة بالسجل الى الخلف ، الى زمن أبعد عندما كانت قبائل من أصل افريقى ، ولكن أنت عليها الهجرات السامية بالتحوير ، تقطن بمراكز محلية يحكمها رؤساء منعزلون . وكان هؤلاء المصريون الذين يرجعون الى ما قبل الأسرات قد حدقوا فنون صناعة الصلصال والحجر ووضعوا السنة التقويمية التى تبلغ ٣٦٥ يوما والتى اتخذها بعد ذلك بأكثر من ٣٠٠٠ سنة ، يوليوس قيصر ولا يزال العمل يجرى بها حتى يومنا الحاضر (١) .

وفى بواكير الألف سنة الرابعة، نجد مملكتين واحدة فى الدلتا والأخرى فى مصر العليا أدمجهما مينا ، أول ملك فى الأسرة الأولى (حوالى ٣٤٠٠) فى حكومة واحدة . ومن هذه المرحلة فصاعدا يمكن جمع التاريخ المصرى

(١) أدخل التقويم سنة ٤٢٤١ ق.م وكان أول تاريخ ثابت فى التاريخ . وقد أقام برستد (Ancient records, Egypt) (١ ، ٢٥ وما بعدها) الحجة على أن التقويم استهل فى بداية فيضان النيل ، الذى كان من زمن الى آخر يجيء على التقريب آوان عيد طلوع الشعرى اليمانية (Sirius) فى مشرق الشمس فى الأفق الشرقى فى ١٩ يولية . ولكن سنة الشعرى اليمانية (الفترة الواقعة بين مطلعى الشعرى اليمانية المتعاقبين) كانت أطول من السنة التقويمية التى تبلغ مدتها ٣٦٥ يوما ، برقع يوم . ولقد بدأت سنة الشعرى اليمانية والسنة التقويمية فى نفس اليوم ، فى السنوات ٤٢٤١ ، ٢٧٨٠ ، ١٣٢٠ ق.م ، ١٤٠ - ٤١ الى ١٤٣ - ٤٤ . ومع هذا فقد حاسم الشك حول مشاهدة دورة مبكرة ترجع الى سنة ٤٢٤١ وأكثر ترجيحاً انه وجد حساب لاحق يرجع الى الوراء .

حول قيام وسقوط ثلاث حقبة عظيمة من التطور : الدولة القديمة ، والدولة الوسطى ، والامبراطورية الحديثة (١) .

(١) الدولة القديمة (الأسرات من الأولى الى السادسة) (٢) - وصل هذا العهد الذى دام ألف سنة الى ذروته إبان حكم ملوك الأسرة الرابعة فى ممفيس (من ٢٩٠٠ ق.م) وهم الذين مدوا سيادتهم صوب الغرب على ليبيا وصوب الجنوب على النوبة ، واستغلوا مناجم سيناء ، ونهضوا بالتجارة بأساطيلهم فى البحر الأحمر والمشرق .

ولقد كانوا إداريين عظاما وبنائين عظاما ، ووضعوا نظاما ماليا محكما وحكموا مصر بجيش من الموظفين ، وأوصلوا رى البلاد الى درجة عالية من الكمال ، وشيدوا أهرام الجيزة العظيمة لتكون قبورا لهم . ويمكن أن نتعرف مهارتهم فى استخدام الوسائل الآلية والموارد العظيمة للعمل الذى تستلزمه هذه الأبنية ، من الحقيقة الواقعة وهى أن هرم خوفو بنى بأكثر من مليوني قطعة من الحجر يبلغ متوسط وزن الوحدة منها ٢ ١/٢ طنا . وفن هذا العهد ، عينه ، وخاصة نحت الصور والنقش البارز فى المقابر والمعابد كان على جمال لا يضارع فى أى عهد لاحق للثقافة المصرية .

(٢) الدولة الوسطى (الأسرتان ١١ - ١٢) سقطت الدولة القديمة فى أواسط الألف سنة الثالثة على أيدي الأشراف أصحاب الأراضي ، الذين كانت قد أوجدتهم لما كان فيه خطر عليها . ثم ترادف نحو من ثلاثة قرون من الانقسام ، وقد عقد السلطان ، كما كان فى عصر ما قبل التاريخ للرؤساء المحليين الى أن قامت ملكية ثانية مركزة ، تعرف بالدولة الوسطى فى طبقة فى مصر العليا تحت حكم الفراعنة أولى الصولة (٣) من الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة (٢١٥٠ - ١٧٨٠) وقد أعيدت التجارة على مجال واسع مع بنط (الصومال) فى الجنوب بجوار البحر الأحمر ومع الساميين فى سوريا وكنعان ، والشعوب البحرية فى شرق البحر المتوسط . ولقد وجدت فى مصر مصنوعات من الخزف منوي (Minoan) ترجع الى هذا العصر ويظهر على الفن المنوي أثر الفن المصرى (٤) . وتحت حكم الدولة الوسطى ،

(١) لم تعرف مصر أبدا أى شكل للحكومة الا الاستبدادى، وأسس الحرية السياسية توضع لأول مرة فى زمننا الحاضر .
 (٢) جمع مانيتون وهو كاهن مصرى عاش فى عهد البطالمة الأوائل (القرن الثالث ق.م) ملوك مصر فى واحد وثلاثين أسرة . ويغلب أن يكون جمعه غير دقيق ، ولكنه لا يزال يستخدم ، بوجه عام ، كمرجع تاريخي .
 (٣) فرعون (بر - عا) يعنى حرفيا البيت العظيم ، كان لقباً أطلق فى الأصل على مقر الحكومة وبعد ذلك على شخص فرعون .
 (٤) انظر بعده فقرة ١٦ .

وصلت الفنون الصناعية أعظم ذروة لها من التقدم ، وازدهر الأدب ، وإذا كانت فنون النحت يغلب أن تكون تقليدية ، فانها تنافس نظيراتها في الأسرتين الرابعة والخامسة .

(٣) الامبراطورية الحديثة (الأسرتان الثامنة عشرة والتاسعة عشرة)
 أعقب ختام الأسرة الثانية عشرة فترة غامضة كانت فيها مصر المنقسمة ، تحت رحمة الغزاة الأجانب وحكم البلاد بدو ساميون (الهكسوس أو ما يطلق عليهم الملوك الرعاة) يضمون في الراجح سبطا عبريا ^(١) وقد أعاد أمراء طيبة الوحدة ، وبدأ أعظم العهود روعة ، اذا لم يكن في النافذة المصرية ، فعلى الأقل في السلطة السياسية ، بقيام الأسرة الثامنة عشرة (سنة ١٥٨٠ ق م) . كان المصريون بطبيعتهم شعبا لا ينزع للحرب ولكن الفوضى الداخلية كانت قد أدت الى تكوين جيش مهني منظم وغدا فراغة الامبراطورية الحديثة الحكام العسكريين لدولة عسكرية . وقد غزوا سورية وفينيقية ، وحاربوا الميتاني (قبيلة يتولى أمرها رؤساء آريون) والحيشيين على الفرات الأعلى ودانت لهم السيادة من ذلك النهر حتى الصحراء الليبية ، وأكناف الحبشة . وقد وصلت اليهم الجزية مما يوالى البحر المتوسط ، فكانت مصر مفتوحة لتجار بحر ايجيه الكفتير (Keftiu) وكانت منتجاتها تستخدم في كنوسوس (Cnossus) وأثر فيها الزخرفى الخاص على مهرة الصناع الميسنيين (Mycenaen) ^(٢) ، وقام على تدبير أمور الامبراطورية ليف عظيم من موظفى الدولة ، وعلى دين الدولة طبقة من الكهنة ، منظمة . وكان هذا أعظم عصور الفن المعمارى المصرى . وكان معبد الاله آمون فى الكرنك واحدا من أعظم الآثار الدينية روعة فى الأزمنة القديمة . وتقوم اليوم على رصيف نهر التيمس مسلة تذكارية أقامها ألمع غزاة الأسرة الثامنة عشرة تحوتى مس سو (تحوتمس) الثالث . وبعد انقضاء قرن من العظمة الامبراطورية بدأت بوادر الانحلال الذى لا معدى عنه ، فى الظهور . ولقد أثار الجهد الغربى الذى بذله المصلح الدينى اخ ن اتن (اخناتون) (امنحتب الرابع ١٣٧٥ - ١٣٥٨) لاقامة عبادة اله واحد روحية ، شعور الشعب والكهنة ^(٣) . وأخفقت،

(١) تجعل جعلان ملك فى هذه الفترة اسم يعقوب - هر ، أو يعقوب آت (برستند صفحة ٢٢٠) .

(٢) عن الحبشة انظر ما سيجىء بعد ، فقرة ١٢ ، وعن كنوسوس وميسينيا الفقرات ١٥ - ١٦ .

(٣) تلقى خطابات تل المعمارنه ، وهى سجلات رسائل اخناتن الأجنبية التى كشف عنها فى سنة ١٨٨٥ ، الكثير من الضوء على سياسة الامبراطورية الجديدة . ان تل المعمارنه هو موقع العاصمة اخناتن التى أسسها اخناتن كمقر لعبادة الاله الواحد (اتن) وعن دين التوحيد هذا انظر ترجمة اخناتن لاتن التى ترجمت فى كتاب برستند الصفحة ٣٧١ وما يتلوها .
 تراث العالم القديم

الأسرة التاسعة عشرة فى المحافظة على هيبة مصر فى الخارج ، وقبل ختام السنوات الألف الثانية (ق ٠م) بزمن مديد ، كانت سوريا وكنعان قد أفلتتا من أيدي المصريين ، وكانت شعوب البحر فى ايجا تعمل فى الدلتا نهبا وتخريبا ، وحدث فى غضون هذه الفترة من بداية نشوء الانحطاط أن قطن العبرانيون ^(١) فى جاسان (Goshen) وكان الخروج الى صحراء سيناء ليس متأخرا عن عهد واحد من فراعنة الأسرة التاسعة عشرة (حوالى ١٣٢٠ - ١٢٠٠) .

وفى قرون الانقسام والتفكك الذى أعقب سقوط الامبراطورية الحديثة نجد الرؤساء المرتزقة ، الليبيين يحكمون فى الدلتا ، وأمراء اثيوبيين فى مصر العليا ^(٢) . وفى أواخر القرن السابع (٦٧٠) غزا الآشوريون الذين كانوا يهددون استقلال مصر ردحا من الزمن ، الدلتا تحت امرة أسر حدون .

وجعلوا من مصر ولاية تابعة ^(٣) وبدأ عهد الحكم الأجنبى . ولما وهنت قوة آشور أمام قوة بابل واثت فرصة أخرى للاستقلال وفى ولاية ملوك الأسرة السادسة والعشرين (فى سايس بالدلتا ٦٦٣ - ٥٢٥) نشهد احياء للثقافة قصر الامد ومصطنعا الى حد ما ، وإعادة توكيد عقيم للمطامح القيصريه . وقد تحالفت مصر مع ليديا والاغريق الآسيويين وجند المرتزقة الاغريق فى الخدمة الملكية . وخصص مقر للتجار الاغريق فى نقراش (نوكراتيس ومعناها القوة البحرية) فى الدلتا . وغزا نيخو (٦٠٩ - ٥٩٣) كنعان وحارب نبوخذ نصر ملك بابل على الفرات . وتقديمه العباءة التى كان يلبسها قربانا عندما أوقع الهزيمة ببوشيا فى مجدو ، لمعبد أبولو المليزى فى برانخيدا (Branchidae) مال ذو مغزى عن الاتصال

(١) يتوارى القفتو (المنيون) عن الآثار المصرية حوالى سنة ١٣٥٠ ويظهر بعد ذلك بقرن ونصف الاقيوشا (Akalusha) (الاخيون) - انظر ما يلى .
(٢) كان شيشنق الأول (شيشنق العهد القديم) واحدا من الأولين وكان حليف سليمان وأوى يربعام مؤسس المملكة الشمالية (الافرامية) وحارب رجبعا . الى المملكة الجنوبية (يهوذا) حوالى سنة ٩٢٦ (ملوك الأول ١٥ : ١٧ ، ١١ : ٤٠ ، ١٤ : ٢٥) .

(٣) كانت جيوش آشور قد وصلت الى تخوم مصر مرتين فى القرن الثامن وقد حدثت غزوة سنخارب العقيمة فى سنة ٧٠١ ، ولقد أدرك ضعف مصر فى جلاء أشعيا ، الذى استنكر سياسة التحالف بين يهوذا ومصر ضد آشور (اش : ٣٠ ، ١-٧ ، ٣١ ، ١-٣) .

التاريخي بين مصر ويهوذا وبابل واليونان ^(١) ولكن إعادة الاستقلال كان ذا أمد قصير ، ولما سقطت بابل أمام الفرس كان مصير مصر قد أصبح قاب قوسين . وفى سنة ٥٢٥ غزا قمبيز مصر وظلت البلاد خاضعة لامبراطورية فارس فيما عدا ثورات متقطعة خاطفة حتى مجيء اسکندر المقدوني (٣٣٢ - ٣٣٠) .

٥ - وبقي أن نسأل الى أى مدى اثرت مدينة مصر فى المدنية التى نهضت فى غضون السنوات الألف الأخيرة ق.م. فى عالم البحر المتوسط . وإذا القينا النظر (أ) الى الدين الذى كان فى مصر كما كان بين السلالات الأولى جميعها ، بؤرة الثقافة ، فاننا نجد طائفة عظيمة من المعتقدات والعبادات المحلية ، وقد وحدها فراعنة الأسرات الأولى فى دين دولة ، فيه ثم آلهة مركزيون صاغ الكتاب الكهنة من قصصهم وفرائضهم ، على سير الزمان ، شكلا ذا مذهب راهن وله طابع ثابت . وانها لتحوى اليسير من القيمة الفكرية أو القيمة الروحية ما خلا استثناء وحيدا هو محاولة اخناتن التى أشرنا إليها آنفا ، بأن يستبدل العبادات الدينية المقررة بعبادة توحيد لآتن اله الشمس . ويظهر أن الواعز لثورته كان مثالية فكرية صادقة ولكنها كانت عقيمة ولا تأثير لها حتى فى بلاده ذاتها . والكتابات الدينية ، مثل كتاب الموتى ، التى تتعلق بأقدار الروح فى حياة أخروية ، وهى مجموعة كان منشؤها فى الدولة الوسطى ، واتخذت شكلها النهائى فى زمن الأسرة الثامنة عشرة ، كان يسيطر عليها السحر ، وتكشف عن تصور مادي تماما للروح . والاعتقاد فى محاكمة خلقية بعد الموت ، وهو يرتبط بعقيدة أزوريس كان له ثمة قيمة من حيث الأخلاق . وفى نصوص الأهرام المبكرة ، يمكن أن نطالع كيف تصور المصريون القدماء نظاما خلقيا فى العالم مرده ما شاع بين الناس من أحكام على السلوك « وفقا للقواعد المرعية » فى الأسرة وفى القرية ، على أنه مع ما تقدم لا يوجد دليل على أن دين المصريين أثر «يرا خطيرا» فى العالم الخارجى ، وعبادة يهوه كان موطنها صحراء سيناء وليس فى مصر . وفى عصر لاحق ، عندما تقابل الشرق والغرب تحت حكم أمراء مقدونيين فى الاسكندرية ، ذاعت العبادات المصرية ، كعبادات ايزيس وسيرايس ، وكذلك الاعتقاد فى الخلود والشفاء بالايمان الذى يرتبط بتلك الآلهة وممارسة القصص الرمزية الخلقى الذى تميز به تعليم الكهنة المصريين

(١) هزم ينخو فى قرقميش سنة ٦٠٤ وحدث غزو بابل ليهوذا سريعا فى أعقاب هذا النصر ، أنظر الملوك الثانى ٢٣ : ٢٩ وهيرودوت ٢ : ١٥٩ ، وكانت «بعل» فى سهل يزريل أو اسدييلن مشهد المعركة التى وقعت بين العبرانيين و«ميسرا» (قضاة ٤ : ٥) والارمجدون (وفى النسخة المنقحة «رمجدون» - جيل ماجدو) الرؤيا ١٦ : ١٦ . «نص الفقرة الأخيرة هو على أية حال هو ضيق نفسك» .

وجد ذيوعا واسع النطاق في العالم الرومانى الاغريقى . ولكن قبل هذا التاريخ كانت ديانات العبريين واليونان وروما قد وصلت الى نضوجها .

(ب) ومرة أخرى كان ما يسمى « حكمة » المصريين أمرا ذا قيمة علمية يسيرة . لقد كانت موضوعات اهتمامهم العقلية نفعية ولم يظهروا الا ميلا ضئيلا للعلم الخالص أو الفلسفة . ولقد ابتكروا قواعد يتجلى فيها الحدق ، لقياس الحقول والأبنية ولكن كان يعينهم من الهندسة مساحة الأرضى ولاشئ أكثر . ولم يستتب منهم فى هذا أو فى علم النجوم الذى كان لديهم ادراك للمنهج العلمى . وعندما كانت تظهر بواق لا قبل لهم عليها فى تقديراتهم فانهم كانوا يهملون شأنها ببساطة . وقد كان افلاطون على حق تماما عندما انتقد الرياضيات المصرية بأنها قاصرة على أغراض عملية بحتة ^(١) . والطبيب أيضا كان خليطا من الوصفات الجاهزة والتعازيم السحرية . وتظهر الكتابات الطبية الأولى ملاحظة دقيقة ، لجسم الانسان وعلاج الاصابات بما يمليه الحس العام وآراء عن الوظائف الفسيولوجية التى ربما تكون قد وصلت الى الاغريق وكانت الحافز للأوائل من رجال العلم الهلينيين ، ولكنها ظلت ، الى أن أضاعها البحث عن الأسباب والمسببات ، لا أكثر من مجموعات من المعطيات ، السابقة ^(٢) للمنهج العلمى ^(٣) .

(١) القوانين ٧٤٧، أنظر وصف بردية رند (Rhind) فى فلسفة اليونان الأولى لبرنت (Burnet) الطبعة الثالثة الصفحات ١٨ وما بعدها ، وملاحظاته . النتائج العلمية المزعومة التى وصل اليها المصريون . وعن الطب المصرى بمقابلته بطب الاغريق ، أنظر برت (Brett) « تاريخ علم النفس » الصفحات ٢١٩ وما بعدها .

(٢) أنظر بردية ادون سمث الجراحية (Edwin Smith Surgical Papyrus) لبرستند . ان العلاج يوصف وفقا للقاعدة (عليك أن تقول الخ) ودراسة لهذه الوثيقة المشوقة تترك القارئ وقد دخل فى روعه أن الذى يمهّن الطب فى زمننا ، ولو أن دعامة عظمة النطاق من الحقائق تشد أزره ، فإنه يحتفظ بمقدار ليس باليسير من عقلية سالفية البدائيين .

(٣) نحن لا نقر الكاتب فيما ذهب اليه من انكار أهمية الطب المصرى القديم وأثره فى الطب اليونانى ، ذلك لأن الطب المصرى القديم جدير بأن يدرس فى اهتمام حتى يومنا . لقد وصل قدماء المصريين الى تقدم عظيم فى الطب والجراحة واقتبس الطب الاغريقى من الطب المصرى نصيبا عظيما حتى يمكن اعتباره امتدادا له . وليست أدراج البردى ، كاهون وادون سمث وايرز وهرست ولندن وكارلسبرج وبرلين ، الا مقتبسات من أسفار أصلية . وهى تذكر الأطباء والسحرة وأطباء الأسنان وأطباء العيون وغيرهم من الاختصاصيين بما فيهم الأطباء البيطريين ، وتضم عجالات طبية وتذكارات، وضعتها الأطباء القدامى تصف ما يجب القيام به فى حالات خاصة : الطب العام وأمراض النساء وجراحة العظام وأمراض العيون . وقد عرفوا القلب =

وعندما زار الاغريق البلاد فى عهد الاسرة السادسة والعشرين تأثر خيالهم بطبيعة الحال بقدمها : « أنتم معشر الاغريق أطفال على الدوام اذ لا يوجد رجل هرم بينكم » هذا ما قيل ان الكاهن المصرى أنبا به صولون . والاحترام للآثار التى طالت عليها الحقب يقويه تحفظ المترجمين الكهنة وما يتسم به من وقار ، جعل المسافرين الشماليين يتصورون المثل العليا ، فى حدود ما وصلوا اليه من أعمال عقلية جليلة ، لعلم شعب له مثل ذلك الماضى البعيد (١) ومن الجهة الاخرى كان تأثير مصر ، فى الفنون الالية ، عظيما فى العصور التالية (٢) .

(ج) كانت الثقافة المصرية ثقافة فن لا ثقافة أدب ، ولو أن القصص الشعبية والفاجعة (الدراما) الدينية نشأتا فى الدولة الوسطى واتاح البردى وهو هبة مستنقعات النيل ، للرسائل والسجلات المكتوبة أن تكون قابلة للحمل وسهلة . ولكن كان فن مصر هو الذى فرض طابع نفوذه على العالم الخارجى ، كما يتضح من العلامات التى يمكن تمييزها فى مصنوعات الحرف والنقوش البارزة فى الصناعة المنوية والميسنية وكان هذا قبل أن يبرز فجر

== و « الاوعية التى تذهب الى كل عضو » ، والعلل التى تصاب بها أجهزة التنفس كالنزلة الشعبية والتهاب الحنجرة . وتعوزنا القدرة على ترجمة كل الالفاظ التى تصف الامراض والالفاظ الدالة على كثير من مواد العقاقير ، لكننا نعلم أنهم استخدموا غسل النحل والقشدة واللبن ، وضادات الأعشاب والتخميلة والحقنة وزيت الخروع . وتشير النصوص الى علاج الاسنان وعلمنا من فحص الموميات أنهم كانوا يعرفون كيف « تحشى » الاسنان بنوع من الاسمنت المعدنى وأنهم استخدموا الذهب لربطها . ولقد عنوا بعلاج العيون وجاءنا عدد من الوصفات التى قصد بها علاج الزمد الحبيبي والكتركتا والعشى الذى استخدموا له مزيجا من كبدة الحيوان ولا تزال تستخدم اليوم خلاصة الكبد فى علاج هذه العلة .

وقد تحقق أن الكثير من مشاهداتهم للعوارض كانت دقيقة والادوية التى استخدموها ناجعة المفعول . أما جراحة العظام ، كما جاءت فى بردية ادون سميث ، فانها تكاد تكون علمية .

وكان للطب المصرى القديم ذبوع فى الشرق الأدنى ، ولم ينكر بقراط وجالان أن بعض ما حصلوا عليه من علم بالطب جاء من المصنفات المصرية التى كانا قد درساهما فى معبد امحوتب فى ممفيس .

ويمكن لمن يريد الاستزادة أن يرجع الى ما صنفه بعض أسلام الطب من أمثال الديكائرة : حسن كمال ، ومحمد كامل حسين ، وغليونجى ، والبطراوى ، ونجيب رباح .

(المترجم)

(١) أفلاطون تيمايوس ٢٢ .

(٢) كان فى قدرتهم تحريك الاشياء الثقيلة وتكوينها ولكن لا أكثر من ذلك ، وكونهم لم يحاولوا أبدا إيجاد قناطر للنيل يبين القدر المحدود الذى كانت عليه دربتهم كمهندسين .

الثقافة الهلينية ، وعندما أهل ذلك اليوم كان الفن المصرى قد تدهور مع استثناء واحد هو الفن المعماري . لقد شيد المصريون معابد عظيمة وقبورا واستخدموا الأساطين وطرق العمد للسماح للضوء بالانسياب الى الأجزاء الداخلية بينما اقتصروا على أبسط الأبنية واعتمدوا فى الزخرفة على النقش البارز الوطىء وعلى اللون . ولقد كان لفنهم المتأخر فى الحفر أثر على فن الاغريق فى مراحلهم الأولى ولكن سرعان ما تجاوزوا تقاليده الصارمة ، ولقد أعاد حكام مصر المقدونيون احياء الفن القومي ولكن ما استنسخه الاغريق كان يجافى الذوق والدقة . واليوم بفضل علماء الآثار فان الحال غير تلك الحال . ان أعمال النحاتين العظيمة فى الأسرات الأولى قد تكشف فى جمالها لتكون مصدرا جديدا للوحى ، لفنانى العالم الحديث .

٣ - بابل وأشور (١)

٦ - والمدنية الفيضية الثانية العظيمة فى الأزمنة القديمة ، كانت مدينة بابل . ان سهل كلدنيا الفيضى بين مجرى الفرات ودجلة السفليين كان على غرار مصر تحت نظام للرى ملائم قمينا بخصب وافر . ولقد قام فى العصور القديمة بأود جم غفير من القاطنين . واليوم بعد أن دمرت قرون من سوء الحكم رخاءه ، يتطلب الأمر كد الخيال ليدرك أن بابل كانت حينها من الدهر ، شبيهة بمصر ، أحد مخازن غلال العالم الرئيسية حيث كانت المحاصيل تؤتى ثمارا مائتين أو ثلاثمائة ضعفا . وكانت الأرض حتى بعد الحصاد الثانى تهيىء الكثير من المراعى (٢) .

وحاضرة الملك التى قامت على شواطئ الفرات وأصبحت من فجر الألف سنة الثانية مقرا عظيما للامبراطورية كانت لحجمها الشارع ، أعجوبة الأزمن القديمة . وكان محيط دائرة السور الداخلى زهاء أربعين ميلا . يقول أرسطو:

(١) وهنا أيضا لم يجزم برأى فى التاريخ القديم . وعندما يوجد انقسام فى الرأى بين العلماء يكون التفضيل لأقرب التواريخ على أبدها . وعلى سبيل المثال تواريخ سرجون ملك أكاد والأسرة البابلية الأولى . أنظر الجداول التى جاءت فى تاريخ كمبردج القديم .

(٢) حطم المغول مدينة بلاد ما بين النهرين وعجز الأتراك عن إعادة سيرتها الأولى . وقد أورد ثيوفراسطس (Theophrastus) أبعد تلاميذ أرسطو صيتا فى كتابه (تاريخ النبات) : « فى بابل تحصد حقول القمح مرتين فى انتظام ثم يطعم بها الحيوان للتقليل من غزارة الأوراق وبغير ذلك لا تطلع السنابل للنبات . وعندما ينجز هذا ، فان محصول الأراضى التى تفلح فلاحه سيئة يكون خمسين ضعفا بينما يأتى محصول الأرض جيدة الفلاحة بمائة ضعف » . (اقتبسها روجرس (Rogers) : ١ ، ٤١٩) ، وازن ما جاء به هيرودوت من تقدير أكثر سخاء .

« ان بابل أمة أكثر منها مدينة » (١) . ولقد أضيف الى مواردها الزراعية الشراء المستمد من صناعات النسيج ومن تجارة رائجة (٢) ، ومنذ الألف سنة الثانية ، كانت بابل سوق النسج ومركزا عالميا ، اجذب الى أسواقه وأرصفتها محاصيل الهند وايران وكان ملتقى مرور التجارة عبر الطرق الصحراوية الى الفرات من أقطار البحر المتوسط الى الغرب . والطريق الطبيعي لتوسع بابل ، كان مجاله أعلى النهر لأن سهل كالديا كانت تكتنعه من الجنوب ومن الغرب الصحراء ، ومن الشرق هضبة ايران . وفي الألف سنة الثالثة كان سرجون الأكادى مؤسس أول مملكة سامية قد اجتاح آشور وبلاد ما بين النهرين وتوغل حول شمال الصحراء حتى سوريا وكنعان (٣) وعلى هذا ، فمنذ زمن مبكر تجاوز البابليون حدود مدينة سهل فيضى لتكون إحدى مدنيات البحر المتوسط . ولو أنهم عندما بلغوا البحر ، لم يستخدموه الا قليلا . وخلال ألفى سنة كان حكام وادي دجلة والفرات يتطلعون صوب الغرب الى مياه البحر المتوسط كهدف مطمحهم .

٧ - كانت ثقافة بابل وأشور التاريخية سامية ولو أنه نبل مبعوط الساميين من بلاد العرب ، أنشأت القبائل الوطنية مدينة تعرف بالسومرية (سومر - كلديا الجنوبية) ووضعوا أسس الدين واللغة والقانون والرى والحياة المتحضرة التي ظلت أمدا طويلا بعد أن وطد الساميون سيادتهم . وقطع الجواهر هو فن مهره البابليون ، وكان قد بلغ في الأزمنة السومرية درجة عالية من الكمال . وكانت النقوش تحفر بالكتابة بالصور وبعد ذلك بالخط المسماري ، حروف (رؤوس سهام) وانا لنقرأ عن المشاهدات الفلكية ووضع كتب النحو والمعاجم وأنشاء مكتبة ملكية . وفي أواخر الألف سنة الثالثة أو في بكور الثانية نجد أسرة تعرف بالأسرة البابلية الأولى ، ومقرها بابل ومنذ ذلك الحين صارت عاصمة آسيا الغربية . والدين له كل الخطر في تاريخ بابل وكانت طائفة الكهنة تستحوذ على ثروة وسلطان عريضين ، وكان الملوك يعتمدون كثيرا على حظوتهم .

(١) ارسطو - « السياسة ٣ ، ٣ ، ١١٢٧٦ » ، يجب قراءة وصف هيرودوت (١ ، ١٧٨-٨٧) ولكن روجرس (١ ، ٤٣٨) وجه النقد الى تقديره لمحيط دائرة السور ، على ضوء الحفائر الحديثة .

(٢) وعلى هذا لم تكن الحال تستدعى وأد الأطفال لتحديد النسل ولكن مناخ سهل كالديا كانت تلازمه نسبة من الوثنيات عالية .

(٣) يعتبر روجرس تاريخ قيام سرجون حوالي ٣٠٠٠ ق.م ، ولكن الخطأ في هذا التاريخ أنه أبعد مما يجب . انظر الجداول في تاريخ كمبرج القديم ، ويمكن أن يلاحظ أن بابل كانت معرضة للغزو ، حتى من الجانب الجبلي ، أكثر من تعرض مصر له .

وحتى فى أيام سيطرة آشور لم يكن المغير يستطيع أن يستوثق من دولته فى بابل الا بتقديم فروض الاحترام لمردوك .

ولقد كان حمورابى ، أعظم ملك فى هذه الأسرة ، هو الذى ركز العبادات الدينية المحلية فى كلديا فى عبادة مردوك الاله - الراعى ، لبابل .

وقد نظم حمورابى المذهب الادارى للامبراطورية وأخضع عيلام الى الشرق وآشور الى الشمال وبسط سيادته حتى سواحل البحر المتوسط ^(١) وتقوم الأدلة على ثقافة عصره من الآثار الأدبية العظيمة التى تضم ألواح عقود ورسائل ملكية . ولكن أهم أثر تذكارى لحكمه هو مدونة القوانين التى كشف عنها فى السنوات الأولى من هذا القرن علماء الآثار الفرنسيون فى سوس ^(٢) .

وهذه المدونة - أحكام الاستقامة التى وضعها حمورابى ، الملك العظيم - نظمت فى دقة وأحكام القانون المدنى فى بابل ويشمل الملكية والعقود والزراعة والتجارة وأعمال المصارف والزواج والتبني والارث وكذلك سير المرافعات القضائية ، وتشهد على المكانة الهامة التى كانت بابل قد وصلت إليها فى تجارة الأمم . وهى تكون مذهباً محكماً لقانون الدولة ، ولو أن آثاراً منها ترجع الى ما جرت عليه العادات الأولى مثل قانون حكم الله والقصاص بالمثل (العين بالعين) ، وهى تمثل تقدماً عظيماً بالقياس الى قانون العادات فى المجتمعات الأولى . وقد حرم الانتقام بسفك الدم وقصر تطبيق شرعة المثل بالمثل (lex talionis) على اجراءات المحاكم المقررة ، والناس من كل الطبقات ، الغريب والمولود فى البلاد ، على السواء تنتظمهم حماية القانون . ومن الطرافة بمكان بالغ أن تقرأ كيف ان أمثال هذه المسائل الحديثة كالاعفاء من الخدمة العسكرية وثبات الملكية والتعويض عن التحسينات الزراعية ورقابة تجارة الخمر ، وودائع المصارف ، والمسئولية عن ديون الزوجة والحقوق الشرعية للنساء والأطفال نظمها هذا الحاكم البابلى فى ختام السنوات الألف

(١) حمورابى (حامورابى وحيمورابى) يمكن أن يكون امرافل (Amraphel) سفر التكوين ١٤ : ١ ويضع روجرس تاريخ الأسرة البابلية الأولى من ٢٢٣٢ الى ١٩٣٢ وحمورابى من ٢١٣٠ - ٢٠٨٧ .

(٢) وقد كشف أيضاً عن أجزاء منها فى مكتبة آشور - بنى - بال فى بينوى ، وقد ترجم المدونة القس س . هـ . و . جونز (Rev. C.H.W. Johns) « أقدم مدونة قوانين فى العالم » .

الثالثة ق.م. وبامتداد المدينة البابلية الى سوريا وفلسطين فان مدونة قوانين حمورابي والقانون الذى جاء بعد ذلك مستندا اليها وضعا طابعهما على تشريع الساميين الغربيين ^(١) وظلت المدونة نفسها نافذة المفعول زمنا مديدا فى العهد المسيحى وأثرت بعد ذلك على شرائع غزاة الشرق المسلمين ، وغدا يبرز البابليون كقوة تعمل على بسط المدنية فى آسيا الغربية ، وانتشرت فى كل ربوع الشرق لغتهم وعملتهم ومعايير أوزانهم ، وكانت نساؤهم يستمتعن بمركز قانونى توفرت فيه الكرامة لهن ، وكان فى قدرة الانسان أن يمتطى متن دابته فى أمان من الخليج الفارسى الى البحر المتوسط تحت حماية قوانين حمورابي .

٨ - وبتقدم أعوام السنوات الألف الثانية ، حل الوهن بمملكة بابل ونهضت فى الشمال سلالة جديدة تصعد نحو العظمة ، على شواطئ دجلة ، حول نينوى . وهذا الشعب ، أبناء آشور أو الآشوريون وهم مستعمرون ساميون من بلاد بابل ومن رعايا حكامها فى بادىء الأمر ، أصبحوا غزاتها حوالى سنة ١٣٠٠ ق.م.

وقد كان البابليون شعبا من الزراع والتجار . وكان الدين أجل قدرا فى أوضاعهم العامة من فن الحرب . أما الآشوريون فعلى النقيض كانوا منذ البداية الى النهاية سلالة حرب . وكان ملوكهم قيادة تحت امرتهم أشرف عسكريون . ولما كانوا أكثر شعوب الشرق الأخرى غلظة وقسوة فان تاريخهم هو سجل حروب وغزوات . وما اكتسبوه من ثقافة استعاروه من بابل . وكان التقدم الوحيد الذى حققوه هو البناء بالحجر كما كانوا يبنون بالآجر . وتسجل الثيران المجنحة الضخام والألواح المنقوشة فى المتحف البريطانى قصة متواصلة عن الحروب الوحشية .

وقد كتب أحد الأمراء الآشوريين القدامى عن أعدائه : « ملأت بجسومهم وديان الجبال وقللها ، بترت رؤوسهم وتوجت بها حيطان مدائنهم ، وجلبت العبيد والغنائم والكنوز ، أشياء لا تحصى » . وكان الآشوريين يخلصون ، فى تعصب ، لدينهم ، وكانت جميع انتصاراتهم باسم الههم آشور ولجده ، ولكن لم يكن للكهنة الا أثر قليل فى استشاراتهم . وكان أمراؤهم أول من استبدل الاقتراع السنوى بجيش دائم وكانت انتصاراتهم الحربية ترجع الى حد عظيم الى ادخال الفرسان لشدة أزر المركبات . ويشهد على قدرتهم على

(١) عن الموضوع الطريف عن العلاقة بين الشريعة الموسوية ومدونة القوانين البابلية ، انظر س. أ. كوك (S.A. Cook) « نواميس موسى ومدونة قوانين حمورابي » وأوجه التشابه ترجع بالحرى الى الأصل السامى المشترك لا التأثير المباشر وربما يرجع تاريخ تأثير بابل على شريعة العبريين الى السبى (القرن السادس ق.م) .

تنظيم الامبراطورية ، طبقات الموظفين المحكمة ، وفرض ضريبة سنوية ثابتة على الاقاليم ، وبلغت قوتهم أوجها في ثلاث حقب في تاريخهم ، في القرن الثاني عشر ، ومرة أخرى في غضون القرن التاسع ، ثم في أواخر القرن الثامن وأوائل القرن السابع ^(١) .

وكان في القرن التاسع أن نزل سوط الجيوش الاشورية على سوريا وكنعان وأطاح بمملكة اسرائيل ووصل الى شواطئ البحر المتوسط .

وسقطت السامرة مقر حكم المملكة الشمالية (الافرايمية) التي حاصرها شالمنسر الرابع ، أمام سرجون عام ٧٢١ . وقد رأينا كيف اجتاح متغارب ، بن سرجون ، بعد ذلك بعشرين عاما ، مملكة يهوذا وهدد مصر بالغزو وكيف أن الغزو نهض به بعد جيل من الزمان ، خليفته اسرحدون الذي امتدت امبراطوريته من هضبة ايران حتى صحراء ليبيا والشرق الأدنى وشملت أيضا مرتفعات ميديا وجزيرة قبرص . وأعقب موته (عام ٦٦٨) ، تدهور ^(٢) قوة آشور ، فقبل ختام القرن ، هوت بها الحال الى عقد تحالف مع الميديين والبابليين الذين استردوا استقلالهم في عهد نابوبلسر . وبسقوط نيدوى (٦١٢) توارت امبراطورية آشور من التاريخ وسرعان ما طوت زمال بلاد ما بين النهرين سجلاتها .

ان مجدها تعفى وانقضى

من نينوى باقية الذكر .

الى أن أراح بوتا (Botta) وليار (Layard) ، في القرن التاسع عشر الميلادي الأحجار التي تقص قصة شراستها وغزواتها ^(٣) .

(١) الفترة الثالثة والأخيرة من عظمة آشور استهلها تجلات بليسر الثالث (Tiglath Pileser III) (٧٤٦ - ٧٢٧) الذي غزا بابل ودمشق ، ثم واصلها شالمنسر الرابع (Shalmaneser IV) (٧٢٧ - ٧٢٢) ، وسرجون (٧٢١ - ٧٠٥) وسنخریب (٧٠٤ - ٦٨٢) ، واسرحدون (Esarhaddon) (٦٨٠ - ٦٦٨) ، آخر ملك عظيم ، وفي عهد ابن اسرحدون - آشور بنى بال (٦٦٨ - ٦٢٦) الذي وضع قناعا رقيقا من الثقافة على وحشية الحكم الاشورى ، تدهورت قوة الدولة سراعا . ومكتبة آشور بنى بال العظيمة هي مصدر أساسي لعلمنا بتاريخ بابل وآشور .

(٢) ساعدت الغزوات السبثية (القمرية) (Scythian Cimmerician) على هذا التدهور . راجع الفقرة ٩٧ فيما يلي .

(٣) روستي (Rossetti) : (The Burden of Nineveh) . استقبل سقوطها بالابتهاج من الشعوب التي تحيط بها . ونقرأ في ناحوم : ٣ ، ١٩ : « كل الذين يسمعون خبرك (أى سقوطك) يصفقون بأيديهم عليك لأنه على من لم يمر شرك على الدوام » . وسقطت المدينة أمام الميديين الذين استولوا على آشور الأصلية ، وأما بلاد ما بين النهرين والأراضي السورية - الفينيقية ، فقد أصبحتا من نصيب البابليين .

٩ - وتقاسم الظافرون الأسلاب فيما بينهم ، ما خلا مصر التي استعادت استقلالها في سنة ٦٦١ ، بعد سنوات أربع من الخضوع . ولكن انتصارهم كان قصير الأمد . وقد انحطت قوة ميديا سريعا بعد موت مؤسسها قواكسرس (Cyaxares) أما قوة بابل فقد بلغت ذروتها في عهد نبوخذ نصر (٦٠٥ - ٥٦٢) الذي أخضع سوريا وبيت المقدس وحمل أهل يهوذا الى الأسر في بابل (٥٨٦) (١) .

وقد جعلت أبنيته ومعابده وقصوره وجناته المعلقة من بابل إحدى عجائب الدنيا . ولكن قبل مضي زمن طويل حل بأسرته المصير المقدر ان أجلا أو عاجلا ، على كل امبراطورية شرقية . يهبط المحاربون الأشداء من المرتفعات المجاورة الى السهول الخصيبة ويظفرون بمستعمرة جديدة ويلمون شملها لتخضع في دورها ، عندما يمتص الترف العصاراة الحيوية في قوة حكامها وشعبها ، لسلالة جديدة من الغزاة . ونجد الفرس الآن (٥٥٣) وهم زراغ اولو نشاط ينزعون للحرب ، ومن الجذع الهندي - الأوربي ويسكنون الصقع الجبلي الى الشرق من الخليج الفارسي قد قاموا ضد أسيادهم الميديين تحت امرة زعيمهم قورش (Cyrus) وبعد انقضاء أربعة عشر عاما (٥٣٩) يغزون بابل . وتمر الفا سنة من السيادة واذا الامبراطوريات السامية تكون قد هوت ولون آخر من المدنية جديد ، من أصل آري يسطر سلطانه على الشرق (٢) .

١٠ - وقد أدى امتداد سلطان الامبراطورية البابلية وسيادتها التجارية في آسيا الغربية الى انتشار ثقافتها على مساحة أعظم مما كانت عليه الحال مع مصر . وكانت تلك الثقافة أدبية وليست فنية ولو أن قطع الأحجار الكريمة وصناعة النحاس والتطريز وما الى هذه الفنون ازدهرت في بابل وغدت حلل بابل مضرب الأمثال في أرجاء العالم القديم . وكانت العمارة الوطنية من الأجر ولا شكل لها ، نسبيا ، وكانت المعابد ، وهي أبنيتهم الرئيسية ، تقوم على منصات مستطيلة وترتفع في طبقات متتالية الى علو

(١) كانت الأسرة المشار اليها ، على التحقيق كلدية . كان الكلديون محاربين أكثر مما كان البابليون ومع هذا كانوا مثلهم قادرين على تبوء مستوى عال من الثقافة . وقد أطلق الكتاب الاغريق اسم كلديا على بابل ، على وجه عام ، ومعناها في الأصل أرض كلدى ، وهم ساميون كانوا يقطنون بالمكان الذي يقع حول مصبي الفرات ودجلة بين بابل والخليج الفارسي .

(٢) كان قورش ملك اتران في عيلام ينتمى الى عشيرة فارسية من الأكيميانيين ، وفي سنة ٥٥٣ ، بعد أن غزا ميديا ، نادى بنفسه ملكا على الفرس . وفي سنة ٥٤٦ دارت الدائرة على كرويسس (Croesus) ملك ليديا ، الذي كان قد شن الهجوم عليه وأصبحت كل آسيا الصغرى في قبضة يدي قورش . ويرجع روجرز (Rogers) تاريخ سقوط بابل الى سنة ٥٣٩ .

عظيم • وبعد ذلك استخدم الآشوريون أحجارهم الوطنية وزينوا قصورهم بتمائيل هائلة وبالرسوم البارزة بروزا وطيشا التي يعهد بها كل زائر للمتحف البريطاني • وتنهض ثلاث مسائل فيما يتعلق بتأثير الثقافة البابلية على أهم مدنيات الأزمن القديمة • أولا يوجد تشابه وثيق بين تقاليد البابليين الدينية وتقاليد العبريين كما جاءت مدونة في الفصول الأولى من سفر التكوين وفيها نقرأ عن جنة عدن والطوفان والتابوت وعن برج بابل وتبلبل الآلسنة • وقد سرد العبريون كيف أن أجدادهم في مرحلة بداءة قطنوا مدة من الزمان بكلدنيا • ومن العسير أن نحكم حكما قاطعا عن مدى رجوع هذه القرابة في التقاليد إلى الاتصال المباشر مع بابل في الأزمن البعيدة ، وإلى أى مدى للاختلاط الذى حدث بعد ذلك مع شعوب كنعان الذين تمثلوا ، على اليقين ، ديانة بابل المتأخرة وإلى أى مدى ، مرة أخرى ، للاتصال المباشر زمن الأثر^(١) • ومهما يكن من أمر هذا ، فيما يتصل بتفصيلات التقاليد الدينية العبرية وفرائضهم ، تبقى الحقيقة الواقعة وهى أن تطور ديانة العبريين على أيدي النبيين إلى ديانة توحيد روحية كان خلقا مبتكرا متميزا جاءت به العبقرية الدينية العبرية كما كانت فلسفات افلاطون وأرسطو التى جاءت بها عبقرية اليونان العقلية • ثانيا يوجد موضوع تأثير علم الفلك الكلداني على الفكر العلمي الاغريقي • لقد سجل الكلدانيون مشاهدات دقيقة عن مواقع الأجرام السماوية لمدة تربو على ألفي سنة • ونعرفوا الكواكب السيارة وسموها وقرروا ، بالطريقة التجريبية ، ترادف حدوث الكسوف والخسوف الدوري واخترعوا المذهب الستيني في الحساب^(٢) وقد صنعوا الموزلة وهى أداة تبين بظلمها ، الانقلابين والاعتدالين • ولقد عرف الاغريق هذه المعطيات وعلى غرار هندسة المصريين التجريبية ، حفزتهم على البحث العلمي • ولكن

(١) ينقسم العلماء في الرأي عن هذه المسألة ، والقصاص المنوه عنها يحويها ذلك القسم من سفر التكوين الذى وضع في يهوذا فيما يرجح ، في القرن التاسع والمعروف باسم قصص يهوه (ي) • انها على التحقيق قبل السبي • ويجب الرجوع بسببها إلى أحد الأمرين الأولين اللذين جاءا في النص ، وفي أثناء السبي أثرت بابل مرة أخرى على الثقافة العبرية في الدين والقانون جميعا • وفي تاريخ آخر لاحق أدى امتزاج الشرق والغرب تحت الحكم المقدوني إلى مزيد من تأثير الفكر الديني البابلي على الفكر الديني عند العبريين ويمكن اقتفاء أثر ذلك على سبيل المثال ، في أدب الرؤيا العبري ، في القرنين الأخيرين قبل الميلاد وكذلك في أفكار الفنوصية في بكور أزمنة المسيحية •

(٢) انظر بورنت (Burent) ، الفلسفة الاغريقية الأولى ، الصفحات ٢١ وما بعدها والتذكرات • وقد أقرت بحوث الأب كجلر (Father Kugler) حدود معارفهم الفلكية ، وفي بابل ومصر كان ما يسمى « علما » وقفا على طبقة الكهنة •

هنا أيضا ، مجرد للملاحظة ليس بعلم . ويتضح هذا عندما نبحث عن النفع الذى حققه الفلكيون البابليون من هذه السجلات . وبينما كشف الاغريق فى قرن واحد من الزمان السبب الحقيقى للكسوف والخسوف ، فان البابليين لم يواتهم أبدا حتى أن يصلوا الى التفسير المعقول لهما . لقد استخدموا معطياتهم لاغراض فلكية خالصة فاذا حدث أن كسوفاً أعقبه ، مرة ، حرب مع عيلام ، فان حرباً مع عيلام كان قد تنبأ به من حدوث الكسوف . والملاحظات مهما كانت دقتها ، التى ينتفع بها لمجرد أن تكون أساساً لاستنتاجات يجمع فيها الخيال ، لا يأتى من ورائها معرفة علمية ^(١) . وأخيراً كان للمدنية البابلية تأثير صادق فى حياة العالم الغربى الصناعية والتجارية والطريق العام التى كانت تسير حول شمال الصحراء السورية عبر آسيا الصغرى الى سرديس وساحل بحر ايجة كانت حلقة الاتصال بين الشرق وايونان . وعلى الأخص ، لاقت العملة والمقاييس البابلية فى الألف سنة الأولى انتشاراً واسع النطاق فى آسيا وعالم البحر المتوسط . واستخدم الهنود والاغريق ، على السواء ، المنة البابلى (Mina) الاغريقى كعميار للوزن . وعلى هذا فمند زمن باكر فى بابل الى الشرق كما فى غرناطة الى الغرب ولح السامى دوره التاريخى ، فى تاريخ البشرية الاقتصادية .

٤ - الحيشون والساميون الغربيون

١١ - رأينا كيف أن الثقافة السامية وضعت طابعها على مدنية مصر واستغرقت مدينة السومريين الأوائل فى وادى دجلة - الفرات . وكانت الحال على هذا المنوال فى الاقاليم المحصورة بين بلاد ما بين النهرين والبحر المتوسط . وكانت لغة ودين وثقافة سوريا وكنعان سامية منذ أزمن بعيدة جداً ، ويمكننا أن نميز فروعا متباينة من هذه الأرومة : الساميين الجنوبيين فى بلاد العرب واثيوبيا ، والساميين الأوسط فى كنعان ، والساميين الشماليين (الأراميين) فى سوريا والشرقيين فى بابل وأشور ، ولكن كلهم على السواء كانوا أولاد بيت عربى واحد وأواصرهم المتبادلة تبرز فى وضوح كأواصر العديد من الجماعات التيوتينية فى أوربا القرون الوسطى وأوربا الحديثة . وعلمنا أن نتحدث الآن هنا عن الفرعين الشمالى والأوسط ويشمل الأول شعوب سوريا والثانى الفينيقين ، والقاطنين بكنعان وعن بينهم العبريون . وهذه جميعها ، بالنظر الى موقعها الجغرافى بين امبراطوريتين

(١) يجب أن نقيم حداً يفرق بين علم التنجيم غير العلمى عند الكلدانيين الأوائل و(١) المتأخر لعلم التنجيم ذاك ، وعلى الدين الاغريقى الشعبى ، و(٢) التطور العلمى لعلم الفلك تحت التأثير الاغريقى فى بابل ، وكلاهما لاحق للفيزياء المقدونية .

عظيمتين ، تقوم بدور الدول الحاجزة ، ولما كانت الوسيطات فى التجارة وبيادق اللعبة السياسية لجارتيهما اللتين تفوقانهما قوة ، فان تاريخها تقرر مصيره ، للخير أو الدمار ، علاقتها بأشور ومصر .

١٢ - وبين هذه الوسيطات قامت أمة ، تكاد على التحقيق ألا تكون سامية ، بلغت ، طوال قرون كثيرة ، مرتبة دولة تمت لها القيادة فى آسيا الغربية . وتبين سجلات الألف سنة الثانية ، المصريين (فى عهد الأسرة الثامنة عشر) وبعد ذلك ، هونا ما ، الآشوريين يصابولون على الفرات الأعلى شعبا يطلق عليه اسم خيتا أو الحيثيين ^(١) . ان أصلهم يحيط به الغموض ونقوش كتابتهم التى اتخذت أشكال صور لم تفسر بعد وتاريخهم يزخر بالمشاكل التى تنتظر حلا . ويظهر من المحتمل أن بعضهم ، ان لم يكونوا كلهم ، كانوا يتحدثون بلغة هندية - أوروبية ودخلوا آسيا الصغرى من الدانوب الأدنى وجلبوا معهم ثقافة ولغة خاصتين بهم ، أتت عليهما بالتحويل ، بعد ذلك ، المؤثرات السامية التى كانت سائدة فى أرجاء الشرق الأوسط ^(٢) . وكان أول مركز لما استعمروا من أراض ، هضبة كبدوكية (بلاد القباذق) حيث كشف عن الكثير من الآثار الحيثية ، ثم اتسع نطاقها حتى شمل كيليكية وشمال سوريا وشعوب غرب آسيا الصغرى (أفروجيا وليديا) ^(٣) . حدث هذا بين عامى ١٧٠٠ و ١٢٠٠ ويظهر أنهم حوالى هذا التاريخ الأخير ، فقدوا سيادتهم على آسيا الصغرى والطرق الى تجارة البحر المتوسط والبحر الايجى ، وربما كانت ترتبط هذه الحوادث بالغزوات الشمالية فى منطقة بحر ايضا وسقوط سيادة كريت البحرية . ومنذ هذا الوقت فصاعدا حول الحيثيون السوريون وأساد آسيا الصغرى الجدد (ربما كانوا أفروجيين) نشاطهم الى الشرق ، والجنوب الشرقى وقد اجتذبتهم موارد ما بين النهرين

(١) انهم يظهرون باسم خيتا فى المدونات المصرية وختى (Khatti) فى الآشورية وفى سفر التكوين « أولاد حث » (التكوين ٣٣) وفى غيره من أسفار العهد القديم باسم الحيثيين .

(٢) بعض الكتابات المسمارية من بوغاز - كيوى (عاصمتهم فى كبدوكية) سامية وبعضها غير ذلك . كانت السامية اللسان الشائع فى التواصل الدولى فى الشرق . وقد وجدت النقوش الهروغليفية فى آسيا الصغرى وكذلك فى شمال سوريا ويظهر أنها جاءت متأخرة عن الخط المسمارى ، ولقد خطت الدراسة الجديدة للآثار الحيثية خطوات عظيمة فى النصف قرن الأخير . وكان روادها رايت (Wright) (١٨٧٢) وساييس (Sayce) ، أنظر كاوى (Cowley) (الحيثيون) محاضرات اشفايش ١٩١٨ (Schweich Lectures)

(٣) وجدت آثار حيثية فى إيوك فى شمال آسيا الصغرى حتى حمص فى سوريا . ومن الفرات فى الشرق حتى « ساحل ايدية فى الغرب » .

الغنية . ومن مركز رياستهم الجديد فى قرقيش^(١) فى اعالى الفرات أصبحوا يسيطرون على الطرق البرية العامة بين الشرق والغرب . وتعاملوا على قدم المساواة مع مصر وأشور كليهما . ولعدة أجيال رأسوا تحالفا أوصد الطريق أمام توسع الساميين ، الساكنين بلاد ما بين النهرين ، صوب الغرب وفى القرنين التاسع والثامن انخذلت قوتهم تحت وطأة جيوش آشور وأوقع عليهم الضربة القاضية كروسس (Croesus) ملك ليديا فى الغرب ، قبل مجيء الفرس نؤمن وجيز .

١٣ - وإذا تجاوزنا الولايات السورية - وهى سامية دون نزاع - التى كانت تقع على طريق القوافل من آشور الى البحر المتوسط وأصابها حظها من الثقافة من مصر بصفة جزئية ، ولكن أساسيا من البابليين ، فاننا نصل الى الاراضى الساحلية فى كنعان الشمالية حيث كان يستوطن ، على الأقل منذ السنوات الالف الثالثة ، الفينيقيون الساميون . وكانت حياتهم بأجمعها تتركز فى التجارة البحرية . ولما كانوا يستحذون على رقعة من الارض ضيقة ، فى موطنهم ، فقد أقاموا الحصون والمحطات النجارية فى محاذة الطرق العامة الداخلية وخاصة حول شواطئ البحر المتوسط . وكانت صيدا فى الأزمن الأولى ، المدينة الفينيقية الهامة .

وحوالى القرن الثامى عشر تخلت عن مركزها لصور . وانا نقرأ فى العهد القديم عن التحالف الذى عقد فى القرن العاشر بين داود وسليمان وحيرام أمير صور . وكان الفينيقيون يسكنون دول - المدن ، تحت حكومة ملكية ، وبهذا كانوا يستبقون ، ولو فى نتائج جد متباينة ، دول - المدن فى العالم الهلنى . ويقع عصر القوة البحرية الفينيقية العظيمة وجلائل أعمالها التجارية بين سنتى ١٢٠٠ و ٨٠٠ فى أعقاب سقوط قوة منوىا البحرية فى البحر المتوسط وقبل نهوض اليونان . وقد كانت سفائن فينيقية تجارية العظيمة تبحر صوب الغرب الى ما وراء عمد ملقارت (جبل طارق) فى عرض المحيط الأطلنطى ، واستوطنوا تارشيش (طارطسوس (Tartessus) على مقربة من قادس (Cadiz) وجابوا ساحل مراكش بحرا وتوغلوا أيضا صوب الشمال الى البحر الأسود ، وإنما ابجروا ، كانوا يقيمون المستعمرات ، فى صقلية وإسبانيا وإفريقيا وأقدم ما جاء به المدونات كانت أوطيقا فى إفريقيا الشمالية (حوالى ١١٠٠) وأبعدها صيتا كانت قرطاجنة وبترادف الزمن نبذت قرطاجنة اعتمادها على المدينة وطنها ، صيدا وبسطت سيادتها

(١) جاء أول ذكر لقرقيش فى المدونات المصرية حوالى سنة ١٤٨٠ وكانت مركز دولة الحثيين بين القرنين الثمانى عشر والتاسع . يجب أن نذكر الحثيين ، أصلا كحاجز بين بابل وأشور من جانب وآسيا الصغرى وبحر إيجة من الجانب الآخر .

على الأراضي التي تجاورها في أفريقيا وأنشأت مستعمرات لها ووضعت حكرا على التجارة في مياه البحر المتوسط الغربية . ولا تزال باقية بين أيدينا نسخة اغريقية ترجع الى القرن الخامس لرحلة قام بها حنو القرطاجنى الى ساحل أفريقيا الغربى .

ومنذ القرن السابع كانت قرطاجنة مشتبكة في صراع تجارى لا ينقطع مع المدن الاغريقية في صقلية وفي الغرب استمر حتى القرن الثالث عندما استدهت الحال مجابهة قوة روما التي كانت تسير في صعود . وسنعود لقصة هذا الصراع في فصل آت . وقد وجد الفينيقيون في مناجم الفضة في أسبانيا مصدرا لثروة هائلة . وكان أحد نتائج هذا الكشف هو انخفاض قيمة الفضة بالنسبة لقيمة الذهب ، وقد كانت حتى ذلك الزمن يعسر العثور عليها في آسيا وأفريقيا ، كمعدن له أعلى قيمة . واجتكر الفينيقيون أيضا حيناً من الزمن ، صبغ الأرجوان الذي يستخرج من الرخويات البحرية . وبعد القرن الثامن فقدت فينيقية استقلالها . وفي زمن لاحق أمدت أسيادها الجدد الفرس بالأسطول . وكنا نفتبط أن يكون لدينا مزيد من المعرفة عن الاقتصاد الداخلى لهذه المدن العظيمة حيث كان تصادم المصالح مصدرا للقلق الدائم . ومع كل ما وصلوا اليه من حذق في التعدين وصناعة المعادن وجسارتهم في البحار ، فإن الفينيقين لم يكونوا مبتكرين . لقد كانوا الوسطاء العظام في زمنهم وكان عملهم ببساطة ، أن يوزعوا منتجات البلدان الأخرى على شعوب عالم البحر المتوسط .

١٤ - ويدين سكان كنعان الساميون ، الى جنوب فينيقية بأهبيتهم التاريخية لما كان يربطهم من آصرة وثيقة مع العبريين ، بعد الفترة التي امضياها العبريون على تخوم مصر ، وانقاذهم على يد موسى (عليه السلام) في الأسرة التاسعة عشرة ، تجولوا في صحراء سيناء الى أن نجدهم يستقرون في قادش في جنوبى كنعان . رسنرى فيما بعد كيف أن موسى كان قد أوجد أمة عبرية بأقراره عبادة يهوه كدين قاصر على الأسباط العبرية . وبعد ذلك ببضعة أجيال ، عندما دخل العبريون كنعان ، تشبعوا بثقافة السكان الأولين وتحت التأثير الكنعانى ، أبدلوا عادات البداءة بحياة زراعية مستقرة ، وفي ختام الألف سنة الثانية نجم عن الكفاح مع الفلسطينيين وهم شعب غير سامى وربما كانوا مهاجرين من كريت ، قيام النظام الملكى فى عهد شاول البنيامينى واستهلال حقبة قصيرة من الرخاء الديوى . واحصم داود الشعوب التي تربطها وشائج القرابة ، مواب ، وادوم ، وعمون ، والممالك السورية الى الشمال ، وفي عهد خلفه سليمان ، نمت التجارة وصار للعبرانيين اتصال أكثر قربا بالثقافتين المصرية والبابلية ، واصبحت الحياة أكثر ترفا وحجبت ، ببساطة ، العادات القديمة بمدينة البلاط الحضرية . وبموت سليمان (حوالى ٩٣٣) أعلن الاسرائيليون

الشماليون يقودهم سبط افرايم استقلالهم عن الجنوب (يهوذا) ، ودامت الملكية المنقسمة فى أقدار متقلبة ، مدة تزيد على مائتى عام ، وقامت المملكة الشمالية ، وكانت أقوى المملكتين ، بدور عظيم فى السياسة الدولية فى عهد بيت عمرى الذى سجلته ألواح آشور ، ولكن كان من الواضح أن الموضوع موضوع زمن ليس غير اذ أنهم وقعوا تحت وطأة جيوش الشرق . وفى سنة ٧٢١ سقطت السامرة ، أمام سرجون الآشورى وتوارت عن انوجود المملكة الافرايمية . وأنقذ يهوذا ، فترة من الزمان ، اعتراف ملوكها بولائهم فى الوقت المناسب ، وفشل سنخارب فى مصر (٧٠١) الى أن حلت بابل محل آشور كدولة دانت لها السيادة فى الشرق . ثم على يد نبوخذ نصر حلت ساعة مصيرها المحتوم (٥٨٦) واستطال زمن الشعب العبرى فى الأسر عند انهار بابل الى أن حملهم قورش مؤسس الامبراطورية الفارسية على العودة الى استيطان موطنهم القديم (٥٣٨) وكان فى هذا العهد أن العبريين - وقد أصبحوا على عقيدة دينية محضها الألم وشريعة تجددت تحت تأثير المعلمين الذين ينزعون الى النبوة ، ولو أنه كان لهم شأن يسير فى المجالات الدولية الدنيوية - استهلوا رسالتهم الروحية للبشرية .

وستحدث فى الفصل القادم عن عبقرية العبريين فى الدين وعن اثرهم فى مدينة العالم .

٥ - كريت

١٥ - ألقينا نظرة شاملة على مصر وبابل وأشور وكنعان وسوريا حتى النصف الأخير من القرن السادس ق.م . عندما طوتها امبراطورية فارس القوية بين حناياها . ولكن لايزال علينا أن نتحدث عن سلسلة أخرى من مدنات قامت فى كريت وجزائر بحر ايجا وشواطئها ، لقد سبق أن ألقنا الى الغارات التى كان يشنها جوايو البحار على مصر فى زمن الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين . ترى من كان شعوب البحر هؤلاء الذين تسميهم الآثار المصرية (داردنويين واقبوشسين) وهما اسمان يقاربان اسمى دردانيين (= الطرواديين) وإخائيين ، اللذين جاءا فى هومر ، وثمة طرافة خاصة يلمسها المتتبع لتاريخ هذه السلالات الابجية الأولى علاوة على طرافة الكشف العجيبة التى رفع النقاب عنها علماء الآثار فى السنوات القريبة ، فى أنهم كانوا السابقين الأولين للاغريق . فمئذ سبعين سنة خلت ، لم يكن يعرف الا اللذر اليسير أو لا يعرف شئ ما على التحقيق ، عن حياتهم وتاريخهم . وكان الرائد لعلم آثار ايجا هو هينريش شليمان (Heinrich Schieman) لقد أثارت خياله وهو صبى فى حانوت تاجر فى المانيا ، القصص التى جاءت فى أشعار هومر ، فعلم نفسه الاغريقية وأصاب نجاحا فى العمل واكتنز مالا وفيرا وكان هدفه الاوحد هو أن يحقق بالبحوث فى موقع طرواده تراث العالم القديم

الهومرى صدق قصص الألياذة وفي حصارك في الطرواد (شمال عرب آسيا الصغرى) ، موقع طرواده كما ذهبت اليه الشائعات . وفي ميسنيا (Mycenae) وفي طرونس (Tiryns) ، في بلوبونيسس ، أزاح التراب عن معالم مدنية عظيمة يرجع تاريخها الى الألف سنة الثانية قبل الميلاد (١) واقتفى العلماء من جميع الأمم خطواته ويأتى كل عام بمزيد على كنوز المعرفة الوفيرة التى كشف عنها على هذا المنوال ، عن حياة منطقة ايجيا الأولى وثقافتها ، ويمكننا هنا فقط أن نرسم الخطوط المجملية لبعض النتائج الرئيسية التى كشف القناع عنها .

١٦ - فى غضون السنوات الألف الثالثة قامت فى جزيرة كريت مدنية باهرة متباعدة الاشكال اتسع نطاقها على مدى الزمن حتى شمل جزر بحر ايجيا ورودى وقبرص وشبه جزيرة اليونان والجزائر الايونية وتشعبت أفرع لها بعد ذلك فى سوريا الشمالية وصقلية وفى غربى البحر المتوسط وأدت الى التواصل مع فلسطين ومصر . واطلق عليها اسم منوية (Minoan) باسم منوس (Minos) واضع القوانين وصديق زيوس (Zeus) الذى جاء فى الأساطير الاغريقية وتوجد ذكرى سيادته على البحار محفوظة فى صفحات ثوقديدس (Thucydidos) (٢)

والسلالة التى قطنت بكريت فى أزمن ما قبل الهلينية لم تكن آسيوية ولكنها من سلالات البحر المتوسط وتنتمى على ما يرجح كثيرا الى الأرومة غامقة اللون طويلة الرأس ، قصيرة القامة الناحلة الجسم التى كان موطنها الأصلي فى شمال أفريقيا . ان كريت حلقة اتصال طبيعية بين أوروبا وآسيا وأفريقيا وأصبحت على الزمن مركز امبراطورية بحرية تجارية قوية . وكانت مدنياتها لها لون يتميز عن مدينتى مصر وبابل وبلغت ذروتها أولا عند استهلال الألف سنة الثانية (الفترة المنوية الوسطى الثانية) عندما كانت الأسرة الثانية عشرة تتولى الحكم فى مصر ومرة أخرى ، بعد ذلك ببضعة قرون (الفترة المنوية المتأخرة) ، فى وقت معاصر للأسرة الثامنة عشرة المصرية . وعلى هذا فقد ظل ازدهارها متواصلا قرابة ٦٠٠ عاما .

(١) تعرف شليمان (Schliemann) طرواده الهومرية على أنها الثانية (من أسفل) من سلسلة المدن التى كشف عنها فى حصارك . وفى الواقع ، اتضح أن هذه المدينة ترجع الى تاريخ سابق كثيرا (حوالى ٢٠٠٠) وأن المدنية الهومرية كانت المدنية السادسة أو ربما أوائل السابعة فى السلسلة (حوالى ١٤٥٠ - ١٢٠٠) .

(٢) ثوقديدس (Thuc) - ١ ، ٤ - قابل هيرودوت ١٧١-١٧٣ . ينسب قدماء الاغريق الكثير من قانونهم ، (مثلا تشريع لكورجس (Lycurgus) فى اسبارطة) وفنهم (أسطورة الصنع ديدالوس (Daedalus) أول طيار ، الذى أقام اللبورنت لمنوس ، والتمائيل التى تتحرك من تلقاء نفسها) والدين (ولدزوس فى مغارة دكتى (Dictae) الى أصل كريتى .

ولقد كشفت الحفائر الحديثة في كنوسوس (Cnossus) وفايستس (Phaestus) وغيرها من الأمكنة عن قصور ملكية رائعة تزخرها النقوش البارزة المنحوتة والصور وتحوى كنوزا من صناعة المعادن، من الذهب والبرنز والنحاس ودمى من العاج والصيني وجواهر محفورة وخزفا فى بدع نادر ، وكلها تقدم الأدلة الكافية على المستوى العالى الذى وصلت اليه الثقافة والتهديب. وقصر كنوسوس بما فيه من تيه الغرف ، طبقات بعضها فوق بعض والمجازات والساحات ، هو فى ذاته مدينة وهو قصر التيه (اللبورنت) الحق ، الذى كان فيه الأسرى ، كما جاء فى الأسطورة واستبان الآن أنها سجلت صدقها التاريخى ، يقادون فى ميدان مصارعة الثيران كقرايين للوحش المقدس الذى كان معبود كريت . وكان نظام المصارف والمرافق الصحية خليقين بالقرن العشرين بعد الميلاد . وعندما استعرضت أمام عالم فرنسى أردية النساء فى صور الحيطان هتف : « ولكن انهن لباريسيات » *mais ce sont des Parisiennes !* ولقد صورن فى لبوس محكم بذراعات مطرزة قصيرة وأردان واسعة وقمص طرال الشق من الأمام ونطق صغار الصدر خبطت عند أعلى حوافها شرط أو اتخذت شكل ناقوس ، وبنىقات عالية كتلك التى كان يتخذنهن سيدات الحاشية فى إنجلترا على عهد اليصابات، وكانت شعورهن مزرفنة (مجدونة كالزرفين وهو الحلقة) ومجدعة ولها أربطة من الدانتلا . وكن يلبسن قبعات مظلة تزينها شرط وورود . وكان الرجال يحلقون شعر الوجه ولهم شعر طويل مضاف فى حلقات وله عقائص على الكتفين ويرتدون سراويل وأحذية عالية متينة ويتمنطقون بأحزمة عند الوسط وعلى غرار النساء يتزينون بالعقود والدمالج .

وكان مهندسو كريت المعمارىون والبناءون بالحجر ينافسون أولئك الذين كانوا فى ممفيس وفى طيبة . وكان الكريتون أول شعب معروف فى أوربا استخدم الكتابة ، وقد وجدت نقوش فى حروف تشبه الهيروغليفية وحروف خطية على السواء ، بوفرة . . . وعندما يثبت أن الجهود التى بذلت لتفسيرها حققت نجاحا فسنعلم المزيد من التاريخ المفصل لعالم البحر المتوسط الباكر . ومع هذا فان ما نعلمه علم اليقين، هو أنه قبيل منتصف السنوات الألف الثانية كانت ثقافة متناسقة الشكل قد مدت رواقها الى حد بعيد فيما يلى تخوم المنطقة الايجية ، والى مراحلها المتأخرة ينتمى كشوف شليمان فى طرونس (Tiryns) وميسينيا (Mycenae) ومن المحتمل أنه عندما هوت كريت من عليائها ورثت ميسينيا موطن أجاممنون الهومرى نصيبا من قوتها البحرية . ومهما يكن من أمر هذا ، فانه توجد أدلة واضحة على أنه فى تاريخ يقرب من سنة ١٤٠٠ حلت بالمدينة المنوية فى كريت جائحة اطاحت بها . وتقص أطلال قصر كنوسوس المتفحمة قصتها . ويرجع الكثير الى فعل الزلازل ، ولكن الغزاة الهمج من الشمال كانوا يتداعون فى جماعات ، متواليات على العالم الايجى -

وكانوا محاربين أجلافا يتفوقون بالعدة والسلاح ، وأخيرا ، بمعرفة الحديد ، ولم يعنوا كثيرا بالثقافة الرائعة التي أطاحوا بها ومن المحتمل جدا أن هؤلاء القوم ، الذين يتحدثون لغة هندية - أوربية كانوا سلفا للاغريق الذين يعرفهم التاريخ . وجاء فى أعقاب هذا عصر ظلام استطال زمنه الى أن نجم عن امتزاج بقايا المدنية القديمة بطبع وعبقريه الاسياد الجدد مولد ثقافة اليونان التاريخية (١) .

١٧ - كانت شواطئ آسيا الصغرى الايجية كما سنرى وشيكا ، اغريقية من أبعد الأزمنة . وعندما قامت المدن التجارية الغنية فى القرنين الثامن والسابع ق.م كانت هدفا طبيعيا لحسد أمراء الاضطباع الداخلية . ان آسيا الصغرى هضبة تنحدر منها الوديان الى الساحل الغربى تعزلها سفوح الجبال وقد حددت طبيعة البلاد من جبال وسهول تاريخها . ان المدن البحرية ، وقد عزلت الجبال الواحدة عن الأخرى ، كانت فريسة سهلة للغزاة من الهضبة الداخلية . وفى السنوات الألف الثانية كان الحيثيون ومن يتبعونهم على الهضبة قد وسعوا نطاق سلطانهم حتى السواحل الايجية . وفى القرن الثامن اجتاحت القمريون (٢) الرحل الهابطون من سهول السهوب (Steppes) فى شمال البحر الأسود ، آسيا الصغرى وعملوا فى المدن الاغريقية المكتبة من البحر تخريبا ونهباً . وقد دمروا مملكة فروجيا القديمة وضربوا دولة ليديا الفتية ضربة قوية . وكانت ليديا فى ذلك الوقت (من القرن الثامن الى السادس ق.م) الدولة الحاجزة بين العالم الاغريقى وامبراطوريات الشرق العظيمة . وقامت أسرة ليديا جديدة تنقف أمراؤها بالثقافة الاغريقية وأعطوا الاغريق مقابل ذلك ما يميز فى المعتاد بأنه اختراع الليديين المبتكر الوحيد ، العملة ذات الطابع التى حلت محل المعدن ذى الوزن الذى لا يحمل طابعا والذى

(١) انظر ما يلى فصل ٤ : يذهب بعض الثقاة الى أن اليونانيين ورثوا ثقافتهم وحتى لغتهم من المنويين (Minoans) (أنظر برنت (Burnet) Early Greek Philosophy) الصفحة ٢ وما يليها) واحياء الدين الشعبى (وهو يتميز عن فرائض العبادات الأولمبية) فى القرنين السابع والسادس يشير الى احياء التقاليد الدينية المتنوية التى كانت تتركز فى عبادة الهة فى العالم السفلى . وكشف كريت فى القرن الحالى سترتبط أبدا باسم سير آرثر ايفانس (Sir Arthur Evans) .

(٢) ربما كان هؤلاء القمريون بدوا من شمال البحر الأسود . كان العهد عهد غزوات من الشمال . وفى القرن السابع اجتاحت السيثيون (Scythians) الذين طردوا القمريين (Cimmerians) سوريا وكنعان (راجع هيرودوت ١ : ١٠٣ وما يليها وتنبؤات ارميا وصفنيا التى أشير اليها فى الفصل التالى ٩) .

كانت تتداوله الثقافة البابلية وغيرها من الثقافات الأولى^(١) ، وحوالى عام ٥٦٠ ق.م أصبح كروسس ملكا على ليديا . وطالما كان يخضع الاغريق على سواحل ايجا فى آسيا ، فانه كان يحكمهم حكما متحررا ووضع تحت رعايته الدين والثقافة الاغريقين . وعندما قهر قورش الفارسى ميديا (عام ٥٤٩) شن كروسس دونه أن ينظر معاونة مصر وحلفائه الآخرين ، الهجوم على قورش وأغرمته الهزيمة مملكته (٥٤٦) . وصحب سقوط ليديا خضوع الاغريق الآسيويين وأصبحت امبراطورية فارس تمتد من الهندوكوش الى بحر ايجا .

٦ - امبراطورية فارس

١٨ - فى أزمن ما قبل التاريخ ترك فرع من الأسرة الهندية - الأوربية موطنهم الأصلي فى أراضى السهوب شمال قزوين وهاجر فى اتجاه جنوبى شرقى . ولقد سار بعضه عبر ممر خيبر الى البنجاب بينما استقر البعض الآخر فى شرق الهضبة الإيرانية العظيمة . وفى بواكير السنوات الألف الثانية، يمت هذه القبائل الإيرانية (سمت نفسها آرية ومن هذه التسمية اشتق الاسمان المحليان آريا وايران) صوب الغرب الى المرتفعات التى تحف سهول ما بين النهرين وكلديا . وبعد ذلك بألف سنة ، نجد الميدين الى الجنوب من بحر قزوين والبريتين فى خراسان والبكتريين فى منحدرات الهندوكوش الشمالية والفرس فى الجبال التى تشرف على الخليج الفارسى الى الشمال الشرقى . وكانت سلاسل جبال الهندوكوش وسليمان تقوم حاجزا من جهة الهند . ولقد أحضر هؤلاء الآريون معهم الحصان وهو من نتاج سهول السهوب ولم يكن للبابليين أيام حمورابى عهد به ولكن استخدمه الآشوريون كعدة حرب^(٢) . ولقد حملوا معهم كذلك دينا متميزا ، يتناقض تناقضا يسترعى البال مع دين جيرانهم الساميين المستوطنين السهل وكان يختلف أيضا - على الرغم من أساس مشترك دأب على المحافظة على نفسه بين الفرس الى يومنا - عن دين الآريين ذوى قرابتهم فى الهند^(٣) . وبينما أخضعت العقيدة الهندية

(١) من المحتمل أن العملة المطبوعة قد ترجع الى تاريخ أسبق وربما كان منشؤها فروجيا (Phrygia) وعلى أية حال فان أصلها يتصل بطريق القوافل العظيم الذى كان ينحدر من هضبة آسيا الصغرى الداخلية الى ساحل ايجا وكما جاء فى الأساطير بحقل الذهب فى سردس Sardis .

(٢) كما يدل على هذا الاسم البابلي للحصان « جحش الشرق » .

(٣) بين العناصر المشتركة عبادة ميترأ وهو اله الشمس وذابح المبادر (اندرا الهندى) وعبادة النار والاعتقاد بشريعة قدر يتفوق على الالهة والانسان . انظر ف. كيمون (F. Cumont) - ص ١-٣ (Les mystères de mithra) وكان ارونا أعظم اله خلقى فى مجمع الالهة الفيدية تطورا موازيا لاهور مزدا ومن أصل آرى مشترك .

كل الآلهة الأخرى إلى اله أعظم أوجد فان الدين الإيراني كان له مظاهر ثنائية ^(١) وكان مجسم آلهتهم يأخذ حول قوتين لهما السيادة ، الواحدة قوة الخير وهي ايجابية خالقة ومصدر النور والحياة والأخرى قوة الشر وهي الظلمة والموت ، وهي سالبة ، وكانت القوتان تسميان على الولاء ، أهورامزدا (أورمزد) وأهريمن . والصراع خارق العادة ، بين هاتين القوتين الإلهيتين غدا يتعكس في مجرى تاريخ البشر . وبين الأثنين ، يقف الإنسان وقد وهب الحرية الخلقية التي يتوقف على استخدامها مصيره في العالم الذي يقع فيما يلي للحد . وكان الدين الإيراني ينزع إلى آداب السلوك ، ولم تكن آلهته كآلهة الآريين الهنود . معان مجردة تصورية ولكنهم كانوا شخوصا خلقيين ولم يكن هدف الجهد الإنساني الاندماج التآلفي في مطلق وحدة الوجود ولكن سعادة أبدية في السماء حيث يحكم أهورا مزدا وما كانت الحياة الإنسانية وما يلزمها من فروض اجتماعية وأفراح وأحزان بخدعة ولكنها المجال للعمل في همة والقيام بالواجب الخلقى . وفي اعترافه بقيمة الثقافة الدنيوية واتجاهه إلى غاية يكون فيها الخلاص الفردي وليس الخلاص القومي ، فان دين إيران كان يختلف عن دين العبريين وان تشابهه معه في تعليمه الخلقى الرفيع . وكان الفرس يتساحون مع الديانات المحلية عندما لا تناسب دينها العداء ومع هذا فان عقيدتهم انتشرت صوب الغرب بتوسع امبراطوريتهم . وفي نقاوتهم كما نهض به النبي زرداشت ، كان دون ريب ، عقيدة الفلة أكثر من أن يكون عقيدة الكثرة ، وكان من شأنه ، بين أيدي المجوس (وهم طبقة من الكهنة) أن يتدهور إلى فرائض رسمية بينما أصبحت الجماهير تفسر تعليمه في صيغ ديانة ما قبل زرداشت القديمة ^(٢) . وكان مرجع قوته الحقيقية إلى اصراره على المسؤولية الخلقية . ويستعرض فرس التاريخ نوعا نبيلًا من الخليفة ، لقد

(١) ولكن براهما الأعلى في دين التوحيد الهندي كان لا سبيل للوصول إليه وكان الناس مساقين إلى استرضاء الهين أقل شأنًا هما سيوا ووشنو .
 (٢) عاش زرداشت على الأرجح حوالي عام ٦٥٠ ق.م وتحوى الأسفار الفارسية المقدسة التي يطلق على مجموعها لفظ أوبتا ، الجانات وهي ترانيم ربما كتبها النبي نفسه . ويقرب المذهب الزرداشتي أن يكون توحيدًا . وكانت عبادة النار لها شأن عظيم إذ كانت النار أنقى مظهر لأهورا مزدا ، ويظهر أن المجوس الأوائل كانوا معادين لمذهب زرداشت ولم يحفل مخبر هيرودوت بهم كثيرًا . ولقد أثرت عبادات فارس ، كعبادات مصر وبابل ، في الدين الغربي أولًا ما أثرت في العهد الذي أعقب غزوات الاسكندر . وفي العهد الروماني ، كما سنرى فيما بعد ، كانت عبادة ميترا جد شائعة في عالم البحر المتوسط وأثرت الثنائية الفارسية على المسيحية في الشرق . انها أصل الاعتقاد في شيطان شخصي . أنظر كيمون Cumont في الكتاب السابق الإشارة إليه ، المقدمة ص ٦ - ٨ ، وفصل الله (عند الإيرانيين) ، في قاموس التوراة لهيستنج (Hastings' Dictionary of the Bible)

ولدوا حكاما للناس وكانوا أولى كبرياء ومسلك يتسم بالأنهية والفخامة محبين للولائم والصيد وذوى انسانية فى الحرب ولهم أفضال على الشعوب التى عنت لهم وعلى أهبة أن يقابلوا الأفكار الأجنبية بالتسامح أو قد يستحوذون عليها . ولما غزا مقدونو الاسكندر فى القرن الرابع امبراطوريتهم كان يمكنهم أن يروا فى أشراف الفرس ، وهو فى الواقع ما كان حقبا ، أنسبائهم القدامى . ولقد أظهر الفرس فى الفن وفى العمارة ، القليل من الابتكار وكانوا ينقلون عن النماذج البابلية . أما التجارة فقد حقرها لأنها كانت غير خليقة بالرجل الحر . وكانت الجندية والزراعة والفلاحة أعمالهم التقليدية . وكان الكذب أعظم الجرائم شناعة . ولقد لحص هيرودوت تدريب شبابهم فى الركوب والرمى بالقوس والصدق فى القول (١) .

١٩ - ولقد اتخذت فاجعة الامبراطورية الفارسية السميت الذى أصبح مألوفاً فى تاريخ الشرق ، الغزو والتنظيم والاحتفاظ بالقوة احتفاظا لا يريم فالنندهور فالسقوط ، تتابع كلها فى سلسلة منطقية . ويمثل قورش المؤسس وأحد بناء الامبراطوريات العظام ، فى التاريخ ، فترة الغزو . وعند موته عام ٥٢٨ ، كانت ممتلكاته تمتد من ايجا فى الغرب الى هندوكوش فى الشرق ومن قزوين فى الشمال الى صحراء العرب فى الجنوب . ولقد خلع ملك فارس على نفسه لقب شاهنشاه (ملك الملوك) . ولم يكن توكيده هذا لدعواه فى امبراطورية عالمية ، دون أساس . لقد كان قمبىز بن قورش هو الذى غزا مصر (عام ٥٢٥) والمستعمرة الاغريقية فى قورينا . ولم يحدث قبل ذلك بتاتا أن مدينة النيل تألفت بمدينة الفرات فى دولة واحدة . وتتركز الحقبة الثانية ، حقبة التنظيم فى شخص دارا بن كشتاسب (٥٢١ - ٤٨٦) . ان دارا هو طراز الادارى الشرقى على مدى الزمان . وكانت امبراطوريته شاسعة الأرجاء وهى مزيج من جميع الشعوب والأهم واللغات ولا تنظمها وحدة سلالة أو دين أو صالح مشترك ، وكانت تنقسم الى عشرين ولاية أو اقليم يحكمه نائب ملك . ولكى تكون البلاد بأمان من خطر نشوب ثورة ، وضع دارا زمام السلطتين المدنية والعسكرية فى كل ولاية فى اياد مختلفات ، وكانت الوظيفة الخاصة لشخص عظيم الشأن فى سوس مقر الحكم الرسمى ، يحمل لقب « عين الملك » ، هى الاشراف على الولايات .

(١) هيرودوت ١ - ١٣٦ وازن الصلاة فى ١ ، ١٣٢ . كان الفارسى يصلى من أجل الملك وجميع الفرس ولم يكن يصلى ، على الاطلاق ، لنفسه وحدها .

وساعد على تركيز التحكم^(١) ، نهج رائع للطرق والمراكز . وكما كانت تجرى عليه الامور فى الامبراطوريات الشرقية ، فان الشعب الخاضعة كانت تحتفظ بدياناتها المحلية وعاداتها ونظمها ، بعيدة بعدا تاما عن تدخل الحكومة المركزية . وكانت علامتا الخضوع دفع جزية سنوية ثابتة والتجنيد لخدمة الميدان . وكان اشراف الفرس يعيشون تربطهم اواصر شخصية وثيقة بالحاكم أما الفرس المقيمون فى الاقاليم فكانوا يكونون مع ممثلين من السكان الوطنيين مجلس الشورى للوالى . وعلى هذا ، كان يقوم بالرقابة على الوالى مجلسه وقائد الجيش والحكومة المركزية فى آن واحد ولقد أصبح هذا النهج الذى وضعه دارا النموذج الذى تحتذيه الملكيات الشرقية التى جاءت فيما بعد^(٢) .

وضم دارا ايضا البنجاب وبلاد العرب الى الامبراطورية وعبر السبسطس الى اوربا وتقبل ولاء تراقيا ومقدونيا . وفى ختام حكمه الطويل كان يجمع جيشا لجبا لينهض باخضاع اليونان الحرة . وعلى مثال غيرها من دول الشرق، جهدت فارس فى التوسع صوب الغرب الذى لاقت منه مصيرها المحتوم . ولكن قصة الصراع الاغريقى مع فارس تتصل بفصل آخر سيعرض له هذا الكتاب .

٢٠ - كان خلفاء دارا طوال قرن ونصف قرن بعد ذلك (٤٨٦ - ٣٣٨) معنيين على الاخص بالمحافظة على الامبراطورية التى عمل دارا على لم شملها وقد ادى الوهن الذى حل بالبيت المالك والثورات المتواصلة فى الاقاليم المتطرفة ، وخاصة فى مصر ، والصراع الطويل مع اليونان على انحلالها على التدرج ، وانتقل مركز النقل فى السياسة العالمية الى شواطىء بحر ايجاء . وقبل انتصاف القرن الرابع كانت تعتمد هيبة الفرس على معاونة المرتزقة الاغريق وقادتهم . وأعقب موت آخر حاكم قدير وهو اردشير الثالث (أخوس)

(١) أمن الطريق الملكى من سوس الى سردس (فى ليديا) لأول مرة فى التاريخ السيطرة على آسيا الصغرى بقوة من بلاد ما بين النهرين . وكان يستطيع جيش أن يقطع عليها مسيرة عشرين ميلا كل يوم فى المتوسط ، وهذه حقيقة تفسر الى حد بعيد انتصارات الاسكندر . وكانت توجد أيضا طرق فارسية عبر آسيا الصغرى ، من الشمال الى الجنوب ومن بابل بالقرب من همدان الى بلخ ومن بلاد ما بين النهرين ، عبر فينيقية الى مصر ، ومع هذا فان مرتفعات شبه الجزيرة لم تكن عليها حراسة فى الواقع الى أن ظهرت روما على المسرح .

(٢) كان دارا بناء عظيما وسعى الى استرضاء رعاياه بالاسراف فى تقديم صنوف التكريم لدياناتهم ولقد استخدم نفس السياسة فيما بين تخوم الامبراطورية بالهدايا تقدم الى مهبط الوحى فى دلفى الذى حبه بادية الامر هجوم الفرس على الاغريق .

فى سنة ٣٣٨ قتره فوضى أتاحت للعدو فرصة فريدة اذ كان قليب ملك مقدونيا قد دبر حرب انتقام من الغزو الفارسى لليونان ، فى القرن السابق . وفى عام ٣٣٤ عبر ابنه الاسكندر السبىنطس وأقام نفسه سيدا على آسيا الصغرى . وفى عام ٣٣١ حقق أعظم انتصار له فى جوجيلا ، وبعد ذلك بعام ، بموت آخر خلف لدارا ، انتقل اللقب والامبراطورية جميعا الى الغازى المقدونى . ومن ذلك الوقت ، أصبح تاريخ الشرق الأوسط جزءا من تاريخ المدنية الهلينية .

٧ - الخاتمة

٢١ - ولو أن مختلف المذنبات التى مرت أمامنا فى هذا الفصل كانت لها أهمية جوهريه بالغة ، فانها ، مع استثناء واحد ذات أهمية ثانوية بالنسبة لمستقبل العالم الغربى . واذا نظر اليها من هذه الناحية فيمكننا القول ألا شئ كان يلائمها أفضل من اندماجها ، آخر الأمر ، فى الهلينية . وسنرى قريبا كيف أنه عندما أصبح امتزاج الشرق والغرب حقيقة واقعة ، وفى عهد خلفاء الاسكندر أثارت أفكار مصر وبابل وفارس الدينية استجابة من داخل نطاق الثقافة الاغريقية - الرومانية . ولكن تلك الثقافة نشأت ونمت فى أوضاعها الخاصة على النقيض من فكر الشرق وعاداته ، أكثر من أن تكون بمعاونتهما . والاستثناء الوحيد الذى ألمعنا اليه آنفا هو ، دون مراء ، دين العبريين ، ان دين المصور اللاحقة ، فى هذا المجال وكذلك فى مجال الاخلاق ، للسلاسل السامية ، لا يحصى . ان عبريا من طرسوس كانت تنشئته فى أشد مدارس المذهب الفريسي الحق صرامة أصبح رسولا للوثنيين . وعلى هذا فان الفصل التالى سيخصص لدراسة الحقبة الانشائية الرئيسية فى التاريخ العبرى الدينى وعند ذلك سنتحول صوب الغرب ، الى اليونان وروما . وحتى دين العبريين ، لم يؤثر تأثيرا خطيرا فى الغرب الا بعد أن كانت اليونان وروما قد أقامت دعائم مدنيتهما . وكانت الهلينية قد وصلت الى ذراها قبل أن يشرع رسل الانجيل ، بزمن مديد ، فى العمل على جعل التقاليد العبرية ملائمة لمزاج وعادات العالم الاغريقى - الرومانى . لقد كانت الهلينية فى ارفع تعبيراتها ، كلها ، فى الفن والفلسفة والحياة المدنية ، اخلق المبتكر العبرى الاغريق . ولقد أضافت السلالات الاخرى ، مواد الى دعائم بنائها الاقتصادى وحافظوا أمام حب استطلاعها العقلى وتركت هنا وهناك كما فى فن العمارة ، آثارها فى بعض تفصيلات جلال أعمال الاغريق ، ولكن الاغريق كانوا يعرفون ما كانوا يرمون اليه عندما قابلوا بين ثقافتهم الخاصة وحياة الهمجية التى كانت تطفئ أمواجها حول جماعاتهم

الصغيرة من كل جانب ^(١) . ولقد قامت الثقافة ، كالسحر ، وسط
عالم غريب كما نهضت الالهة اثينا في الاسطورة من رأس زيوس ويظهر
تاريخ الشعوب المجاورة النقيض ويقدم الاطار للتعبير عنه ^(٢) .

(١) يعرض برى (Bury) (العصر الهليني) الصفحات ٢٤ وما بعدها
(Hellenistic Age PP. 24 ff.) الرأي بأن نظرية مرتبة الهمج الوضيعة هي من
نتائج الحروب الفارسية وبعد ذلك ارتاب فيها الفلاسفة ، ولقد ارتأى افلاطون
أن ملكا فيلسوفا قد يوجد بين الهمج ، وذهب الرواقيون شأوا أبعد حتى
تصوروا أخوة تشتمل البشر أجمعين . انظر الفصل السادس القسم الرابع .

(٢) تحدث جروت (Grote) في مقدمة تاريخ اليونان (History of Greece)
(١٨٤٦) عن حركة العقل الاغريقي التلقائية فقد كان يجد معاونة من الخارج
ولكن لم يلجأ أبدا الى الاستعارة وبعث الضوء في شطر من العالم صغير كان
بغير هذا غائما وراكدا ، ولقد كشف عن الشيء الكثير منذ زمن جروت ولكن
توكيده أن العلم الاغريقي كان مبتكرا ، يظل ثابتا لا يتزعزع .

جداول تاريخية

مصر
(عصر ما قبل الأسرات
قبل عام ٣٤٠٠)
الأسرة الأولى (٣٤٠٠ - ٣٢٥٠)
الأسرة الثانية (٣٢٥٠ - ٣١٠٠)
الأسرة الثالثة (٣١٠٠ - ٢٦٨٠)

4.

الدولة القديسة
٢٧٥
٢٥٠
٢٤٠ - ٢٣٠
٢٢٠ - ٢١٠
٢٠٠ - ١٩٠
١٨٠ - ١٧٠
١٦٠ - ١٥٠
١٤٠ - ١٣٠
١٢٠ - ١١٠
١٠٠ - ٩٠
٨٠ - ٧٠
٦٠ - ٥٠
٤٠ - ٣٠
٢٠ - ١٠
٠ - ١٠

550.

...

140

100

150

2

الدولة القديمة
منه الفيزيقي ٢٠٠٠
٢٠٠٠ - ٢٠٠٠

الدولة الوسيطة

المدير العام
الأعمال
الطورية
الحدائق

42

التدهور (السرعة)
(١٠-٦)

الأُسرة ١١
٢١٦ - ٢٠٠

15-17-18-19-20-21-22-23-24-25-26-27-28-29-30-31-32-33-34-35-36-37-38-39-40-41-42-43-44-45-46-47-48-49-50-51-52-53-54-55-56-57-58-59-60-61-62-63-64-65-66-67-68-69-70-71-72-73-74-75-76-77-78-79-80-81-82-83-84-85-86-87-88-89-90-91-92-93-94-95-96-97-98-99-100-101-102-103-104-105-106-107-108-109-110-111-112-113-114-115-116-117-118-119-120-121-122-123-124-125-126-127-128-129-130-131-132-133-134-135-136-137-138-139-140-141-142-143-144-145-146-147-148-149-150-151-152-153-154-155-156-157-158-159-160-161-162-163-164-165-166-167-168-169-170-171-172-173-174-175-176-177-178-179-180-181-182-183-184-185-186-187-188-189-190-191-192-193-194-195-196-197-198-199-200-201-202-203-204-205-206-207-208-209-210-211-212-213-214-215-216-217-218-219-220-221-222-223-224-225-226-227-228-229-230-231-232-233-234-235-236-237-238-239-240-241-242-243-244-245-246-247-248-249-250-251-252-253-254-255-256-257-258-259-260-261-262-263-264-265-266-267-268-269-270-271-272-273-274-275-276-277-278-279-280-281-282-283-284-285-286-287-288-289-290-291-292-293-294-295-296-297-298-299-300-301-302-303-304-305-306-307-308-309-310-311-312-313-314-315-316-317-318-319-320-321-322-323-324-325-326-327-328-329-330-331-332-333-334-335-336-337-338-339-340-341-342-343-344-345-346-347-348-349-350-351-352-353-354-355-356-357-358-359-360-361-362-363-364-365-366-367-368-369-370-371-372-373-374-375-376-377-378-379-380-381-382-383-384-385-386-387-388-389-390-391-392-393-394-395-396-397-398-399-400-401-402-403-404-405-406-407-408-409-410-411-412-413-414-415-416-417-418-419-420-421-422-423-424-425-426-427-428-429-430-431-432-433-434-435-436-437-438-439-440-441-442-443-444-445-446-447-448-449-450-451-452-453-454-455-456-457-458-459-460-461-462-463-464-465-466-467-468-469-470-471-472-473-474-475-476-477-478-479-480-481-482-483-484-485-486-487-488-489-490-491-492-493-494-495-496-497-498-499-500-501-502-503-504-505-506-507-508-509-510-511-512-513-514-515-516-517-518-519-520-521-522-523-524-525-526-527-528-529-530-531-532-533-534-535-536-537-538-539-540-541-542-543-544-545-546-547-548-549-550-551-552-553-554-555-556-557-558-559-560-561-562-563-564-565-566-567-568-569-570-571-572-573-574-575-576-577-578-579-580-581-582-583-584-585-586-587-588-589-590-591-592-593-594-595-596-597-598-599-600-601-602-603-604-605-606-607-608-609-610-611-612-613-614-615-616-617-618-619-620-621-622-623-624-625-626-627-628-629-630-631-632-633-634-635-636-637-638-639-640-641-642-643-644-645-646-647-648-649-650-651-652-653-654-655-656-657-658-659-660-661-662-663-664-665-666-667-668-669-670-671-672-673-674-675-676-677-678-679-680-681-682-683-684-685-686-687-688-689-690-691-692-693-694-695-696-697-698-699-700-701-702-703-704-705-706-707-708-709-710-711-712-713-714-715-716-717-718-719-720-721-722-723-724-725-726-727-728-729-730-731-732-733-734-735-736-737-738-739-740-741-742-743-744-745-746-747-748-749-750-751-752-753-754-755-756-757-758-759-760-761-762-763-764-765-766-767-768-769-770-771-772-773-774-775-776-777-778-779-780-781-782-783-784-785-786-787-788-789-790-791-792-793-794-795-796-797-798-799-800-801-802-803-804-805-806-807-808-809-810-811-812-813-814-815-816-817-818-819-820-821-822-823-824-825-826-827-828-829-830-831-832-833-834-835-836-837-838-839-840-841-842-843-844-845-846-847-848-849-850-851-852-853-854-855-856-857-858-859-860-861-862-863-864-865-866-867-868-869-870-871-872-873-874-875-876-877-878-879-880-881-882-883-884-885-886-887-888-889-890-891-892-893-894-895-896-897-898-899-900-901-902-903-904-905-906-907-908-909-910-911-912-913-914-915-916-917-918-919-920-921-922-923-924-925-926-927-928-929-930-931-932-933-934-935-936-937-938-939-940-941-942-943-944-945-946-947-948-949-950-951-952-953-954-955-956-957-958-959-960-961-962-963-964-965-966-967-968-969-970-971-972-973-974-975-976-977-978-979-980-981-982-983-984-985-986-987-988-989-990-991-992-993-994-995-996-997-998-999-1000-1001-1002-1003-1004-1005-1006-1007-1008-1009-1010-1011-1012-1013-1014-1015-1016-1017-1018-1019-1020-1021-1022-1023-1024-1025-1026-1027-1028-1029-1030-1031-1032-1033-1034-1035-1036-1037-1038-1039-1040-1041-1042-1043-1044-1045-1046-1047-10

المكسوس (المزك)
لرعاية (١٦٨٠-١٥٨٠)

الأسرة ١٨
١٣٥٠-١٥٨٠
فوسن ٢-١٥٠١-١٤٧

أسرة ١٩
١٢٥ ١٢٠

↓
فترۃ شذھور
۶۶۳ھ

↓

المصور المنوية الباكّة المصور المنوية
المنوية

المصور الممنون الناظر

العصر المنوي الباكر
الأول (مواليد ١٩٨٠ - ١٩٦٠)
العصر المنوي الباكر الثاني
مواليد ١٩٦٠ - ١٩٤٠

العصر المئوي الباكر
الثالث. حوالي ١٢٠٠-١٢٥٠

المشرق الأوسط الزول
 ١٩٠٠ - ١٩١٠
 المشرق الأوسط الثاني
 ١٩١٠ - ١٩٢٠
 المشرق الأوسط الثالث
 ١٩٢٠ - ١٩٣٠
 المشرق الأوسط الرابع
 ١٩٣٠ - ١٩٤٠

الذروة الثانية
 للتجارية
 المصرية
 ١٥٠٠ - ١٤٠٠
 المئوي المسافر الثالث
 فترات سبانية (من موال ١١٠٠)
 مخطوط كينوس (موال ١١٤٠)
 دفتره العثماني لعمدة
 حصار طروادة ١١٩٤ - ١١٨٤

استهلال عصر الحديدي
العصر المظلم
العصر المظلم
للمستعمرات الاغريقية على
غري آسيا الصغرى



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثالث

دين العبريين (١)

١ - تقديم

١ - ان ديانات عالم البحر المتوسط العظيمة الثلاث، العبرية والاسلامية والمسيحية كلها من أصل سامي . ولأنها لاتزال قوة حية بين الناس، فإن هذا يقيم الدليل الذى يبقى على الزمن ، على قدر العبقرية الدينية التى كانت لدى الساميين . ولقد كان قبول الدينين الأولين مقصورا ، على وجه الاجمال تقريبا على الفرع السامي أما الثالث وهو الدين المسيحي فقد حطم منذ زمن بعيد حواجز السلالات وأقام دعواه ، كدين عالمي ، فى ولاء الوثنيين والعبري ولكن انجيله بشر به للعبريين فى البداية وقام بينهم كتكملة تاريخية لناموس العبريين ونبوءة العبريين . ويواجهنا السؤال كيف تأتى لعقيدة قبلية لشعب سامي لا خطر له أن تقدم فى غضون نمو التاريخي أساسا لرسالة روحية للبشرية ؟ أين كانت ، بين الحاصل التى لازمت عقيدة العبريين القديمة وعبادتهم ، تكمن البذور لتكونا عامتين ؟ لم يكن لدين العبريين فى مراحل الأولى ما يتميز به كثيرا عن دين شعوب كنعان التى تحيط به . كيف حدث أنه بينما توارت آلهتهم بانتهاء الدول التى كانت تعبدها ، سياسيا ظل اله العبريين باقيا بعد السبى وتفرق شعبه ولأيزال موضع اجلال الملايين من جميع السلالات فى زمننا الحاضر ؟ ان الجواب على هذا السؤال يتكشف فى دراسة أنبياء العبريين . وكما أن عبقرية الاغريق العقلية وهى تفضل فى مناهج لها نفع عام للفكر الانساني ، حولت معطيات التجارب التى لم تتناولها يد التهذيب ، الى بنيان من المعرفة التى يدعمها العقل ، وكما أن عبقرية روما السياسية صاغت قوانين مدينة إيطالية فى مبادئ قضائية ، لدولة

(١) أطلق عبريو أزمنة العهد القديم على أنفسهم « أبناء اسرائيل » (بنى اسرا ال) وأصل اسم اسرائيل غامض وقد فسر : (الله ال) يجاهد ، أو يبقى) ، أما لفظ عبري فقد أطلق فيما بعد ومعناه ، طبقا للرأى التقليدى ، الشعب من الجانب الآخر من (اللفظ العبري . عبريم) نهر الفرات (أو الاردن ؟) . واسم يهودى معناه (رجل يهوده) ويطلق على التحقيق على القاطن بفلسطين الجنوبية ، ومن الراجح أن اسرائيل وعبريين كانا فى الأصل اسمين لعشائر .

عالمية ، كذلك محضت عبقرية العبريين الدينية التي تجلت عن طريق بصيرة أنبيائها ، عبادة اله قبل كانت وظيفته أن يخوض غمار معارك شعبه ضد منافسيه من الهة البلاد الأخرى ، الى عبادة اله واحد خالق الكون الذى يظهر أبوته الروحية فى حكومة بارّة تسود أمم الأرض جمعاء .

٢ - عندما لم موسى ، فى النصف الأخير من الألف سنة الثانية ، قبل الميلاد ، شمل فريق من العشائر السياسية فى مجتمع واحد ، فانه لم يؤسس أمة وحسب ولكنه أرسى قواعد دين^(١) وكان كحامل لوحى دينى ، على مثال محمد (صلعم) بعد ذلك بألفى سنة ، انه استطاع أن ينهض بتحول بعيد الأمد فى عادات البدو الساميين القبلية التى لولا ذلك لظلت باقية على ما هى عليه . وقد ثبت عبادة يهوه لتكون عبادة شعب وبهذا أتى بأمة الى حيز الوجود^(٢) ومنذ ذلك الحين صار يهوه اله العبريين الذى أطلق سراح آبائهم من العبودية وقادهم خلال أخطار البرية الى أرض الموعد . وكذلك يمكن أن ينسب الى موسى وضع شعائر عبادة ونظام كهنى . ولقد كونت أحكامه الشعبية النواة لقيام شريعة (التوراة)^(٣) ودين يهوه هذا ، كما حمله

(١) ان تاريخ الخروج غير معروف على التحقيق . ويعتبر بعض الثقة أنه يتفق مع طرد الهكسوس أو الملوك الرعاة الساميين (فى أوائل القرن السادس عشر) ويذهب غيرهم الى أنه حدث فى الأسرة الثامنة عشرة (امنحوتب الثانى حوالى ١٤٤٥) وتذهب طائفة أخرى أن ذلك وقع فى عهد مرنفتاح (الأسرة التاسعة عشرة) حوالى عام ١٢٢٠ أو بعد ذلك بجيل .

(٢) كان اليهود ، خشية إساءة استخدام اسم يهوه المقدس يكتوبونه بالحروف المتحركة لكلمة ادوناي (= ربى) أو الوهيم (= الهى) على أن يقرأ هذان اللفظان بصوت مرتفع بدلا عنه . ويرجع تاريخ هذه العادة الى ادخال علامات الحركة الذى حدث بعد قيام العهد المسيحى ببضعة قرون . وكانت الكتابة العبرية تتكون أصلا من السواكن . ومن هذا حدثت الصيغة المضللة يهوه التى أشار اليها فى زمن مبكر فى القرن السادس عشر بعد الميلاد بطرس جلطينوس (Petrus Galatinus)

de arcanis Catholicae veritatis, 1518)

ومعنى اسم يهوه غير مؤكد . ويعتقد بعض العلماء أن يهوه كان يعبد العبرانيون قبل زمن موسى . والعهد القديم ، غامض فى هذا الأمر إذ أن الكاتب البهيوى (ى ، انظر التذكرة التالية) يذكر أن عبادته ترجع الى ما قبل الزمن الموسوى (تك ٤ : ٢٦) والكاتبان الالهى (١) والكهنى (ك) يذكران أن عبادته أدخلها موسى (خروج ٣ : ١١ - ١٤ و ٤ : ٢ - ٣) ربما من مديان . وتاريخ ما قبل موسى غير محقق ويحيطه الغموض .

(٣) الأسفار الخمسة (أى التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية) ، يشدوع تمثل تصنيف التاريخ والشريعة القديمين - اللذين وصلا الى شكلهما الحاضر بعد السبى - معا ويمكن تقصى أثر الجمع فى ثلاثة مصادر أساسية أشير اليها على الولاء بالحروف : اى ، ت ، ك .

العبريون : إلى كنعان كان على التحقيق بدائيا ويتخذ الهه هيئة انسان . وكانوا يتصورون أن ليهوه شكلا جسميا ومقرا للسكنى وتدفعه العواطف الانسانية ، من غيرة وغضب . ولقد كان الها محاربا « رجل حرب » يقاتل دون هوادة لأجل شعبه الخاص . ضد أعدائهم وعلى غرار حاكم شرقي كان يطلب مقابل هذا ، الولاء والعطايا . ولم يكن همه يتعلق بالفرد ولكن بالامة وبالامة خاصة في أزمنة الحرب . ولكن يمكن أن نشبين في هذا الشكل البدائي للعقيدة القومية بذور دين خلقى وان لم يكن دين توحيد ، فانه كان صراحة عبادة إله واحد من بين الهة كثيرين . ولقد أنفد الأمر الى العبريين : « لاتعبد

== (١) فصتان للتاريخ الباكر كتبنا واحدة في المملكة الشمالية (افرام) والاخرى في الجنوبية (يهوذا) ربما بين عامي ٨٥٠ ، ٧٥٠ ق.م وقد ضمتا في مؤلف تاريخي واحد ، عام ٧٥٠ على التقريب . ويطلق على الاول (١) من استخدام اسم الوهيم للدلالة على الله (عز وجل) والاخرى يطلق عليها (٢) من استخدام اسم يهوه . والمؤلف الذي يضمهما يرمز اليه بالحرفين ي ١ . (ب) شريعة التثنية يطلق عليها ت ويرجع تاريخها الى منتصف القرن السابع (انظر ٨ - فيما يلي) .

(ج) التاريخ ومدونة القانون الكهنين يطلق عليها (ك) وربما يرجع انشاؤها الى زمن السبى (انظر ١٠ و ١١ فيما يلي) . وتمثل أسفار التكوين والخروج والعدد امتزاج ي ١ ، ك ، وينتمى سفر اللاويين الى ك ، والتثنية الى ت ، ويشوع الى ي ١ ، وهو من محررى التثنية ، والى ك .

وعلى القارئ أن يدرك أن المحررين المتعاقبين كانوا جامعين لا مؤلفين أصلا ، وأدمجوا في مؤلفهم ما كان يوجد من وثائق قبل ذلك وأضافوا فقط ما كان لازما لتوافق المقتبسات بعضها مع البعض الآخر . وعلى هذا فان الكثير من القوانين والقصاص في هذه الأسفار كان أساسها عادات وتقاليد وأغانى تاريخ سابق لها كثيرا وكان مرجع بعضها الى سجلات مسطورة (مثال سفر العدد : ٢١ ، ١٤ ، وما بعدها ويشوع : ١٠ ، ١٢ ، وما بعدها) ونواة الناموس القديمة التي يطلق عليها سفر العهد أو الميثاق (الخروج : ٢٢ ، ٢٣ - ٣٣ ، ٢٣) والوصايا العشر الاقدم منها (الخروج : ٣٤ ، ١٧ - ٢٦) كانت موجودة كتابة قبل أن يجمع ١ . وكذلك أيضا آخر ما جمع (ك) يحوى ثم ناموس قديم جدا في سفر القداسة (اللاويين : ١٧ - ٢٦) الذى رمز اليه بالحرف ق وربما يرجع الى ما قبل السبى . وبينما الشريعة كما توجد بين أيدينا جاءت متأخرة عن النبوة الاقدم منها ، فان الكثير من محتوياتها يرجع الى ما قبل النبوة .

وعن الموضوع كله ، انظر درايفر (Driver) (مقدمة لأدب العهد القديم ص ٨٢ وما بعدها ، و ١١٦ وما بعدها Introduction to the Literature of the O.T.)

آلهة أخرى غيرى « (١) . ولم يكن ليهوه أساطير خرافية أو مجمع الهة يشتركون معه أو زوجة . - الهة كما كان طابع العبادات الكنعانية (٢)

انه كان مصدر الحق والعدل وقدس أقداسه مستودع القانون المعترف به . ويكتب عالم معاصر نابه : « ان فضل موسى العظيم يرجع الى الحقيقة الواقعة وهي أنه ألف بين الفكرة الدينية والحياة الخلقية » (٣) وكانت تربط يهوه بشعبه الآصرة الشخصية التي تكون بين أب وبنيه ، آصرة لا تستند الى وشيجة طبيعية من قرابة الدم ولكن الى الاختيار والارادة . لقد اختار يهوه العبريين وتقبل العبريون يهوه ، ونجد هنا أصلا مبدأ « العهد » الذي جاء فيما بعد . ولقد كانت هذه العقيدة الخلقية التي تمثلت لعبرائى ذلك العصر فى مناصرة يهوه للعبريين ضد أعدائهم هي التي حفظت الأئمة الناشئة من أن تطويهاا مدينة الكنعانيين السابقة لها . وكان الاستقرار فى كنعان عملية امتزاج بطيئة تركت ، عرضا ، علامات فى دين العبريين . وكما عرف المهاجرون البدو من جيرانهم عادات حياة الزراعة فانهم استحوذوا معها على عبادات آلهة الكنعانيين (بعليم = أسياد البلاد) . ولم يكن هؤلاء البعليم . على غرار يهوه ، آلهة حرب ولكنهم كانوا آلهة طبيعة مسالين تمثل فى شخصيتهم قوى الحصب والحياة المنتجة ويتألفون أزواجا ، ذكرا (بعل) وأنثى (عشتاروت) ، ولهم ديانات محلية متباينة تصحبها الشهوة المخزية (١) ولو كانت عملية الامتزاج سلمية بجملتها ، فربما كان دين العبريين قد هبط فى يسر الى مستوى الدين الكنعانى ولكن يهوه قد اندمج فى البعليم ولما ترك العبريون طابعا على تاريخ البشر الروحي . ولكن كان على الغزاة أن يحاربوا لأجل ميراثهم ولقد حفظ شخصيتهم الدينية والقومية ، ما وقع من حرب متواصلة . وظل يهوه بين كل ما تمثلوه من العبادات الكنعانية كالمرفعات والصور الخشبية لعشتاروت أو العمد المقدسة، اله شعبه المختار .

(١) عبادة اله من بين الهة كثيرين (Monolatry) معناها أنه ولو أنه توجد آلهة كثيرة فان واحدا فقط هو الذى يجب أن يعبد ، اما التوحيد فمعناه أنه لا يوجد الا اله واحد .

(٢) تشير برديات الفنتين الى زوجة - الهة ولكنها تستعرض دين العبريين فى شكل حط من قدره . انظر كاوى (Cowley) (Aramaic Papyri) أدراج البردى الآرامية (المقدمة) .

(٣) كوينن ، دين اسرائيل (Kuenen, Religion of Israel)

(٤) كون الشهوة المشار اليها كانت نتاجا لما تتطلبه العبادة يجعل الفارق أكثر ظهورا . وتوضح الواح راس شمرة (القرن الخامس عشر الى القرن الثالث عشر ق م) التي كشف عنها فى سنة ١٩٢٩ ، الاساطير الكنعانية على أتمها (انظر جاك (Jack) الواح راس شمرة (The Ras Shamra Tablets) وتقدم الدليل على نشاط أدبيهم فى فلسطين ، قبل قيام الملكية الصورية ببضعة قرون .

وأغنية دبورة وهي واحدة من أقدم شذرات أدب الشعر العبري ، لا تزال باقية لتبين كيف أن عقيدة يهوه ألهمت عشائر العبريين في تلك الممارك القديمة مع الشعوب المحيطة بها ^(١) . وقد عملت على تقوية الشعور بقومية متميزة ، الحروب مع الفلسطينيين في القرنين الحادى عشر والعاشر التى نجم عنها قيام النظام الملكى فى شخص شاول البنيامينى وغدا يتجسم فى الملك الاستقلال الدينى والقومى فى نفس الوقت . ومن ذلك الوقت فصاعدا ، أصبحت عبادة يهوه ، على الرغم من طائفة عظيمة من اضافات كنعانية ، الرمز المعترف به لمصير العبريين الذى تميزوا به .

٣ - واذا نحينا الى جانب المشاكل الغامضة عن أصل عبادة يهوه ، والى الجانب الآخر ، أرجأنا النظر فى تطور دين العبريين تحت تأثير النبيين الى دين توحيد خلقى خالص النقاوة ، فاننا نلاحظ الحصال التالية الملازمة لذلك الدين من عهود استهلاله على يد موسى الى أن وصلت اليهودية الى صوغها النهائى كدين عالمى فى القرنين الاولين من العهد المسيحى . وستفصح للقارىء عن الهوة الواسعة التى تفصل التقاليد الدينية العبرية ، قبل وبعد ان تستحوذ عليها المسيحية ، عن تلك التى يرجع مصدرها الى التفكير الالهينى سواء أكانت عن مسائل ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقيا) أو علم اللاهوت . ففى المكان الاول (١) كانت تقوم على الاعتقاد الذى لا يمارى ، بوجود الله (عز وجل) لا استنادا الى أية فروض استنتاجية عن وجوده أو طبيعته وجوهره . والجواب الوحيد الذى صرح به ، ردا على موسى وهو يستعلم اسمه كان تأكيد كينونته الذاتية : « أهيه الذى أهيه » ^(٢) وفى كينونته الذاتية ، فانه العلة ، كخالق لوجود كل ما هو كائن « فى البدء خلق الله السموات والأرض » ^(٣) وهذه الكلمات ، فاتحة الأسفار الخمسة لا تعبر عن نظرية فلسفية ولكنها بيان أولى للوعى الدينى العبرى . ومن البداية أعلن يهوه نفسه الاله الحى ، ويكون قبوله بالايمان ويسمو على أقصى ما يصل اليه الاستقصاء الفسكى ^(٤) . وعلى غير شاكلة اله افلاطون . وأرسطو فان اله ابراهيم واسحاق ويعقوب هو ، بالنسبة للعقل الانسانى ، اله مستخف (Deus absconditus) . ثانيا (ب) دين العبريين موحى به . ويستمد سلطانه ودعواه فى طاعة الانسان ، ليس عن طريق العقل ولكن عن

-
- (١) القضاة ٥ قابل الطلبة القديمة فى سفر العدد ١٠ ، ٣٥ ، ٣٦ :
 « قم يا رب فلتتبدد أعداؤك ، الخ »
 (٢) الخروج ٣ ، ١٤ .
 (٣) التكوين ١ ، ١ .

(٤) كما جاء فى تعبير دكتور هوايتهد (Dr. Whitehead) فى (Adventures of Ideas) : مغامرات الأفكار فان السؤال : « أتقدر بالبحث أن تجد الله ؟ » ، يصلح لفكر العبرى ولكن لا يستقيم مع التفكير الاغريقى .

طريق مصدره الالهى لا غير . والوحى واحد كما أن الله واحد . وكان تصور فقيض الله الذي تحاشى الدين الفارسى به ، مشكل مصدر الشر ، غريبا عن العقل العبرى ، تماما . وعلاوة على هذا فقد كان الوحى نهائيا وكاملا كما أن الله نفسه كامل ولا يتغير . « كل الدين أوحى به وكل فحوى الوحى كان الدين »^(١) . وكان يتألف منه التوراة أو شريعة الله ، ويشمل القانون المسطور (الأسفار الخمسة) وعلى سیر الزمان ، تفسيره الشفوى أيضا كما صيغ ووضعت له مذاهب ، فى النهاية ، فى المدارس اليهودية . وكانت الحال كذلك مع الأنبياء الذين لا ينطقون بأقوال من عندهم يدلون فيها بما لديهم من ثقة ولكن بكلمات أوحى بها اليهم يهوه . ثالثا (ح) دين العبريين تنظيمى ، بما أنه التعبير عن الإرادة الالهية بلغ بها الانسان ككائن ذى نشاط وله حق الاختيار . انه مجموعة من الأوامر تنظم سلوك الانسان وتفرض عن طرق جزاء فيها الخير أو الويل نتيجة لقبول الانسان أو رفضه «خافة الرب هى الحكمة»^(٢) والى الحد الذى يجعل فيه الله طبيعته معلومة للعبريين ، فى الكشف عن ذاته ، تكون طبيعته كطاقة عملية فان الكون يصير الى وجود بفعل قوته الحرة . ويتجسم فى سجل تعامله كله مع العبريين غرضه الأساسى . ولو أنه يسمو سمو لا يمكن أن يلم به وصف ، على أساليب الزمن أو التغير ، فان وجوده باطن^(٣) وتستبين ارادته فى كل جزئ فى الطبيعة وتاريخ البشر . ويكون مشهد نشاطه ، ليس الشعب المختار فقط ولكن الكون بأجمعه وجميع الأمم التى تسكنه : « ألم أصعد اسرائيل من أرض مصر والفلسطينيين من كفتور والآراميين من قير ؟ »^(٤) . وهنا كمال غرض الله ولو أنه ، على غرار فاتحته ، عمل من التدخل خارق العادة ، فى مجرى التاريخ ، فانه يتصور ككارثة فى المستقبل التاريخى . وفكرة الحياة الأبدية التى يرتاح لها الفلاسفة الاغريق كانت غريبة عن نظرة العبرانيين الدينية . ان يهوه كان يسمو على الزمان ، ليس لأن لا زمن له ولكن لبقائه الذى لا يعرف نهاية : كان « منذ الازل الى الأبد »^(٥) وأخيرا ، انه من الجلى (١) أن دينا توحى به هذه العقائد كانت تفهمه قدرة . فياضة على التطور الخلقى . كان يهوه اله بر ورحمة أوصى بأعمال الصلاح والرحمة عبيده . وأولى هاتين الحصلتين كان يتمثل فى أنه فرض فى صرامة القصاص عن الخطيئة أى فى عبارة يوحنا «التعدى على الناموس»^(٦)

(١) ج . ف . مور (G.F. Moore) اليهودية ١ : ١١٢ (Judaism)

(٢) عاموس ٩ ، ٧

(٣) فى مذهب وحدة الوجود ، ماهية الله باطنة فى العالم أى أن الله والعالم واحد (الترجم)

(٤) أيوب ٢٨ ، ٢٨

(٥) مزامير ٩٠ ، ٢

(٦) يوحنا الأول ٣ ، ٤ وإزن يونس فى رومية الأصحاح الرابع .

والثانية في استعداده الذى لا يعتريه وهن للصفح عن الخطيئة بشرط اوحده هو توبة الخاطيء . وهنا لا يوجد وعى بالتفرقة بين الواجب الدينى والواجب الحلقى . وكل عمل سواء اكان صادرا عن الفرد او المجتمع يقع فى مجال المسئولية الحلقية وكذلك ينطوى على طاعة او عصيان الامر الالهى ، لان المجتمع (بيت اسرائيل) ايضا كان يتألف برابطة شخصية يهوه « كشخص ذى جسد » ، واقعى ، يتميز بأنه ينزع الى آداب السلوك ، عن وعى الجماعة الغريزى السابق للاخلاق وكوحدة قائمة بذاتها عن المجتمع المصطنع الذى هو نتاج تعاقد من جانب الافراد الذين ينتظمون أعضاء فيه .

٢ - نبوءة ما قبل النبى

٤ - فى هذه اللحظة نسمع أول ما نسمع ، عن النبيين عند العبريين . وكان الملك شاول نفسه ، فى احدى القرص ، من عدادهم ^(١) ولكن هؤلاء الانبياء لم يكونوا يتميزون الا قليلا ، عن انبياء البعل الذين كانوا بين ظهراى الشعوب الكنعانية الاخرى وهم فرق من الدراويش الذين يستولى عليهم الجذب ^(٢) وكانوا تحت تأثير الموسيقى والرقص يتوهمون استحواذ الهمم عليهم . ولقد كانوا رجالا من طراز حد مختلف عن عظماء المعلمين الذين تقدموا الصفوف بعد ذلك بقرون قليلة كنصرأ لعقيدة محضة . وكان بداية ظهور هؤلاء فى وقت تقسيم ملك سليمان فى المملكة الشمالىة او الانرامية تعارضين انتشار العبادات الدينية الغربية والمدنية الدنيوية ^(٣) . وكان سليمان قد فتح الباب للتجارة الخارجية وأنشأ أسباب التحالف الاسرى مع الملوك الاجانب ، وهى سياسة أدت الى تجديدات فى العادات الاجتماعية التى كرمها الزمن والى ادخال العبادات الاجنبية . ولقد جلب النراء والشرف فى أعقابهما فوارق الطبقات وانفصاما يتزايد بين الغنى والفقر وكانت السخرة ، على النموذج المصرى ، تمس الحاجة اليها لبناء قصور الملوك والمدائن الحصينة والهيكل الدينية وأصبح جزءا من نظام الحياة الحديد وجود حاشية وحريم وحشد من الموظفين العسكريين والكهنة ، وهذه المظاهر وأمثالها لملك سليمان حوكت فى المملكة الشمالىة تحت أسرة عمرى (من حوالى ٨٨٧) . وعندما أقر أخاب بن عمرى شرعا عبادة بعل صيدا ووسع الحقوق الملكية

(١) صموئيل الاول ١٩ ، ٢٠ - ٢٤

(٢) الجذب - عند الصوفية حال من أحوال النفس يغيب فيها القلب عن علم ما يجرى من أحوال الخلق وتغشاه غبطة شاملة وهو قمة التفلسف الاقلاوطيى - مصطلحات مجمع اللغة العربية . (المترجم)

(٣) ان ثورة يربعام الاول واقامة مملكة افرامية منفصلة (٩٣٣) ربما كان مرجعها كراهية السخرة وقد أيدها أخيا النبى . انظر ملوك الاول ١١ ، ٢٨ وما بعدها .

فوق ما جرت عليه العادة التقليدية فان ايليا استنكر وهو مشتمل برداء بدوى مرددا روح البساطة البدوية البدائية، سياسة البلاط الدينية والدينية جميعا (١) . وقد عمل خلفه اليسع ، فى تألف وثيق ، بنقابات النبوة ، على اسقاط الاسرة ووجه ، كناصر معترف به ، تعاليم يوشع وابنه (٢) وكان الظفر حليف النبوة فى المملكة الشمالية ، ولقد توطدت دعائهما كقوة خلقية فى المجتمع ، ولم تكن مجرد انتصار سياسى . وظاهر ايليا واليسع دعوى يهوه ، القاصرة عليه ، فى ولاه اسرائيل وأن شريعته شريعة بر مطالبها ، بالخدمة الخلقية ، أبناء المختارين . وكانت عبادة اى اله آخر خطيئة وكان معنى عبادة يهوه ، تحقيق ارشاداته الخلقية فى حياة المجتمع . وهذا الاعتراف بشخصية يهوه التى تتصل بالسلوك القويم ، ذلك الذى مهد الطريق لصوت النبوة المكتوبة ، لا تشهد به فقط القصص المدونة ، ولكن أقدم أجزاء الأسفار الخمسة أيضا ، التى ربما كان وضعها ، تحت تأثير رسالة النبوة التى أتت بها ايليا .

٥ - ان أقدم نبوة مكتوبة وهى نبوة عاموس ، يرجع تاريخها الى حكم يربعام الثانى فى مملكة العبرانيين الشمالية (٧٨٣ - ٧٤٥) (٣) . وتجلت مملكة افرايم فى مشهد من الرخاء الظاهرى . ولكن فيما وراء المظاهر ، كانت الامة مريضة حتى الموت . وكان الاشراف والحاشية والكهنة ، كلهم سواسية فى الفساد . واستشرى الترف والشهوة والجور وظلم الفقير . واتاحت العبادة فى الهياكل العظيمة مثل بيت ايل فرصة سانحة ليس فقط للحفلات الصاخبة كثيرة التكاليف ، والمراسم الرائعة ولكن لأعمال العنف والظلم أيضا (٤) . وأصبحت تتوارى الشفقة الأخوية القديمة بانتشار الثروة والانغماس فى الشهوات الذاتية . وكانت طبقة الزراع الاحرار التى ظلت حتى الآن دعامة الامة فى السلم والحرب ، تسير الى دمار . وفيما يلى التخم ،

(١) كان فى انتهاك آخاب للعادة الاجتماعية فى موضوع كرم نابوت اثارة للشعور العام أكثر من أية ظاهرة أخرى فى سياسته . ويمكن وضع تاريخ حكم آخاب بعد عام ٨٥٣ .

(٢) « مركبة اسرائيل وفرسانها » كما نعتة الملك (الملوك الثانى ١٣: ١٤) (٣) تقع نبوة عاموس بين عامى ٧٦٥ و ٧٥٠ ونبوة هوشع ، فى مملكة العبريين الشمالية أيضا ، بين عامى ٧٥٠ و ٧٣٤ . وبلى هذين النبيين فى الترتيب ، ميخا واشعيا وكلاهما فى يهوذا ، خلال الشطر الثالث الأخير من القرن .

(٤) أنظر عاموس وهوشع على وجه عام ، أما عن الجور وانحلال الروابط الاجتماعية فيمكن الرجوع الى عاموس ٢ ، ٦-٨ ، ٣ ، ١٠ ، ٥ ، ١١ ، ٨ ، ٤-٦ وهوشع ٤ ، ١ ، ٢ وعن العبادة الاباحية وعبادة الاصنام عاموس ٢ ، ٧ ، ٨ وهوشع ٤ ، ١٣ ، ١٤ وعن فساد الانبياء والكهنة هوشع ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٩ ، ٦٠ .

جلب تدهور دولة دمشق الحاجة ، تهديد آشور المروع الى أبواب العبريين عيناها ^(١) وقد عميت أبصار الملك والشعب على السواء ، عن المصير المحتوم ولكن أمام بصيرة صافية ، كان الدمار قريبا ومحققا ، كما كان يمكن أن تصير اليه حال بلجيكا سنة ١٩١٤ لو أنها واجهت ، دون حليف ، هجوم جحافل الألمان . وكان في مثل هذه الضائقة أن عاموس ، راعي القطعان وجاني الجميز من تقوع الواقعة في المرتفعات الجنوبية التي تحف بالبحر الميت ، ظهر بين الصاخبين المهتللين الذين لا يعاؤون بشيء ، في بيت ايل ، لينطق بكلمة القضاء التي أوحى بها يهوه الى خادمه . وكانت رسالة عاموس ، كرسالة كل من سبقوه من الأنبياء ، كثيبة كاتبة لا تتحول . لقد عمل العبرانيون الشر وسيجتلي قضاء يهوه الحق في تدمير الأمة تدميرا لا يبقى ولا يذر . وكان الناس يتطلعون الى « يوم يهوه » الذي كانوا يعنون به اليوم الذي فيه ينتصر العبريون ، في القتال ، على أعدائهم . وقد أودع عاموس ، وهو يعلن عن المغير الأشوري كأداة ليهوه ، في الكلمة الماثورة القديمة ، مغزى جديدا مروعا : « ويل للذين يشتهون يوم الرب ! لماذا لكم يوم الرب؟ هو ظلام لا نور » ^(٢) .

وعند عاموس ، لم يكن يهوه أبدا « اله العبريين » ، انه يهوه اله الجنود ، ليس رب الجيوش القومية ، ولكن رب جنود السماء والأرض . وكان الدين الشعبي يرى في الهزيمة آية بأن يهوه تخلى عن شعبه ، وعند عاموس كان الانهيار المتوقع أوضح انتقام لعدالة يهوه من الشعب الذي تركه ، ولسبب انه اختارهم ليكونوا مستودع معرفته ، فان عدم طاعتهم الخلقية أثار عقابه البار : « اياكم فقط عرفت من جميع قبائل الأرض لذلك أعاقبكم عن جميع ذنوبكم » ، « من أجل ذنوب اسرائيل الثلاثة والأربعة لا أرجع عنه لأنهم باعوا البار بالفضة والبائس لأجل نعليه » ، « سقطت عذراء اسرائيل لا تعود تقوم انطرحت على أرضها ليس من يقيمها » ^(٣)

٦ - ان نبوءات عاموس وهوشع تسترعى الانتباه ليس لأنها تمثل فجر عهد جديد في تاريخ العبريين الروحي وحسب ، ولكن لأنها تشمل الحصال الجوهرية كيفا وجوهرا للتعليم التنبؤي السابق للسبى . وكانت رسالة النبي اعلان « كلمة » يهوه لشعبه وكانت النبوة توصيل وحى شخصي ، وليس جوهرها في التنبؤ عن حادثات تقع في المستقبل . والنبي

(١) استرد يربعام الثاني كل فلسطين الشرقية حتى شمال لبنان ، الملوك الثاني : ١٤ ، ٢٥ ، وقد غزا الآشوريون دمشق عام ٨٠٣ وربما كان يربعام يدين لآشور بالولاء .

(٢) عاموس ٥ ، ١٨ .

(٣) عاموس : ٣ ، ٢ ، ٦ ، ٥ ، ٢ .

شخص يتحدث بالنيابة عن يهوه في اعتراض مدرك ، لعالم الحكام الديويين .
والكهنة الرسميين والرأى الشعبى وجتى نقابات التنبوء . ويقول عاموس :
« لست أنا نبيا ولا أنا ابن نبي » ^(١) ، وصوته صوت من يصيح في البرية
فى استنكار يتفجر عن عاطفة عنيفة ، للمخازى العلنية وجور النظام
الاجتماعى . والقول الذى يعلنه ليس قوله وانما قول يهوه ووظيفة التنبوء .
ليست من اختياره . لقد أحس بسلطة يد يهوه القاسرة وينطق فقط بما
وضعه يهوه فى فيه : « الاسد قد زمجر فمن لا يخاف ؟ السيد الرب قد
تكلم فمن لا يتنبأ ؟ » ^(٢) ومن هنا كان رسوخ اعتقاده الشخصى وتيقنه المطلق
من صدق رسالته . ولكن بيانه لم يكن مجرد أقوال تضطرم حماسا ، ناجمة
عن الجذب وكذلك لم تكن تعتمد على إثارة مصطنعة . ولا يمكن تعرف الا
القليل من الانحراف البدنى أو العقل فى كتابات التنبوء . والأحوال والرؤيا
خارقتا العادة ، اللتان تصحبان تجاريب النبوة (وأكثر ماتحيثان فى حزقيال ،
وأقل فى أرميا) تقبلان على أنهما موضوعيتان وترجعان الى وحي مباشر من يهوه ^(٣)
ويأتى قول يهوه مصداقا لعقله وضميره . وقد يكون الوحي عن طريق الرؤيا
أو أعم من ذلك بالكلمة ، ينطق بها ، وقد يؤيد بالآية ويعززه المثل والرمز
ولكنه فى جميع الحالات جلى وحاسم ^(٤) . وعلاوة على هذا فان الرسالة توجه
الى الأمة ويندر أن يخاطب بها الفرد . ولم يكن للفرد الى الآن الا شأنه
يسير فى دين العبريين وكان الجزاء ، للخير أو للضرر ، يوقع على المجتمع فى
مدرجة تاريخه الديوى . وسنرى فى التعقيب كيف أنه فى زمن لاحق ،
ظفرت دعوى الفرد من العبريين ، بالعدالة الالهية والأمل فى تعيم بعد الموت ،
بالذكر فى الدين العبرى . ولكن موضوع الانبياء الأوائل هو التزام
الاستقامة القومية وأحكام يهوه على الخطيئة القومية . ومرة أخرى ، تكون
الرسالة ، كوحى بغرض يهوه هى فى ذاتها الضمان وليست فى حاجة الى
دعم بالدليل . واذا مست الحاجة الى برهان ، فانه يقدم ، لا بالاستنتاج
العقلى المجرد ولكن بآية أى بدلالة محسوسة مادية عن مصدرها الالهى .

(١) عاموس : ٧ ، ١٤ وازن هوشع ٩ ، ٧ والفقرة القصصية عاموس
٧ ، ١٠ - ١٧ تفصح فى جلاء عن هذه المعارضة لسياسة الحكام وطوائف
الكهنة .

(٢) عاموس ٣ ، ٨ قابل عاموس ٧ ، ١٤ وما بعدها واشعيا ٦ وارميا
١ و٢٣ ، ٩ وحزقيال ١ ، ٣

(٣) أنظر هويلر روبنسن « الشعب والكتاب » الصفحات ٣٧١ وما بعدها .

(Wheeler Robinson «The People and the Book»)

ان النبى يعنى معنى الالهام وعلى شاكلة الشاعر فان شطره خلق وشطره تصور
(٤) دون أشعيا رؤيا واحدة فى غضون أربعين عاما من رسالة النبوة
وتخلو نبوءاته كلها من أية عاطفة يستعر فيها الحماس .

وانا لا نجد أى اثر للاستدلال الفكرى فى النبوة العبرية . لقد كان تعليم النبي يعنى بالمراس ، لا النظرية ، ورجوعه لا يكون للعقل ولكن للإرادة ^(١) وكان الباعث له ، فى كل مرحلة ، تأزم واقعى فى مصائر الأمة . وقد أثار التهديد الاشورى رسائل عاموس وهوشع واسعيا ، أما البابلي فرسالة ارميا . وهنا تقدم النبوة العبرية نقيضا للفلسفة الاغريقية ، يسترعى البال . اذ بينما كان الفكر الاغريقى يتلصص تفسيراً عقلياً لكل واقعة وأسبابها عقلية لكل حكم فان النبي العبرى كان يجد التوكيد الكامل فى الحدس ^(٢) المباشر بارادة يهوه وكان يقدم لقوله بالتصريح البسيط « هكذا قال يهوه » والواحد كان زهرة الثقافة الدنيوية والاخر خصمها الذى لا ينزل عن شئ . من حقه فى سبيل صلح . وادعى كل منهما أنه يعرف الحق ، الأول بمعرفة العلم الذى يقوم على العقل ، والاخر بمعرفة الايمان الخلقى .

٧ - ولم يكن ضمان الصدق موجوداً فقط فى وسيلة الوحى التنبؤى ولكن فى جوهره . كان طبع انبياء ما قبل السبى ، طبع توبين صارم لخطيئة العبريين وفيه قنوط أسى من توبة العبريين . وطريق الخلاص مفتوح « اطلبوا الخير لا الشر لكى تحيوا » ^(٣) . ولكن ليس للنبي الا أمل ضئيل فى أن ينتهج . انه النبي الكاذب ذاك الذى يهتف بالسلام حيث لا يوجد سلام ولارضاء الناس يعلن عن أمن وهمى ^(٤) . وعندما هوت الضربة وحمل العبريون الى السبى ، تتغير النعمة وتكون رسالة يهوه وعدا بالبركة وبالعودة ^(٥) ونقرأ فى اشعيا عن بقية عادلة من الشعب ينقذون فى ساعة اليأس ليكونوا نواة

(١) ان ما ينطوى عليه لفظ « لب » ويترجم عادة « قلب » هو معنى الارادة لا العاطفة . انظر قيما يلى فقرة ١٦ .
(٢) الحدس - ادراك الذهن لموضوع الفكر ادراكا مباشرا ويقابل الاستدلال .
(المترجم)

(٣) عاموس ١٤ ، ٥
(٤) ملوك الاول : ٢٢ واشعيا ٣٠ ، ٩ - ١١ وأرميا : ٢٨ و (خاصة حزقيال : ١٣ والثنية : ١٨ ، ٢١ ، ٢٢ تضع معيار الصدق فى انجازه ولكن قابل التشية : ١٣ ، ١ - ٤ . قد تتم النبوة الكاذبة وقد لا تتم النبوة الصادقة . انظر شارلس (الإخرويات Charles Eschatology) صفحة ١٨٥ ، تذكره .

(٥) من الراجح أن مثل تلك الفقرات التى جاءت فى عاموس ٩ ، ٨ - ١٥ وهوشع ١٤ التى تتنبأ عن إعادة فى المستقبل - ترجع الى تاريخ لاحق وربما قد تكون الأخيرة صادقة . وهى تجد القبول لدى روبرتسون سميث (Robertson Smith) ودرايفر (Driver) (المقدمة - الصفحات ٣٠٦ و ٣٠٧) الذى يدل على أن الانبياء الذين يسيرون على هدى الوجدان وليس المنطق ، ربما كانوا قد عبروا عن الرجاء فى إعادة مثالية ، فى خاتمة تحذيراتهم الاستنكارية .

لا إلهة عبرية متجددة • ولكن اليأس من توبة العبريين لا يلقى أبداً ، للحظة ، ظلاً من الريبة على إيمان النبي بحكومة يهوه البارة ، ليهلك العبريون إذا كان في هلاكهم ، تتجلى عدالة يهوه • ولم يكن المغير الآشوري إلا أداة ارادته المقدسة القديرة على كل شيء • وعند عاموس وهوشع ، كان يهوه إله جميع الأمم وإله الأرض كلها • وقوته تبسط رواقها على الطبيعة وعلى جنود السماء وحتى على مستقر الراحلين (شيلول = جهنم) ^(١) ، انه كان شخصاً خلقياً ، لم تترك سيادته العامة الفريدة مجالاً لإلهية قوة إلهية أخرى سواء • لقد كان حضوره الحي وهو يدأب على العمل الناشط ، وليس جوهره ، هو الذي تمتلئ به عقول الأنبياء ، ولقد فسروا نشاط ارادته في حدود أقصت الاعتراف بأي إله آخر غيره • وكانت حكومته الخلقية تتجلى في معاملاته مع جميع الشعوب وفي المكان الأول ، مع شعبه المختار • وعلى مثال العبريين ، كان مفروضاً أن يوقع على الشعوب الوثنية القصاص من أجل خطاياها ^(٢) وفي تعبير عالم معاصر عظيم ، يتصور الأنبياء فاجعة إلهية مسرحها الأرض ، والأشخاص القائمون بالأدوار فيها ، الشعوب ، والبطل مدار الرواية ، الشعب العبري ومؤلف الفاجعة ، يهوه ^(٣)

ولقد فتح قيام الآشوريين عيونهم إلى عالم أوسع ونجم عن هذا التوسع في أفق خيالهم ، تقدم البصر الروحي وكان في الإيمان بحكم يهوه الخلق ، ما يكفي العالم الأكبر كما يكفي العالم الأصغر • ومرة أخرى ، حمل تصور شخصية يهوه الخلقية هذا ، معه ، مطلب الخدمة الخلقية من عابديه • وكانت السنن الرسمية والمراسم الحاوية لا شيء ، في نظره • « اني أريد رحمة لا ذبيحة ومعرفة الله أكثر من محرقات » • « بغضت كرهت أعيادكم ولست التذ (لا اشم - النسخة المنقحة) باعتكفاتكم : اني اذا قدمت لي محرقاتكم وتقدماتكم لا أرتضى ••• وليجر الحق كالمياه والبر كنهر دائم » ^(٤) • انه في

(١) عاموس ٩ ، ٢ اشعيا ٧ ، ١١ ومع هذا فان التصور البدائي عن أن شيلول (جهنم) خارجة عن نطاق حكم يهوه ظل قروناً بجانب مذهب التوحيد وعدم الترابط التفكيرى هذا لم يكن يحس به (أنظر اشعيا ٣٨ ، ١٨ ومزامير ٥٨ ، ٥) •

(٢) عاموس : ١ و ٢ و ٩ ، ٧ • انه لا أجل مظالم ارتكبت ضد العبريين ، أن خمسة من الستة شعوب التي أشار إليها في الأصحاحين الأول والثاني سيوقع عليها القصاص • ولا يزال التعميم الذي جاء بعد ذلك ، بعيداً ، وفي اشعيا : ١٠ ، ٥ - ١٥ نجد آشور داخل نطاق سيادة يهوه •

(٣) ولهوزن (Wellhausen) الذي يوضح زيادة على ذلك ، كيف أن الأنبياء أدمجوا في دينهم التصور الحديث لدولة - عالم (أى آشور) التي كانت تحطم الأمم الأخرى ودياناتها •

(٤) هوشع : ٦ ، ٦ وعاموس : ٥ ، ٢١ - ٤ قابل اشعيا : ١ ، ١١-١٧ و ٢٢ ، ١٢ - ١٣

صورة المعرفة ، أن الانبياء يعبرون عن العلاقة الخلقية بين يهوه وشعبه .
 ان يهوه كان يعرف اسرائيل وابنى اسرائيل أن يعرف يهوه . « لا أمانة
 ولا احسان (محبة) ولا معرفة الله في الأرض » . لقد هلك شعبي من عدم
 المعرفة لأنك أنت رفضت المعرفة أرفضك أنا » (١) . وعند عاموس ، تكون
 هذه المعرفة بالاعتراف العملي بالعدالة الاجتماعية وفي مراعاة الانسانية
 والتعامل العادل بين الانسان والانسان . وعند هوشع ، تكون نعمتها
 الجوهرية المحبة ، محبة الطفل لأبيه والعروس لزوجها . ان ما تدرس به
 شخصيا من تجربة مريرة في عدم أمانة الزوجة التي كان يحبها يفسى
 شعورا فريدا بالاشفاق على الصورة التي وضعها هوشع لرفق يهوه الذي
 لا يعتريه وهن ، وهجران العبريين ليهوه لاشباع شهوة جسمية للتعليم
 الكنعاني . لقد فصمت الأمة وثاق زواجها ، وفي قلب دوجع ، يساق يهوه
 الى النطق بالحكم على مصيرها : « والآن اكشف عورتها أمام عيون محبيها
 ولا ينقذها أحد من يدي » (٢)

٨ - لقد عاجلنا في شيء من الاستفاضة رسالة عاموس وهوشع التنبؤية
 لأنها استهلكت عهدا جديدا له مغزى يفوق الحصر في تطور دين العبريين .
 ولقد أزاح أنبياء العهد اللاحق الغطاء عن مظاهر تعليمها الجوهرية بتطبيقها
 بوسائل متباينة على مجرى التاريخ العبرى المتغير . ويسقوط المملكة الشمالية
 (٧١١) ينتقل مركز الاهتمام صوب الجنوب الى يهوذا وهنا ، تحت امرة
 ملوك من سلالة داود ، أصبحت الحكومة مركزة ومستقرة وغدت الحياة
 الاجتماعية ، ما عدا بلاط بيت المقدس ، أكثر بساطة وأقل ترفا وحتى ذلك
 الحين كان التهديد الاشورى نائيا . ولكن الآن ، جلب غزو السامرة العدو
 حتى الابواب عينها . ولقد أتاحت الازمة القومية ، كشأنها دائما ، الفرصة
 للوحي التنبؤي في شخص ميخا ، وهو زارع من تخم فلسطين واشعياء من
 بيت المقدس وهو أكبر شخصية في النبوة العبرية . واستغرق عمل اشعياء
 الأربعين سنة الأخيرة من القرن الثامن وكان منتهاه في عهد الملك حزقيال
 عام ٧٠١ ، عندما غزا الاشوريون في عهد سنخریب يهوذا وظهروا أمام
 أسوار الحاضرة ، وتتضمن الفصول التسعة والثلاثون الأولى من السفر الذي

(١) هوشع : ٤ ، ١ ، ٦ قابل عاموس : ٣ ، ٢ ، ١٠ وهوشع : ٢ ،
 على قصود اسرائيل عن معرفة يهوه .

(٢) هوشع : ٢ ، ١٠ قابل ١ و ١١ و ١ - ٨ والاستنكار النهائي ١٣

يحمل اسمه ^(١) ، تنبؤاته وهي في مادتها ، تضرب على النعمة التي صدح بها عاموس وهوشع نعمة الاستنكار العنيف للخطيئة القومية وقصاص يهوه المحيق ، على يد أشور . والتصور الذي يتملك اشعيا هو القداسة ، التعبير الشائع في الدين الشعبي ، الذي يضاف عليه معنى روحيا جديدا . ان يهوه ليس فقط « رب الجنود » ولكن « قدوس اسرائيل » . والعبريون شعب مقدس تخصص لخدمته . ولقد كانت قداسة يهوه على النقيض من نجاسته هو ونجاسة اسرائيل التي أوقعت على النبي الحزى والفزع في الرؤيا الرائعة التي دعت الى خدمة النبوة ^(٢) وتمثل شريعة القداسة ، كما في عاموس في مطلب العدالة الاجتماعية وكما في هوشع في مطلب الاخلاص الشخصي . وخطيئة الشعب هي أنهم « ردلوا شريعة رب الجنود واستهانوا بكلام قدوس اسرائيل » ^(٣) . ويتميز اشعيا عن تقدموه ، بالزمن المديد الذي استمر فيه نشاطه التنبؤي وبمكانته كناصح سياسي للملك ، معترف به ^(٤) وفي داخل الدولة ، كان يبشر بالعدالة نحو الزراع الذين كان يتكون منهم ، كما في

(١) وخاصة في الاصحاحات ١ - ١٢ و ١٤ ، ٢٤ و ٢٣ و ٢٨ - ٣٢ . ويرجع « سفر اشعيا » في صيغته الحالية الى ما بعد السبي . وأية مناقشة للمسائل التي يثيرها النقد الحديث ، تقع خارج نطاقنا . ويجب على القارى الرجوع الى روبرتسون سميث (Robertson Smith) أنبياء اسرائيل (Prophets of Israel) المحاضرة الخامسة (وخاصة التذكرة ٧ صفحة ٤٢٢) ومقدمة ادب العهد القديم لدرافير

(Driver's Introduction to the Literature of the O.T.)

أما عن آراء أكثر جزما فانظر شين (Cheyne) التعريف باشعيا ، ومقالته « اشعيا في موسوعة التوراة (Encyclopaedia Biblica) » ، أما عن اشعيا الثاني فانظر ١٥ فيما يلي .

(٢) اشعيا : ٦ يجب دراسة الرؤيا في عناية . في الدين التقليدي كان الشيء المقدس محرما أى محظورا على البشر استخدامه لأنه (مشحون) بخواص من جوارق الطبيعة . أنظر روبرتسون سميث (دين الساميين) المحاضرة الرابعة (التذكرة ب) ويشوع : ٧ (قصة عخان) وصموئيل الاول : ١٥ (شاول وأجاج) وصموئيل الثاني : ٦ (عزه والتابوت) ولللفظ في اشعيا دلالة داخلية وروحية خالصة ، عن تقديس وتطهير القلب ولكون الكلمة عينها تستعمل كقلب لعاهرات المعبد اللواتي يحتجن لفرائض المقدس الشهوانية التي لم تلغ الا عند اصلاح التنبية فان هذا يمكن أن يعد مقياسا للهوة الواقعة بين النبوة العليا والدين الشعبي ، في ذلك الزمن .

(٣) اشعيا : ٥ ، ٢٤

(٤) وازن علاقاته مع احاز زمن الغزو السوري - الافريمي (٧٣٥ - ٤) اشعيا : ١٧ ، ١ - ١٦ ومع حزقيا زمن غزو سنخریب (١ ، ٧) ملوك الثاني : ١٨ ، ١٣ و ٢٠ (وهو المصدر الذي أخذ عنه اشعيا ٣٦ - ٣٩ في معظمه) .

اسرائيل الشمالية العمود الفقارى للأمة وبالحاجة الى تحقيق الفروض الدينية كجزء لا يتجزأ من الحياة العادية ^(١) وفى السياسة الخارجية كان يحض على أن تفلح يهوذا عن الاشتباكات الدولية وخاصة التحالف مع مصر وغيرها من الدول ، ضد آشور ^(٢) وكانت مشورته الباكورة لآحاز التى أعيدت بعد ذلك بأعوام على حزقيال فى مواجهة هجوم سنخريپ : « احترز واحداً • بالهدوء والطمانينة تكون قوتكم » ^(٣) ولقد وطد انهيار الجيش الآشورى سلطة اشعيا أمام عينى الملك والشعب • ونجم عنه أكثر من هذا لأنه هيا ليهوذا مجال تنفس لاستيعاب درس التعليم التنبؤى • وفى المملكة الشمالية كانت الطامة قد حلت سراعاً عقب تحذيرات عاموس وهوشع • ولم يعد بعد لدين يهوذا أثر بين الآشوريين فى آشور أو بين الفلول التى بقيت فى فلسطين ولو كانت يهوذا لاقت مصيراً مماثلاً على يد سنخريپ قبل أن تظفر حياة شعبها الدينية بقوة جديدة من رسالة اشعيا ، لكان الايمان باله قومى خالص قد اندثر بسقوط الأمة • ولكن يقين اشعيا كان يبرره الحادث وزال الخطر ومنع التدهور السريع الذى حل بدولة آشور سقطت يهوذا طوال قرن من الزمان • وعندما حل ذلك السقوط على يدى بابل ، كانت رسالة اشعيا قد تاصلت جذورها • وكانت قد تجمعت حوله ، فى حياته ، شذمة أمانة وكونت النواة لمجتمع دينى فى داخل الأمة ويتميز عنها وفى هذه العصبية من تلاميذه ^(٤) كان يرى النبى الأمل فى عودة ، فى النهاية - بعد أن أرفع يهوذا قصاصه على الدولة الحالية - لصهيون ممحضة تحت ولاية أمير من سلالة داود القديمة ولها السيادة على الشعوب المجاورة ، لأمة عبرية قدسها الألم وتعيش عيشها القومى فى توافق تام مع شريعة يهوذا : « لذلك يقول السيد رب الجنود عزيز اسرائيل آه انى استريح من خصمائى وانتقم من أعدائى • وأرد يدى عليك وانقى زغلك كأنه بالبورق وأنزع كل قصديرك • وأعيد قضائك كما فى الأول ومسيرك كما فى البداية بعد ذلك ندعين مدينة

- (١) لعن الجور والشرف - اشعيا : ١ ، ٢١ - ٣ ، ٣٠ ، ١٦ - ٢٣ وه ، ٨ - ٢٣ ، ١٠ ، ٣١ - ٣ ، ٢ ، ٣ ، ١١
(٢) لعن السحر والعرافة اشعيا : ٢ ، ٦ ، ٨ ، ١٩
(٣) لعن عبادة الأوثان اشعيا : ١ ، ٢٩ - ٣٠ ، ٢ ، ٨ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥١٥ ، ٥١٦ ، ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥١٩ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٥٢٤ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٥٣١ ، ٥٣٢ ، ٥٣٣ ، ٥٣٤ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٤٠ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨ ، ٥٤٩ ، ٥٥٠ ، ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥ ، ٥٥٦ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٥٥٩ ، ٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ ، ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٦٨ ، ٥٦٩ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤ ، ٥٧٥ ، ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ٥٧٨ ، ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٥٨١ ، ٥٨٢ ، ٥٨٣ ، ٥٨٤ ، ٥٨٥ ، ٥٨٦ ، ٥٨٧ ، ٥٨٨ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣ ، ٥٩٤ ، ٥٩٥ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧ ، ٥٩٨ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠ ، ٦٠١ ، ٦٠٢ ، ٦٠٣ ، ٦٠٤ ، ٦٠٥ ، ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦٠٨ ، ٦٠٩ ، ٦١٠ ، ٦١١ ، ٦١٢ ، ٦١٣ ، ٦١٤ ، ٦١٥ ، ٦١٦ ، ٦١٧ ، ٦١٨ ، ٦١٩ ، ٦٢٠ ، ٦٢١ ، ٦٢٢ ، ٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ٦٢٥ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، ٦٢٨ ، ٦٢٩ ، ٦٣٠ ، ٦٣١ ، ٦٣٢ ، ٦٣٣ ، ٦٣٤ ، ٦٣٥ ، ٦٣٦ ، ٦٣٧ ، ٦٣٨ ، ٦٣٩ ، ٦٤٠ ، ٦٤١ ، ٦٤٢ ، ٦٤٣ ، ٦٤٤ ، ٦٤٥ ، ٦٤٦ ، ٦٤٧ ، ٦٤٨ ، ٦٤٩ ، ٦٥٠ ، ٦٥١ ، ٦٥٢ ، ٦٥٣ ، ٦٥٤ ، ٦٥٥ ، ٦٥٦ ، ٦٥٧ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦٠ ، ٦٦١ ، ٦٦٢ ، ٦٦٣ ، ٦٦٤ ، ٦٦٥ ، ٦٦٦ ، ٦٦٧ ، ٦٦٨ ، ٦٦٩ ، ٦٧٠ ، ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣ ، ٦٧٤ ، ٦٧٥ ، ٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٦٧٨ ، ٦٧٩ ، ٦٨٠ ، ٦٨١ ، ٦٨٢ ، ٦٨٣ ، ٦٨٤ ، ٦٨٥ ، ٦٨٦ ، ٦٨٧ ، ٦٨٨ ، ٦٨٩ ، ٦٩٠ ، ٦٩١ ، ٦٩٢ ، ٦٩٣ ، ٦٩٤ ، ٦٩٥ ، ٦٩٦ ، ٦٩٧ ، ٦٩٨ ، ٦٩٩ ، ٧٠٠ ، ٧٠١ ، ٧٠٢ ، ٧٠٣ ، ٧٠٤ ، ٧٠٥ ، ٧٠٦ ، ٧٠٧ ، ٧٠٨ ، ٧٠٩ ، ٧١٠ ، ٧١١ ، ٧١٢ ، ٧١٣ ، ٧١٤ ، ٧١٥ ، ٧١٦ ، ٧١٧ ، ٧١٨ ، ٧١٩ ، ٧٢٠ ، ٧٢١ ، ٧٢٢ ، ٧٢٣ ، ٧٢٤ ، ٧٢٥ ، ٧٢٦ ، ٧٢٧ ، ٧٢٨ ، ٧٢٩ ، ٧٣٠ ، ٧٣١ ، ٧٣٢ ، ٧٣٣ ، ٧٣٤ ، ٧٣٥ ، ٧٣٦ ، ٧٣٧ ، ٧٣٨ ، ٧٣٩ ، ٧٤٠ ، ٧٤١ ، ٧٤٢ ، ٧٤٣ ، ٧٤٤ ، ٧٤٥ ، ٧٤٦ ، ٧٤٧ ، ٧٤٨ ، ٧٤٩ ، ٧٥٠ ، ٧٥١ ، ٧٥٢ ، ٧٥٣ ، ٧٥٤ ، ٧٥٥ ، ٧٥٦ ، ٧٥٧ ، ٧٥٨ ، ٧٥٩ ، ٧٦٠ ، ٧٦١ ، ٧٦٢ ، ٧٦٣ ، ٧٦٤ ، ٧٦٥ ، ٧٦٦ ، ٧٦٧ ، ٧٦٨ ، ٧٦٩ ، ٧٧٠ ، ٧٧١ ، ٧٧٢ ، ٧٧٣ ، ٧٧٤ ، ٧٧٥ ، ٧٧٦ ، ٧٧٧ ، ٧٧٨ ، ٧٧٩ ، ٧٨٠ ، ٧٨١ ، ٧٨٢ ، ٧٨٣ ، ٧٨٤ ، ٧٨٥ ، ٧٨٦ ، ٧٨٧ ، ٧٨٨ ، ٧٨٩ ، ٧٩٠ ، ٧٩١ ، ٧٩٢ ، ٧٩٣ ، ٧٩٤ ، ٧٩٥ ، ٧٩٦ ، ٧٩٧ ، ٧٩٨ ، ٧٩٩ ، ٨٠٠ ، ٨٠١ ، ٨٠٢ ، ٨٠٣ ، ٨٠٤ ، ٨٠٥ ، ٨٠٦ ، ٨٠٧ ، ٨٠٨ ، ٨٠٩ ، ٨١٠ ، ٨١١ ، ٨١٢ ، ٨١٣ ، ٨١٤ ، ٨١٥ ، ٨١٦ ، ٨١٧ ، ٨١٨ ، ٨١٩ ، ٨٢٠ ، ٨٢١ ، ٨٢٢ ، ٨٢٣ ، ٨٢٤ ، ٨٢٥ ، ٨٢٦ ، ٨٢٧ ، ٨٢٨ ، ٨٢٩ ، ٨٣٠ ، ٨٣١ ، ٨٣٢ ، ٨٣٣ ، ٨٣٤ ، ٨٣٥ ، ٨٣٦ ، ٨٣٧ ، ٨٣٨ ، ٨٣٩ ، ٨٤٠ ، ٨٤١ ، ٨٤٢ ، ٨٤٣ ، ٨٤٤ ، ٨٤٥ ، ٨٤٦ ، ٨٤٧ ، ٨٤٨ ، ٨٤٩ ، ٨٥٠ ، ٨٥١ ، ٨٥٢ ، ٨٥٣ ، ٨٥٤ ، ٨٥٥ ، ٨٥٦ ، ٨٥٧ ، ٨٥٨ ، ٨٥٩ ، ٨٦٠ ، ٨٦١ ، ٨٦٢ ، ٨٦٣ ، ٨٦٤ ، ٨٦٥ ، ٨٦٦ ، ٨٦٧ ، ٨٦٨ ، ٨٦٩ ، ٨٧٠ ، ٨٧١ ، ٨٧٢ ، ٨٧٣ ، ٨٧٤ ، ٨٧٥ ، ٨٧٦ ، ٨٧٧ ، ٨٧٨ ، ٨٧٩ ، ٨٨٠ ، ٨٨١ ، ٨٨٢ ، ٨٨٣ ، ٨٨٤ ، ٨٨٥ ، ٨٨٦ ، ٨٨٧ ، ٨٨٨ ، ٨٨٩ ، ٨٩٠ ، ٨٩١ ، ٨٩٢ ، ٨٩٣ ، ٨٩٤ ، ٨٩٥ ، ٨٩٦ ، ٨٩٧ ، ٨٩٨ ، ٨٩٩ ، ٩٠٠ ، ٩٠١ ، ٩٠٢ ، ٩٠٣ ، ٩٠٤ ، ٩٠٥ ، ٩٠٦ ، ٩٠٧ ، ٩٠٨ ، ٩٠٩ ، ٩١٠ ، ٩١١ ، ٩١٢ ، ٩١٣ ، ٩١٤ ، ٩١٥ ، ٩١٦ ، ٩١٧ ، ٩١٨ ، ٩١٩ ، ٩٢٠ ، ٩٢١ ، ٩٢٢ ، ٩٢٣ ، ٩٢٤ ، ٩٢٥ ، ٩٢٦ ، ٩٢٧ ، ٩٢٨ ، ٩٢٩ ، ٩٣٠ ، ٩٣١ ، ٩٣٢ ، ٩٣٣ ، ٩٣٤ ، ٩٣٥ ، ٩٣٦ ، ٩٣٧ ، ٩٣٨ ، ٩٣٩ ، ٩٤٠ ، ٩٤١ ، ٩٤٢ ، ٩٤٣ ، ٩٤٤ ، ٩٤٥ ، ٩٤٦ ، ٩٤٧ ، ٩٤٨ ، ٩٤٩ ، ٩٥٠ ، ٩٥١ ، ٩٥٢ ، ٩٥٣ ، ٩٥٤ ، ٩٥٥ ، ٩٥٦ ، ٩٥٧ ، ٩٥٨ ، ٩٥٩ ، ٩٦٠ ، ٩٦١ ، ٩٦٢ ، ٩٦٣ ، ٩٦٤ ، ٩٦٥ ، ٩٦٦ ، ٩٦٧ ، ٩٦٨ ، ٩٦٩ ، ٩٧٠ ، ٩٧١ ، ٩٧٢ ، ٩٧٣ ، ٩٧٤ ، ٩٧٥ ، ٩٧٦ ، ٩٧٧ ، ٩٧٨ ، ٩٧٩ ، ٩٨٠ ، ٩٨١ ، ٩٨٢ ، ٩٨٣ ، ٩٨٤ ، ٩٨٥ ، ٩٨٦ ، ٩٨٧ ، ٩٨٨ ، ٩٨٩ ، ٩٩٠ ، ٩٩١ ، ٩٩٢ ، ٩٩٣ ، ٩٩٤ ، ٩٩٥ ، ٩٩٦ ، ٩٩٧ ، ٩٩٨ ، ٩٩٩ ، ١٠٠٠ ، ١٠٠١ ، ١٠٠٢ ، ١٠٠٣ ، ١٠٠٤ ، ١٠٠٥ ، ١٠٠٦ ، ١٠٠٧ ، ١٠٠٨ ، ١٠٠٩ ، ١٠١٠ ، ١٠١١ ، ١٠١٢ ، ١٠١٣ ، ١٠١٤ ، ١٠١٥ ، ١٠١٦ ، ١٠١٧ ، ١٠١٨ ، ١٠١٩ ، ١٠٢٠ ، ١٠٢١ ، ١٠٢٢ ، ١٠٢٣ ، ١٠٢٤ ، ١٠٢٥ ، ١٠٢٦ ، ١٠٢٧ ، ١٠٢٨ ، ١٠٢٩ ، ١٠٣٠ ، ١٠٣١ ، ١٠٣٢ ، ١٠٣٣ ، ١٠٣٤ ، ١٠٣٥ ، ١٠٣٦ ، ١٠٣٧ ، ١٠٣٨ ، ١٠٣٩ ، ١٠٤٠ ، ١٠٤١ ، ١٠٤٢ ، ١٠٤٣ ، ١٠٤٤ ، ١٠٤٥ ، ١٠٤٦ ، ١٠٤٧ ، ١٠٤٨ ، ١٠٤٩ ، ١٠٥٠ ، ١٠٥١ ، ١٠٥٢ ، ١٠٥٣ ، ١٠٥٤ ، ١٠٥٥ ، ١٠٥٦ ، ١٠٥٧ ، ١٠٥٨ ، ١٠٥٩ ، ١٠٦٠ ، ١٠٦١ ، ١٠٦٢ ، ١٠٦٣ ، ١٠٦٤ ، ١٠٦٥ ، ١٠٦٦ ، ١٠٦٧ ، ١٠٦٨ ، ١٠٦٩ ، ١٠٧٠ ، ١٠٧١ ، ١٠٧٢ ، ١٠٧٣ ، ١٠٧٤ ، ١٠٧٥ ، ١٠٧٦ ، ١٠٧٧ ، ١٠٧٨ ، ١٠٧٩ ، ١٠٨٠ ، ١٠٨١ ، ١٠٨٢ ، ١٠٨٣ ، ١٠٨٤ ، ١٠٨٥ ، ١٠٨٦ ، ١٠٨٧ ، ١٠٨٨ ، ١٠٨٩ ، ١٠٩٠ ، ١٠٩١ ، ١٠٩٢ ، ١٠٩٣ ، ١٠٩٤ ، ١٠٩٥ ، ١٠٩٦ ، ١٠٩٧ ، ١٠٩٨ ، ١٠٩٩ ، ١١٠٠ ، ١١٠١ ، ١١٠٢ ، ١١٠٣ ، ١١٠٤ ، ١١٠٥ ، ١١٠٦ ، ١١٠٧ ، ١١٠٨ ، ١١٠٩ ، ١١١٠ ، ١١١١ ، ١١١٢ ، ١١١٣ ، ١١١٤ ، ١١١٥ ، ١١١٦ ، ١١١٧ ، ١١١٨ ، ١١١٩ ، ١١٢٠ ، ١١٢١ ، ١١٢٢ ، ١١٢٣ ، ١١٢٤ ، ١١٢٥ ، ١١٢٦ ، ١١٢٧ ، ١١٢٨ ، ١١٢٩ ، ١١٣٠ ، ١١٣١ ، ١١٣٢ ، ١١٣٣ ، ١١٣٤ ، ١١٣٥ ، ١١٣٦ ، ١١٣٧ ، ١١٣٨ ، ١١٣٩ ، ١١٤٠ ، ١١٤١ ، ١١٤٢ ، ١١٤٣ ، ١١٤٤ ، ١١٤٥ ، ١١٤٦ ، ١١٤٧ ، ١١٤٨ ، ١١٤٩ ، ١١٥٠ ، ١١٥١ ، ١١٥٢ ، ١١٥٣ ، ١١٥٤ ، ١١٥٥ ، ١١٥٦ ، ١١٥٧ ، ١١٥٨ ، ١١٥٩ ، ١١٦٠ ، ١١٦١ ، ١١٦٢ ، ١١٦٣ ، ١١٦٤ ، ١١٦٥ ، ١١٦٦ ، ١١٦٧ ، ١١٦٨ ، ١١٦٩ ، ١١٧٠ ، ١١٧١ ، ١١٧٢ ، ١١٧٣ ، ١١٧٤ ، ١١٧٥ ، ١١٧٦ ، ١١٧٧ ، ١١٧٨ ، ١١٧٩ ، ١١٨٠ ، ١١٨١ ، ١١٨٢ ، ١١٨٣ ، ١١٨٤ ، ١١٨٥ ، ١١٨٦ ، ١١٨٧ ، ١١٨٨ ، ١١٨٩ ، ١١٩٠ ، ١١٩١ ، ١١٩٢ ، ١١٩٣ ، ١١٩٤ ، ١١٩٥ ، ١١٩٦ ، ١١٩٧ ، ١١٩٨ ، ١١٩٩ ، ١٢٠٠ ، ١٢٠١ ، ١٢٠٢ ، ١٢٠٣ ، ١٢٠٤ ، ١٢٠٥ ، ١٢٠٦ ، ١٢٠٧ ، ١٢٠٨ ، ١٢٠٩ ، ١٢١٠ ، ١٢١١ ، ١٢١٢ ، ١٢١٣ ، ١٢١٤ ، ١٢١٥ ، ١٢١٦ ، ١٢١٧ ، ١٢١٨ ، ١٢١٩ ، ١٢٢٠ ، ١٢٢١ ، ١٢٢٢ ، ١٢٢٣ ، ١٢٢٤ ، ١٢٢٥ ، ١٢٢٦ ، ١٢٢٧ ، ١٢٢٨ ، ١٢٢٩ ، ١٢٣٠ ، ١٢٣١ ، ١٢٣٢ ، ١٢٣٣ ، ١٢٣٤ ، ١٢٣٥ ، ١٢٣٦ ، ١٢٣٧ ، ١٢٣٨ ، ١٢٣٩ ، ١٢٤٠ ، ١٢٤١ ، ١٢٤٢ ، ١٢٤٣ ، ١٢٤٤ ، ١٢٤٥ ، ١٢٤٦ ، ١٢٤٧ ، ١٢٤٨ ، ١٢٤٩ ، ١٢٥٠ ، ١٢٥١ ، ١٢٥٢ ، ١٢٥٣ ، ١٢٥٤ ، ١٢٥٥ ، ١٢٥٦ ، ١٢٥٧ ، ١٢٥٨ ، ١٢٥٩ ، ١٢٦٠ ، ١٢٦١ ، ١٢٦٢ ، ١٢٦٣ ، ١٢٦٤ ، ١٢٦٥ ، ١٢٦٦ ، ١٢٦٧ ، ١٢٦٨ ، ١٢٦٩ ، ١٢٧٠ ، ١٢٧١ ، ١٢٧٢ ، ١٢٧٣ ، ١٢٧٤ ، ١٢٧٥ ، ١٢٧٦ ، ١٢٧٧ ، ١٢٧٨ ، ١٢٧٩ ، ١٢٨٠ ، ١٢٨١ ، ١٢٨٢ ، ١٢٨٣ ، ١٢٨٤ ، ١٢٨٥ ، ١٢٨٦ ، ١٢٨٧ ، ١٢٨٨ ، ١٢٨٩ ، ١٢٩٠ ، ١٢٩١ ، ١٢٩٢ ، ١٢٩٣ ، ١٢٩٤ ، ١٢٩٥ ، ١٢٩٦ ، ١٢٩٧ ، ١٢٩٨ ، ١٢٩٩ ، ١٣٠٠ ، ١٣٠١ ، ١٣٠٢ ، ١٣٠٣ ، ١٣٠٤ ، ١٣٠٥ ، ١٣٠٦ ، ١٣٠٧ ، ١٣٠٨ ، ١٣٠٩ ، ١٣١٠ ، ١٣١١ ، ١٣١٢ ، ١٣١٣ ، ١٣١٤ ، ١٣١٥ ، ١٣١٦ ، ١٣١٧ ، ١٣١٨ ، ١٣١٩ ، ١٣٢٠ ، ١٣٢١ ، ١٣٢٢ ، ١٣٢٣ ، ١٣٢٤ ، ١٣٢٥ ، ١٣٢٦ ، ١٣٢٧ ، ١٣٢٨ ، ١٣٢٩ ، ١٣٣٠ ، ١٣٣١ ، ١٣٣٢ ، ١٣٣٣ ، ١٣٣٤ ، ١٣٣٥ ، ١٣٣٦ ، ١٣٣٧ ، ١٣٣٨ ، ١٣٣٩ ، ١٣٤٠ ، ١٣٤١ ، ١٣٤٢ ، ١٣٤٣ ، ١٣٤٤ ، ١٣٤٥ ، ١٣٤٦ ، ١٣٤٧ ، ١٣٤٨ ، ١٣٤٩ ، ١٣٥٠ ، ١٣٥١ ، ١٣٥٢ ، ١٣٥٣ ، ١٣٥٤ ، ١٣٥٥ ، ١٣٥٦ ، ١٣٥٧ ، ١٣٥٨ ، ١٣٥٩ ، ١٣٦٠ ، ١٣٦١ ، ١٣٦٢ ، ١٣٦٣ ، ١٣٦٤ ، ١٣٦٥ ، ١٣٦٦ ، ١٣٦٧ ، ١٣٦٨ ، ١٣٦٩ ، ١٣٧٠ ، ١٣٧١ ، ١٣٧٢ ، ١٣٧٣ ، ١٣٧٤ ، ١٣٧٥ ، ١٣٧٦ ، ١٣٧٧ ، ١٣٧٨ ، ١٣٧٩ ، ١٣٨٠ ، ١٣٨١ ، ١٣٨٢ ، ١٣٨٣ ، ١٣

العدل القرية الامينة » (١) لقد ضرب على نغمة الرجاء ومنذ ذلك الحين ، يظل الايمان بعودة العبريين قائما ، فى شدة تطرد ازديادا كمظهر جوهرى للنبوذة العبرية .

٩ - وأتى نفوذ اشعيا ثمرته على الراجح فى غضون حياته ، ويقينا بعد فترة من رد الفعل فى زمن منسى فى الاصلاح الدينى الذى وقع فى عهد الملك يوشيا (٦٣٩ - ٦٠٨) . ولقد كانت مدونة القوانين التى جاءت فى سفر التثنية والتى نفذت رسميا عام ٦٢١ من عمل مدرسته وتشيع فيها برمتها روح تعليمه (٢) . وكان هدفها عمليا الى ابعاد حد وهو جعل حياة العبريين اليومية الواقعية تتوافق مع مثل النبوذة الاعلى . لقد حظرت كل عبادة الاصنام والتماثيل وكذلك ما تبقى من عبادات كنعانية ولقد نظمت الاواصر الاجتماعية والفرائض الدينية كذلك وفقا لروح الانبياء (٣) . وفوق هذا كله ، ألغيت الهياكل المحلية دون هوادة وتركزت العبادة الدينية المحضة فى معبد بيت المقدس ولو كانت جمهرة الامة برهنت على أنها خليقة بأن تسلك الطريق الذى رسم لها فان تشريع التثنية ربما كان قد هيا الوثيقة الكفيلة بالاصلاح . ولكن لم يكن هذا ليحدث وظل المثل الاعلى التنبؤى مثلا أعلى وحسب ، لا قدرة له على تغيير القلوب الا قلوب اقلية ضئيلة ويتجلى التناقض

(١) اشعيا : ١ ، ٢٤ - ٢٦ وازن ٧ ، ٣ ، ٢٨ ، ١٦ وما بعدها . ان اشعيا مواطن بيت المقدس والمشير الملكى ، لم يكن لديه شىء من التحيز ضد المدينة ولديه ايثار للعودة الى حياة البداوة تلك النزعة التى كانت لسلفه من النبيين . واذا كان اصحاح ٩ ، ١ - ٧ واصحاح ١١ هما لاشعيا كما يعتقد معظم الثقة فانهما يعدمان ازوع تعبيرات عن الامل فى العودة . ولقد كان للعبارة التى جاءت فى اصحاح ١١ تاريخ لا يغيب عن البال . ان ارجوزة الرعاة الرابعة للشاعر الرومانى فيرجيل تحوى سطورا تماثلها تماثلا وثيقة وازن الجامعة : ٤ ، ٢١ وما بعدها ٥ ، ٦٠ واشعيا : ١١ ، ٦ - ٨ . وهذا التشابه بين ما جاء فى فيرجيل ونبوذة فسرت على أنها تشير الى المسيح ، هو السبب الى حد بعيد للتبجيل الخاص الذى كان يضمّر لفيرجيل فى العصور المسيحية الاولى وفى القرون الوسطى . ويلحظ شين (Cheyne) (الحياة الدينية) صفحة ١٠٣ - تذكرا . أن فى كاتلدراثية زامورا فى اسبانيا يمثل فيرجيل بين الانبياء العبريين . ومن الجائز أن فيرجيل والنبي العبرى عبرا تعبيرا مستقلا عن فكرة شرقية عامة .

(٢) توجد فى التثنية : ٥ - ٢٦ وهى منسوخة عن شريعة اقدم اتى عليها بالتحوير التعليم التنبؤى . وعن قصة الاصلاح ، أنظر ملوك الثانى : ٢٢-٢٣ (٣) لعن اشعيا عبادة التماثيل والارواح فى الاشجار (١) ، ٢٩ وما بعدها (١٧ ، ١٠) وكانت عبادة التماثيل قد لعنها هوشع (٨ ، ٤ - ٦ ، ١٠ ، ٥ و١٣ ، ٢) الذى كان تأثيره على التثنية أعظم من تأثير أى نبي آخر . من انبياء القرن الثامن . وتحض التثنية على الشعور الانسانى والعدل نحو الاثملة واليتيم والعبد والمستوطن الغريب وحتى العجم من الحيوان .

بين النصح والعمل ، في وضوح عشية خراب اورشليم كما كان عشية خراب السامرة .

١٠ - ولقد كان هذا الرفض العصى لارادة يهوه المعلنة هو الذي ختم طابعه على روح ارميا (١) . ومرة أخرى كان العدو على الابواب ، ليس الاشوريون الذين كان عصر امباطوريتهم قد ولى ولكن نبوخذ نصر من بابل . ودنت ساعة الاسر ووجدت حشجة موت يهوذا تعبيراً لها في صرخة النبي ، من التوجع اليائس . وكان ارميا الكاهن الهابط من عناثوث ، في صدر شبابه يناصر اصلاح التثنية ولكن الآن ظهر كآفة سخرية خاوية وكان شعاره هيكل يهوه (٢) . شبلت من الانبياء والكهنة الكذبة . ان هيكل صهيون ، مقدس العبادة التي جدت سيلاقى المصير الذي لاقاه مقدس شيلوه : « كيف تقولون نحن حكماء وشرعية الرب معنا . حقا انه الى الكذب حولها قلم الكتبة الكاذب » . « صار في الارض دهش وقشعريرة . الانبياء يتنبأون بالكذب والكهنة تحكم على أيديهم وشعبي هكذا أحب . وماذا تعملون في آخرتها » (٣) . وارميا كانت دعواه الى عبادة ، لا تقوم على رسميات الهيكل

(١) كانت بداية تقدم ارميا كنبى عام ٦٢٦ وقت غزو السيشيين الذي جاء وصفه في هيرودوت (١ ، ١٠٣ وما بعدها) والذي استدعى التنبؤات التي وردت في ارميا : ٤ - ٦ . ولقد تنبأ صفنيا ومن الراجح أنه كان أميراً من الدم الملكي في ابان الازمة نفسها (انظر صفنيا : ٢ ، ٣ وما بعدها) . وقد عاون السيشيون على اضعاف دولة آشور التي كانت تسير الى تدهور . وقد شنتوا شمل الفلسطينيين ووصلوا الى تخوم مصر ولكن يظهر أنهم أعفوا عن يهوذا . ورأى صفنيا في مجيئهم « يوم يهوه » انظر صفنيا : ١ ، ١٤ وما بعدها وهي العبارة التي أوجت بالترنيمة المسيحية (Dies irea, dies illa) . وقد عاش ارميا بعد سقوط اورشليم نهائياً على يد نبوخذ نصر عام ٥٨٦ . وتوجد أهم تنبؤاته في الفصول ١ - ٢٤ وتنبؤات العودة في الفصول ٣٠-٣٣ ، يشك فيها بعض النقاد الحديثين ولكن يقبلها ولهاوزن (Wellhausen) ودرايفر (Driver) وكورنيل (Cornill) على أنها ، أساسياً ، من عمل ارميا (فيما عدا ٣٣ ، ١٤-١٦) . جاء (في الفصل ٣٦) أن التنبؤات السابقة أعيدت كتابتها باضافات باروخ بامر من ارميا بعد أن أقيمت بأعوام كثيرة . وترجم الى نفس الحقبة تنبؤات ناحوم (حوالى عام ٦١٢ ، تاريخ سقوط نينوى) وحقوق (قبل عام ٦٠٠ بزمى وجيز) . ويبنى حيقوق بتحول جديد في تصور « اليوم » . انه في نظر الشعب ، يوم انتصار العبرانيين على آشور ولكن اذا فسر خلقياً فانه انتصار الامة الصالحة على الامة الطالحة .

(٢) القضية : ١٢ ، ٦ « كانوا يقولون له قل اذا شبلت فيقول سبلت ولم يتحفظ للفظ بحق ٠٠٠ » .

(٣) ارميا : ٨ ، ٨ ، ٥ ، ٣٠ ، ٣١ وعن تبشير ارميا الباكر ، بشرية التثنية انظر الفصل ١١ ، ١ - ٨ وعن عبادة الهيكل انظر فصل ٧ وعن الانبياء الكذبة فصل ١٤ ، ١٣ - ١٦ ، ٢٣ ، ٩ وما بعدها وفصل ٢٨ حيث يناصر حنانيا ارميا ، العقيدة السياسة التي ألهمت اصلاح يوشيا .

تراث العالم القديم

وقد دعا الى العدول عن القوانين السطحية وعن الديانة تؤخذ من الكتب واللياذ الى هيكل روحى وأصحيات روحية ونى نغمات أكثر وضوحا مما جاء بها أى نبي سابق ، نادى بمطالب دين شخصى • وأولئك الذين أتوا فى عصر لاحق ، الذين أقاموا الدعوى ضد التشريع باسم القداسة الداخلية ، رجعوا بنظرة الى الخلف ولسبب صالح ، الى ارميا ، كمصدر للإلهام ^(١) وهذه المأساة لطبع منطو على نفسه ، حساس ، تجبره دعوة متعالية لتشديد النكير على عصيان الحكام والشعب وأن يتنبأ بهلاكهم القريب ، استهوت فى قوة قاسرة ، خيال العصر التالية • ولما كان لاسبيل للخوف اليه وفى غمرة مجازفة بالحياة دائمة ، وهو يقوم بوظيفته « كجمل أو ثور يقاد للذبح » وكان بطلا ، كما قال كاتب عاطف ، ليس بطبعه ولكن بالنعمة ، فان ارميا كان يحس بانعزاله احساسا شديدا • ولم يكن يوجد انسان عامل بالعدل طالب الحق فى كل اورشليم ^(٢) وكان يتشوق عبثا الى التحرر من عناء رسالته المبرح : « يا ليت لى فى البرية بيت مسافرين فأترك شعبي وانطلق من عندهم لأنهم جميعا زناة جماعة خائنين » ^(٣) • وارميا هو الرائد للشعر الغنائى الدينى والملمم بالكثير من المزامير حتى لقد رأى فيه البعض نموذج ما جاء فى اشعياء : ٥٣ • ولما قنط من التوبة القومية « هل بغير الكوشى جلده أو النمر رقطه ؟ فأنتم أيضا تقدرون أن تصنعوا خيرا أيها المتعلمون الشر » ^(٤) فانه وجد لياذا فى فكرة عهد جديد ، ليس كما كان قديما بين يهوه والامة ولكن بين يهوه والعبرى الفرد • « فى تلك الأيام لا يقولون بعد الآباء أكلوا حصرا وأسنان الآبناء ضرست • بل كل واحد يموت بذنبه ، كل انسان يأكل الحصرم تضرس أسنانه • • • هذا هو العهد الذى أقطعه مع بيت اسرائيل بعد تلك الأيام يقول الرب اجعل شريعتي فى داخلهم واكتبها على قلوبهم وأكون لهم الها وهم يكونون لى شعبا • ولا يعلمون بعد كل واحد صاحبه وكل واحد أخاه قائلين أعرفوا الرب لأنهم كلهم سيعرفوننى من صغيرهم الى كبيرهم يقول الرب • لأننى أصفح عن اثمهم ولا أذكر خطيئتهم بعد » ^(٥)

-
- (١) وازن تصور ارميا الروحى للعهد الجديد ٣١ ، ٣١ - ٤ : الذى اقتبس فيما يلى فى النص ، بمزمور ١١ ، ٦-٨ مثلا من الأمور الجديدة بالملاحظة • أن ارميا هو رائد دين هو على السواء اتصال الفرد الشخصى اتصالا داخليا مع الله ، وعام فى دعواه ليس ثقت للعبرى ولكن للبشرية جمعاء • ومن الوجهين فانه أعلن روح المسيحية كما أعلن حزقيال روح اليهودية المتأخرة •
- (٢) ارميا : ١١ ، ١٩ الكاتب الذى ذكر هو شين (Cheyne) ارميا ٥ ، ١ وعن محاولة قتله انظر ١١ ، ١٨ وما بعدها • (كانوا رجالا من عناثوث) ١٨ ، ٨ و ٢٦ ، ٨ وما بعدها ، ٣٨ ، ٤
- (٣) ارميا : ٩ ، ٢ وازن المزامير ٥٥ ، ٥٠ - ٨
- (٤) ارميا : ١٣ ، ٢٣
- (٥) ارميا : ٣١ ، ٢٩ - ٣٤

ان هذا القول يضرب على وتيرة جديدة فى تعليم العبريين الروحي ، ولقد خبا ضوء رؤيا الانبياء الأوائل بادماج الفرد فى حياة ومصير الأمة ولم يكن الا بعد أن أدرك أرميا أن العبرى الحقيقى انكمش فى ذاته ، وان هذا التحيز أمكن التغلب عليه . ومن الآن كان الوعى بقيمة الدين الشخصى فى نظر يهوه ملكا مقيما للنبوّة العبرية . وفى الحق سار يهوذا الى السبى امام عينى ارميا وأصبحت الهوة التى تفصل المنزل الأعلى عن الواقع أكثر عسرا فى امكان اجتيازها ، مما كانت عليه الحال فى أية لحظة فى التاريخ . وقد نفى رؤساء الشعب الى بابل عام ٥٩٧ وبعد ذلك باحدى عشرة سنة دمرت اورشليم واصبحت دولة العبريين لا وجود لها (٥٨٦) ولكن ايمان ارميا بيهوه كاله العبريين الحى ظل ثابتا لا يتزعزع بانحلال الأمة السياسى . كان نبوخذ نصر خادِم يهوه ، ويهوه سلم العبريين الى يده (١) وقد قدر لرسالة النبى تحقيق أزر مما كان يحلم به . واذا كانت كلماته ، كما تدل جميع الظواهر قد عجزت عن انقاذ روح الأمة فان عكس ذلك كان ، حرفيا ، الحق . ولما كان قد حملها الأسرى معهم الى السبى فانها كانت مفعمة بالنشاط الذى يبعث بالحياة فى الزمن اللاحق . وقد اتاحت ساعة الانهيار الديوى الفرصة للأمة العبرية للولوج فى رسالتها الروحية للبشرية .

٣ - السبى وما بعده

١١ - لقد دمج الأسرى فى بابل ، بطابع عميق ، تاريخ المنفيين الأصلي . لقد أصبح هيكىل اورشليم حيث كانت تتركز العبادة الدينية وفق اصلاح التثنية ، خرابا (٢) وكان الشعب المختار فى الواقع ، تحت حظر . ولقد حطم فى عنف الأمل الذى كان يشيع فى الدين الشعبى القديم بأن يهوه سينقذ العبريين من أعدائهم وقام الدليل على أن « اليوم » ، كما تنبأ عاموس واشعيا ، يوم ظلام وليس يوم نور . ولولا وجود بذور عقيدة أرفع ، غرسها تعليم الانبياء ، فربما كان المنفيون قد اندمجوا وفقا لنية هازمهم فى حياة بابل الدينية والقومية . ولكن الأمر كان فى الواقع خلاف ذلك . لقد أوجدت حالة انزالهم عنها ، حيوية متجددة فيما كان يبلغ أسس ذروة وأعظم مكانة ممتازة ، فى عقيدتهم . ودلت أولا على أنها كانت دافعا قويا لدين القداسة الشخصية الذى وجد تعبيراً له فى نبوءات ارميا . لقد التمسّت الروح الفردية التفرّية والملاذ فى الاتصال الروحي الشخصى بيهوه .

(١) ارميا : ٢٧

(٢) ومع هذا ، فان الموقع لم يكن مما لا يمكن الوصول اليه (انظر ارميا : ٤١ ، ٥) ويظهر أن حياة متواصلة دأبت على السير بين أولئك الذين تركوا فى اقليم يهوذا ولو أنه كان ينقصهم النشاط للقيام بأية اعادة .

وثانيا ، على النقيض التام من اخلاص القلب هذا ، استعاد المنفيون فى آصرة ولاه ، تقاليد عبادة الهيكل القديمة وجمعوا فى دراسة وثيقة تراث التعاليم الشعبية التى تتصل بالفرائض . وعكف الكتبة الكهنة على تفسير الشريعة وتطويرها وعقدت اجتماعات ، يوم السبت ، للصلاة وقراءة الانبياء وعكفوا على الصوم وتذليل الجسد وبدأت المجامع تحل محل الاثمة التى توارت . وكان عهد النفى ، عهد تأسيس الكنيسة اليهودية واكتسبت السلطة الكهنوتية والمنظمات الكنسية قدرا جديدا . وازداد الاعتقاد بأن دين يهوه يمكن المحافظة عليه فقط بالقيام الدقيق بنصائح الناموس . ولقد تكررت نفس العوارض . نى الا زمن التالية بعد العودة من الأسر ، فى القرن الخامس ، ومرة أخرى فى صبغ تعليم الربانيين بالصيغة الشرعية بعد أن دمر الرومان الهيكل الثانى وتششت الشعب العبرى نهائيا . والأمر الثالث هو أن المنفيين التمسوا التعزية والرجاء فى رؤية صهيون وقد عادت الى سيرتها الأولى ، عندما يسكن العبريون ، مرة أخرى الأرض التى يملكونها ويحكم أمراء من نسل داود بالصلاح كخدام لارادة يهوه . هذه هى النعمة السائدة فى نبوءة السبى وما بعد السبى ولم تعد كلمة يهوه بعد كلمة غضب ومصير وشيك الوقوع ، والآآن وقد وقع القصاص على خطيئة العبريين فان يهوه كشف عن نفسه فى اشفاق محبة كمنقذ ومخلص شعبه ، ذى الفضل . وتظهر هذه الخصائص الثلاث لعصر النفى ، فى نبوءة حزقيال وهو كاهن عبرى ، نفى الى بابل عام ٥٩٧ ويرجع عمله فى التنبؤ الى الأعوام التى تستهل الأسر (٥٩٢ - ٥٧٠) . ويترك سفره فى نفس القارىء أثرا قويا عن وحدة تكوينه وقد يكون ، كما هو اليوم قريبا جدا من حالته عندما كتبه حزقيال على ضفاف خابور منذ خمسة وعشرين قرنا خلت . ولكن من المحتمل أن جزءا من السفر ، كما يعتقد بعض النقاد ، كتب فى اورشليم وأن أجزاء أخرى (كالفصول الختامية) أضافتها يد أخرى بعد ذلك . وعلى غير شاكلة النبوءات السابقة فانه فى معظمه انشاء أدبى ، لا مجموعة من اقوال نطق بها ، ولو أنه يحوى بعض النبوءات الشفوية ^(١) ويشمل سردا متتابعا من الاحاديث رتبها فى منهج منظم ، بيده . وهو يزخر بالرؤى والرمزية وينعكس من خلاله ، مزاج اللاهوتى الكاهن ^(٢) . وكان حزقيال (١) صلبا فى توكيده المسئولية الفردية والقصاص . وقد ألقع مرة واحدة ودون رجعة

(١) حزقيال : ٣٣ ، ٣٠ ، ٣١ عن هذه المسائل المتنازع فيها ، انظر مقدمة كوك (Cooke) فى « حزقيال » فى (التعليقات النقدية الدولية) (International Critical Commentary)

(٢) فى حزقيال ، يمكننا أن نتتبع أصل أدب الرؤيا ، الذى حل فيما بعد محل النبوءة . انظر ١٥ فيما يلى وعلى غير شاكلة نبوءة ما قبل السبى فان نبوءة الأسر وما بعدها تتخذ صيغة أدبية . لقد كتبها النبى نفسه ولم يكن بالضرورة ، أن نطق بها على الاطلاق .

عن تصور يهوه التقليدي كاله غيور ينتقم لذنوب الآباء في الأبناء ، ان كل انسان ينهض أو يهوى ، في نظر يهوه ، بأفعاله الخاصة : « الابن لا يحمل من اثم الأب والأب لا يحمل من اثم الابن ، بر البار عليه يكون وشر الشرير عليه يكون » ^(١) والى الآن لا يوجد تفكير في قصاص في الحياة الأخرى ويأخذ الانسان نصيبه من رغد العيش في الحياة الدنيا أو يلاقى المحنة وفق استحقاقه الخلقى . وسنرى في قسم آت ، كيف عجزت هذه الفردية المغالى فيها ، في ارضاء وعى الشعب العبري الخلقى المتطور . ولكن بالنظر الى الاستمسك السامع الذي كان يحرص عليه التعليم الدينى الباكر ، بمطالب المجتمع ، كان من اللازم ومن الطبيعى أن يصير حزقيال ، فى تأكيد ينحاز كذلك الى جانب واحد ، على مطلب الفرد التكميل وهو وجوب أن يكون المقرر لحكم يهوه ، الرجوع الى أفعاله والى أفعاله دون سواها . وقد واجه النبى تذر المنفيين من أن طرق الله لم تكن متعادلة وكان الجواب وقد اعترف فيه بالشخصية الفردية ، يدل على تقدم خلقى . ما كان بالمستطاع تحقيق أى تقدم صادق فى التأمل الخلقى الا بعد أن يكون مبدأ الجزء الشخصى قد تأيد ووجد ناقصا .

ثانيا (ب) نحوى الفصول الختامية من سفر حزقيال الوعد بعودة اسرائيل . سيجمع يهوه من جميع البلدان غنمه المشتته : « وأصيرهم أمة واحدة فى الأرض على جبال اسرائيل ٠٠٠ وداود عبيد يكون ملكا عليهم ٠٠٠ وأجعل مقدسى فى وسطهم الى الأبد ٠٠٠ وأكون لهم الها ويكونون لى شعبا . فتعلم الأمم أنى أنا الرب مقدس اسرائيل اذ يكون مقدسى فى وسطهم الى الأبد » ^(٢) . وينحصر أثن حزقيال فى مستقبل الشعب المختار ^(٣) ، اذ لا مكان للأمم فى ملكوت مسيا ولكن تبقى بعد انتصار العبريين لمجرد أن نلقى لحظة اعترافها بقوة يهوه القاهرة ^(٤) . وتسيطر الغيرة على كرامة يهوه على كل سلسلة تنبؤات حزقيال ومجرى تفكيره أنه يتحتم على يهوه أن يعيد اسرائيل وبهذا فقط تحفظ كرامته وتتجلى قوته أمام أبصار الأرض كلها . ولهذا استغاض فى شرح الهوة التى لا يمكن أن تقاس ، تلك التى تفصل نجاسة الانسان عن قداسة يهوه ستجعل أمة العبريين المعادة فى حالة من

(١) حزقيال : ١٨ ، ٢٠ أنظر الفصل كله و١٤ ، ١٢ - ٣٠ و٣٣ ، ١ - ٢٠

(٢) حزقيال : ٣٣ - ٤٨ وخاصة ٣٦ والاقتباس من ٣٧ ، ٢١ - ٨

(٣) هذا ما يورده المؤلف عن العقيدة العبرية . ولا يمكن أن تقبل عقول الاحرار فى زمننا هذه النعرة العنصرية ولا يمكن أن يسمح دين سماوى بإبادة شعب وادع مسالم لصالح طائفة من جواب الاتفاق .

(المترجم)

(٤) حزقيال : ٣٨ و٣٩ . ولكن هذت الفصول عن الامور الأخرى ، وأجزاء عظيمة من الفصول ٤٠ - ٤٨ ، من المحتمل أنها أضيفت بعد ذلك .

الوضاءة • ويظهر الكاهن في حزقيال في جلاء في (ح) هذا المثل الأعلى من الطهارة الفرضية • وهو يضع رسما مجبلا في الفصول التسعة الختامية للدستور المثالي للمجتمع المعاد • وتستبين في كل صفحة الصبغة الرسمية التي تتخذها نظرتة وتصوره للقداسة التي توجبها الفروض • والفكرة التي تسيطر عليه كانت فكرة حكومة مقدسة من الكهنة يظاهرها أمراء ينتمون الى سسما من بيت داود وتنظم حيناً العبريين الدينية من هيكلا أعيد تجديده • ولقد وضعت أبغاد المقدس الجديد في تفصيل دقيق • وقد أمر بالختان ، ليس كعادة قومية ولكن كمرسوم الهى • وكان حزقيال الرائد الأول لحكومة الهية مثلى ، اشتملت عليها فعلا منظمات عهد العودة وكان الأب الحقيقى لمدونة الشريعة الكهنوتية • وقد قام نظام قانونى وتصور أمة -- كنيسة ، ليبقى • ان عهد الأنبياء كان على وشك أن يفسح المجال لعهد الشريعة •

١٢ - وبما أن هدفنا هو ألا نستعرض تاريخ حياة العبريين الدينية في متنوع مظاهرها ولكن بالحرى أن نوضح ما خلفته للمدنية الحديثة فأننا لن نترسم نمو النظم القانونية في حقبتى السبى وما بعد السبى أو نطيل النظر فى قشرة التفقه والرسميات التي كانت تحجب فى بعض الأوقات تعليم الأنبياء النظام الأكبر ^(١) • ومع هذا فان تأثير الأنبياء على ديانة العبريين لم يبلغ أعظم مداه قط الا فى القرون التي أعقبت العودة • « ان الرأى القائل ان سفر الشريعة لعزرا حول الدين العبرى الى فرائض ونظم قانونية جدباوين ، ينقضه كل أدب الزمن التسالى » هكذا يكتب دكتور مور (Dr. Moore) ^(٢) وقد استحضر فى خاطره الكثير من أحسن ما جاءت به

(١) بعد أن وطدت الشريعة حكمها المطلق كمذهب كامل للأوامر الالهية فى المجتمع المعاد لم يعد مجال للإلهام الذاتى • وعلى هذا ، ما كان لكاتب جديد أن يتقدم دون أن تأذن له الشريعة • وقد نسبت اضافات الى كتابات تنبؤية الى أنبياء (مثل دانيال) ، سابقة للشريعة • والتفاخر بالتأليف كان غريبا على الطبع السامى وروح النبوة العبرية • وكانت العناوين التي تنسب التنبؤات الى واضعها اضافات جاءت فى زمن لاحق • وقد نسبت الى أسماء وهمية أسفار الرؤيا التي تكشف عن المستقبل والتي حلت محل النبوة (انظر ما يلى ١٦) • ولقد أدار الدين العبرى على مذهب الربانيين الذى كان ذا صبغة قانونية ، ظهره الى أسفار الرؤيا فى القرن الأول بعد الميلاد وترك المجال الى الكتاب المسيحيين وواضعى تلك الأسفار ، ولقد نبذت أسفار الرؤيا المسيحية ، وقد تخلصت من ربة الشريعة ، الأسماء الوهمية ولكن احتفظت بها أسفار الرؤيا العبرية خلال القرون الأولى من عهدنا وخلال العصور الوسطى - انظر شارلس (Charles) الامور الأخروية (Eschatology) الصفحات ١٩٦ وما بعدها و٤٠٣ وما بعدها •

(٢) الدين العبرى (Judaism) - ١ ، ١٦

المزامير والامثال وأيوب والاضافات الى الكتابات التنبؤية التي يرجع تاريخها الى العصرين الفارسي والاغريقي . ولم يكن الا في تدرج شديد ، ان الالهام التنبؤي كتبت أنفاسه . ولقد ظل قوة حية حتى ارتقاع نجم المذهب الفريسي .

كان للقرون التي أعقبت العودة مغزى خطير في تاريخ الدين العبري اللاحق . وفيها أقرت الخطوط الجوهرية في المراسم الدينية والخلقى للآزمنة المقبلة . وعندما غزا قورش بابل أذن للمنفين بالعودة الى أوطانهم (٥٣٨ - ٧) وبعد ذلك بقرن (٤٥٨) لحق بالمجتمع العائد طائفة من الكهنة بزعامة عزرا ، الذي حمل معه شريعة من عمل يهود بابل ، تناولتها يد التجديد . وهذه الشريعة التي أنفذها عزرا عام ٣٩٧ ، أصبحت منذ ذلك الحين شرعة المجتمع الهادية . ولقد تحولت شريعة التثنية الى مدونة قوانين كهنوتية وأعيد تدوين تقاليد الماضي لتصبح تاريخا كهنوتيا . واتخذت الأسفار الخمسة شكلا يطابق في الواقع الشكل الذي نقرأها فيه ، في كتابنا المقدس اليوم . ونغمتها في وضعها المعاد الذي قام به عزرا كانت تلك التي جرى عليها حزقيال ، النغمة الكهنوتية . ولقد تجمعت أمة عبرية مصطنعة ، مجمع وليس دولة ، كان الواعز لها مثل أعلى للقداسة اللاوية حول عبادة تؤدي في الهيكل في اورشليم ^(١) . وقد عقدت الرئاسة للكهنة الأعظم . وكان تعليم ما بعد السبي هو أن كل شيء في الأمة العبرية هو من حق يهوه ، وإذا دفعت الضريبة المقررة فانه سيرسل بركنه على ما تبقى . كان المبدأ نبيلاً ولكن تطبيقه من جانب أصحاب الفتاوى ، أصبح وقد قارب أن يكون غير محتمل ^(٢) ان مخالفة فرائض العبادة دون أن يكون لها ، في الغالب ، مغزى يتصل بأداب السلوك أصبحت تعد خطيئة لها نفس الخطورة التي تكون لانتهاك القانون الخلقى لأن كليهما ، بوصفهما أوامر يهوه ، كانا فرضاً لا يحده شرط ^(٣) . وعلى مر الزمان ، أصبحت سلطة الكتاب الذين

(١) بنى الهيكل الثاني عام ٥١٦ ونغمة هذا العصر نجد رجوع صدها في حجي وزكريا : ١ - ٨ وعن الطهارة الخارجية أنظر اللاويين : ١٢ و ١٤ ، ١٨ - ٣٣ ، ٥٣ و ١٥ ، ١٦ - ٣٠ ومع هذا ، فمن الجدير أن نتذكر ملاحظة كوينن (Kuenen) (دين اسرائيل : ٢ ، ٢٨٥) : « لا يسعنا الا أن نعترف بأن تلك التخطيطات التي كان يرثيها الشارع (لمدونة القوانين الكهنوتية) كانت جليلة وجميلة . ولقد وضع بطريقة عامة فكرة شعب مقدس يخصص نفسه ليهوه ، وحاول أن يحققها في مجال واسع ، » .

(٢) انظر انج (Inge) : مقالات صريحة (Outspoken Essays) ، القديس بولس ص ٢١١ و ٢١٥ - ٢١٦ عن : التعليم المدرسي ، في عهد الربانيين في ازمنة الرسل .

(٣) انظر ، على سبيل المثال ، الخروج : ٣٠ ، ٣٣ واللاويين : ١٠ ، ١٦ - ١٤ و ٣٣ - ٥٣ واللاويين على وجه عام .

كانت مهمتهم تدوين وتفسير القانون تنزع الى الحلول محل سسلطة طائفة الكهنة (١) وأصبح الدين العبرى ، فى اطراد يتزايد ، دين كتاب مقدس (٢) ومن هذا الينبوع ، انبثق القانون الشفوى بأثقاله التى تطرد ازديادا . وفوق ذلك كله ، فان الحاجز الفاصل بين العبريين الذين كانوا يراعون الشريعة التى أعيد وضعها ، من جهة ، والسامريين الملحدين والأهم الوثنية من الجهة الأخرى جعل بحيث يكون مانعا على الاطلاق . وفريضة الحتان وهى الطابع المميز للصفة القومية استعرضت فى التاريخ الكهنوتى كجزء لا يتجزأ من دين يهوه ، وآية ميثاقه الأبدى مع ابراهيم . ونستطيع أن نرى السبب الذى دفع العبريين العائدين لوضع هذا القصر الصارم . ولقد غدا الاتصال بين الشرق والغرب ، فى ظل الامبراطورية الفارسية وخاصة فى ظل امبراطورية مقدونيا ، أكثر توثقا وتحطمت على التدرج حواجز السلالات وكان يمكن أن يفقد عابدو يهوه الأتقياء فى يسر ، ذاتيتهم ويندرجوا فى العالم الوثنى الذى يقوم حوالىهم لولا أنهم اعتصموا بعقيدتهم المتميزة ومعها قوميتهم المتميزة . بسور من الشريعة الرسمية يحيط بهما . انهم كانوا مقدسين أمام يهوه ، أما من عداهم من الخلق فلم يكونوا مختلئين وكانوا أنجاسا . وهذا الوعي بدعوة خاصة والعزيمة التى لا تنزعزع بأن يكونوا موالين لالتزاماتها زادت من شدة ، فى القرن الثانى ، اضطهاد انطيوخس ايفانيس Antiochus Epiphanes (١٧٥-١٦٤) وبعد ذلك غزو روما . ويمكننا أن نرجع الى ذلك العهد مصدر الثبات الذى يبعث على الدهش الذى يتسم به الدين العبرى وطبيعة السلالة العبرية خلافاً ، التالى كله . وتوجد ، دون ريب عظمة فى مشهد شعب صغير . صغير ، صفر الالدين من دعائم الوحدة الطبيعية والسياسية ، وهو يوجد روافد صناعية تاتى عليه بالنفع فى الحفاظ بقوميته كصخرة بين عواصف تتناوح من كل جانب . وكان الثمن الذى دفع باهظا وهو فرض عبء فادح أوصد الباب أخيرا وصدا نهائيا أمام الأخوة الروحية مع عالم الأمم الوثنية . ومن ذلك الحين ، كان فقط بالانفصال الثورى عن العقيدة العبرية الصحيحة ، أن روح دين الأنبياء أتبع لها أن تشيع فى المدنية الغربية . ويجب أن نبهت فى مظنة أخرى .

(١) بعد ختام العهد الفارسى عام ٣٣٢ ، يظهر الكتبة كطبقة تمتاز عن طبقة الكهنة .

(٢) ولم تكن قد تحددت بعد حتى فى القرن الأول الميلادى أسفار التوراة المقبولة لدى الكنيسة المسيحية كقانون للايمان . لقد تسلمت المسيحية الأسفار اليهودية ومعها مبدأ الإلهام الحرفى وأضانت (العهد الجديد) الذى كان أكثر تجانسا فى محتوياته وفى مستوى تعليمه الروحى من (العهد القديم) ، ويمكننا أن نوازن تأثيرات (دين كتاب) على الدين العبرى قبل قيام المسيحية ، وتأثيرات أحيائه بعد حركة الإصلاح التى لا يزال يمكن تبينها الى اليوم .

غير الشريعة عن التراث الاصيل الذي تركه العبريون للبشرية (١) فالشريعة كانت الصدفه وليست نواة الحياة الدينية فيما بعد السبى . ولقد نهض جنباً الى جنب مع الصيغ الرسمية الفرضية دين من التقى الداخلي والرعة ، وجنباً الى جنب مع خواص المجتمع الصحيح خلجت رؤية مملكة

(١) يجب ألا تؤخذ هذه العبارة كإنكار للتأثير الواضح الذي كان للشريعة الموسوية على تاريخ المسيحية . فعلى سبيل المثال ، تركت النصائح الخلقية التي جاءت في الأسفار الخمسة الأولى من التوراة ، أثراً عميقاً على آداب السلوك المسيحية . لقد احتفظت المسيحية عندما امتزجت بالهلينية ، بمدونة القوانين الخلقية العالية التي ورثتها عن الدين العبري ، وتدعو الحال فقط الى ذكر الوصايا العشر . ثم أن تاريخ نظام الكهنة ونظام القساوسة المسيحيين أثرت عليه المدونة الكهنية اليهودية وتصور العبريين لوظيفة الكاهن . والرسالة الى العبرانيين هي مثال باكر لهذا التأثير ، وهي التي تركت أيضاً طابعها على مبدأ التكفير المسيحي ، ومع هذا فإن النظام الكهنوتي المسيحي ، على غير شاكلة النظام العبري ، لم يكن قط وراثياً ويغلب عليه العزوبة ، وكذلك تثر الفكر القضائي المسيحي بالشريعة الموسوية كما يتجلى ذلك في (Aquinas' tractate de legibus (S. Th. II. 199 90-108) . لقد كانت الشريعة الموسوية النموذج للتعديلات التي أدخلها قسطنطين وخلفاؤه المسيحيون في الامبراطورية ، على قانون روما الجنائي . ولقد كتب جيبون (Gibbon) (فصل ٤٤) : « لقد استقبلت شرائع موسى كمصدر إلهي للعدالة وكيف الامراء المسيحيون قوانين عقوباتهم على درجات التسفل الخلقى والدينى » ، فعلى سبيل المثال ، أصبح الزنا جريمة عقابها الموت . وقد لقى هذا التأثير القضائي للشريعة العبرية واعزاً قوياً في زمني الاصلاح . وقبل ذلك الوقت ، لم تؤثر الى درجة خطيرة على القوانين الفعلية لدى الشعوب الغربية . ان الفرد (Alfred) بشير الى موسى في مقدمة مدونة القوانين الانجلوسكسونية ولكن القوانين التي تجيء بعدها لا تستبين فيها أية علامة للتأثير ، ومن الجهة الأخرى ، كثيراً ما أدهجت الجماعات البروتستانتية نصائح موسى في تشريعاتها . وفي اعلان أصدره الزراع الالمان في عام ١٥٢٥ نجدهم يطالبون بأنه « يجب إلغاء صفة علماء القانون وأن تجرى العدالة طبقاً لشريعة موسى لأنه لايجمل بالانسان أن يحصل على قانون أفضل من ذلك الذي أعلنه الله » (فنوغرادوف Vinogradoff) - القانون الروماني في أوروبا العصور الوسطى صفحة ١٢٩) ولقد رفض المستعمرون في ماساشوستس (Massachusetts) أن ينتهجوا مذهب المحاكمة بواسطة المحكمين لسبب أن موسى في شرائعه لم يصرح بها . وكانت عقوبة الموت للسحر ولانتهاك يوم السبت ، هناك وفي أماكن أخرى بين جماعات المحضين ، لها ما يبررها استناداً على ما جاء في شريعة موسى . ويكتب ي.ن. فيجس (J.N. Figgls) من جرسم (Gerson) الى غروتم (Grotlm) صفحة ٢٠٩ : « ان القانون لدى لوثر (Luther) سواء أكان طبيعياً أو خلقياً أو مدنياً ، كله يندمج في الوصايا العشر وأي شيء غيرها هو مجرد قوانين إدارية سواء في الدولة أو الكنيسة » .

مثالية في صهيون يكون من أمرها أن تضم جميع الشعوب وتحمل الخلاص ليس فقط للعبريين ولكن للأمم^(١).

١٣ - وكان من الطبيعي تماما أن هذا التعبير المزدوج عن العقيدة الدينية ، الذي يضم المثليين الأعلى ، الاتصال الروحي الشخصي بالله وملكوته العام ، ينهض في آن واحد مع خاصية الشريعة . ومثال توضيحي لنزوع الحد الأقصى للفردية والتعميم ، هذا ، الى التقابل في تلاحم وثيق تقدمه الهلينية المعاصرة حيث أصر الفلاسفة الرواقيون عند انحلال دولة - المدينة الحرة ، بعد الغزو المقدوني ، على مطالب الفضيلة الفردية وكذلك على عضوية مجتمع عالمي . ويبرز هذان المثليان الأعلى في الأدب الديني العبري في عصرى السبى وما بعد السبى . ومن الضروري جدا فيما يتعلق بالأول أن نلاحظ ، وخاصة بعد ما قيل عن الصفة الرسمية التي ميرت وضع مدونة القانون الكهنى ، كيف بعث حكم الشريعة في المجتمع العبري مستوى خلقيا رفيعا وعنصرنا من التقى زائرا . ان قوة دين العبريين كانت ، الى حد ما ، تتأصل في ضعفه بالذات^(٢) ولقد دل المجمع المحلي ، باجتماعاته للصلاة العلنية وقراءة وتفسير الكتاب على أنه واعز قوى للدين في الفرد . ومما هو أجدر بالملاحظة ، ان عبادة الهيكل نفسها ولدت روحا من التقى المستعر ظفرت بتعبير دائم في المزامير . ولما كانت نتاج مؤلفات متعاقبة يتراوح تاريخها بين عهد السبى الى القرن الثاني ، فان هذه التراجم التي لا يعرف لها مؤلف والتي تشتمل على المزامير ، سميت ، لسبب صالح ، « كتاب ترانيم

(١) انظر التذكرة الإضافية في خاتمة هذا الفصل عن تاريخ العبريين فيما بعد السبى .

(٢) لقد بين مستر كلود مونتفيور (Mr. Claude Montefiore) في محاضرات هبرت (Hibbert) لعام ١٨٩٢ ، في جلاء كيف أن الشريعة نمت الحياة العليا الخلقية والروحية في مجتمع ما بعد السبى . ولم تكن نتائج النظم الشرعية فيما يتعلق بالسلوك ما يتوقع مبدئيا منها . وهو يقول : « ان المرء في حاجة الى أن يأخذ حذره عند الكتابة عن الشريعة » (صفحة ١٧٨ تذكرة ١) ، ان ما كانت تتميز به حياة أتباع الشريعة الصادقين هي الطهارة وحسن الصنيع ، وفوق كل شيء البهجة في الخدمة المحبة . ولم يكن العبري يشعر أنها حمل ولو أنها من جهة نظر التعميم كانت حملا . وفي هذا الفصل يعالج دين العبريين بصفة شاملة من وجهة النظر هذه وتقع قيمتها داخل نطاق الدين العبري ، خارج اختصاصنا . وعن الدين العبري في القرن الأول بعد الميلاد ، انظر فصل مستر مونتفيور بعنوان « روح الدين العبري في بواكير المسيحية » لجاكسون (Jackson) وليك (Lake) المجلد الأول .

الهيكل الثانى ، (١) وهى تشهد فى كل صفحة كيف كان قلب الفرد من العبريين يندق فى توافق مع قلب مجتمعه الدينى . انه كان يمشى ويتحرك وله كيانه ، فى حياة العبريين الروحية .

واذا لم يكن يهوه الها قصيا ولكنه « عون حاضر فى الضيق » ، فلانه كان « يرمى العبريين » واذا كانت روحه تشتاق الى يهوه « كما يشتاق الابل الى جداول المياه » فمرجع ذلك الى انه انفصل عن مقدس الهيكل الذى اتخذه اله السماء والارض مسكنه الخاص، وسط شعبه المختار (٢) ، وعندما يتحدث صاحب المزامير فى صيغة المتكلم ، فليس ذلك باسمه هو. ولكن باسم الطائفة الروحية التى تندمج فيها شخصيته الخاصة . ولقد اهتم بعض المزامير ، مباشرة ، الاخلاص للشرية اما البعض الآخر ، فى نهج اكثر حصرا ، يعبر عن مطامح وآلام انصار المذهب الصحيح الصارم ، الحاسديم (الاسدانيون او الاتقياء - السابقون الاولون للفريسيين) الذين بذلوا حياتهم فى مقاومة الهلينية فى ايام انطيوخس ايفانوس (٣) Antiochus Epiphanes. وانا لنسمع، جنبا الى جنب مع الافصح عن الايمان بيهوه وبالفرح فى حضرته ، صدى الذكريات القومية القديمة والآمال فى خلاص قومى والبهجة فى عبادة المعبد ، ولكن اهمية المزامير بالنسبة لنا ترجع بالحرى ، الى انه تشيع فيها روح من الاخلاص الدينى تسمو على حدود العبادة الكهنوتية وحدود الشرية، الضيقتين . والتأثير الذى بسطته هذه القصائد فى القلب البشرى خلال ألفى سنة ونيف ينهض دليلا على شدة وعظم الشعور الذى اهتم أولئك المؤلفين بجانب أمواه بابل - الذين نجهل أسماءهم - بها ، وكذلك الى الذين قاموا فى المجتمع الذى التم شمله فى فلسطين . وفى بعض المزامير ينفذ التقى الشخصى ، عن وعى ، من خلال الحواجز التى أقامتها السنن الخارجية ويعرض عن الشرية المكتوبة الى تلك التى رقت على صفحات القلب (٤) انه هذا التنوع وهذا الفيض من العاطفة الدينية الذى يلم بكل الحالات

(١) ولو أنها ، على غير شاكلة كتب الترانيم التى لدينا ، لم تكن قط بين أيدى المجمع . ومن المحتمل أن بعض الترانيم ترجع الى ما قبل السبى ولكن من غير المرجح أن أيا منها من تأليف داود . انظر درايفر (Driver) «المقدمة» وشين (Cheine) « أصل المزامير » .

(٢) مزموذ ٤٣

(٣) الاخلاص للشرية وخاصة المزموذ : ١١٩ ومزموذ : ١ يعبر عن مشاعر (الاتقياء) أو (الأبرار) على النقيض من (الأشرار) و (الخطاة) و (المحتقرين) واذن ١٢ ، ١ - والإشارة الى الهيكل واضحة فى المزامير ٢٤ و ٢٧ و ٦٥ و ١٣٨ وعن تفصيل مجمل لموضوعات المزامير انظر درايفر (Driver) «مقدمة» الصفحات ٣٦٨ - ٩

(٤) مثلا المزامير : ٤٠ و ٥٠ و ٥١

النفسية التي فيها تتجه روح الانسان نحو الله ، فى أيام الخير كما فى أيام السوء ، هما اللذان جعلنا من المزامير كتاب ترانيم ، ليس فقط للهيكال الثانى ولكن للدين العبرى فى جميع العصور وللكنيسة المسيحية ايضا .

١٤ - واذا كان العبرى الصالح قد وجد رضى لمطامحه ، فى دين خدمة - المعبد ، العمل وفى مراعاة القانون فقد واجهته فى نفس الوقت مسألة تنصل بعلم اللاهوت وآداب السلوك ، كانت تسبب الكثير من فحص القلب فحسا خطيرا . ومبدأ حزقيال الذى تردد صده بعض المزامير ^(١) وهو أن كل رجل يلقي الجزاء الوفاق فيكافأ أو يعاقب بمقتضى ما هو حقيق به فى مدرجة حياته الدنيا ، لم يستطع أن يصمد فى مواجهة الوقائع . ان أقدار الفرد كانت تعتمد كما هو جلى على أقدار رفاقه وما كانت حاجة السعادة الخارجية لتتناسب مع ما له من فضل . وكان هذا التناقض العمل ، وليس أى تعارض فكرى ، هو الذى دفع الناس الى التشكك فى العدالة الالهية ^(٢) . وقد لاذت بعض العقول الى التفريق بين الرخاء الظاهرى والرضى الداخلى وغيرها الى الفكرة بأن آلام الصالح ، لم تكن تأديبا وانما كانت تقويا بينما يعود جد الشرير . كان من شأنه فقط أن يزيد وقع الكارثة التى تجتاحه آخر الأمر ^(٣) . ولكن تصور الألم على أنه قصاص عن الخطيئة كان متأصلا تأصلا عميقا فى العقل العبرى ، لتكون أمثال هذه الحلول مقبولة . وعلى هذا فان المسألة التى قامت ، تكون موضوع شعر أيوب الفاجعى . لماذا ينعم الأشرار ويلقى الأبرار تعاسة لا يستحقونها ؟ ان الكاتب يحس أن هذا لا يمكن الاجابة عليه فى حدود صيغ الخطيئة الشخصية ، ولكن بينما يصيغ وضع الصعوبة فانه لا يقدم حلا فيه الكفاية . ويظهر أن الافتتاحية تدل بأسباب الراى الذى يقول ان أيوبا تألم كشهيد يعلن عن عدالة الله بينما يظل هو غير واع بالهدف من آلامه أى جزاء الورع الذى لا برمى الى نفع . وليأذه الأخير هو الى ما تمليه العقيدة الخلقية معرضا عن وقائع الظروف الخارجية ويظل تيقنه العمل من بر يهوه بحيث لا يتزعزع ، الى النهاية ^(٤) وفى نص واحد يجىء برأى عابر عن الأمل ، الذى قدر له منذ القرن الثانى وما بعده أن يتأصل

(١) على سبيل المثال المزمور : ١ ، ٣ و ٣٤ ، ١٩ - ٢١ والأمثال : ١١ ، ٣١

(٢) أيوب : ١ ، ١٥

(٣) مزامير : ٣٤ ، ١٩ و ٣٧ على الشخص ٣٥ ، ٣٦

(٤) انظر كتيب دكتور روبنسون بعنوان « صليب أيوب » (كتب الدين والحياة) الصفحات ٦٤ - ٦٩ وتشارلس (Charles) : الأمور الأخروية (Eschatology) الصفحات ٦٩ - ٧٣ . وفى السفر الخاص بأيوب فى التعليقات النقدية الدولية ، (درايفر وجرى (Driver and Gray) يذهب القول الى أن القرن الخامس هو تاريخ القصيدة المحتمل .

بين العبريين ، في بعث البار ليستمتع برؤية يهوه شخصيا ^(١) وسنعود وشيكاً الى هذه العقيدة ونقتصر هنا على التنويه الى أنها لا ترجع الى استدلال من مقدمات قياس نظرية ولكن كنتيجة فرضتها على العقل صعباً الحياة العملية . وهذه الحقيقة تكفى بذاتها الى استبعاد الرأى الذى يقول ان ظهور العقيدة الجديدة كان مرجعه الى التأثير الهليني . وعلى الرغم من خضوع العبريين للحكم المقدونى من عام ٣٣٢ وما بعده ، فإن سياسة الامتزاج بين الغرب والشرق التى نماها خلفاء الاسكندر تركت أثراً ضئيلاً فى الفكر العبرى الا فى الاسكندرية حيث كانت الطائفة العبرية تستمتع بمكانة لها ميزة خاصة . وأعظم استثناء يلفت النظر فى العهد القديم هو الذى يورده سفر الجامعة الذى ربما يكون قد كتب قرب نهاية القرن الثالث حيث تتخذ الفردية الدينية ، تحت وازع الهلينية ، صورة البحث المتشكك . ان طبع هيرودوت ^(٢) لينعكس فى هذه الالفاظ : « ووجهت قلبى للسؤال والتفتيش بالحكمة عن كل ما عمل تحت السموات » ويستبين المذهب الكلبى فى الكتاب فى يسر فى عبارة : « رأيت كل الاعمال التى عملت تحت الشمس فاذا الكلب باطل وقبض الريح » .

(١) أيوب : ١٩ ، ٢٥ - ٧ ، أنظر شارلس (Charles) صفحة ٧١ ودرايفر (Driver) المقدمة صفحة ٤١٨ : « ان فكرة حياة فى المستقبل ، مباركة ... فكرة ناشئة فى سفر أيوب » . فى مجلد (التعليقات النقدية الدولية) عن أيوب يقدم جراى (Gray) العبارة :

الآية ٢٥ : أما أنا فقد علمت أن المنتقم لى حى وأنه بعد هذا سيقف فوق التراب .

الآية ٢٦ : و... و...

وبدون جسدى أرى الله .

الآية ٢٧ : الذى أراه أنا لنفسى وعيناي تنظران وليس آخر .
فى الشطر الأول من الآية ٢٦ توجد صعوبة تكاد تكون مستعصية . والكلمة التى ترجمت (منقذ) فى النسخة القديمة معناها منتقم لظلم لا يستحق (أنظر هامش النسخة المعدلة) . و (أنا) فى الآية ٢٧ للتوكيد . ويفسر جراى فى ملاحظاته العبارة بأنها تعبر عن اعتقاد أيوب ليس فى حياة بركة دائمة بعد الموت ولكن فى رؤية الله بعد الموت رؤية عابرة تبين أن الله معه . وعن الايمان بالبعث أنظر ما يلى ١٥ .

(٢) الجامعة : ١ ، ١٣ ، ١٤ وازن الامثال : ٣٠ ، ٢ - ٤ لتشكك مشابه . ويمكن تقصى التأثير الاغريقى أيضاً (فيما يحتمل) فى الامثال : ١ - ٨ وفى سفر (Ecclesiasticus) من الاسفار شبه المقدسة . حيث يوجد بيان مجمل عن المثل الأعلى للرجل العاقل ومبدأ الوضيع وبنوه عن قيمة وقت الفراغ حياة الحكمة (مثلاً (Ecclus) ٣٨ ، ٢٤) واسم (Ecclesiastes) هو الترجمة الاغريقية للفظ العبرى (Qoboleth) ومعناه معلم الحكمة . وعن أدب (الحكمة) الذى ينتمى اليه سفر الامثال أنظر درايفر (المقدمة) الصفحات ٣٩٢ وما بعدها .

وبين انعدام الجذ التفكيرى فقط. كيف كان العقل العبرى وسيطا غير ملائم لتقبل الفلسفة الاغريقية . والآراء التى كان يؤثرها هى قواعد السلوك الحكيمه ، عند الابيقوريين وهم من بين جميع المدارس الهلينية المتأخرة ، المدرسة التى لم تقم أقل وزن للبحوث الميتافيزيقية ، ومسألة أيوب يمكن اهمالها على التو بانكار الجزء الخلقى^(١) و « الجامعة » مثال منعزل فى أدب « الحكمة » العبرى . ان آلام الشهداء ، الحاسدين ، فى عهد انطيوخس افيانوس Antiochus Epiphanes والعاطفة الوطنية العنيفة التى اتسمت بها ثورة المكابيين التى أثارتها جهوده فى فرض الهلينية قسرا ، أخدمتا روح الحرية العقلية فى فلسطين وضمنتا انتصار الخاصية التى تفرد بها العبريون .

١٥ - وفى غضون السبى ، أصبح الأمل فى الملكوت قوة مسيطرة فى حياة العبريين الدينية وكان نموه تدرجا واتخذ ضروبا من الصور المعينة . فحينما كان يضيق بحيث يتوافق مع أشد مذهب قومى صرامة وحينما آخر يوسع حتى يحطم كل حاجز كان يفصل العبريين عن العالم الوثنى . وهو يرتبط فى الغالب ، وخاصة فى السنوات التى سبقت ميلاد المسيح مباشرة بالاعتقاد فى مجيء مسيا ، الملك من نسل داود الذى يجب أن ينقذ العبريين ويستهل مملكة يهوه^(٢) . ولكن هذه الظاهرة ، ليست جوهرية ولب التصور هو انشاء « مجتمع أعيد إحياءه » يجب أن تتحقق فيه الارادة الالهية^(٣) .

ولقد أدمج الترقب القديم « ليوم يهوه » - ولم يعد بعد ذلك يفسر كمحنة غضب على العبريين ولكن كوعد بالفداء - فى رجاء الملكوت التى أعلن

(١) الجامعة : ٨ ، ١٤ و ٩ ، ٢ الصدفنة تحكم العالم (٩ ، ١١) قواعد السلوك الابيقورية من طراز أقل رفعة ، القريسة من المذهب القوريني (Cyrenaicism) (٣ ، ١٢ وما بعدها و ٥ ، ١٨ وما بعدها و ٩ ، ٧ - ١٠) . هذه ونصوص أخرى كثيرة تورد للذاكرة نغمة رباعيات عمر الحيام .
(٢) مسيا معناه (المسحوق بالطيب) وبعبادله فى الاغريقية Christos (Christ) (الذى مسحه يهوه بالطيب) كان تعبير يطلق كثيرا على ملوك ما قبل السبى .

(٣) شارلس (Eschatology) الامور الآخروية ، صفحة ٨٤ - يتصور المذهب العبرى السابق للمسيحية ، الملكة المثالية أحيانا على أنها حكم أمير دنيوى من نسل داود وأحيانا على أنها حكم الهى بحكومة من الكهنة . ولا يوجد ذكر لمسيا فى عاموس أو صفتيا أو ناحوم أو حبقوق أو يوشيل ولا فى دانيال أو فى النصوص الأخيرة ، اشعيا : ٢٤ - ٢٧ ، ٦٥ - ٦٦ وكثيرا ما يذهب التصور الى أن الملكوت تكون تحت حكم يهوه مباشرة .

عنها اشعيا وارميا وبينهما حزقيال فى وضوح (١) . وفى نبوءة حزقيال يستعرض التصور فى أعظم صورة شاملة له ، كتأسيس كنيسة من الكهنة تسبقها دينونة لا رحمة فيها للأمم والعبريين غير المؤمنين ، أما بركات الملكوت فيختص بها الأبرار من العبريين وتكون لهم وحدهم (٢) . ويرجع بعض انتصار هذا التفسير الضيق ، فى النهاية ، بين يهود العودة ، الى الاضطهاد الماحق فى عهد انطيوخس وبعضه الى عدم قدرتهم على ادراك كل اتجاهات عقيدتهم فى التوحيد . والا ، ما كانوا ليعجزوا عن الوصول الى الاستنتاج بأن اله الأرض كلها لم يحصر عنايته الرحيمة فى شعب واحد له امتياز ولكن بشاء ارادته بأن معرفته يجب أن تكون ، عن طريق العبريين ، نورا لجميع الأمم على الأرض . ولقد عبرت ، فى الواقع عن هذا التصور الأكثر اتساعا للملكوت ، نبوءة السبى وما بعد السبى . كان يوجد فى حياة العبريين الروحية ذلك الشيء الذى لا قبل له على أن يحتبس داخل الحدود التى رسمها حزقيال . هكذا كانت رؤيا الملكوت التى ألهمت رسالة اشعيا الثانية (٣) . وهو يستهل بصوت التعزية : « تعزوا ، تعزوا ، يا شعبي » وطمأنينة بافتداء قادم عندما « يكشف عن مجد يهوه وكل الأجساد قراء معا » . ولو أن الرجاء فى نجاة عاجلة على يد قورش الفارسى يزودج بذكرى عدم اخلاص العبريين السابق والتأنيب على عدم ايمانهم الحالى (٤) فإن النعمة السائدة هى نعمة الوثوق من رحمة يهوه . انه المخلص المنعم الذى « سيطعم قطيعه كراع » وانه غفر فى سماح ، ذنوب شعبه : « بفيضان

(١) عن (اليوم) انظر عاليه ٤ - عن اشعيا انظر عاليه ٧ - وارميا : ٢٣ ، ٥ ، ٦ - حزقيال : ٣٤ ، ٢٣ وما بعدها ٣٧ ، ٢٤ وما بعدها . ولكن لا يوجد رجاء فى مسيا ، فى حزقيال (انظر كوك المرجع المذكور آنفا « المقدمة » ، صفحة ٣٠) .

(٢) وازن أر : ٤ ، ٢ و ١٢ ، ١٤ - ١٧ و ١٦ ، ١٩ حيث شملت الملكوت الشعوب . وقد ورد الرأى الضيق ، على سبيل المثال فى اشعيا : ٦٦ وفى نبوءة يوثيل (حوالى ٤٠٠ ق م) .

(٣) تجيء تنبوءات اشعيا الثانى فى الاصحاحات ٤٠ - ٥٥ . ويرجع تاريخها الى زمن غزو قورش لبابل (٥٣٨) . وتضم هذه الاصحاحات (أغاني خادم يهوه) الأربع ومن المرجح أنها لكاتب آخر - الاصحاحات : ٤٢ ، ٤١ - ٤٩ ، ١ - ٦ و ٥٠ ، ٤ - ٩ و ٥٢ ، ١٣ ، ٥٣ ، ١٢ والاخذ عشر اصحاحا الاخيرة من سفر اشعيا (٥٦ - ٦٦) ربما وضعها مؤلفون مختلفون وترجع الى تاريخ لاحق . وعلى أية حال فيمكن أن يعد من الأمور المقررة أن الاصحاحات ٤٠ - ٦٦ لا تحوى أية تنبوءات من اشعيا نفسه .

(٤) اشعيا : ٤٠ ، ٢٧ وما بعدها ٤٢ ، ١٨ - ٢٥ ، ٤٩ ، ١٤ - ٢١

الغضب حجبت وجهى عنك لحظة وباحسان أبدى أرحمك قال وليك الرب» (١)
وكانت دعوة اشعياء الثانى للايمان أكثر من أن تكون للتوبة . ان علمه
باللاهوت أكثر وعيا وأكثر جنوحا الى التأمل بالقياس الى ذلك الذى كان لدى
الأنبياء السابقين انه يفرض معتقداته فى التوحيد كحقائق نظرية ، ليس
بتوكيد العقيدة ولكن بالدليل المقنع . ان يهوه هو الخالق المعترف به ، الحافظ
للكون ، الاله الواحد الأبدى الذى لا نهاية له والذى تظهر يده القادرة خلال
الطبيعة كلها والتاريخ كله : « من فعل وصنع داعيا الأجيال من البدء ، أنا
الرب الأول ومع الآخرين أنا هو » (٢) . ولقد توارت آخر آثار للشرك ،
كما يتميز عن التوحيد . ان آلهة الوثنيين أصنام ، أشياء لا وزن لها وباطلة .
« لا اله غيرى » (٣) . وعلى توافق تام مع هذا الإدراك الجلى للوحدة الالهية ،
فان الرؤية تنفذ الى ما وراء حدود القومية ، الضيقة ، وتطالع خلاص جميع
الشعوب داخل الملكوت المعاد (٤) . ويذهب التصور الى أن اورشليم هى
الحاضرة المنتظرة لكنيسة عامة : « فتسير الأمم فى نورك والملك فى ضياء
اشراقك » (٥) . ان فى «أغاني خادم يهوه» الأربع ، تجد رسالة العبريين العامة
أنبل توكيد لها . ولا توجد هنا أية فكرة عن السيطرة السياسية أو السيادة
الانسانية . ولقد صورت أمة العبريين البارة كخادم ، لا يتألم من أجل
خطيئته الخاصة ولكن من أجل خطيئة شعبه « محتقر ومرفوض من الناس
رجل أحزان ومختبر البلية » ، وأرسل الى أراض غريبة ليخلص أولئك
الذين فى العبودية ويعلن عن مجيء الملكوت .

(١) اش : ٤٠ ، ١١ ، ٤٣ ، ٢٥ ، ٥٤ ، ٨

(٢) اشع : ٤١ ، ٤ ، وازن ٤٠ ، ١٢ - الآخر ٤٥ ، ٨-٥ ، ٤٤ ، ٢٤

و ١٣ ، ٥١

(٣) اشع : ٤٤ ، ٦ وازن ٤٤ ، ٩-٢٠ ، ٤٦ ، ١-٧

(٤) تستعرض علاقة الأمم بالملكوت فى صور شتى فى الستة وعشرين
أصحاحا الأخيرة من اشعياء . فى وقت ، تظهر أمة العبريين كدولة إمبراطورية
تدين لها جميع الشعوب بالولاء . اش : ٤٥ ، ١٤-١٧ (القصاص يقع على
الشعوب) ٤٩ ، ٧ ، ٢٢ ، ٣ ، ٥٤ ، ٣ وفى غيره ، تقبل الشعوب ملكوت يهوه
عن ارادتهم الخالصة اشع : ٢ ، ٤-٢ (= ميخا ٤ ، ٣-١) ، نص يرجع
الى ما بعد السبى : ٢٥ ، ٦ ، ٧ (ربما حوالى ٣٠٠ ق م) .

(٥) اشع : ٦٠ ، ٣ وازن مز : ٢٢ ، ٢٧-٣١ ، ٤٥ و ٨٦ و ٨٧ واشع :
١٩ ، ١٨ - ٢٥ نص متأخر يسترعى البال جدا فيه تندمج أشور ومصر فى
الملكوت على قدم المساواة التامة مع العبريين . راجع أيضا ما يقصه يونان
تمثيلا .

وليس من المغالاة فى القول ان هذه الفقرات وأمثالها من فصول اشعياء
الاخيرة تركت على ابصار الناس طابع نظام مجتمع مثالى ، ظل باقيا طوال
الازمنة اللاحقة . ولقد رأى المسيحيون فيها منذ البداية اقرب توقع للملكوت
الانجيل . لقد كان الحصى الاثيوبى يجيل التفكير فى « أغنيات الخادم » فى
مركبته عندما قابله فيلبس ، الشماس ، فى الطريق من اورشليم الى غزة .
ان اغنية سيمون التى سجلها القديس لوقا ، تنهض دليلا على أنه كان يوجد
فى زمن مجئ المسيح ، على الرغم من انتصار التخصيص فى المذهب اليهودى
الصادق ، أولئك الذين كان يراودهم الامل الاكبر فى الملكوت وتكون
« نور اعلان للأمم ومجد للشعب اسرائيل »^(١) . وعلاوة على هذا ، فمن المرجح
حقا أن المسيح الذى أخذ فقرة قريية من « أغنيات الخادم » موضوعا له عندما
كان يبشر فى المجمع ، تأثر بها ، عن وعى ، فى رسالة الخلاص التى حملها .
١٦ - ولقد تحول مبدأ الملكوت ، بطريقة تلغت النظر ، فى القرنين
السابقين لميلاد المسيح ، عن طريق الامتزاج بالاعتقاد ، الغريب عن الفكر
اليهودى فى زمن أكثر بكورا ، فى بعث بعد الموت^(٢) . وكانوا يتصورون
ملكوت يهوه ، فى التقاليد الشعبية وفى تعاليم الانبياء على أنها خلاص
العبريين ، يحقق فى تاريخ الأمة القادم على الارض ، وكان بعد زمن متأخر ،
وتحت دافع الالم الشخصى القاهر ، أن اليهود دفعوا الى ربط الرجاء فى

(١) الاعمال : ٨ ، ٢٦ وما بعدها ولوقا ٢ ، ٣٢

(٢) راجع (الاخرويات) لتشارلس الفصلين الخامس والسادس . . ان
الاعتقاد اليهودى فى بعث بعد الموت ، عندما ظهر هكذا فى زمن متأخر ، لم
يكن بأية حال ، عودا جديدا لآراء بدائية . لقد كان نتاج مسائل خلقية
و دينية تنتمى لنضوج المدنية العبرية . لقد أودى دين يهوه ، على التدرج ،
بعبادة السلف مع ما كان يلزمها من اعتقاد باستمرار حياة الروح فى شيول .
ولقد هضمت قرون قبل أن ينجم هذا الايمان الخلقى الجديد فى البعث ، عن
دين يهوه المتطور . وكان تصور حياة مستقبلية يرتبط ارتباطا وثيقا فى
الدين اليهودى بتصور بعث من الموت . وبين الاغريق ، من الجهة الأخرى ،
اتخذ شكل الاعتقاد فى عدم موت الروح ، التى كان خلودها صفة جوهرية
ولم يكن هناك موضوع عن بعث . ولكن مبدأ خلود الروح الافلاطونى كان
يشترك مع مبدأ البعث اليهودى ، فى أنه كان مستقلا عن الاعتقادات البدائية
فى البقاء (ولو أنه استخدم مواد استمدت من الاعتقادات الدينية الشعبية) .
وكانت عقيدة افلاطون ترجع الى أسباب علمية (وفى هذا ، فانها على نقىض
تام مع عقيدة اليهود) . أنظر ما يلى فصل ٤ ، ١٧ وفصل ٥ ، ٢٠ و ٢١ .
ويقوم الاعتقاد المسيحى بالخلود وهو يتألف بالاعتقاد ببعث الموتى حياة أبدية
على أساس مزدوج (١) على المذهب اليهودى فيما بعد السبى (البعث) ،
وعلى الفلسفة الافلاطونية (الخلود) . راجع كوك.ج.وب (C.C.J. Webb)
محاضرات جفورد (القسم الثانى) عن الشخصية الالهية والحياة البشرية
الصفحات ٢٥٧-٢٤٤ . وعن الفلسفة الافلاطونية (الخلود) ، راجع كوك.ج.وب
(C.C.C. Webb)

تراث العالم القديم

الملوكوت بالرجاء فى بعث الأبرار حتى يسهموا فى نعيمها وتبعاً لهذا ، الى الاعتقاد فى خلود الروح . ولقد كان الرأى التقليدى عن الروح لدى العبريين وكذلك لدى السلالات الأخرى جافياً ومادياً يرتبط ارتباطاً وثيقاً بعبادة السلف ويتجرد عن أى مغزى خلقى . عند الموت ، كان الطيف يسير الى شيول حيث يقيم فى صورة شبه جسمية بينما الروح أو نسمة الحياة التى ميزوها بعد ذلك على أنها مصدر المواهب النفسية العليا ، ترجع الى الله الذى أعطاها . ولا يوجد هنا أى موضوع عن الخلود الشخصى أو الجزء الأدبى بعد الموت (١) . وكما رأينا ، مر زمن طويل ليدرك العقل العبرى فكرة

(١) عن موضوع علم النفس العبرى ، الشيق ، الذى أهمل اهماً بالغا ، راجع المقالة (١١) بذلك العنوان ، التى وضعها العميد هويلر روبنسن فى (الشعب والكتاب The People and the Book) طبعة بيك الصفحات ٣٥٣ ٣٨٢ . وعند العبريين يكون الكائن البشرى الفرد (الذات) هو «الجسم كمركب يشتمل على أجزاء تستمد حياتها ونشاطها من روح - نفس ، ليس لها وجود منعزل عن الجسم » (صفحة ٣٦٦) . وينسب أصل - الحياة ، ويشمل القوى الواعية ، الى المادة الجسمية ككل وإلى أعضائها العديدة (القلب والكلى واللحم والعظام والعين واليد الخ .) . ولا يعرف علم النفس العبرى تقسيماً ثنائياً للروح والجسم ، ولسبب أقوى لا يعرف تثليث الجسد والروح والنفس . والجسد هو الانسان والشخصية هى الجسد الذى استودعت فيه الحياة ، وليست الروح المتجسد . ان الكلمة العبرية التى تدل على أصل الحياة هى نفس وتجيء فى المعتاد مترجمة خطأ بلفظ (Soul) فى النسختين القديمة والمعدلة (A.V. and R.V.) . وتعبير آخر ، روح (ويترجم فى المعتاد (Spirit) ومعناه فى الأصل (ريح) باعتبار أنها نفس الله) يستعمل مراراً للدلالة على الإلهام ، اشارة الى أصل - الحياة كشبهة النشاط الإلهى يعمل فى الانسان من الخارج وخاصة فى الإلهام النبوى وغيره من ظواهر قوة - الحياة . ومن أوجه نشاط الانسان ، يشار فى المعتاد الى الوجدان والعواطف بلفظ (نفس) والعقل و (خاصة) الإرادة (الضمير) بلفظ (لب) - حرفياً قلب - وتكون الإرادة أصلاً ، فى علم الأخلاق العبرى ، فى الله والانسان معاً (راجع ماتقدم صفحة ٦٩ تذكره ٢) . وكان الحيال أو الشبح يذهب الى شيول كنسخة من الانسان كله ويبقى موجوداً فى حالة شبح وعلى ذلك فمن الخطأ الجسيم اعتبار شيول موطن الأرواح الراحلة . وكان يستوطن شيول هذه الأطياف (نغابم) دون سواها وعندما يظن بصفة استثنائية أن الموتى ، كما فى حالة صموئيل ، عند اندور ، يرجعون فان القناع الجسمى الذى يحمل فى الحياة ، يظل باقياً . وكذلك الحال فى هومر (ادو ، ١١) ، يجب على الأشباح فى الجحيم أن يشربوا الدم حتى يستردوا الوعى ويتحدثوا مع أدوسيسوس . وعلى هذا ، فعندما حان للعبريين أن يتصوروا حياة مستقبلية فإنها كانت بعثاً حقيقياً للجسد لايجاد تجديد للحياة الجسمية على الأرض . ويوافق مبدأ الإيمان المسيحى عن بعث الجسم ، التقاليد العبرية تماماً ولو أنه قوى بمعارضة للنائية الماتوية (الرأى أن المادة وخاصة جسم الانسان شريرة شراً ملازماً وترجع الى خالق شرير ، فوق مستوى البشر) .

المسئولية الشخصية . وحتى عشية النفي ، كانت الامة مسؤولة عن خطايا أعضائها وكان البريء والمذنب ، على السواء ، ينالهما الجزاء الذى يقع على المجتمع . ثم حدث مع النفي ، تغير وأصبحت مطالب الفرد فى عدالة يهوه تلح الحاحا يطرد ازديادا ، لارضائها . وقد رأينا كيف أن مفكرين كمؤلف سفر أيوب جاهدوا ، على غير طائل ، للوصول الى جواب عن المسألة . لقد كانت وطأة الاضطهاد فى عهد انطيوخس هى التى فرضت الاعتقاد فى البعث على عقل الشعب اليهودى . ولقد كان قاصرا ، قبل ذلك الوقت ، على أقلية صغيرة تأثرت فيما يرجح بالاتصال بالافكار الزرداشتية فى عهد الحكيم الفارسي . ان النصوص الواردة فى العهد القديم التى تشير اليه قليلة ومتأخرة (١) . وعندما تأصل الاعتقاد بين اليهود ، كان فى صورة تتميز بانها يهودية ، وفى اتحاد وثيق مع الانتظار القومى للملكوت . ولقد ذهبوا الى أن العبريين الأبرار ينهضون من شيول ليسهموا فى تحقيق الملكوت على الأرض . وبهذا وصلوا الى حل يسد مطلب عدالة يهوه نحو الفرد المصاب ويرضى الطموح ، الحبيب الى القلب ، الى خلاص العبريين فى النهاية . وتبين كتابات الرؤيا التى ترجع الى القرنين الثانى والأول بأن هذا الايمان لم يكن عقيدة ثابتة ثباتا دائما ، ولكنه يظهر فى صور متباينة وفقا لمجرى التاريخ العبرى المتغير (٢) . وكانت تقوم أسئلة عديدة تسمح باجابات مختلفة . هل كان

(١) ان النصين الواردين فى العهد القديم اللذين يظهر فيهما الاعتقاد هما فى نبوءة اشعيا الهامة (متأخرة) : ٢٤ - ٢٧ (وخاصة ٢٦ ، ١ - ١٩ بعث العبريين الأبرار حوالى ٣٠٠ ق.م) وسفر الرؤيا لدانيال (حوالى ١٦٥ ق.م) وفى دانيال : ١٢ ، ٢ نجد بعث (١) الأبرار حقا (ب) الاشرار حقا (أى المرتدين عن اليهودية) . ولا يوجد فى أحد النصين ذكر لبعث عام . والنظرة الى البعث هى أنه عودة الشبيح الى حياة جسمية على الأرض ، جدت ، وهو نوع الحياة الوحيد الذى كان يمكن للعقل العبرى أن يتصوره . ولم يخطر لهم على بال قط فكرة روح ، افترق عنها الجسد .

(٢) عن طبيعة الرؤيا واختلافها عن النبوءة ، راجع شارلس (الآخويات) الصفحات ١٧٣ وما بعدها ٣٨٧ - ٨ والاختلافات الأساسية هى أن الرؤيا ترجع الى تاريخ متأخر وتسمية خاطئة وأكثر شمولاً فى مداها . وقد شرعت فى وضع فلسفة دين وتاريخ تسعى الى التغلغل الى ما وراء الحوادث لتصل الى غرضها الالهى وتضم الماضى والحاضر والمستقبل فى رسم مجمل واحد ، خارق العادة ، ينتهى بمجيء الملكوت الالهى والدينونة الأخيرة وبعث الأبرار الى حياة مستقبلية مباركة . وقد حداها ميل لتحديد تواريخ الحوادث القادمة فى احكام زمنى . ان مذهب (الالف سنة) هو نتاج الرؤيا اليهودية . لقد هيات مخلصا خياليا لروح حب الوطن بين اليهود ، الذين كانوا أضعف من أن يدركوا مطامعهم القومية تسير الى تحقيق . ولقد ترجم تشارلس كتابات الرؤيا اليهودية ، العديدة ، فى مصنفه العظيم The Apocrypha and Pseud epigrapha of the O.T. وعن الرؤيا المسيحية ، راجع كتاب هذا المؤلف =

العبريون الأبرار فقط ، هم الذين يقومون أو أن الاشرار والوثنيين يسبحون فى البعث ؟ وفى الحالة الأخيرة ماذا كان مصير اليهودى ، غير المؤمن ، والوثنى فى الدينونة التى تسبق اقامة الملكوت ؟ هل كان يسمح للأمم بامتيازاتها أو تفرض عليهم العبودية للعبريين ؟ وكان فى المعتاد ، أن تقابل هذه المسائل بروح التخصيص الصارمة . ومرة أخرى ، ماذا كانت طبيعة الحالة الوسيطة ، بين الموت وقيام الملكوت ؟ هل كان البعث قاصرا على النفس فقط أو الروح المتجسدة وماذا كان شكل جسد البعث ؟ هل كانت الملكوت أبدية على الأرض أو محدودة الأجل ؟ ماذا كانت وظيفة مسيا فيما يتعلق بقيامها وبالدينونة ؟ وبعد أن قطع القرن الأول شوطا ، ظهر تطور آخر بعيد المدى . لقد قام الاعتقاد بأن هذه الأرض لم تكن خليفة لأن تكون مسرحا للملكوت فى كمالها ، وأنه عند مجيء مسيا أو عند ختام حكمه الدنيوى ، سيخلق يهوه سماء جديدة وأرضا جديدة وأنه بعد دينونة أخيرة ، تعبر نفس العبرى البار الى حياة أبدية فى الملكوت السماوى . علاوة على هذا ، فإن مسيا يشخص أحيانا كابن انسان ، وأحيانا كأمير خارج من نسل داود ، عليه أن يخلص الشعب اليهودى من نير الرومان ويستفتح الملكوت الأرضى كمقدمة للملكوت السماوى الأبدى ^(١) . ومن الشيق تتبع هذه التصورات فى أدب الرؤيا اليهودى ، بعد مجيء المسيح . ولكن قيل ما فيه الكفاية ليتضح كيف كان حاسما انتصار روح الانعزال القومى قبيل ذلك التاريخ ، على نظرة النبوة الأولى ، الأكثر اتساعا . ومن النادر الكشف عن أى أثر فى الكتابات اليهودية فى القرن الأول ق . م . أو القرن الأول

== (سفر الرؤيا) فى (Inter national Critical Commentary) وعن موجز مختصر للموضوع كله ، راجع كتابه (Between the Old and the New Testament بين العهدين القديم والجديد) فى (Home University Library)

ان أهمية الرؤيا اليهودية لفهم البيئة الدينية التى ظهرت فيها المسيحية ، عظيمة جدا وقد قام الدليل على أن تأثيرها على (الأخرويات المسيحية) عميق ودائم فمثلا : تصورات الدينونة الأخيرة والسماء والقصاص الأبدى ترجع أصولها الى أدب الرؤيا .

(١) يجب التمييز فى وضوح بين مسيا ، فوق مستوى البشر ، ومسيا اللقب . لا توجد دلالة ، خارقة الطبيعة فى استخدام حزقيال الكثير له (وازن داود . ان اتخاذ المسيح لقب (ابن الانسان) يضيف أهمية خاصة على تاريخ المزامير : ٨ حيث يعبر عن الانسانية ، على وجه عام ، وفى دانيال : ٧ ، ١٣ يدل على أمة العبريين كطراز مثالى للانسانية بالمقابلة بالحيوان = الممالك الوثنية ، وفى انوخ الأول ، وهو سفر رؤيا (القرن الثانى ق . م) يطلق على مسيا ، فوق مستوى البشر .

الميلادى للسماح للأهم بدخول المكوت (١) . ومنذ ذلك الحين يبقى التوحيد وبقى التخصيص - على الرغم من عدم توافقهما الذاتى - فى عقيدة المجتمع اليهودى .

٤ - الخاتمة

١٧ - لقد تقصينا منهاج تعليم النبوة ونتائجها حتى عشية تأسيس المسيحية . ويمكن أن نستخلص نتيجتين من فحصنا . ففى المكان الأول تمتزج حياة العبريين الدينية ، حتى فى أعلى تطور لها ، امتزاجا لا ينفصل بقيود تختص بها . وترجع قوة الدين العبرى الى الاعتقاد باله أوجد وحكمه العالم حكما خلقيا . أما ضعفه ، المقيم فكان الافتراض الذى لا يمكن محوه بأن الغرض الالهى يتركز فى شعب واحد ، اختير من بين جميع الشعوب ليكون مستودع عطف يهوه الخاص وأن كل مجرى الطبيعة وتاريخ البشر ، يدور بارادة يهوه حول حياة ومصير العبريين . وهما لا يمكن انكاره أن سياسة العزلة المصطنعة قوت الاخلاص الدينى وأوجدت سموا خلقيا يناقض الانحلال السائد فى العادات الاغريقية الرومانية والاغريقية الشرقية ولكنها أبعدت الأهم عن أى نصيب فى الميراث الروحى . ان التاريخ الدينى العبرى ممتلئ بهذه الشواذ الغريبة والاضداد المتناقضة وقد ازدوجت الذلة التى تصدر عن الشعور بالخطيئة الشخصية بكبرياء العضوية فى مجتمع بار ، العنيفة ، غير المعتدلة ، وروح التقوى الداخلية بحرص دقيق فيما يتعلق بالفرائض الخارجية . ولقد نجم عن الايمان بوجود الله وجودا مستمرا وتنظيمه الرحيم لكل حادثة فى الحياة العامة احترام متعادل لخصائص الواجب الحلقى الجوهري ولقواعد صبيانية لدونة مراسم (٢)

وعلى هذا فان الشعب العبرى عجز عن أن يدرك بصفة فعالة رجاء الانبياء الأعظم أو يكمل رسالتهم الخاصة فى القيام على تعليم البشرية تعليما روحيا . وإذا بحثنا عن السبب الذى يرجع اليه هذا الفشل ، وإذا سألنا لماذا لم ينتج لهم أبدا أن يدركوا عدم التلاؤم بين التخصيص والايمان بحاكم خلقى أوجد للكون ، فيجب أن نشير فى الاجابة على هذا الى ما كان يلزمهم من قيود عقلية ، فعلى غير شاكلة الاغريق ، لم يكن العبرى يفكر فى الأمور تفكيراً يتسم بالعمق . ولم يصل أبدا الى مستوى التقدم العقلى الذى تقوم فيه

(١) ولكن ٤ اسدرس استثناء (IV Esdras)

(٢) وهكذا تعالى الله وباطنيته كمستوطن فى قلب البار ، وعدالته ورجته ، ومبدأ الجزاء الوفاق ومبدأ الغفران الطليق ، والرجاء فى مثوبة مستقبلية عن الافعال القيمة والسعى فى الخير من أجل الخير ، والحتمية والحرية ، وغضب ومحبته الله - تحيى متلازمة فى الفكر الدينى اليهودى ولو أن صعاب تمحيصها لا تدرك أبدا ادراكا تاما .

دعوى العقل بأن يكون له صوت فى تقرير المعتقدات الدينية والخلقية (١) وهذا هو السبب فى أن أنبل أقوال التقوى العبرية لا تنتظمها مجموعة متجانسة من الحقائق اللاهوتية ، وتعميها الاختلافات والمتناقضات التى غفل عنها واضعوها . وهكذا ، مرة أخرى ، يمكننا أن نشرح ما يمكن أن نطلق عليه عرض الفكر الدينى العبرى ، الحقيقة التى سبق أن لوحظت مرارا وهى أن أقواله يحددها تتابع الحوادث التاريخية التى حدث أن كان لها تأثير على الأمة العبرية . وكانت هذه الحوادث توحى ليس فقط بوقت النبوة العبرية ولكن الى حد بعيد بفحواها . وكلما كانت ذلة الشعب المختار مربرة ، وكلما كانت آلامه عظيمة الشدة ، قوى تيقنهم من الافتداء فى النهاية .

وكانت رؤية العبريين الروحية تتسع بنسبة عكسية لما كانوا ينجزونه من أعمال جليلة دنيوية ، وكان المنطق ، لأنه لا بد من وجود منطق ، يرجع بعضه لمنطق الظرف التاريخي وبعضه الآخر لمنطق الضمير ، الداخلى . ولم يكن قط من البداية الى النهاية منطق العقل . وعلى هذا فقد أتيج للأنبياء . أخيرا بأن يروا حقائق ، أحداها فى وقت وغيرها فى وقت آخر ، فى عزلتهم واستقلالهم . وما أتيج لهم أن يعرفوا الحقيقة . وهذا هو السبب فى أن العبريين ، حتى بمعزل من قيود القانون ، لم تكن لهم قدرة على توصيل مغزى رؤيتهم الروحية الى شعوب الغرب . وحتى يكون هذا بالأمر المستطاع ، كان يشتم صوغ الحقائق العديدة فى كل متجانس وتفريق الجوهرى عن العرضى والكشف عما يكون هناك من دلالات وتجديد الصحة النسبية لكل حقيقة بعملية تنسيقية يتوافر فيها التوضيح والافاضة . وبهذا وحده كان

(١) وعندما جاء دور العقل ، أصبح ينزع الى السفسطة والرسميات ومنطق المدارس الجذب . وفى الوقت نفسه ظل التواصل قائما بين التعليم الروحى الأعلى ودين الشعب . وقد نجح الأنبياء اليهود هنا ، حيث فشل فلاسفة الاغريق . (راجع وب Webb) - محاضرات جفورد ، السلسلة الأولى عن « الله والشخصية » الصفحات ٨٥ ، ٨٦) . ان العلاقة الشخصية بين يهوه وعابده اليهودى لم يأت عليها وهن فى جميع مستويات الإدراك الدينى . ويمكننا أن نلاحظ أيضا أنه بينما الرابطة الوثيقة بين النبوة العبرية والالزامات التاريخية التى انتابت الأمة كانت تقيد أغراض يهوه وإرادته بالحوادث الزمنية فانها أضفت على اليهود احساسا قويا بمغزى التاريخ ، الخلقى ، ولم يساورهم جنوح قط . كما كان يساور الفلاسفة الاغريق فى الغالب ، بأن يفرقوا بين القيم المثالية وسير الوقائع . « ان التاريخ بأجمعه هو كشف الغطاء عن الغرض الالهى وعلى هذا فان التاريخ ككل ، له أهمية عند اليهودى ، لم تكن مطلقا عند المفكر الاغريقى أو اليهودى الذى اصطبغ بالهلينية . ان الفكرة العبرية عن الله دينامية وخلقية وعلى هذا فانها تتأصل فى فكرة الزمن » (انج Inge) - مقالات صريحة - القديس بولس صفحة ٢١٥) . ان هذا الاحساس بقيمة الواقعة التاريخية كان له تأثير قوى على الفكر المسيحى - راجع السفر الثانى الفصل التاسع .

يمكن لتعليم النبوءة أن يصل الى عقيدة دينية يكون لها وقع ليس في القلب وحسب ولكن في العقل . هل كان يصدق أن يحدث مثل هذا التحول الاساسي الا بالانفصال عن اليهودية .

١٨ - والامر الثاني هو أن حياة العبريين الدينية هيأت السوابق التاريخية للمسيحية . ولقد اعترف المسيح نفسه بهذه القرابة عندما أعلن أنه جاء لا ليهدم الناموس ولكن ليكمل . وعند القديس بولس ، رسول الأمم ، كان الناموس معلما يهدي الناس للمسيح . وقد كان عن طريق وساطة المسيحية ، أن ميراث اسرائيل الروحي نقل الى العالم الغربي . وفي عملية النقل النسقية ، أعيد صياغته وحول . وقد أهمل الكثير مما كان يتميز به الدين اليهودي وأصبح ما مثل أساس بناء جديد ومنذ ذلك الحين ، سارت الديانتان في طريقهما الخاصة المتعددة . وما كان الوعي بالعلاقات التاريخية الا ليوسع الهوة التي تفصل بينهما . ويكون التواصل ظاهرا أعظم ظهور ، في تصور الملكوت الالهي . وكان من الطبيعي أن تلاميذ العقيدة الجديدة يرجعون الى الانبياء عن سوابق الانجيل ، وليس الى الشريعة لأنه كشف للانبياء عن رؤية « يوم يهوه » ، عندما تسود العدالة ويتوارى الاضطهاد والظلم ، عندما الناس « يطبعون سيوفهم سككا ورماحهم مناجل . لا ترفع أمة على أمة سيفاً ولا يتعلمون الحرب فيما بعد ؟ » . وعندما « لا يسوؤون ولا يفسدون في كل جبل قدسي لأن الأرض تمتلئ من معرفة الرب كما تغطي المياه البحر » (١) .

ولقد عاق تقبلهم هذه الحقائق قيود : تحيزهم لما كان لشعبهم الخاص من حقوق ، وفشلهم في التوفيق بين مطلب الفرد الروحي ومطلب المجتمع وإدراكهم الناقص للباطنية الالهية وارجاؤهم المجتمع المثالي لزمن يجيء في المستقبل . وفي تعليم الانجيل ، تحررت فكرة الملكوت تحررا نهائيا من هذه القيود . أصبح الفرد يستطيع أن يجد الخلاص ويظفر بالحياة الأبدية فقط عن طريق الاندماج في المجتمع الالهي الذي كان يرتبط أعضاؤه ، الواحد مع الآخر ، بأصرتهم الشخصية مع رئيس ذلك المجتمع . وفي النهاية حطمت حواجز القومية الى الأبد وفتحت أبواب الملكوت لليهودي والأممي ، والاغريقي والهمجي ، والأسير والحر . . . ووجد إيمان - أزال الهوة التي كانت تفصل ما هو الهى عما هو انساني - كل البشرية بروابط أخوة عامة . ومرة أخرى ، أصبحوا يتصورون إقامة الملكوت على أنها ليست حادثة بعيدة ولكن واقعة حاضرة ، حقيقة حياة لها وجود فعلى في قلوب الناس « على الأرض كما في السماء » (٢) . ولكن بذور مبدأ الايمان ، هذه التي

(١) اشع : ٢ ، ٤ = ميخا : ٤ ، ٣ واشع : ١١ ، ٩ = حب : ٢ ، ١٤

(٢) عن الملكوت كواقعة قائمة : مرقس : ٤ ، ١١ ، ٣٠ وما بعدها (حبة

الجرذل) ١٠ ، ١٤ ، ١٢ ، ٣٤ وكذلك متى : ٥ ، ٣ = لوقا : ٦ ، ٢٠ ومتى : ٦ ، ٣٣ = لوقا : ١٢ ، ٣١ .

انت يمثل هذه الثمار فى تجديد البشرية تجديدا روحيا كانت مغروسة فى تربة النبوة العبرية . ولهذا السبب كان يستطيع اليهودى ، بل والمسيحى أيضا أن يعترف بدعوى العبريين فى أن يلقبوا بالشعب المختار : « أنتم فقط الذين عرفتهم من بين جميع عشائر الأرض » . ومن بين شعوب عالم ما قبل المسيحية ، سمح للعبريين دون سواهم برؤية ملكوت الله وما دونوه عن هذه الرؤية ، هو تراثهم لبنى الانسان (١) .

= عن عدم مجيء الملكوت بعد : مرقس ١٠ ، ١٥ (اقترب) وكذلك متى ٨ ، ١١ و ٢٢ ، ٢ وما بعدها وامثال الكنز المخبأ فى حقل والدرة ذات الثمن العظيم . عن الملكوت كحياة أبدية فى العصر القادم : مرقس ٩ ، ٤٣ وما بعدها و ١٠ ، ١٧ وما بعدها وكذلك متى ٧ ، ٢١ وما بعدها .

راجع جاكسون وليك ، التمهيد الجزء الأول ، لأعمال الرسل الصفحة ١٧٨ وما بعدها الذى أخذ منه المراجع آتفة الذكر . ان كلها تحجى ، اما فى مرقس أو فى تلك الأجزاء من متى ولوقا التى يمكن ارجاعها الى مصدر مشترك ويرمز اليها بالحرف (٢) الذى يعبر عن مرقس . ويذكر كتاب نسايرلس (الأخرويات الصفحات ٣٦٤ وما بعدها) متى ١٢ ، ٢٨ ولوقا : ٤ ، ١٨-٢١ (الملكوت حاضرة) مرقس : ٩ ، ١ (مستقبلية ، فى السماء) ، متى : ١٨ ، ٣ ، ٤ ولوقا ١٨ ، ١٧ (حاضرة ومستقبلية على السواء) .

(١) يجب التنويه عن فروق آخر بين المسيحية واليهودية المعاصرة . جاء المسيح ليبشر « بأخبار طيبة تجلب ثرجا عظيما » . وكان على هذه الحال أن رسالته استهوت شعوب عالم البحر المتوسط . ولكن الفكرة السائدة فى كتابات الرؤيا اليهودية فى الفترة الواقعة بين ٢٠٠ ق م - ١٠٠ م هى فكرة الانتقام الالهى . وكانت الرسالة للعالم بأسره ، حتى لغير الصالحين بين اليهود رسالة فزع وليس رسالة رجاء . لقد كان اليهود يعتقدون فى مفعول الخوف والعقاب وانصب تعليمهم على عداوة الله عداوة لا هودة فيها للإشراق غير التائبين . وحتى « عهد البطارقة الاننى عشر » (القرن الثانى ق م) الذى يحوى ما يقرب من مبادئ الايمان المسيحى فى الغفران ، يقصر دون الوصول الى المنزل الأعلى المسيحى فى محبة الأعداء . ويذكر مونتيفيور (Montefiore) (فى الأعمال ، ١ : ٧٩ جاكسون وليك) أنه لا توجد فى اليهودية المعاصرة النصيحة التى تتميز بها المسيحية لمحبة تسعى الى الخاطئ ومن سقط . واذا كان هذا واجب الانسان ، فيجب أن يكون كعبير عن المحبة الالهية التى تنسحب حتى على غير الشكور والشرير . لقد كان كتاب الرؤيا يعجبون لماذا خلق الله جماهير الناس ليلافوا العقاب الأبدى ولكن لم يناقشوا الواقعة قط . ومما لا ريب فيه أن علم اللاهوت المسيحى استوعب الكثير من هذا التقليد اليهودى ، وفى قصيدة دانتي نفراً أن جماعات من الأرواح تساق الى الجحيم أمام بصر الشاعر بينما يمر شاعر ملحمة (Statu) فقط ، أثناء رحلته من المطهر الى الفردوس . ولكن هذا التراث المالك لم يمح اطلاقا تعليم المسيح الجوهرى ، الجديد عن محبة الله التى تشمل الكون ، ذاك الذى تضمنه ، على سبيل المثال ، مثالا الحروف المفقود والابن الضال .

تذكرة إضافية

عن تاريخ العبريين بعد النفي

قد يكون من المفيد أن نلخص في ايجاز الوقائع البارزة لتاريخ ما بعد النفي ، وهي تقع في ثلاث حقب :

(١) كان المنفيون المعادون خاضعين لسيادة فارس الوادعة من منتصف القرن الخامس حتى غزو الاسكندر الأكبر المقدوني ، (٣٣٢) .

(٢) وكان يحكمهم ، قرابة قرنين ، أسباط مقدونيون . وكانت فلسطين مرة أخرى ، الغنيمة التي يتصارع للفوز بها البطالة في مصر . وملوك آسيا السلوقيون . وقد فتحت الأبواب على مصاريحها للهليينية . وقام اضطراب مدني في عهد سليوقد أنطيوخس أفيانوس (١٦٨) بين اليهود الذين يسرون على الهليينية يعاونهم الملك الاغريقي وحزب المبادئ القويمة مما أدى الى تدخل أنطيوخس بالقوة والى انتهاك المعبد واستشهاد الكثيرين . وقد وجد «الآخيار» نصيرا في يهوذا المكابي من عشيرة الكهنة الهسمونية (هشموناي) الذين حققوا الاستقلال القومي وأسسوا حكومة دينية ظلت باقية الى أن ظهر الرومان على المسرح .

(٣) وفي الأعوام ٦٣ - ٦١ أعاد بومباي ، بعد أن تم له قهر مترادطس ملك بنطس ، عدو روما العظيم في الشرق ، تنظيم ذلك الجزء من اقليم البحر المتوسط . وقد وضع اليهود تحت السيادة الرومانية واحتفظوا بقسط عظيم من الحكم الذاتي يباشره كبار الكهنة . وفي عام ٤٠ آلت الحكومة الى هيرود العظيم الحاكم الادومي ذي القدرة الاستثنائية الذي عاون باستمرار روما وعاونته روما .

ولقد أعاد اقامة المعبد في روعة عظيمة وأسس قيصرية . وكان كجنبي، غير محبوب بين جمهرة اليهود . وعند موته (٤ ق.م) انقسمت المملكة وهي أبدا تحت السيادة الرومانية . وفي عام ٦ م . أصبحت اليهودية اقليما من المرتبة الثانية ، يدير شئونها وال مسئول أمام مبعوث legatus سوريا ودام هذا النوع من الحكومة (فيما عدا فترة الثلاث سنوات ٤١-٤٤ م عندما حكم هيرود أغريبا Herod Agrippa الأول اليهودية كملك) حتى الثورة العظيمة التي حدثت عام ٦٦ وتدمير طيطس اورشليم في عام ٧٠ .

وكان بنطيس بلطس Pontius Pilate أحد سلسلة من الولاة في عهد طبريوس . وأخيرا بعد ثورة اليهود الثانية ضد روما في عهد هدریان (١٣٢ - ٥) أصاب الجماعة الضربة القاضية ، ففد الغى اسم اليهودية ، وتاريخ اليهود اللاحق هو تاريخ التشتت .

ويجب أن يلاحظ بعد هذا :

(أ) ان الوطنية القومية اليهودية ازدادت شدة وانعزالا بازدياد صرامة الحكم الأجنبي ، الفارسي والاغريقي والرومانى . وكانت كل محاولة لفرض الآراء الغربية تثير اندلاع مقاومة عنيفة . وقد كسب الحزب القومى قوة فى عهد الحكم الرومانى على الرغم من الاحترام المدروس الذى كانت الحكومة الامبراطورية تتسايح به الشعور الدينى اليهودى ، والسلطات الواسعة القضائية والادارية التى منحت الى السنهدريم (سيندريون Synedrion الاغريقية = مجلس) وكان الشعب اليهودى على الدوام ، على وشك الثورة خلال هذه الحقبة ، وكانت الجليل مركز العاصفة الرئيسى .

(ب) ان جماعات التشتت اليهودية (Diaspora=Dispersion) تزايد عددها واهميتها فى اطراد فى خلال الحقبتن المقدونية والرومانية . وكان يوجد على الدوام مستعمرة يهودية فى بابل ، عظيمة وهامة جدا . واستقر اليهود فى مدن آسيا الصغرى وسوريا ومصر ، وخاصة فى الاسكندرية حيث احتلوا اثنين من أحياء المدينة الخمسة وكانوا يستمتعون بمزايا عظيمة .

وهناك وضعت الترجمة الاغريقية « للعهد القديم » ، المعروفة بالترجمة السبعينية (Septuagint) فى القرن الثانى ق.م . وكانت الاسكندرية مكان اجتماع الفكر اليهودى والهلىنى ، الرئيسى ، ونرى اليهودية تنحى للنفوذ الغربى ولكن لا تنكسر تحت وطأة الضغط (أنظر ما سيجىء بعد ، فصل ٦ ، ٨ وفصل ٩ ، ٢) . وقد وجد بين اليهود كثير من المرتدين (وكذلك شبه مرتدين كانوا يقبلون العقيدة اليهودية دون ختان ودون غيره من الفروض الموسوية) فى الأقاليم التى اصطبغت بالهلينية . ويعطى سفر أعمال الرسل : ٢ ، ٩ - ١١ فكرة عن مدى التشتت ووجود اليهود ، الذى ألمح اليه ، فى فارثيا وغيرها من البلاد الشرقية ، خارج الامبراطورية الرومانية ، يقيم الدليل على التبشير بالمسيحية فى تلك الجهات فى الأزمنة القديمة (ولو أنه لا يعلم الا النذر اليسير جدا عن هذه البعثات) . وتوحى الرغبة التى عبر عنها القديس بولس فى التبشير فى اسبانيا (سفر رومية ١٥ ، ٢٨) ، بأن اليهود تغلغلوا الى أقصى الغرب فى العالم الرومانى .

(ج) انه كان فى العهود الاغريقية والفارسية والرومانية أن اليهودية ، وهى تتميز عن دين العبرانيين فى فترة ما قبل السبى ، تطورت كدين حتى

بلغت الصورة الكاملة النهائية التي ظلت عليها منذ النصف الأخير من القرن الثاني وبداية القرن الثالث • وهذه العملية النسقية التي بدأت كما رأينا بتنفيذ قانون عزرا والتي حافظت بتأثير النبوة في المراحل الأولى على استمرار لا ينقطع ، مع دين ما قبل اليهودية - كانت تتميز بسيادة تضطرد ازديادا للتوراة التقليدية ، كما يفسره في المدارس والمجامع ، الكتبة ومن جاء بعدهم من المفسرين الماهنين الذين أدمج عملهم في النهاية في « المشناه » وهي مجموعة القوانين التقليدية كما انفذت في ختام القرن الثاني ، وبعد ذلك في التلمود (التعليم) الذي وضع في الجليل في أواخر القرن الرابع ، وبابل (في أواخر القرن الخامس) • وأصبح التوراة ، وقد وضع هكذا في مدونة قوانين ، عفيدة يهودية عامة أساسها الاشتراك في الفروض والتغلغل في كل تفصيلات حياة المجتمع اليهودي ، الدنيوية وكذلك الدينية والشخصية والمنزلية والقومية • وقد حل منهج التخصص محل منهج التعليم وانتصر مذهب الشريعة وبطلت النبوة ينطق بها أنبياء أحياء ، ولكن يظل خلق المذهب اليهودي في شكله النهائي الدائم عملا جليلا حقا قامت به عبقرية الشعب المختار ، الدينية (١) •

(١) راجع مور Moore "Judaism" السفر الأول - مقدمة ، وفصل

الفصل الرابع

قيام الهلينة

١ - مقدمة

١ - ان أصول الشعب الاغريقى يعسر اقتفاء اثرها . ولقد رأينا كيف أنه منذ عهد بعيد ، فى الألف سنة الثالثة ، كانت كريت موطن مدينة زاخرة وصلت الى اليونان فى القارة وجزر ايجة والبحر المتوسط . والرأى السائد هو أن صانعى هذه المدينة كانوا يختلفون عن يونانى التاريخ اللاحق ، فى السلالة والخليقة واللغة . وعلاوة على هذا فان شهادة التقاليد القديمة وعلم الآثار الحديث تشير كلاهما الى كارثة أطاحت بدولة كريت ، فى وقت ما ، يقرب من ختام الألف سنة الثانية ، والى فترة لاحقة من الفوضى والاضطراب ، مماثلة لتلك التى وقعت بين سقوط الامبراطورية الرومانية فى الغرب وظهور نظام مجتمع جديد فى العصور الوسطى . والأزمة القديمة أيضا كان لها عصور مظلمة ، ومنها أنبعثت يونان التاريخ . وفى كريت ، على سبيل المثال ، دمر حريق أبنية منويا العظيمة ثم بعد قرون لم يصل منها الا اليسير من الوثائق نجد الاغريق الدوريين يحتلون الجزيرة . ولقد أنبأت قصة الديانة الاغريقية عن صراع بين آلهة عجائز وآلهة أصغر منهم سنا وعن انتصار هؤلاء . وقد حفظ الشعراء والمؤرخون الاغريق ذكريات عن هجرات بالبر والبحر وعن صراع وامتزاج بين الغزاة الأخائيين والدوريين من جهة والبلاسجيين السابقين للأخائيين من جهة أخرى . والفيل الذى نعلمه عن عصر الانتقال هذا يوحى بمشكلات لا بنتائج . ولكن هذا القدر على الأقل نُعلمه علم اليقين ، وهو أنه فى زمن متأخر فى الألف سنة الثانية ، هبط محاربون طوال ، صفر الشعر فاتحو اللون ، من الجذع الهندى الأوروبى فى موجات متتابعات الى العالم الايجى من أصقاع الشمال الداخلية . وبعضهم وقد جلبوا معهم أسراتهم وما لديهم من متاع كالغوط والفرنجة فى زمن متأخر عن هذا ، شقوا طريقهم قسرا صوب الجنوب بالبر الى طراقية ومقدونيا وتساليا وأفيروس وواصلوا السير الى اليونان الوسطى وبلوبونسس . وآخرون غيرهم ، ربما فى تاريخ اسبق ، عبروا السبنتس الى آسيا الصغرى وكذلك آخرون كرجال الشمال ، فى القرن التاسع أغاروا بالبحر على سواحل وجزر ايجا . ويمكننا أن نتصور هؤلاء الشماليين الأجلاف وهم لا يختلفون فى عاداتهم وثقافتهم عن المقدونيين فى عصر فيليب والاسكندر أو عن الألبانيين فى زمننا . ولم يكونوا حسين سادوا فى خلال القرون مدينة كريت القديمة هدامين بكل ما تحمل الكلمة من معنى . ولقد تركت هذه المدينة آثارها على تدرجهم فى الرقى ، ومن المحتمل

أن تفوق الثقافة الاغريقية بموازنتها بثقافة الرومان كان مرجعه الى حد ما ، الى هذه الواقعة وهى الاتصال المبكر بالمدينة المنوية . وعلى أية حال كان اغريق التاريخ نجاج الامتزاج التدرجى بين الأخائيين وغيرهم من دخلاء الشمال والقاطنين القدامى بالعالم الايجى . ومن الطبيعى أن هؤلاء الأخيرين وقد كانوا أكثر عدا أن يطبعوا الغزاة بطابع ثقافتهم . واستقرار الغزاة فى اليونان الأوربية كان يصحبه أو يعقبه هجرات المستعمرين الاغريق الى جزر بحر ايجا وشواطئه الآسيوية والتقابل مع ذوى قرابتهم الذين عبروا الى هناك بطريق آخر فى زمن أسبق . ومن المحتمل جدا أن ذكرى مثل تلك المعارك هى التى حفظتها قصة حرب طروادة (١) . ولقد أبحرت احدى تلك الجماعات من المستعمرين ، وهم الأيوليون ، من تساليا الى شمال غربى آسيا الصغرى والجزر التى تقع فيما يلى الساحل . وغيرهم من المستوطنين ، بعيدا الى الجنوب ، اتحدوا فى تحالف قدرالى ، يطلق عليه اسم الجمعية الأيونية حول مقدس بولو فى ديلوس . وكان باسم الأيونيين (بوفان فى العهد القديم) أن قداماء الاغريق عرفوا لدى شعوب الشرق . ويمكن أن نضع تاريخ هذه الهجرات البحرية عبر ايجا بين سنة ١٣٠٠ وسنة ١٠٠٠ ق.م. ومن المحتمل كثيرا أن هذه الهجرات ترتبط بالشدائد التى عانتها مصر من جواىى البحر فى عهد الأسرة العشرين (٢) .

وأخيرا فى ختام الألف سنة الثانية تماما وصلت آخر موجة من الغزو الشمالى الى اليونان الأوربية عندما احتل الدورويون وهم جيل من أصلاىى المحاربين ، أسلاف الأسبارطيين الذين جاءوا فى تاريخ لاحق ، أجزاء من اليونان الوسطى والغربية ، وعندما بلغوا فى سيرهم مناطق الجنوب دانت لهم السيادة على التدرج ، على الجزء الأعظم من بلوبونسس . وعبر المهاجرون الدورويون أيضا بحر ايجى واستعمروا كريت ورودى وشواطىء آسيا الصغرى الجنوبية الغربية . وكان من أثر هذه الهجرات التى استغرقت عدة قرون وانتهت حوالى سنة ٥٠٠ ق.م. استقرار السلالة الاغريقية واللغة الاغريقية على جانبى بحر ايجى .

-
- (١) ان التاريخ التقليدى لحرب طروادة هو ١١٨٤ ق.م. ورأى العلماء فى زمننا الحاضر أكثر تحفظا عما كان عليه منذ قرن . وهذه القلائل فى بحر ايجا وعالم شرق البحر المتوسط قد تكون السبب فى فقدان الحيشيين لنفوذهم فى غربى آسيا الصغرى . انظر ما سبق قوله فى الفصل الثانى فقرة ١٢ ومحاضرات اشفايش Schweich Lectures لكاولى Cowley عن الحيشيين .
- (٢) انظر ما جاء فى الفصل ٢ فقرة ٤ وقد كان بعض الغزاة المتأخرين يمتشقون سيوفا من الحديد من صنع أدخل التحسين عليه وأمامها كانت المدى من البرنز التى يحملها خصومهم الكريتيون قليلة النفع .

٢ - دولة المدن الهلينية

٢ : ان حياة الشعب اليونانى خلال القرون البواكر من الألف سنة الأولى ، كما فى حقبة الهجرات السابقة ، يكتنفها الغموض ، وعلمنا بطبيعتها يتألف على الأكثر من نتائج عامة تستند الى استدلالات ترجع الى العصر التالى . وهذا جلى فى جميع الأحوال ، فلقد امتدت المدينة الهلينية منذ فجر تاريخها ، الى ما يلى يونان القارة . وسنرى فى الحال كيف أنه فى القرنين الثامن والسابع ، بسطت هذه المدينة رواقها فيما يوالى منطقة ايجا حول أكسين (البحر الأسود) وفوق أراضى الساحل فى أفريقيا الشمالية وجنوبى إيطاليا وصقلية . وقد أصبحت إيطاليا الجنوبية تعرف لدى الاغريق باسم « هلاس العظمى » وأينما نجد فى عالم البحر المتوسط مدنا اغريقية والتحدث بالاغريقية فهناك ، فيما له شأن بالتاريخ ، نجد اليونان . ولكن الحقيقة التى لها الأهمية الأساسية للمدينة الهلينية هى أنه عندما يرفع الحجاب جزئيا فى القرن الثامن ، نرى الاغريق ، فيما عدا الجماعات المتخلفة التى تقطن بالجزر ، قد تجمعوا فى دول مدينة ، ونرى ممالك الملوك الآباء التى نقرأ عنها فى الأشعار الهومرية قد أخلت فى الغالب أمكنتها للأرستقراطيات الوراثة ، وفى الجماعات المدنية الأكثر تقدما نجد القوانين والنظم الدستورية قد بدأت فى الظهور . وكانت كل من هذه المدن الصغيرة تستمتع بالاستقلال السياسى التام وترقى بمنظوماتها التى تتميز بها وبسند الحياة ، فى سبيل التقدم . ومن الجوهرى أن ندرك أن اليونان الحرة لم تتوحد اطلاقا فى دولة واحدة . والوثائق القومى كان وثائق السلالة واللغة المشتركين وليس ذلك الذى يكون بالاتحاد السياسى . ويجب أن يكون مدار تفكيرنا فى التاريخ الاغريقى على أنه سجل لمئات المدن المستقلة التى تناثرت فى أرجاء جزر وشواطئ البحر المتوسط وكل منها يملك رقعة صغيرة من الأرض المدنية . ورقعة أثينا على سبيل المثال ، التى كانت على اتساع منقطع النظير ، كانت تشمل شبه جزيرة أتيكا ومساحتها تعدل مساحة مقاطعة انجليزىة متوسطة . وفى عصر بركليس ، كان عدد المواطنين الذين يمكن تجنيدهم يبلغ ٣٠ر٠٠٠ يمثلون سكانا أحرارا تعدادهم زهاء ٢٥٠ر٠٠٠ بما فيهم النساء والأطفال يضاف اليهم الكثير من العبيد والغرباء المستوطنين (١) .

(١) انظر تذكرة الفصل الخامس فقرة ٥

كان لدى اسبارطة وهى دولة - غزو محدودة جدا نحو ٨٠٠٠ مواطن فى قدرتهم حمل السلاح ، فى زمن حرب الفرس - وقد هبط هذا العدد الى ما يقرب من ١٢٠٠ الى ١٥٠٠ قبيل عام ٣٧١ وفى زمن أرستطاليس الى أقل من ١٠٠٠ وكان لدى أرجوس وطيبة قرابة ٢٠ر٠٠٠ من المواطنين - الجنود ، فى آخر القرن الخامس .

وعلى غرار الجمهوريات الإيطالية فى العصور الوسطى المتأخرة كانت هذه المدن الاغريقية تحرس حرصا شديدا على استقلالها . وكلما ظفرت واحدة منها مثل أثينا أو سيراكوز الصقلية بالسيادة على الأخريات فإن الامبراطورية كانت فى جميع الأحوال ذات أجل عابر وطالما بقيت ، كانت تثير الجفاء العميق بين رعاياها . وكانت الوطنية الاغريقية مدنية وليست قومية . وليس معنى هذا أنهم كانوا مجردين عن الاحساس بالصرّة القرابة الهلينية المشتركة ، ولكن على النقيض كانوا يدركون فى جلاء ، الهوة التى كانت تفصل موازيينهم فى الأخلاق والمدنية عما كان لدى « الهمج » الذين كانوا يحيطون بهم ولكن الرابطة كانت رابطة شعور ولغة وثقافة (١) . ولقد وجدت تعبيرا خاصا بها فى الحفلات الرياضية العظيمة التى كانت تعقد تحت الرعاية الدينية ومجالها مفتوح لكل الهلنيين وقاصر عليهم ومن بينها كان أقدمها وأبعدها صيتا ، ذلك الاحتفال الذى كان يعقد كل أربع سنوات فى الومبيّا على تخوم الس تكريما لزيوس ، وقد نظمت من بواكير القرن السادس حفلات أخرى فى نيبيا بالقرب من أرجس على برزخ كورنت - والفوئى - على سهل كريسّا عن قرب من هيكل أبولو فى دلفى . ودين الاغريق ، على الرغم من طائفة جمة من الضروب المتباينة المحلية ، كان يكون ارثا مشتركا . وكانت تحاط الآلهة الأولمبية الرئيسية مثل زيوس وبسيدون (Poseidon) وأثينا Athene وأبولو Apollo بالتبجيل فى جميع أرجاء المنطقة الهلينية . وفى عهد التوسع التجارى تطور مهبط الوحى فى دلفى الى منظمة جامعة هلينية دينية . وبفضل سهولة المواصلات بالبحر بين جميع أجزاء العالم الهلنى ، سرعان ما أصبحت ضروب الفن والشعر والعلم التى قامت فى متنوع مراكز الثقافة ملكا مشتركا لها جميعا . وعلى هذا فإن الحاجة الى اتحاد سياسى كأداة للمدنية لم يشعر بها الاغريق طوال حقبة الخلق العظيمة ، فى تاريخهم ، وحتى عندما كانت تسيطر على مدائن اليونان الوسطى والشرقية المملكة المقدونية فى القرن الرابع ، احتفظت مدن ايطاليا وصقلية باستقلالها وظفرت مقدونيا بسيادتها وحافظت عليها عنوة .

٣ - والبولس Polis دولة - المدينة كانت من خلق الشعب الهلنى

(١) يذكر الأستاذ جلبرت مرى (Five Stages of Greek Religion) خمس مراحل للدين الاغريقى (صفحة ٨١) أن الوعى بالهلينية كانت نشأته بين الاغريق الأيونيين فى آسيا الصغرى حيث كان التناقض مع الهمج المحيطين بهم أشد ظهورا ، ولفظ هلينى ، معناه « مثل الهلنيين » وليس « نسل الهلنيين » نفس المرجع صفحة ٥٨ وما بعدها .

الخاص (١) ان أسرها فى مستقبل المدينة لا يحده حصر ، ففى المكان الأول ، فى حياتها وبنيتهما تستعرض ، فى شكل أبسط مما هو عليه فى الدول الكبيرة فى الازمنة الحديثة ، المعطيات والمشكلات الخلقية والاقتصادية جميعا ، اللواتى يجابهن الانسان فى كل العصور كعضو فى مجتمع اشتراكى . وكما صاغ الاغريق فى فلسفتهم ، فى تعابير بسيطة نسبيا ، النتائج الجوهرية للفكر الانسانى تلك التى توارثت عن نظرنا الذى جاء فيما بعد ، تحت كتلة مركبة من المواد فهكذا فى نطاق العمل العام فى دولة - المدينة ، وطنوا أنفسهم على ادراك الشرائط الجوهرية لحياة المواطن الحقبة - ومرة أخرى فان مشكلات المجتمع المتصدين كان يعالجها الاغريق الى أن تصل الى الحل التام الممكن فى ظل ذلك الشكل من التنظيم . ويمكن تتبع تاريخ دولة - المدينة الهلينية من بواكيره حتى تدهورها وسقوطها ، ثلنا قدم الاغريق نظريتهم الخاصة فى السياسة فانهم لم يخلقوا فقط دولة - المدينة ، ولكنهم كانوا يعنون الفكر فيها . وانا لنجد فى فلسفتهم كلا من التحليل المثالى والتفكيرى ، لعملهم العظام . وتقوم دولة - المدينة الهلينية على النقيض من امبراطوريات الشرق الأوليات من جهة ، ومن دول الازمنة الحديثة ، من جهة أخرى . والدولة الحديثة ، لا حاضرتها ، هى الوطن ، وقد تتغير الحاضرة كما فى روسيا من موسكو الى سان بطرسبرج وبعد ذلك من لينينجراد الى موسكو بينما الدولة باقية كما هى . وقد يقوم للدولة كيان كرابطة المصالح المشتركة (الكومنولث) الأسترالية حتى قبل أن يتحدد موقع حاضرتها المستقبلية . ولكن فى اليونان وفى روما فى عهد الجمهورية كانت الحاضرة هى الدولة بعينها ، وعلى خلاف الممالك الشرقية ، حققت دولة - المدينة فى اليونان توحيد الحياة المتمدينة والحرية السياسية . وفى الشرق يكون لحرية الحكومة وجود ولكن فقط بين القبائل غليظة الطباع التى تعيش فى جماعات صغيرة ، ويكون تقدم الثقافة ممكنا فقط عن طريق تكوين مجموعات عظيمة من مثل هذه الجماعات تحت

(١) أسس الفينيقيون ، فى موطنهم وفى المستعمرات ، وخاصة قرطاجنة دولات - مدينة ولكننا لا نجد فى أى مكان الحياة العامة الحرة التى ترتبط بهذا النظام كما فى حالة المدن الاغريقية أو فى روما . ويرى فولر Fowler (دولة - المدينة صفحة ٥) فى دولة المدينة - أساس الاحساس بميراث المدينة المشترك الذى خلفه الاغريق والرومان (على سبيل المثال ، المؤرخ الاغريق بلوبيوس Polybius فى القرن الثانى ق م) وقد يوجد شك فيما اذا كانت الجماعات الايطالية الحضرية دولات مدينة كاملة التكوين . ان مدينتا لاتيم Latium وقمبانيا Campania كانتا بالحرى مراكز حضرية بين جماعة قبلية وعن روما التى وصفها بلوبيوس « دولة أعظم شبيها بدولة هلينية » ، انظر ما يلى فصل ٧ .

تراث العالم القديم

حكم استبدادى وعلى ذلك تكون الحرية الثمن الذى يبذل للحصول عليه .
وهكذا كانت حال الاسرائيليين فى كفاحهم ضد جيرانهم فانهم وضعوا أنفسهم
طوعا تحت امرة ملك كمناط رجائهم الأوحى فى الخلاص القومى . وقالوا لا بل
يكون علينا ملك فنكون نحن أيضا مثل سائر الشعوب ويقضى لنا ملكنا
ويخرج أمامنا ويحارب حروبنا (١) .

وطوال العصور القديمة ، كان معنى الدولة العظيمة هو الحكم الاستبدادى
والى أن ظهر الاغريق كان معنى التقدم فى المدنية خلق دولة عظيمة . لقد
كانوا أول من حل مسألة الجمع بين الثقافة والحرية فى مجتمع صغير وحلوه
عن طريق دولة - المدينة . وقد اجتمعت ارادتهم على أن يشابه الواحد منهم
الآخر ووصلوا إلى نتيجة فريدة وحققوا فى حياة دولة - المدينة ، العامة الحرة
تاريخيا يتناقض تناقضا فاجعيا مع قصة الاستبداد الرتيبة ومزايا الطبقات
الاجتماعية والاستعباد ، التى يجى سردها فى سجلات الشرق .

٤ - لقد أوجدت « دولة - المدينة » قاعدة المدنية الهلينية والمثل الأعلى لها
فى نفس الوقت . ولم يأتنا الا اليسير من العلم عن النسق الذى درجت فيه
المستعمرات البدائية الى دول - مدينة ، وفى مكنتنا أن نتصور المغيرين
الشماليين يسكنون كغزاة بين أهلين معادين فى أزمنة كان البحر يكتظ فيها ،
بالجوابين من طلاب الغنيمة ويقيمون حصونا بدائية فى مواقع ضاحية على
التلال على مسافة قريبة من الشاطئ ، يمكن أن يأووا اليها بقطعانهم فى
أوقات الخطر . وفى أثينا فى العصور التاريخية ، كانت قلعة الأكروبول
لا تزال « المدينة » ، ومن الجائز أن الجماعات القروية تجمعت هناك للدفاع عن
النفوس أو تآلفت حول مقدس مشترك للعبادة الدينية . وفى هومر كانت
المدينة ، أولا وفوق كل شيء حصنا يمكن الدفاع عنه (٢) .

يجب أن نرجع بتفكيرنا الى الماضى ، الى زمن كان يذهب الاغريق غيرهم من
السلالات الباكرة ، الى أن ثمة قرابة كانت تربط الالهة والناس وحتى حيوانهم .
وبقيام الهجرات وهن الوثاق وبدأت أواصر الأسرة تخرى مكانها للاخلاص للجماعة .

(١) انظر بيفان Bevan (بيت سليوكس House of Seleucus)
سفر ١ فصل ١ وفيه المثال المقتبس من صموئيل الأول ٨١ . ولقد كان
الكتاب السياسيون فى العصور الوسطى ، يرجعون الى الفقرة كثيرا ، لدعم
مبادئ الأساس الشعبى للملكية والعقد الاجتماعى .
(٢) انها مقدسة (hieros) فى هومر ، مثلا ، الإلياذة : ١ ، ٣٦٦ .
وقد كانت أقدم المعابد تقام ، بطبيعة الحال ، على القلعة الصخرية على كتب
من مقر الزعيم ، وبعد ذلك ، بتقدم أوجه النشاط التجارى ، أصبحت المعابد
تقوم حول ساحة السوق (agora) .

وأصبحت دولة - المدينة الرمز المادى لهذا الولاء . وكان كل رجل فى العشيرة يراها بعينه المجردة تستوى أمامه وهو يفلح رقعة من الأرض فى الأرباض أو يجتمع مع رفاقه للمقايسة أو للعبادة داخل أسوارها . وفى ساحات المدينة ، كان كل شئ يقع تحت نظره ، ذا قرابة وثيقة ومألوف . وهناك فى المجتمع الصغير الذى يضم مئات قليلة من المواطنين ، يتجمعون فى أسرات وعشائر ولا يزال الاحساس بالقرابة يدب بين حناياهم ، وهناك كانت تسود مساواة فى الزمالة ، حقة (١) . وكان كل شخصي يعرف الآخر بالنظر وبين الواحد والآخر من الأغنياء والفقراء والحكام والمحكومين كانت توجد أواصر شخصية مباشرة . ولم تكن تعوق الملوك والنبلاء ، كما فى الحاشيات الشرفية ، قواعد آداب السلوك ورسميات الدولة ولم تقف القواعد الشكلية للتعريف حائلا أمام التواصل الانساني . ولقد عاش الاغريقى عيشه فى الحلاء ، معرضا للشمس ، يجوس خلال ساحة السوق (agora) أو حلبة المصارعة (palaestra) متلکنا - كما يطيب للفرد من أهل الجنوب أن يتلکنا - وهو يتجاذب الحديث مع جيرانه ، دون أن يعبا بزمن (٢) ، وكان الاغريقى شعب زراع ، يزرعون الحنطة وبغرسون الكرم والزيتون وأتاح لهم عملهم ومناخهم أن ينفقوا معظم حياتهم فى الهواء الطلق ولديهم أوقات فراغ للتواصل الاجتماعى (٣) ولا يمكن تصور نقیضا لحياة مدينة صناعية حديثة حيث يتزاحم الكل لأعمالهم

(١) هكذا كما جاء فى الأدوسا (الكتاب السادس : ١ - ١٠٩) فان نوسیکا Nausicaa ، وهى ابنة ملك كانت تغسل الملابس مع خدمها . ويصف هيرودوت (٣ ، ٤٢) طاغية القرصان بوليكراتس Polycrates وهو يطلب الى صائد سمك أن يشاركه الغذاء .

(٢) انظر زميرن Zimmern ، (الكومنولث الاغريقى Greek Commonwealth) الفصل الأول ، من ديدن اليونانى فى زمننا أن يفرق الغريب بأسئلة فيها تشويق ، وكان اليونانى القديم يزهو بجسارته فى الحديث (parrhêsia) وكان متحررا من كل خجل أو تحفظ . وتوضح (الجمهورية ٨ ، ٥٥٧) لأفلاطون أن (الجسارة فى الحديث) دليل على الديموقراطية فى أقصى معانيها ويرى زميرن أن السؤال القصير والجواب الذى يلازم دخول شخصية جديدة فى الفاجعة (دراما) الأتيكية تنعكس فيها هذه الخصلة القومية .

(٣) اللفظ الاغريقى لوقت الفراغ كان Scholé ومنه جاء لفظ School الذى نستخدمه . لأن وقت الفراغ كان معناه ، بالنسبة لهم ، الفرصة للقيام بأعمال لها قيمة جوهرية كذلك التى يختارها الانسان لذاتها (مثلا ، السعى وراء العلم) وهذه الفكرة هى أساس تفرقتهم بين الأعمال (الحرة) والأعمال (الضرورية) ولهذه التفرقة أهمية أساسية فى (السياسة) ، لأرستطاليس . انظر فيما يلى فصل ١٢ - ٩ .

بالمناكب ، وحيث لحظات الاستجمام قليلة ومنتظمة ، أعظم من الحياة غير الرسمية الطليقة التي كانت تحياها دولة - المدينة الاغريقية . ولكن وقت الفراغ كان يعنى للاغريق أى شئ ، الا الكسل . انه كان يهيم مخلصا من ضغط المطالب المادية وفرصة لاستعراض العقل والموهبة . ويجب أن يدور تفكيرنا حول الاغريق كرجال عمل أكثر منهم فنانيين أو مفكرين . ان فنهم وعلمهم كانا يتألفان تألفا محكما بمصالح الحياة العملية . ولقد قام النحت وفن العمارة بطبيعة الحال ، بينهم لأن الحاجة كانت تمس اليهما لاقامة بيوت الآلهة والناس وقامت فلسفتهم لأن الحاجة كانت تدعو اليها للتحكم البصير فى العالم الذى كانوا يعيشون فيه . وكان الاغريق يعجب بالكفاءة أكثر من كل الأشياء ، واللفظ الذى كان يطلقه على الفضيلة (arete) لا ينسحب على السمو الخلقى وحسب ، ولكن على الموهبة العقلية والقدرة على الظفر بالنجاح فى كل ميدان فى الحياة العامة (١) . والمثل الأعلى لرجل قوى ، يعرف ما يحتاج اليه من العالم وله القدرة على الحصول عليه ، كان دائما يستهويه ويقصيه عن نهج الاعتدال . ولقد أوجدت دولة - المدينة لهذا النشاط العقلى والبدنى القلق ، مجالا طبيعيا . والحياة الوحيدة التى تستحق العيش ، فى نظر الاغريق كانت حياة الخدمة كمواطن . وكانت الأسرة تسترعى اهتماما يسيرا وقيمة خلقية ليست بذات خطر . وكان الابن عندما يصل الى سن الرشيد يترك أباه وأمه ، وفى بيته كانت الزوجة لا نفس لها ، ولا وزن لها . ومن هنا ، كان المركز الوضيع للنساء والأطفال وفشل التعليم الاغريقى . ودولة - المدينة ، وفى دولة - المدينة ، كانت السوق بما يحيط بها من أروقة ذات عمد وأبنية عامة وطنه وعالمه . وعلى هذا فكلما أخذ أفق الاغريق العقلى والخلقى فى الاتساع فإن الثقافة التى كانت تجد التعبير عنها فيه كانت فى كل مرحلة ترتبط بالمدينة . ونغمة الراى العام التى تحدد خلائق الرجال وعاداتهم ، بطريقة غير محسوسة ومع ذلك فى قوة عظيمة ، كانت نغمة دولة - المدينة المميزة أو ethos (٢) وفى القيام بدور ذى قيمة فى حياة دولة المدينة ، كان أعلى مطمح للمواطن والمعيصار الذى يقيس به نجاحه وسعادته Spartani nactus es, hanc exorna . والمولد فى دولة - مدينة وضبعة كان يعد عثور جد خطير . وعلاوة على هذا ، كانت دولة - المدينة

(١) كان الاغريق يرون فى رجل مثل نابوليون رجلا بلغ من الفضيلة أقصى ذراها وكان ثسمطوقلس Themistocles يتجمل بالفضيلة الى درجة عظيمة .

(٢) لا يغيب عن البال ، الجو الخلقى للمدرسة أو الكلية أو النادى أو الكتبة . ولقد أكد افلاطون (الجمهورية ٦ ، ٤٩٢) أنه لا يمكن لأى فرد ، مهما كان موهوبا ، أن يقاوم قوة نغمة دولة - المدينة ، العامة .

تحدد فحوى واجباته ، لا الخلقية وحسب ولكن الدينية ايضا . ولم يعرف الاغريق التمييز بين الكنيسة والدولة ومن الازمنة الهومرية وما بعدها كان الحاكم يرأس دين المجتمع بينما كانت تنحصر أعمال الكهنة فى تصريف واجبات الفرائض (١) . وهيات المدينة ايضا الواعز للتقدم العقلى . وفى مجالس الشعب الرسمية ، كما فى التواصل اليومى فى ساحة السوق أو مائدة الطعام أتاحت الفرصة لحرية الفكر والتخاطب . ان مثل هذه الحرية فى النقد ، شئ مستقل تماما عن الأنظمة الديمقراطية وأداة الحكم الذاتى السياسى . وكان الجند يخوضون فى مناقشة أعمال وخلائق ضباطهم من وراء الستار والصغار فى أولئك التى تكون لكبارهم ، فى المدرسة أو الكلية دون أن يكون لهم أى حق فى التصويت لانتخابهم . وكانت الديمقراطية فى اليونان النتيجة وليست السبب ، للنقاش الحر . كان اليونانيون أمة متحدثين وكان حديثهم فى الغالب صبيانيا ويغالب الاخلاص ومن شأنه أن يثير الاحتقار فى صدر الرومانى الذى كان ديدنه أن يعمل فى صمت . وما كان يميز الاغريق عن الشعوب الأخرى التى تشغف بالكلام هو أنهم كانوا يتحدثون ايضا فيما كان جديرا حقا بالمناقشة : القانون والحرية والواجب الخلقى وغاية الحكومة وطبيعة وأسباب الأشياء والفن والشعر والفضيلة وصالح الانسان ، وفوق هذا كله ، كان حديثهم يلائم العقل والمنطق ، والانصاح عن التفكير الخالص وتعميق الواقع . ولم يفكر أى شعب اطلاقا بمثل هذا التعمق أو تحدث بمثل هذه الاجادة عن هذه الموضوعات السامية ، كما فعل الاغريق . ولم يرسم أى شعب قط ، بمثل هذه اليد الثابتة الخط الفاصل بين الخدعة والحقيقة أو وطنوا أنفسهم بمثل هذه العزمة على فهم واستيعاب عالم الطبيعة . وكل هذا كان نتاج المطارحة الطليقة بين العقل والعقل التى أوجدها التواصل المشترك ، كمواطنين فى دولة - مدينة .

٥ - والمثل الأعلى الاغريقى للحياة ، كان يتصور فى حدود دولة - المدينة ، وكانت السعادة (eudaimonia) عند رجال السياسة والفلاسفة على السواء ،

(١) ولما لم يكن فى وسع الآلهة أن يجيروا ولكن يحذرون ويعاقبون فهكذا الكاهن كان فى وسعه فقط أن يحذر ويعترض . لقد كان المنوط بشئون المنزل والحراسة ðπηρέτης=minister, servant لالهه وبين الفينة والفينة فقط يكون المتحدث عنه . وعندما يعطى وحى χρησμός يكون ذلك لأن الرجل قبل عون الاله έρχητο .

هى النهوض بشرف ، بالواجب المدنى (١) ويعبر واضعو الفاجعة والمؤرخون فى القرن الخامس ، على التقريب ، فى كل صحيفة من كتاباتهم عن احساسهم بقيمة دولة - المدينة. وهى تهىء المجال لتحقيق الحياة الصالحة (٢) والفلاسفة الذين كانوا يسعون الى أن يحددوا بالاستدلال العلمى طبيعة ومعيار الصلاح الانسانى ، لم يتزعزعوا فى اعتقادهم بأن الحياة الوحيدة التى تستحق العيش ، كانت حياة المواطن فى دولة - المدينة الهلينية . عندما عرض على سقراط ، بعد أن حكم الاثينيون عليه بالموت ، الهرب من السجن ، أجاب بأن التملص من قانون دولة - المدينة حتى عندما يكون قد طبق بالجرور كان من الوجهة الخلقية خطأ أشبه بعمل من أعمال العنف يوقعه ابن على أبيه الهرم . وقد حكم أفلاطون بأن كل الدول الاغريقية القائمة فاسدة فسادا لا رجاء فى تقويمه . ومع هذا فقد وضع تخطيطا مجملا فى جمهوريته ، للمجتمع المثالى على أنه دولة - مدينة هلينية أجرى عليها الاصلاح (٣) . وعنده ، كما كان عند أرسططاليس فى الجيل التالى ، كانت المدينة الصالحة توجد حالة الحياة الصالحة لأعضائها وكذلك ما يلزمها . وقد عرف أرسطو دولة - المدينة بأنها جماعة تكونت لحفاظ حياة مكتملة وفيها اكتفاء ذاتى ، وأشكال أخرى من الجماعات يسرت للانسان العيش ولكن دولة - المدينة وحدها ، يسرت له العيش الطيب (٤) ولقد عرف الانسان بأنه (حيوان سياسى) ، مخلوق حى

(١) Eudaimonia (ومعناه أن يكون للمرء روح حارس طيب) كان التعبير الاغريقى عن « السعادة » أو « المراح » أى Summum bonum أو المثل الأعلى للحياة البشرية . وعن تفسير هذا المثل الأعلى ، يورده اغريقى مثقف من القرن الخامس ، راجع قصة هيرودوت عن الحديث الذى دار بين صولون وكروسس (١ : ٣٠ وما بعدها) . ولدى العقل الشعبى كانت السعادة فى سعود الجسد (eutychia) وقد رفض الفلاسفة عن وعى الرأى القائل ان الخير الأعظم كان يعتمد على ظروف خارجة أو نزعات الآلهة التعسفية أو الحظ .

(٢) وازن على الأخص هيرودوت الكتاب السابق ذكره وكذلك الجزء الثالث صفحة ٨٠ وما بعدها وفى العبارة الأخيرة يذكر أن عظماء الفرس كانوا يتحاورون عن مزايا الديمقراطية والارستقراطية والملكية على الولاء . وبطبيعة الحال ، كانت الأحاديث تعبر عن عواطف الاغريق كما كان رومانيو شكسبير فى الواقع انجليز عهد أليصابات . راجع أيضا محادثة خشيارشباى مع ديمرطوس Demaratus ٧ : ١٠ وما بعدها .

(٣) أفلاطون ، الجمهورية ٥ : ٤٧٠ وعن رفض سقراط راجع crito لأفلاطون .

(٤) أرسططاليس (السياسة) : ٣ ، ٩ و ١٢٨٠ ب ، ١ ، ٢ ، ١٢٥٢ ب

نزعت به طبيعته نزوع حياة النشاط المدني (١) . ووظيفة المشرع والسياسي الأصلية ، هي ايجاد الصلاح الخلقى في المواطن وتعليمه حتى يمكنه النهوض الكامل بمواهب طبيعته في دولة - المدينة . وحتى الرواقيون وهم يكتبون بين أشتات الاستقلال السياسي الاغريقى المتناثرة ، جهدوا في أن يعيدوا تركيب نسج الواجب الخلقى بتعليم الناس أن يعيشوا كمواطنين في الجمهورية العالمية، دولة - مدينة أساسها العقل الخالص ، مدينة الله (٢) .

٦ : وبهذا تأصلت أرومة مدينة الشعب الاغريقى ، تأصلا عميقا في تربة دولة - المدينة . لقد كانت (الصخرة التى نحتوا منها) و (نقرة الحفرة التى استخرجوا منها) . ان فن العمارة والنحت ، والحفلات الفاجعية والأنشودة العاطفية ، والعلم والفلسفة ، والدين والأخلاق ، والطوائف الحرفية وفنون الحرب والسلام ، وتكوين الدستور ومبادئ السياسة العامة ، وأشكال التواصل الاجتماعى ، والحديث ، والأخلاق ، كانت كلها فروعاً لتكوين عضوى أوجد دولة - المدينة . ولكن للصورة جانب آخر . ان للحرية سييفا ذا حدين . وقد أفسحت حياة دولة - المدينة المجال لمزاج الوطنية المدنية وكذلك مجال الطموح الشخصى . وفى اليونان القديمة ، كما بعد ذلك بألفى سنة فى فلورنسا فى عهد دانتي . كانت عوامل التفكك فى التشيع الحزبى والأغراض الذاتية فى الأفراد تغلّى مراجلها عن قرب تحت السطح . ان التوقف Stasis ، وانفصام العرى المدني ، كان المرض المزمن فى دولة - المدينة الهلينية . وكلا الشكلين اللذين اتخذهما وهما عدم قدرة المدن على التضام فى اتحاد سياسى ، حتى فى مواجهة عدو مشترك ، والنضال الداخلى الذى يقوم بين الرجال والأسرات والأحزاب داخل أسوار مدينة واحدة ، عملا على انحلال الاستقلال اليونانى فى نهاية الأمر . وفى الحق ، انا لنقرأ باستمرار عن تحالف المدن لأغراض ترجع الى الدين أو الدفاع . ان تاريخ الاغريق هو فى معظمه تاريخ أحلاف، من حلف الجماعات التى يربطها الجوار الى معبد amphictyonic فى القرن السابع الى الأحلاف الأخائية والايطولية فى القرنين الرابع والثالث . ولكن هذه الضروب من التضام كان ينقصها الدوام والتلاحم اذ كان لها أثر فعال فقط ، فى أغراض عابرة وداخل حدود الهلينية الضيقة، وقد دلت على أنها

(١) أرسططاليس ، السياسة : ١ ، ٢ و ١٢٥٣ أ . ويصر مؤرخ روما الاغريقى بلوبيوس Polybius الذى ترجع كتابته الى عهد متأخر ، منتصف القرن الثانى ، على أن الدستور يكون صالحا أو رديئا وفقا لما ينتج منه من مواطنين صالحين أو طالحين من حيث طباعهم الخلقية (بلوبيوس ٦ ، ٤٧) .
(٢) معنى Cosmopolis مدينة (polis) الكون (cosmos)

عديمة الجدوى تماما بالموازنة بقوات مقدونيا وروما (١) . وفى النهاية ، كانت نتيجة المغالاة فى الحرية الوقوع فى العبودية لدولة أجنبية . والاغريق ولهم ذلك الاحساس المرهف بحقائق الحياة ، لم يكونوا متباطئين فى تعرف عوارض فوضايم الخاصة ولكن كان لا حول لهم فى علاجها ، ولقد أرجع أفلاطون : بصره الذى لا يخطئ بالطبيعة البشرية ، أصل الطغيان العام فى الدولة الى طغيان العاطفة التى لا ضابط لها فى الفرد . ولقد رأى أن أعظم أولى المواهب من المواطنين ، من أمثال ثيمستوقلس أو السييادس Alcibiades بالنسبة الى عظم ما يستحوذون عليه ، كانوا أكثر عرضة لأن يقصوا فرائس لشهوة السلطان وأن يحطموا أولا اقتصاد ارواحهم هم ، ثم بعد ذلك اقتصاد المجتمع (٢) . ومع كل ما فيه من روعة جلائل الأعمال ، يزخر التاريخ الاغريقى بالمأساة . ان حطام النفوس التى أتى عليها الدمار يتناثر فى مطوى صفحاته . وهذه الصفحات تعرض التضحية التى اشترى بها عقل الانسان حريته فى أن يفكر وأن يعمل . ولكن يجب ألا نخدعنا حتى نزعم لحظة أن النصر لم يكن يستحق التضحية .

٣ - توسع اليونان

٧ - ان تأثير دولة - المدينة للخير أو للضرر يتجلى فى بيان أكثر وضوحا كلما درسنا تطورها فى التاريخ الاغريقى . وقد شاهد القرنان الثامن والسابع انتشارها السريع فى جزر البحر المتوسط وارضيه الساحلية . وقد كانت الأحوال المناخية والجغرافية تلائم توسع السلالة الاغريقية هذا . وكانت مدن منطقة ايجا نفع اما على الجزر واما على الوديان التى تفصلها سموح الجبال العالية وأصبحت بذلك فى حماية من العدوان بالبر . ولكنها لم تكن منعزلة عن التواصل المتبادل والا كانت كالمدين السويسرية فى التاريخ الحديث ، لتحفظ باستقلالها بأى ثمن . وكان البحر وناق الاتحاد . وقد ضمن خليج كورنث والتعاريج الساحلية التى لا عد لها ، والمداخل ، للاغريق الأوروبيين خطا ساحليا بالغ الاستطالة ولا نكاد توجد أية ولاية اغريقية ليس لها مخلص سهل الى البحر . وكان الاغريق سلالة بحرية منذ الأزمنة الأولى . وقد عمل التواصل فى التجارة بينهم وكذلك وبين الشعوب الأخرى ، وهو يتألف

(١) كان يظهر للاغريق أن التحالف والامبراطوريات على السواء ، خطوة تتخلف عن دولة المدينة المستقلة .

(٢) راجع الجمهورية : ٦ ، ٤٩٠ وما بعدها (حيث ترجع الإشارة دون شك الى السييادس) و ٨ ، ٥٦٢ وما بعدها (حيث يبين أن الطغيان ترجع نشأته الى المغالاة فى الحرية الديموقراطية) .

بحرية مدنها وكيانها الفردى ، على تنمية ثقافة متنوعة زاخرة ، وندر أن وجدت سلالة ، كائنة ما كانت ، أضفت عليها الطبيعة فى مثل هذا الاغداق عوامل مدنية ، وطبيعية (١) . ان الجبال والبحر والمناخ المعتدل الذى يبعث على النشاط وتربة كانت تتطلب الهمة والمهارة وتجزل لهما العطاء ، ان هذا كله عمل على بعث صفات حب المغامرة والعمل المتحرر اللذين حملهما الغزاة الشماليون معهم عندما هبطوا الى العالم الايجى (٢) .

٨ - ولقد تميز القرنان الثامن والسابع بالمغامرات التجارية والنشاط الجلم فى الاستعمار ، ونمو الثروة والتهديب الاجتماعى والقلق السياسى الذى اتسع نطاقه . وقبيل سنة ٦٠٠ ق.م . كان الاغريق قد انشأوا مستعمرات تجارية على شواطئ بروبنطس Propontis (بحر مرمرة) والاكسين (البحر الأسود) وعلى ساحل افريقيا الشمالى وحول جنوب ايطاليا وعلى الخط الساحلى فى صقلية ، بطوله الا حيث كانت حصون قرطاجنة تتحكم فى غرب الجزيرة الأقصى . ولقد رأينا كيف انه فى بواكير القرن السادس استحوذ التجار الاغريق من أمراء موالين فى الأسرة السادسة والعشرين على مقر دائم فى نوكراتيس Naucratis فى دلتا مصر . وكانت تجارة البحر المتوسط من صقلية الى الشرق قد أفلتت من يد الفنيقيين الى الاغريق . وفى أقصى الغرب استتمعت قرطاجنة باحتكار لا ينازع . ولكن فى غيره من الأصقاع تمكن اليونانى التاجر والمستعمر بما له من عبقرية طبيعية يكون فيها مطمئن البال فى أحوال جدد وبين ناس غرباء ، من طرد السلالات السابقة من أسواق البحر المتوسط . وقد لازم هذا التوسع التجارى نتائج بعيدة الأثر فى الحياة الاجتماعية والسياسية . وقامت المدائن الرائعة مثل مليتوس Miletus فى ايونيا وسيراكوز فى صقلية وسوبارس Sybaris فى جنوبى ايطاليا ويدل لفظ Sybarite الى يومنا على شخص يتعشق الدعة المترفة . ولقد نهضت الى حيز الوجود طبقة من الأمراء التجار قامت برعاية الفن والشعر فى سخاء ونبل .

وفى مجال السياسة كان يفور على الدوام شغب دائم وثورة . فقد أصبح أولو اليسار الجدد يكافحون من أجل السلطان والامتيازات ضد احتكار النبلاء القدامى . وقد نجم عن الكفاح الحزبى العنيف دافع لجديد من الاستعمار . ولم يكن من غير المعتاد أن يرسل غير الراضين وكثيرا ما يكون

-
- (١) ولكن لم تكن لديهم موارد قوى طبيعية (ومن هنا كانت الحاجة لخدمة العبيد على نطاق واسع) أو زجاج (وعلى هذا فلا كيمياء أو أدوات بصرية) أو فحم (وعلى هذا فلا ألواح مراجل أو بخار) .
- (٢) ولكن المتوئين وكذلك الشماليين قاموا بمغامرات بحرية .

ذلك بارشاد مهبط الوحى فى دلفى الذى علت أهميته فى هذه الحقبة ،
 كمستعمرين الى أية منطقة غير مأهولة تصلح للتجارة ، حيث كانوا يؤسسون
 دولة - مدينة تتمتع بالحكم الذاتى • وكانت المستعمرة الاغريقية مستقلة
 سياسيا عن المدينة ، الموطن الأصلى • والأسباب التى تربطهما كانت تلك
 التى تتصل بالدين أو العاطفة أو التحالف التجارى (١) • وعلى هذا كان
 العصر ، عصر انتقال سياسى سريع • وقد مهد تنافس النشأة والشراء ،
 والأرض والتجارة ، الطريق حيناً للديموقراطية وحيناً آخر للطغيان • وأعظم
 ظاهرة تسترعى النظر فى تلك الأزمنة ، كانت قيام شكل الحكومة المعروف
 للاغريق باسم حكم الطغاة • ولو أنها كانت قصيرة الأجل فى أية مدينة
 بعينها فإنها غدت منذ ذلك الزمن ظاهرة مستديمة فى مراكز اليونان
 التجارية • ويغلب كثيرا ، كما حدث فى أيام النهضة الايطالية أن تاجرا غنيا
 يطيح بالنبله الظالمين بمعونة الشعب ويقيم نفسه حاكما مستيدا • وكان
 « الطغاة » فى الكثير الغالب حكاما متنورين ذوى شمائل انسانية مثل
 بسيسطراطس Pisistratus فى أثينا فى القرن السادس ولكنهم كانوا
 يسيئون اساءة بالغة الى تعشق الاغريق للحرية ولقد أثار حكمهم المقت
 المرير • لقد وضعوا أنفسهم فوق القانون وبذلك ، نبذوا كل دعوى فى
 حمايته • وكانت سلطتهم انتهاك لطبيعة ethos دولة - المدينة الهلينية •
 يضاف الى هذا ، أن الاغريق كانوا يسهمون الى أقصى حد فى المقت الذى
 يحس به أحرار الناس فى جميع العصور نحو السلطة التى يكون أساسها
 امتلاك الثروة • وقد كتب ثيوجنس مواطن مجارا : « ان الاطاحة بطاغية
 يبدد الناس ليس بخطيئة ولن تعاقب عليه الآلهة » • ويحتفل الشاعر
 سيمينيدس بحمد قاتلى ابن بسيسطراطس بهذه الكلمات : « ان ضوئا عظيما
 تفجر على الأثينيين عندما ذبح هرمدىوس Harmodius وارسطغيطن
 Aristogiton ابرخس Hipparchus » • وتتجلى نتائج هذه الحقبة فى حياة
 اليونان العامة أيضا ، فى تقدم القانون والنظم السياسية والسير قدما صوب

(١) ومع هذا فإننا نقرأ عن مستعمرات كانت تنافس المدينة ، الموطن
 الأصلى ، منافسة تجارية مريرة مثل كورنث ومستعمرتها كركورا Corcyra
 انظر ثوقديدس Thucydides : ٣ ، ٨٢ وما بعدها ، حيث يجئ وصف
 الثورات فى كركورا كمثال لنتائج الكفاح ، الحزبى الخلقى والسياسى ، فى
 العالم الهلينى فى أواخر القرن الخامس • وعن مهبط الوحى فى دلفى
 والاستعمار ، انظر هيردوت ٤ ، ١٥٠ - ٨ (قورينا) •

الديموقراطية ، بهدم الحقوق المتوارثة (١) . ومما كان له شأن عظيم توسع الثقافة في مجال الشعر والفن والعلم .

٤ - بواكير أدب الشعر

٩ - ان أدب اليونان ، كأدب الكثير من الأمم يستفتح بالأغنية وأقدم ما بين أيدينا من قصائد شعرية هما ملحمتان تنسبان الى هومر ، الإلياذة والأودسيا . وتسرّد الإلياذة قصة معارك حربية على « السهول الداوية في طروادة التي تعصف فيها الرياح » وغضبة وجسارة أخيلوس Achilles وذبحه هكتور Hector رجل طرواده - وتقص الأودسيا تجوال أوديسس Odysseus الذي استغرق عشرة أعوام في البحر والبر بعد أن سقطت طروادة ورجوعه الى اتيكا وذبحه الخطاب الذين أفسدوا بيته (٢) . انهما الملحمتان الباقيتان من ملاحم كثيرة سابقة وتمتلان المنة الناضجة لفترة مستطيلة من الخلق الشعري . ولقد أحضر أول المستعمرين الاغريق في آسيا الصغرى ، الذين ينتمون الى الأصل الايولي ، معهم من تساليا الجنوبية ، الأغاني الشعبية الراقصة والأغاني القصصية القصيرة التي لسبح بحمد

(١) ان تدخل فارس التي كانت تستطيع التعاون دائما مع حكم القلة oligarchy أصاب تقدم الديموقراطية العادى اصابة بالغة . وهذا هو سبب بقاء حكم القلة الى القرن الرابع .

(٢) لا يعرض تتابع الحوادث في أية واحدة من الملحمتين نتيجة لتخطيط واسع ، وكما أشار منذ عهد قريب السيد ث. س. لويس Mr. C. S. Lewis في مقدمة الفردوس المفقود ، في افصاح وتنوير ، أنه من خصال بواكير ملاحم البطولة في اليونان كالحال بين شعوب أوربا الشمالية ، وعلى غير شاكلة ما جاء من ملاحم « ثانوية » ، أنها لا تعالج موضوعا عظيما مثل تأسيس روما (فرجيل) أو سقوط الانسان (ملتون) ويكتب في الصفحات (٢٨ - ٢٩) « ذلك النوع من العظمة ينهض فقط عندما يقوم ثم حدث يمكن أن يبرز على أنه أتى بتغير عميق في تاريخ العالم ، في دوام قليل أو كثير . . . ومجرد الصعود والهبوط الذي لا نهاية له والتبديلات المستمرة التي لا هدف لها ، من مجد وبؤس التي تتكون منها الظاهرة المروعة لما يسمى عصر البطولة لا تسمح بمثل هذا التخطيط . ولا يكون حدث بذاته في الواقع أكثر أهمية الى حد جد بعيد ، من حدث آخر . . . لا شيء له بقاء ، ولا شيء يتعدى مغزاه اللحظة ويوجد من البطولة أو المأساة الشيء الكثير وعلى ذلك يوجد الشيء الكثير من القصص الطيبة ولكن لا يوجد « تخطيط عام . . . » وخالف النتيجة ليس شكلا انموذجيا وانما ضروب من الأشكال والألوان الجميلة . »

الآلهة والسلف القبلى التى تتكون من أبيات يكون فيها البيت من ستة مقاطع «انه أفخم وزن صاغته شفاء البشر» (١) . وقد حيكت هذه الأغاني فى ملحمتين عظيمتين فى جزيرة لسبس أو على شواطئ شمال غربى آسيا فى المدة التى تقع بين عامى ١٢٠٠ و ٨٠٠ واتخذت الملحمتان شكلهما الحاضر بعد أن أتى عليهما فيما بعد ، تعديلات وإضافات وتطهير من الشوائب بين المستوطنين الايونيين على مسافة أبعد الى الجنوب (٢) . ويمكننا أن نتقصى فى الملحمتين تفسيرات فى اللغة والفكر والعادات ونمو الأفكار الخلقية ، والأوديسيا وهى على وجه عام أحدث الاثنتين ربما تعبر عن المزاج الابداعى (الرومانسى) فى عصر المغامرات البحرية ، ولا يمكننا أن ندخل هنا فى مشاكل يدور حولها الجدل وإلى أى مدى كانت الملحمتان أو احدهما من عمل شاعر واحد ولكن نشير فقط الى أن العلماء فى زمننا يميلون الى أن تكون لهم نظرة محافظة فى هذه المسائل أكثر مما كان لهم منذ نصف قرن . والقول ان هومر كان شخصية واقعية وإن الإلياذة والأوديسيا يجب أن تنسب الى تأليفه لم يعد بعدد مما يمكن دحضه ، فى استعلاء كنافلة . وعندنا كما كان عند الاغريق ، يمثل هومر كبل الأسطورة الملححية بأجمعها ، والأعجوبة هى أن تلك السلالة أمكنها فى ذلك العهد الباكر أن تنجب مدرسة من شعراء بلغوا أرفع شأوا . ولا يوجد أدب باق بين ظهرانينا استهل بمثل

(١) «الى فرجيل» لتينيسون Tennyson . لم يكن قصيد أدب الشعر القديم يقفى . وكان دانتي أول شاعر عالمى عظيم يستخدم القوافى . وتعتمد الأوزان الاغريقية واللاتينية على عدد المقاطع وليس على النبر . ومن هنا كانت صنوف المحاكاة الحديثة فمثلا الأبيات التى يكون فيها البيت من ستة تقطيعات لا تقدم الا تأثيرا ضئيلا جدا عن الوزن كما استعمله الأقدمون . وقد يكون البيتان الآتيان Bothie of Tober-na-vuolich لكلوغ Clough مثلا لا يصل الى الكمال :

So in the	golden	morning they	parted and	went to the	westward
There hoth he	farmstead and	land, and	fields of	corn and	flax fields.

والوضع العادى للسطر ذى الستة أقدام هو

— U U	— U U	— U U	— U U	— U U	— U
— —	— —	— —	— —	— —	— —

بحساب أن المقطع الطويل ، له ضعف قيمة القصير

(٢) انها باللهجة الايونية ولكن كان تأليفها فى الأصل بالايولية . وعن علم اللاهوت عند هومر ، ارجع الى تاريخ دين الاغريق ، لنلسون Nilsson .

هذا المجد كآدب اليونان واستهلاله بهاتين القصيدتين • وفى فحواهما وصوغهما ، على السواء تعنو لهما السيادة التى لا تقارع على الشعر الملحمى فى كل سلالة وزمن ، ان ما تنطويا عليه من مغزى لما أعقبهما من مدنية اليونان والعالم مثلوث العرى فقد كان جمالهما وروعتهما معينا دائما للإلهام الشعرى ، وفى مكنتنا أن نقتفى نائبرهما خلال مدرجة الأدب والفن الاغريقين بأكملهما • ان الشعر الرومانى وخاصة الانبياء لفرجل صيغ الى حد كبير ، على أنموذج الاللياذة والأوديسيا ، ولا تزال روح هومر تصعد الأنفاس فى شعر العالم الحديث ولقد قيل ان اسخولس Aeschylus أطلق على رواياته من نوع المأساة « فضلات من وليمة هومر العظيمة » ويمكن لشعراء جميع العصور أن يرددوا صدى أقواله • ان وداع هكتور لاندروماك Andromache والذكرى التى تجيش فى هيلن عن أخوتها الذبن قضوا نجهم وهى ترقب جيش الأخائيين من أسوار طروادة واستعطاف بريام Priam لأخولس من أجل جسمان هكتور عندما عن للملك الهرم « أن أجسر على ما لم يجسر عليه أى رجل على الأرض قبلى ، أن أبسط يدي أمام وجه ذابح ابنائى » - تثير نفس المشاعر فى القارئ فى أية أمة ولغة وفى الزارع الذى لم يؤت من العلم شيئا كما فى العالم أو الشاعر (١) • ومنذ فجر الشعر الاغريقى كان موضوعه كل ما هو أعظم شيوعا فى الحياة والمشاعر الانسانية • ثانيما - على مضى الزمن أصبحت القصائد الهومرية تقرأ وتدرس كمستودع للحقائق الخلقية والدينية • ان سبطورا كعبارة أخولس الى المبعوثين « بغيض لدى كابواب الجحيم ، ذاك الذى يقول شيئا بشفتيه ولكن يخفى شيئا آخر فى قلبه » أو عبارة أدوسيس « تحمل يا قلبى : لقد تحملت ما هو أسوأ كثيرا من هذا » - كانت نصوصها يحفظها أطفال الاغريق ، يشبهون فى ذلك أطفال انجلترا الحديثة وهم يحفظون آيات من الكتب المقدسة (٢) • ان القصائد

(١) الاللياذة : ٦ ، ٣٩٠ وما يليها و ٣ ، ٢٣٤ وما يليها و ٢٤ ، ٥٠٥ - ٦
(نرجمه لنج وليف وميرز Lang, Leaf and Myers)

(٢) الاللياذة : ٩ ، ٣١٢ - ١٣ أوديسيا ٢٠ ، ١٨ • ومن الجهة الأخرى ، كانت توجد فقرات عديدة يراها شعور الاغريق الخالقين ، الذى ارتقى ، لا تليق بتعليم الصغار كالحوادث التى وردت فى « قصص الآلهة ، الفاضحة » ، التى ربما كانت اضافات متأخرة تعبر عن المجانة والشك الدينى عند الايونيين فى القرن السابع مثل مكر هيرا بزيوس (الياذة : ١٤ ، ١٥٣ وما بعدها) ومباغثة ما وقع من حب بين هفيسستوس Hephaestus وافروديت (أوديسيا : ٨ ، ٢٦٦ وما بعدها) الذى نعاه أفلاطون (الجمهورية : ٣ ، ٣٩٠) وعراك أثينا Athena مع آرس - Ares وافروديت (الياذة : ٢١ ، ٣٩١ وما بعدها) ، التى يمكن موازنتها بالتقليد الهزلى فى توم جونس Tom Jones==

الهومرية كان لها نصيب عظيم في تكييف وتوطيد دعائم الأفكار الخلقية والدينية في الأجيال اللاحقة (١) . ثالثاً - ان لهذه القصائد قيمة من حيث التاريخ . انها تصور في اخلاص مكين حياة رهوساء ومحاربى العالم الايجى في اواخر قرون الالف سنة الثانية . ويعبر علينا في الحق ان نقول في تركيد عما اذا كان الأشخاص عاشوا فعلاً أو ان الحوادث وقعت فعلاً ولو أن حصار طروادة ليس من غير المحتمل أنه واقعة تاريخية . انه صدق أن الشعراء يتغنون بعصر تولى ودخلت في الصورة ألوان عادات جاءت فيما بعد . ومع هذا فاننا نعلم الكثير عن العادات القديمة ، عن الزواج والعبادة الدينية وعن طرق اقامة المنازل وأحوال الحياة المنزلية وأساليب القتال ، والزراعة وجوب البحار . وعندما نقرأ وصف أنظمة الملك ومجلس الشورى ومجمع الشعب (كما في الكتاب الثانى من الاليادة) وعن ترس أخلوس (فى الكتاب الثانى عشر) وعن القصور والسلاح والملابس فاننا نجد تأييداً جلياً لدقة وصفها فى كشوف شليمان Schliemann وخلفائه . كان عالم هومر عالماً حقيقياً . ومظهران من بين المظاهر الأخرى ، يبرزان فى أنم جلاء . ان الحياة التى صورت هى حياة ارستقراطية اقطاعية . ولا نسمع الا اليسير عن عامة الشعب اذ ليس لهم دور يؤدونه وحتى العبيد هم أسرى يرجعون الى الامارة بالمولد . والشعر الذى بين أيدينا لم يكن شعراً شعبياً ، كما ان دينه لم يكن ديناً شعبياً ، لقد وضعه للنبل ، من الرؤساء مسدون كانوا يتغنون بشرف أسرهم وعشائريهم . ومع هذا فانه بالرغم من هذه الصفة غير الديموقراطية فاننا نتنسم عبق الحرية فى العالم الهومرى حيث لا يوجد استبداد سياسى أو كهانة ، والدسياسة والسحر على السواء نادران والنساء يعشن فى مساواة

= (الكتاب الرابع فصل ٨) - مقابلة مولى سجرم Molly Segrim (نساء القرية) . وينبئنا فيلدنج Fielding « أنها معركة غنتها ربة الفن على الاسلوب الهومرى » . وعن هذه الاضافات المتأخرة أنظر مرى Murray (نهوض الملحمة الاغريقية ، المحاضرة العاشرة) . ان لها قبمة من وجهة التاريخ مثل زينة هيرا (الياذة : ١٤ ، ١٧٠ وما بعدها) كانها تعلمنا بأمور كثيرة . وما ساقه افلاطون من نقد لهومر والشعراء عامة فى جمهوريته (٢ ، ٣٧٧ - ٣ و ٣٩٢) موحه ليس الى قيمتها كشعر ، (الذى اعترف به تماماً ، الجمهورية ١٠ ، ٦٠٧) ولكن الى دعواها فى أنها هادية الى التعليم الدينى والخلقى . وهو يعرض بصفة خاصة للاطراء (الجمهورية ٣ ، ٣٩٠) ، كلمات ادوسيس التى اقتبسناها فى النص .

(١) ان هيرودوت (٢ : ٥٣) يعترف بهذا والعبارة اقتبست فى ١١ التى تلى . ويرجع انتصار الدين الالومى ، (متميزاً عن العبادات الشعبية الأعراف فى بدايتها) ، انتصاراً باقياً على الزمن يرجع الفضل فيه ، لحد عظيم ، الى هومر .

مع الرجال الى حد لم يعرف في اليونان التي جاءت بعد ذلك ويستمتعن بمكانة جليلة الشأن في الأسرة ، والعبيد يتحدثون الى أربابهم ويتحدث اليهم كما يكون الحديث بين الرجال والرجال (١) * ويصل الشعور الانساني المشترك قريبا من الذروة في المجتمع الهومري أكثر مما يصل اليه في عالمنا الحديث الأكثر تعقيدا *

١٠ - والملاحم الأوليات كن قصصا عن أفعال البطولة وأعمال مشاهير الرجال * وبعد ذلك ضرب الشعراء على نغمة ذاتية جديدة وفي روح أكثر أن تكون ابداعية (رومانسية) عبروا عن مشاعرهم بالقصيدة الغنائية * وكان يتركز اهتمامهم ، ليس في الماضي ولكن في الحاضر ، فيما تمرس به الشاعر شخصيا من الحياة * وقد شاهد عصر التوسع التجاري مولد الشعر الغنائي وشعر المراثي وفيه تنوع زاخر في صيغة الموضوع والوزن ويحوى قصائد حب وحرب وحزن وضجر وأنشودة الجنائز وأغنية الزواج والقصائد الغنائية المذهبية والتهكم الشخصي والسياسي * ان الزمن لا يمكن أن يذوى جمال هذه القصائد الذي لا يفنى * انهن يتحدثين الترجمة ولكن صدى من روعتهن يمكن أن يحس وقعه فيما نقل روسيتي Rossetti عن سافو Sappho

١

كالتفاحة الحلوة التي يعلوها الاحمرار في أعلى فرع
فوق أعلى غصن - التي نسيها القاطفون لثم داع
لم ينسوها ، كلا ، ولكن لم يظفروا بها لأن أحدا لا يستطيع الظفر بها الى الآن

٢

كزهرة عنصل ، برية يعثر عليها فوق الرابي
تمزقها وتدميها أقدام الرعاة المارة
الى أن تداس النورة الأرجوانية في الأرض

ويمكن توضيح عنصر الملحمة بالبيتين اللذين كتبهما سيميثيدس في
بواكير القرن الخامس على قبر الموتى الاسبرطيين في ثرموبولاي Thermopylae
« اذهب ، أيها الغريب وخبر رجال لاكديمونيا Lacedaemon أننا نرقد

(١) عن النساء ارجع الى الادوسيا * ان العلاقات بين الجنسين تعالج في
رثق وتحفظ * وعن العبيد انظر يومايوس Eumaeus في الادوسيا انه
نبيل بمولده وقد أسر في الحرب ويعامل كتابع للأسرة ، مكرم ، راجع
التذكرة الاضافية فصل ٥ ، فيما يلي *

هنا اطاعة لأمرهم • وقد كتب الشعر الغنائي ، كما يدل اسمه ، ليفنى بمصاحبة الموسيقى وكان يصحب القصيدة الغنائية المذهبية التي تقدمت الى أن أوفت على كمال عظيم فى نفس هذا العصر ، الموسيقى والرقص ، وكان الجوق يحتفل بمديح الآلهة أو الأبطال أو المظفرين فى الألعاب ، ان قصائد بندار Pindar الغنائية الباقية الى الآن (وهى ترجع الى القرن الخامس) ، وتعد احدى مفاخر الشعر الاغريقى ، وضعت أصلا لتكريم الانتصارات فى الألعاب الرياضية • وسنرى فى الفصل القادم كيف حيكت عبقرية الاغريق فى الشعر الغنائي ، مع الملحة فى الفاجعة الاتيكية •

١١ - وجنبا الى جنب مع أشكال الشعر الغنائي هذه ، أدى الاهتمام المتزايد بالتفكير الخلقى الى قيام شعر الحكم والأمثال (١) • الذى يعبر عن نقد للحياة ، ساذج ، ونصائح عن السياسة أو التعقل ووصايا عن العمل الخاص والعام • ولقد قام الشعر التعليمى فى أزمنة أسبق بين زراع اليونان الوسطى كشطر مقابل للملاحم الهومرية ، بين الارستقراطية الأيولية والايونية • وهو لايزال موجودا فى القصائد التى تنسب الى هزيود البيوطى (٢) • ويمكن موازنة شعر الأمثال فى آخر القرن السابع وفى القرن السادس بمصنفات بيرز بلاومان Piers Plowman أو جور Gower « الخلقى » ، فى الأدب الانجليزى • ولقد عبر ثيوجنس مواطن مجارا فى أوزان المراثية عن احتقار الشريف الدورى للعامة من الشعب الذين استلبوا من طبقة النروة والسلطان وتغنى رجل السياسة الأثينى ، صولون بخدمة الولاء للمدينة وواجب الكبح فى استخدام السلطة ، لشعب كان ينزع دائما الى تخطى جادة الاعتدال • وهذا اللون الجديد من الشعر له اعتبار خاص عندما نذكر كيف كان الشعراء لا الكهنة ، فى نظر الاغريق ، المعلمين المعترف بهم للحقائق الخلقية والدينية • وليس معنى هذا أن الاغريق كانت تعوزهم التقوى فلقد تجاوز الأثينيون فى عهد صولون ، كأعقابهم ابان زيارة القديس بولس الحد فى خشية الله (٣) • وفى بعض الأحيان كانت رابطتهم بعبادات دولة - المدينة

(١) (gnome=a maxim) —gnomic poetry

(٢) « الأعمال والأيام » لهزيود يقدم صورة شقيقة للحياة فى الجزء الأخير من العصر المظلم الذى أعقب الهجرات الشمالية الى ايجيا ، طالع يور Ure « النهضة الاغريقية » - الفصل النانى «The Greek Renaissance»

(٣) الأعمال: ١٧ ، ٢٢ • ان التعبير الاغريقى الذى ترجم «superstitious» فى النسخة القديمة والمعدلة (من الانجيل باللغة الانجليزية) معناه الحرفى « يخاف الأرواح (الوسيطة بين الآلهة والناس) » • وكانت هذه الأرواح كائنات إلهية مثل هرقل وغيره من أبناء الآلهة فى قصة الاغريق الدينية •

تتصاعد في غلو جنوني (١) . وكان جزءا من وظيفة الشاعر ان يقص ويفسر حكايات الالهة والابطال وسمح لهم بمجال عظيم في اختيارها واعادة تكوينها . ولقد قال هيرودوت ان شاعري الملحمة الاولين هومر وهزiod : اعطيا الالهة القابهم وقسما بينهم صنوف التكريم والفنون ووضعوا أشكالهم . وكان يرمى الى أنهما رسما ثم مذهب وتناسق للعدد الجم من العبادات المحلية وعلى هذا ساعدا على تبلور الخطوط الرئيسية للتقاليد الدينية في الازمنة اللاحقة . ولا يستطيع أى فرد أن يدرك الدور الذى قام به الشعر فى حياة الاغريق وتعليمهم الا اذا وضع نصب عينيه رابطته الوثيقة بدينهم (٢) .

١٢ - ولقد كان شعراء الأمثال الرواد الأوائل لما صنفه بندار وكتاب الفاجعة فى القرن الخامس وذلك بأنهم حاولوا جعل التعليم الشعرى يتلاءم مع الوعي الخلقى الذى كان يطردهم نمووا فى ذلك الزمن . ولقد أدى القلق السائد بما لا معدى عنه ، بين ناس أوتوا قدرات عقلية نادرة ، الى تغيرات فى نظرات الناس للحياة والى استبدال القيم الخلقية القديمة بقم جد ومن عوارض هذا المزاج المتامل ذبوع الاقوال الماثورة التى جرت مجرى الأمثال نحو « اعرف نفسك » و « لا شئ تجاوز الحد » و « القاعدة تكسب عن الانسان » وهى تمثل استقراءات شعبية من التجارب الخلقية . ولقد اتخذ تصور معيار خلفى ، شكله فى المثل الأعلى للسفسرونيه Sôphrosyné وهو تعبير يتحدى الترجمة بلفظ انجليزى واحد ومعناه الحرفى « حفظ العقل سليما » أو كما يجوز أن نقول « الرأس صافيا » (٣) . ونوانه البدائية هى لفظ aidés الهومرى أو الاحترام وهو الشعور الداخلى الذى كان فى

(١) مثلا عن حادث تسوية قماثيل هرمس عشية ابحار الارمادا الى صقلية عام ٤١٥ ، أبظر نفوديدس : ٢٧٠ ٦ وما يتلوها وتأثيره على الجماهير يمكن أن يوازن بما كان يمكن أن يكون لتدريس صور العذراء من أثر على مدينة اسبانية فى زمن الارمادا عام ١٥٨٨ . وعن علم اللاهوت الهومرى انظر نلسون (تاريخ الدين الاغريقى) . كان مجتمع الالهة الاولمبية انطاعيا فى صفته على سائلة المجتمعات البشرية فى عصر البطولة . وكانوا يتصورون الالهة وقد اتخذوا شكل الانسان ويختلفون عن الناس فى درجة المعرفة والقوة فقط ولكنهم كانوا خالدين . ولم يكن لهم علم غير محدود أو قدرة غير محدودة ، ومع هذا فان كل شئ فى حياة البشر كان يعتبر خاضعا لنفوذهم . (٢) انظر افلاطون الجمهورية ٢ و٣ عن مكانة القصص الشعرى عن الالهة والأرواح والناس ، فى التسليم الخلقى للشباب من حكام المدينة المسالية .

(٣) يفسر ارستطاليس (قواعد السلوك ٦ فصل ٥) التعبير بان معناه الحرفى الفضيلة (التى تحفظ الحكمة العملية "phronésis" سليمة) . ويعنى لفظ Phronésis القدرة على الحكم الصائب فى مسائل سلوك الانسان .

أزمة الحروب الهمجية يغفل يد الرجل عن إيقاع الأذى البالغ باليتيم والهرم والمستعطف أو العدو المغلوب على أمره ويكبح النزعة إلى الجبن أو عدم الولاء ويحفظه مطيعاً للوالدين والحكام والآلهة (١) . والمعنى الجوهرى للفظ سفسرونيه Sôphrosyné ، كما نشأ في العقل الإغريقى هو كبح جماح النفس وطاعة القانون سواء أكان قانون الدولة أو المبدأ الداخلى أمام الغواية التى تستبد به لاساءة استخدام الثراء والسلطان واخضاع الولاء المدنى لمطالب الطموح الشخصى . وبالإضافة إلى هذا الواجب السلبى ، فقد كان يدل على الخصلة الإيجابية ، فى النظر الصافى وليد المعرفة بالذات ذاك الذى يساعد الفرد أو المجتمع على أن ينهضاً بأمرهما فى اتزان حكم خلال اللحظات العصبية من تاريخهما . والعبارة المعروفة « الحكم الصائب فى جميع الأمور » ربما تقدم أقرب تعبير عن المعنى (٢) . ونقيض هذه الحكمة المنقذة كان هبرس Hubris . وقد جاء التعبير فى الملحمة الأولى . ومعنى أصله ، تجاوز الحد فى عنف ، ولؤم النصر وكبرياء الحياة التى تطأ بالقدم شريعة الآلهة والناس ، غير المكتوبة . وهبرس Hubris هو أقرب ما يعادل فى الإغريقية لفظ خطيئة ، وأعظم إطلاق تميز به كان على التعطش السدى لا تطفأ مسورته ، التعطش للسلطان ذاك الذى يدفع انساناً أو أمة دفعا إلى الأمام كأن شيطاناً ركبهما فى مسلك التوكيد الذاتى الذى لا يكبح جماحه . وهذه العاطفة التى تعمى والتى تنتهك الحرية الشخصية كما تنتهك القانون العام ، على السواء ، تستغوى الضحية فى جنون من الثقة بالذات إلى موارد الهلاك . وهى تثير فى الآلهة وفى رفاقه القصاص nemesis الشعور الحق بالاستنكار . « ان خطيئة nemesis قديمة تولد على الدوام خطيئة جديدة حية لتزيد من ويلات

(١) انظر Murray نهوض الملحمة الإغريقية ، الصفحات ٧٨ وما يليها . وفى الإلياذة : ٤ ، ٤٠٢ . وما بعدها ، عندما يوبخ اجا ممنون Agamemnon ديومادس Diomedes لتباطئه فى جمع رجاله للمعركة فإنه لا يحير جواباً ، « احتراماً aidôs لصوت الملك المبجل aidôios » . وعندما يجيب استئناس Sthenelus غاضباً بدلاً عنه يؤنبه ديومادس . لأنى لا أحس شعور القصاص nemesis نجو اجا ممنون ، راعى الشعب عندما يحض الأخائيين المدججين على القتال .

(٢) ارجع على الأخص إلى تحليل السفسرونيه فى افلاطون ، الجمهورية : ٤ ، ٤٣٠ وما يليها وارسططاليس « قواعد السلوك » الكتاب الثالث ، ويمثل التعبير لدى هذين الفيلسوفين نتاج الاحترام aidôs المفكر ، ذلك الشعور البدائى الذى وصل إلى شكل واضح التحديد ، من السمو الخلقى والعبارة التى جاءت فى النص ، مقتبسة من الدعاء فى عيد الفصح فى كتاب الصلاة العامة الانجليزى .

البشر (١) . هكذا صور الشاعر الاغريقى وهو يجهد فى اعطاء الجبرية المتوارثة والاستحقاق الفردى حقهما ، السحابة التى تتجمع للقدر الذى يتفقد ذنوب الآباء فى الأبناء لأجيال متعاقبة من سلالة تقارف الخطايا . وعندما ظهر الطغيان فانه اعتبر ختام مظهر الخطيئة فى الحياة العامة لدولة المدينة (٢) . وبعد ذلك أطلق التصور على مجموع عمل أمة رفعتها كبرياء الامبراطورية لتهدد الاستقلال الهلينى كما كانت حال الغزو الفارسى وسيادة أثينا البحرية (٣) . ولقد كان اليونانى يعرف تمام المعرفة موطن ضعفه والعواطف الأنيمة التى كانت أبدا فى ترقب لتستغويه على توكيد فرديته فيما يتعدى الحدود التى رسمها العقل والقانون . ولقد كان من العسير عليه ، بما كان له من ملكيات عظيمة ، أن يلج ملكوت روحه ذاتها . أما المشاعر الغاوية فان أهمها كان الحض Peitho والرجاء Elpis والعاطفة Eros . وكان يذهب التصور الى أنها عوامل شخصية لا دوافع مجردة . « ان الحض التعس يبرز قوته . انه وليد القدر المندر Ate الذى لا يمكن تحمله وكل دواء لا نفع فيه » (٤) . وكتب هزيبود « ان الرجاء هو رائد سىء لرجل معوز » وسفوقلس « الرجاء

(١) اسخ . أغام . صفحة ٧٦٠ وما بعدها . عندما تأمر كلتمنسترا Clytemnestra سيدها اجا ممنون بأن يطأ الأرجوان وهو يدخل منزله ، عند عودته من طروادة استعدادا للمصير الذى أعدته له فانه يفعل ذلك فى وجل : (وأنا أطأ مواد البحر هذه ، أرجو ألا تصيبنى عينى اله ، بعيدتين بغيرة phthonos) لأن لدى احترام aidôs عظيم لتبديد مادة ، أن اتلف بخطاى ثروات وأنسجة اشتريت بفضة) (أغا ، ٩٤٦ - ٩) .

(٢) سفو . و٠ ت ٨٧٣ (الخطيئة Hubris تنجب طاغية) .

(٣) عن خطيئة hubris فارس وما نتج عنها من قصاص nemesis انظر اسخولس Aeschylus (الفرس) وتاريخ هيرودوت وخاصة هير : ٧ ، ٧ - ١٨ ، (محادثة خشيارشاي وأرتابانوس Artabanus) . وعن خطيئة الاثينيين فى الشطر الأخير من القرن الخامس ، نحو رعاياها راجع ثقوديدس : ١ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٣ ، ٣٧ وما بعدها وخاصة الديالوج الميلي Melian ٥ ، ٨٩ وما بعدها ، وقد أعقبتها مباشرة الغزوة الصقلية (القصاص) ، وكان الاغريقى ليفسر فى يسر نمو القومية الألمانية السريع على أنها سياسة لصبغ العالم بالقوة ، بالصبغة الألمانية كمثال للخطيئة القومية . وعن القصاص nemesis راجع مرى فى المؤلف المشار إليه انفا . والفكرة تتصل بصيغة قاطعة بقواعد السلوك . وبينما يعبر الاحترام aidôs عن شعورى بعدم امكان تصور مسلك كهذا فان القصاص Nemesis يعبر عن اعتقادى بأننى (او شخص

غيرى) يجب ألا يفعل هكذا .

(٤) اسخ . أغام : ٣٨٥ .

- ١٣٢ -

الذى يشطح بعيدا ولو أن الكثيرين يجدون فيه عزاء فانه لكثيرين خدعة يعطى أجنحة لحلم الحب والشخص الذى يراوده لا يدري شيئا الى أن يحرق قدميه بالضرار الملهب « (١) . ويرى الشعراء والفلاسفة على السواء ، أن الحب طاغية يستعبد ضحاياه الذين أعموا ، للعاطفة الجاسحة . ويهتف ديليرا (Delanira) عائر الجد « ان الحب يحكم حتى الآلهة بارادته وكذلك أنا أيضا ، كيف اذن ، لا يحكم آخريين مثلى ؟ » .

لأن قلب الحب به جنه
 وذهب هو التمتع جناحه
 والكل ، تحت تأثيره السحري
 ينحنون ، عندما ينب وثبته . (٢)

وقد عن لعصر لاحق أن يرى فى هذه القوى الثلاثة ، الايمان والرجاء والمحبة ثالوثا من الفضائل هو منتهى مجد حج الانسان الروحي . ولكن عند الاغريق فى هاتيك الأزمنة العظام كانت أرواحا شريرة تستغوى المقامر فى لعبة الحياة لأن يجازف بكل ما لديه ، دون بصر ، فى رمية واحدة ، قاتلة وبذلك يثير قصاص السماء . لأن الآلهة الألومبيين كانوا غيورين وكانوا

(١) هزيود (الأعمال والأيام) ٤٩٤ ، سفو . انسخ ٦١٦ وازن عن الرجاء اسنخ . انغام ٩٩٠ وما بعدها وسفو . طراخ ٦٦٦ وثقوديدس ٣ ، ٤٥ و ١٠٣ ، وكورنفورد Thucydides Mythistoricus
 (٢) سفو . Trach. : ٤٤٣ - ٤ إير Hipp. : ١٢٦٨ وما بعدها
 (ترجمة مرى) وراجع أيضا صورة افلاطون للروح يسيطر عليها . ارس Eros طاغية فى الجمهورية : ٩ ، ٥٧٢ - ٣ وانفتاحية الأغنية المذهبية فى سفو . انسخ : ٧٨ وما بعدها ترجمها سونبرن Swinburne (أغنية لأثينا) هكذا :

« الحب فى صراع لا يغلب ، الحب يتأذب أسلاب عظام الناس
 لم يغن أبدا فى مثل هذه الخلاوة من حنجرة سيّدة أو حمامة
 الحب الذى مهاده بالليل خدود فتاة ، ملمس
 وسيره يكون على بحار ، وسطوح وطينة لا تعدم الحب
 وليس واحد من كل من يعيش ، وشيك الزوال أو أبديا
 بمستطيع الفرار أو الاستخفاء من الحب ولكن من يعانقه بشدة يعجن جنونا » .

يسعون بطيفهم لايقاع الأذى بالانسان لثيم الطبع الذى يجسر على انتهاك ما لهم من حقوق (١) .

ويزخر الأدب الشعري الاغريقى بالتأملات التى تتركز حول فكرتى السفسونية والهرس وهما الشطر الهلينى المقابل لتعليم قواعد السلوك عند أنبياء العبريين ويمثلان الاعتراف الواعى من جانب الشعراء بوظيفتهم كمهذبين للاخلاق ، للشعب الاغريقى . ولكن فى القرن السادس ، كان صوت آخر قد أصبح مسموعا ، ان الفلسفة كانت تقيم دعوى منافسه ، تعارض الشعر ، لتعليم الحقيقة عن العالم والحياة الانسانية .

٥ - مولد الفلسفة

كتب ارستطاليس « ان الرغبة فى المعرفة طبيعية فى كل الناس » ومرة أخرى وهو يعبر عن رأى افلاطون « ان التعجب كان أول ما هوى الناس الى الفلسفة » (٢) . والرغبة التى تدور فى مخيلته هى حب الحقيقة المجرد عن النفع ، الحافز على التفكير لمجرد التفكير وليس كوسيلة لأغراض عملية وحسب . « ان الرجل الذى تأخذ به الحيرة والعجب مدرك لجهله . وعلى هذا فيما أنهم جنبوا الى الفلسفة حتى يتخلصوا من الجهل ، فمن الواضح أنهم درسوا العلم ابتغاء المعرفة وليس من أجل أى غرض نفعي » . وعند الاغريق كان حب الاستطلاع لمعرفة أسباب الأشياء وفحص طبيعتها الداخلية يجرى طبيعيا . وفى فجر تاريخهم كانت تجتاحهم كل رغبة الطفل لمعرفة كيف والسبب . « ولقد كانوا فى مبدأ الامر ، يتعجبون من الأشياء المحيرة الواضحة وبالترج شيئا فشيئا تقدموا الى البحث فى المشاكل الأكثر جسامة كظواهر القمر والشمس والنجوم وأصل الكون » (٣) . وفى هذا الميل الى الاستطلاع ، الذى يتجرد عن النفع كما كان يعلم ارستطاليس ، كان مولد العلم والفلسفة . ولم يفرق الاغريق بين الاثنين لأن المعرفة لم تكن قد وضعت لها بعد

(١) عن غيرة (phthonos) الآلهة ، انظر هيرد . ٣ ، ٤٠ - ٤٣ (قصة فلوقراطس) ٧ ، ١٠ . (خطاب ارطبانس) وانكار افلاطون انكارا عنيفا بأن الله غيور الذى ردد صداه ارستطاليس وكل الفلاسفة الذين أعقبوه يدل على احدى خطوات التقدم العظيمة التى جاء بها التفكير العلمى على الدين الشعبى (افلاطون Phaedr : ٢٤٧ و ارستطاليس Met. : ١ ، ٢) .

(٢) ارستطاليس - متا : ١ ، ١ و ٩٨٠ أ ٢١ و ١ ، ٢ ، ٩٨٢ ب ١١ وما يليها ترجمة روس Ross (بتعديل طفيف جدا) ، وازن افلاطون Theaet. ١٥٥ د . ويوضح افلاطون بالقصة التى جاء فيها أن اريس Iris ، رسول الآلهة كان ابنا لثاومس Thaumasp (التعجب) (٣) ارستطاليس Met. : ١ ، ٢

مصورة تقسمها الى اقاليم • ان عالم التجارب الانسانية في كليته وتفصيله ، كان موضوع بحثهم العام • وكان عصر التوسع هو الذى أنعش نزعة التفكير المتأصلة على هذا النحو فى العبقريّة الاغريقية ليكون لها نشاطها الفعال • وكانت مليتوس وهى مركز عظيم للتجارة الايونية والمغامرات الاستعمارية ، مسقط رأس الفلسفة الاغريقية (١) • والقلق الذى لحظناه فى ميدان السياسة كان ينفور أيضا فى عقول الرجال المفكرين وكان عالما أوسع قد تكشف أمام أنظارهم فراوا العادات التقليدية تتباين بتباين الأحوال المحلية والوقتيّة والقصص القديمة تدحضها التجارب الأوسع نطاقا • ووجد أن ستقولا Scylla وخروبدس Charybdis اللذين جاءا فى الأدوسيا كانتا مجرد ظاهرتين طبيعيتين ، صخرة ودوامة • ولقد فصمت هجرات ذلك العهد ، المتعددة ، عرى الحلقات التى كانت تربط المعتقدات الأولى بمواضع خاصة • ولأول مرة فى تاريخ المدنية البشرية ، سارت الروح العلمية وقد تخلصت من الاشتباك بالمعتقدات الدينية الشعبية •

١٤ - وقد تميزت محاولات أول الفلاسفة المليزيين فى تفسير الكون ، عن أية محاولات سبقتها بمظاهر ثلاثة ، ففى المكان الأول ، كانت تحمل ، كغيرها مما خلقتة العبقريّة الهلينية ، طابع الفردية • والعلم الشرقى ، اذا جاز لنا تكريمه بهذه التسمية (٢) ، كان فى معظمه لا ينتهى الى أحد ، اذ كان العمل الحليل الذى تتوارثه وتستحوذ عليه طبقة أو طائفة (٣) • ولكن ثالىس وأنا كسيماندر Anaximander وأناكسيمانس Anaximenes أول فلاسفة مليطوس فى القرن السادس يبرزون كشخصيات ولكل منهم ما أضافه

(١) كانت مليتوس على اتصال بمدينة بلاد ما بين النهرين بالطريق العظيم الذى يسير من ساحل ايجيا شرقا عبر آسيا الصغرى وجمصر بالمستعمرة الملزية التى أنشئت حديثا فى نوكراتيس •

(٢) ان العلم الشرقى جدير بكل تكريم • لقد أخذ فلاسفة اليونان معظم أصول علومهم عن مصر القديمة • ويمكن الرجوع الى ما جاء فى هامش صفحتى ٣٦ ، ٣٧ عن الطب فى مصر القديمة ، على سبيل المثال • (المترجم)

(٣) راجع بورنت Burnet « الفلسفة الاغريقية الأولى » الصفحات ١٨ وما بعدها • وكما أوضحنا فى الفصل السابق ، لم يكن الأنبياء العبريون بأية حال مفكرين علميين • وتنسحب الملاحظة التى جاءت فى النص على الرجال الحكماء فى مصر وبابل وكذلك على مؤرخى الحوليات وواضعى مدونة القانون بين العبريين • حتى النبوة أصبحت لا تنسب الى أحد عندما أصبحت تأملية مثلما جاء فى اشعياء ٤٠ - ٦٦ بينما صارت أسفار الرؤيا ، التى جاءت بعد ذلك اما غير منسوبة الى أحد أو مرتبطة بمعلمين سابقين (مثل نوح) انظر ما سلف ذكره فى الفصل ٣ فقرة ١١ ، التذكرة • والفقرة ١٥ ، التذكرة •

اضافة متميزة الى تقدم الفكر (١) . وعلى شاكلة افلاطون وارسطاليس في زمن لاحق ، أسسوا مدارس ولكن التقليد في مجموعه كان مؤسسا على العمل الخلاق للأفراد المفكرين ، أولئك الذين بقيت أسماؤهم والذين كانت شخصيتهم تسيطر في تزايد تدرجى ، على منهاج التقدم العقلى . وفى الموضع الثانى ، كان أسلوبهم علميا على أتم وجه وكانت الملاحظة يتسع نطاقها بالتجربة (٢) . وينيرها الفرض . ولو أن مدى الوقائع التى يمكن الوصول إليها كان محدودا وكذلك وسائل البحث فان هدفهم كان الكشف عن مبادئ لها ارتباط بالضرورة ، بين مختلف المظاهر المتغيرة « لا شئ يمكن أن ينبعث من لا شئ » - « لا شئ يحدث لغير شئ ولكن كل شئ يحدث عن سبب وضرورة » (٣) . وعلى غير شبه بالفلكيين الكلدانيين الذين اقتصر على استخدام رصيدهم من الوقائع التى حصلوا عليها بالملاحظة لتكون أساسا لتفسيرات خيالية فان المفكرين الاغريق ووطنوا أنفسهم على فهم العالم كعالم له قانون عقلى ، بمذهب ووحدة تكوين . وقد تابعوا هذا المنهاج فى ثقة وشجاعة لا يحددان وأظهروا عبقرية نادرة فى الفرض العلمى وفى النهج المنطقى على السواء . ويكتب الأستاذ بورنت « لا يكاد الفيلسوف الايونى يستوعب بضع نظريات هندسية ويسمع أن مظاهر السموات تعود للحدوث فى دورات ، حتى يتهى للعمل فى البحث عن قانون فى كل مكان فى الطبيعة وفى جسارة تكاد تصل الى خطيئة hubris ليقيم مذهبها ينتظم الكون » . وعلى هذا ، تمكنوا من ان يكشفوا فى مدى قرنين أو ثلاثة قرين النظرية الحقيقية للكسوف وكروية الأرض وحقيقة دورانها كغيرها من الكواكب السيارة ، حول مركز نظامها (٤) . هذه هى الثمرات الأولى التى جنتها روح اتخذت لنفسها كلمتى المرور « الاحتفاظ بالظواهر » و « اقامة الدليل » . وثالثا ، تنجلى عبقرية الفلاسفة الاغريق العلمية فى تصورهم الواضح للمشاكل التى عنوا بحلها وبعد أن رفضوا نهائيا السعى الذى لا ثمرة فيه ليروا بداية الكون الأولى فى فوضى أول عصر والذى كان قد أنهك فى اليونان كما فى غيرها مهارة الأجيال السابقة ، فانهم التمسوا الحقيقة التى تكمن وراء ما هو كائن . وكانوا

(١) عاش ثاليس حوالى عام ٥٨٥ وأناكسيمندر حوالى عام ٥٦٥ وأناكسيمانس حوالى ٥٥٠ - ٥٤٥ .

(٢) وازن ملاحظة أناكسيمندر على علم الأحياء البحرى وتجربة أنبادقليس Empedocles على الساعة المائية ليبرهن على أن الهواء جسم مادى : بورنت « الفلسفة الاغريقية الأولى » صفحة ٧١ و ٢٢٩

(٣) فارمنيدس Afr.-Parmenides ٨ وأنبادقليس ١٢ ولوسيبوس Leucippus (بورنت : الفلسفة الاغريقية الأولى صفحة ٣٤٠) . وقد أشير الى الأجزاء وفق الترقيم فى الترجمات التى وضعها بورنت .

(٤) الفلسفة الاغريقية الأولى ، صفحة ٢٣ و ٢٥

يتساءلون ما هي حقيقة العالم الأساسية كما نعرفه الآن ؟ والرغبة في إيجاد وحدة ومبدأ في متنوع اشكال الطبيعة التي لا تستقر على حال ، اخذت شكل بحث عن مادة اولية تبقى ثابتة وسط التغير ، عن مادة فعالة توجد الطاقة ، وتولد حركاتها التي تحددت وفق قانون ضروري ظواهر تجارب الحواس . ولقد كانت هذه المادة الاولى التي يطلقون عليها اسم فيسس *physis* (الطبيعة) موضوع بحثهم وعنوان عجلاتهم (١) . وقد اعتقد ناليس أنها الماء ، ووجدها غيره في البخار أو في النار أو في تآلف أو توافق أصول متضادة . واختلفوا أيضا في تفسيراتهم للنسق الذي ينهض به عالمنا من هذه الحقيقة القصوى . ولكنهم جميعا على السواء يبدأون من وقائع مشاهدة ويتقدمون بالاستدلال المنطقي صوب تصور كون منظم ، فيه بفعل قانون الضرورة ، يولد «الواحد» «الكثير» وتنقسم تفصيلات «الكثير» في «الواحد» (٢) .

١٥ - وليس في وسعنا أن نفعل أكثر من تبيان منحى هذه الأفكار الأولى لتوضح كيف أنها تقدم تابعا منظما للتفكير العلمي :

(أ) أدت أول جهود المفكرين الايونيين التي المعنى اليها في القسم السابق ، في بداية القرن الخامس ، الى فلسفة هيرقليطس *Heraclitus*

(١) ان ترجمة فيسس *physis* بلفظ (طبيعة) قد يكون مضللا اذ ينقل الانتباه من النهج النسقي الى الأصل . ان *physis* هو لفظ يدل دائما على (اسم فعل) معناه نهج نسقي كنمو نبات .

(٢) لقد استمدت المعرفة بهؤلاء المفكرين الأوائل من أجزاء متناثرة من كتاباتهم ومن اشارات جاءت في مصنفات المؤلفين الاغريق المتأخرين . وناليس وحده هو الذي لم يترك كتابة بعده . وقد ذهب أناكسيمندر ، خالفه ، الى أن الفيسس *physis* هي جوهر مادي لا حد له تحوى وهي ممترجة كل الأصول المتعارضة (الرطب والجاف والبارد والساخن) فصلت عن الجرم الذي لا حد له بنهج غريبة . نسقي وبذلك سبب قيام عوالم لا عد لها ، ومن بينها عالمنا . وكان أناكسيمندر أول من أدرك أن الأرض تسير طليقة في الفضاء وليست في حاجة الى سند مادي . وكان أساس الطب الاغريقي الأول (القمايون *Alcamaeon*) انظر ما يلي صفحة ١٢٥ ، تذكره (٢) يقوم على نقائص أناكسيمندر . وتصوروا الصحة على أنها *isonomy* أو متعادلة مع الحار والبارد والرطب والجاف - وكان المرض طغيان أحد الأضداد على الآخر . أما أناكسيمانس وهو ثالث الفلاسفة المليونيين من حيث الزمن فكان يذهب الى أن فيسس *physis* هي البخار الذي ينهض منه عالمنا بالتكثيف والتنقية . وعن معلومات مفصلة عن هؤلاء وغيرهم من المفكرين الأوائل ، انظر بورنت الفلسفة الاغريقية الأولى ، و « من ناليس الى افلاطون » .

الافسوسى Ephesus (١) • الذى كان مبدؤه الرئيسى أن حياة الطبيعة كانت تتألف من نضال قوى متعارضة والواحدة فى توتر مع الأخرى ، وتكون فى عملها المتبادل وحدة العالم المنسجمة • والنار وهى أعظم العناصر نشاطا تتحول الى هواء وتغذيها الرطوبة فى معايير متعادلة والصيف والشتاء واليقظة والنوم والنهار والليل والحياة والموت كلها تمثل الصراع العام الذى لا ينقطع بين « الطريق الصاعد » ، والطريق الهابط » • « ان الحرب هو أب الكل ملك الكل » « ان الطريق الصاعد والطريق الهابط واحد ونفس الأمر » • « ان الناس لا يعلمون كيف أن ما يختلف مع نفسه ، يتفق مع نفسه • انه توفيق لنغم توترات متضادة كالذى يكون لقوس وكثارة » • وقد أدرك هيرقليطس أن قانون الطبيعة هو قانونٌ تغير لا ينقطع وأن العالم كما يظهر للحواس هو أبداً فى حالة صيرورة وزوال ولا يكون فى أى مكان « موجودا » وليس شئ ، يمكن أن نقول عنه فى أى مكان « انه كائن » • وقد قال « انك لا تستطيع بأن تخطو فى نفس النهر مرتين » وأضاف واحد من أتباعه « لا ، ولا حتى مرة واحدة » • ونتائج هذا الفكر عن السيل الذى لا ينقطع فى عالم - الحس ظاهره ، كما سنرى فيما بعد ، فى فلسفة أفلاطون •

«ب» وفى نفس الوقت الذى حدث فيه هذا التقدم بين الايونيين الاغريق ، كان الحافظ للبحث العلمى بثور فى الغرب • (١) فى القرن السادس كان فيثاغورس وأتباعه فى جنوب ايطاليا قد أسسوا دراسة الرياضيات فى ميدان الهندسة البحتة وكذلك فى تطبيق الرياضيات على فروع العلم الأخرى وخاصة على نظرية الأصوات الموسيقية وعلى الفلسفة على وجه عام (٢) •

(١) عاش هيرقليطس بين عامى ٥٠٠ و ٤٨٠ وقصد تائر أيضا بالعلم الفيثاغورى الأول • والافتباسات التى تلى مأخوذة من الشذرات ٤٤ و ٦٩ و ٤٥ و ٤١ (وازن ٨١) •

(٢) عاش فيثاغورس حوالى سنة ٥٣٠ وكان موطنه ساموس الايونية واستقر فى ايطاليا • وقليل هو الذى يعرف عن حياته أو عن تعليمه الشخصى مستقلا عن تعليم مدرسته • وقد جمع الفيثاغوريون بين البحث العلمى ومبداً للحياة دىنى ، وقاموا بدور فعال فى سياسة جنوب ايطاليا • ومنذ هذا الحين لا تكون الفلسفة الاغريقية أبداً ذات نزعة عقلية وحسب • انها توجه التجربة praxis والنظرية theoria على السواء • واستمرت المدرسة فى عملها حتى ربح عظيم من الزمن فى القرن الرابع • وعلى النقيض من الفلاسفة الاغريق الشرقيين كانت أبحاثهم يغلب أن تكون رياضية • راجع سر • ت • هيث Sir. T. Heath « تاريخ الرياضيات الاغريقية » خاصة الصفحات ٢٠٢ -

ومبدؤهم « أن الأشياء هي أعداد » لم يكن تمثيلا خياليا ولكن النتيجة الاستدلالية التي وصل اليها مفكرون وجدوا أنفسهم في تحليلهم للتجارب يواجهون في كل منعطف قوانين تسمح بوضع صيغ رياضية . ولقد كانوا يتحسسون طريقهم نحو مذهب يشبه مذهب ديكارت Descartes الذي قرر حقيقة الكون المادى ، المستقلة في حدود خواصه الهندسية كامتداد له شكله الهندسى . وهذا ، على التحقيق كان الموقف الذى اتخذهُ أفلاطون في طيمايوس Timaeus تحت تأثير سلفه الفيثاغوريين (١) . (ب) ومدرسة فكر أخرى، الاليائية ، التى أسسها فارمنيدس Parmenides الاليائي كان موطنها أيضا جنوب إيطاليا (٢) . وقد كشف فارمنيدس فى منطق قويم عن النتائج التى تستتبع الفروض التى كان المفكرون السابقون قد قبلوها دون نقاش . وقد كان الكل يسلمون فرضا ليس فقط أن الطبيعة physis أو الحقيقة كانت واحدة ولكنها كانت أيضا مادية . وعلاوة على هذا ، فإن الجميع كانوا يتصورون أن هذا الجسم الواحد مستحوذ على حركة ملازمة وبذلك استمد منها ظواهر التجربة وفيرة العدد . ولقد أوضح فارمنيدس أنه اذا كان الواقع واحدا وماديا فإن الكثرة والحركة على السواء خدعة .

= و١٦٦ وما بعدها حيث جاء تلخيص لأعمال الفيثاغوريين الرياضية (وتشمل اقليد الكتب ١ و٢ و٤ و٦ وربما ٣) .

(١) كان الفيثاغوريون يفسرون الأعداد فى حدود الهندسة وكانت الوحدة نقطة لها موضع فى مجال فراغى ومن هنا وجد التعبير أشكال (رياضية) . راجع بورنت « الفلسفة الاغريقية الأولى » الصفحات ٩٩ وما بعدها و « ثاليس الى أفلاطون » الصفحات ٥١ وما بعدها . وبين بورنت كيف أثر الكشف بأن أنغام الكنارة تعتمد على نسب رياضية ، على التفكير الرياضى . وقد حفز العلم الفيثاغورى أيضا على دراسة الطب والفصاحة فى جنوبى إيطاليا وصقلية . وعلى هذا فان أهميته كانت عظيمة جدا . والرأى أن العالم المادى يتكون من عناصر فراغية (أو فراغية زمنية) وأن طبيعته يمكن تفسيرها فى حدود معادلات رياضية ، له مكانته البارزة فى علم الطبيعة والفلسفة المعاصرين . ويفسر أحدث مذهب ميتافيزيقى (علم ما وراء الطبيعة) فى هذا القطر (انجلترا) مذهب الأستاذ س . الكسندر S. Alexander (الفراغ والزمن والاله - محاضرات جفورد Gifford فى جلاسجو ١٩١٦-١٩١٨) الكون بأنه تولد من عناصر زمنية - فراغية خالصة أى لحظات - نقطة . ان دراسات الفيثاغوريين العلمية أو صلتهم ، فى فجر التقدم العلمى ذاته ، الى تصورات أنتجت ثمارا خارقة العادة .

(٢) عاش فارمنيدس بين عامى ٤٨٠ - ٤٥٠ وحوالى التاريخ الأخير زار أثينا ، راجع أفلاطون Parm. ١٢٧ . وقد ورد فى النص ، رأى بورنت عن مكانته فى الفلسفة الاغريقية .

وقد قبل هذا الدحض لواقعية عالم الحواس المتغير ولكن منطقته أقام فيه الحقيقة البرهان على قياس الخلف *reductio ad absurdum* (١) على الفروض المقبولة . ومن الآن ضحى جميع المفكرين بوحدة الطبيعة واحتفظوا بإيمانهم بالعقيدة الفارمنيدية الأخرى ، بأن الواقع كان من طبيعة الجسم (٢)

(٣) ونتيجة لفلسفة فارمنيدس ، قام في منتصف القرن الخامس عدد من مذاهب الكثرة . ان أنبادقليس Empedocles من أغريغنطوم Agrigentum في صقلية و أناكساغوراس Anaxagoras من اقلزومنا Clazomenae في آسيا (أول فيلسوف يتخذ أثينا موطناً له) ، ولوسيبوس Leucippus من مليطوس (معلم دموقريطس ومؤسس مدرسة الذرة) ، كلهم يتفقون مع الفيثاغوريين في اتخاذ موقفين ، الرأي التقليدى بأن الواقع مادي ، والرأى الجديد الذى ساقهم اليه فارمنيدس بأنه ليس واحداً ولكن كثرة (٣) . ثم

(١) قياس الخلف *reductio ad absurdum* - قياس أساسه البرهنة على صحة المطلوب بإبطال نقيضه أو فساد المطلوب باثبات نقيضه .

(المترجم)

(٢) ان نقائض زينون Zeno ذائعة الصيت مثل نقيضة أخلوس والسلفاة ، قدمت دعماً لانكار أستناذه فارمنيدس للحركة . وبالطبع كانت توجد طريقة أخرى لأخروج من المأزق بالتمسك بالقول ان الواقع واحد ولكن الوحدة كانت روحية وليست مادية . وقد ظهر هذا الرأى أول ما ظهر عند سقراط وأفلاطون راجع فصل ٥ - ١٧ و ٢٠ .

(٣) عاش أنبادقليس حوالى عام ٤٦٠ وعاش أناكساغوراس ولوسيبوس حوالى ٤٥٠ ، أما دموقريطس فانه ينتمى الى الجيل التالى وتأثر بالسفسطائيين ويمكن الرجوع الى الفصل ٥ ، ١٣-١٥ عنهم . لقد كان منتصف القرن الخامس زمن نشاط عظيم خالق فى الفكر الاغريقى ويجب أن يلاحظ أيضاً أنه أصبح للعلوم التى تتصل بعلم الحياة أهمية متزايدة فى غضون القرن الخامس . ولقد أُنِعت أيضاً مدارس الطب وهى ترتبط ، فى البداية ، ارتباطاً وثيقاً بالفلسفة كمدرسة القمايون القروطوني Alcmaeon of Croton ، فى جنوب إيطاليا ، الذى خصص عمله للجماعة الفيثاغورية . ولكن بعد ذلك استقلت عنها كما فى حالة مدرسة أبقرات فى القرن الخامس ، فى جزيرة قوس . ولقد كان القمايون المؤسس الحقيقى لعلم النفس « راجع عن هذا وعلى وجه عام عن علم النفس الاغريقى الباكر ، والنظريات الاغريقية عن المعرفة الأولية (بير Beare) وتاريخ علم النفس (برت Brett) وعلى الأخص الصفحات ٢٤ ، ٢٥ وفصل ٥ » ويستبين من النحت الاغريقى اللاحق (مدرسة فرغامس Pergamos) شىء من المعرفة بعلم التشريح راجع بورنت ، الفلسفة الاغريقية الأولى ، الصفحات ٢٦ و ١٩٣ وما بعدها .

التمس أنبادقليس وأناكساغوراس بعد ذلك سبب الحركة ، ووجدها الأخير في النوس nous أو الذهن ^(١) . ولو أنه فسر فعله آليا ، كفعل عامل طبيعي خارجي ^(٢) . وقد لحص منهاج التقدم التفكيرى بأجمعه ، الذريون الذين كانوا أول من أكد واقعية الفضاء الفراغ وأرجعوا الكون الى مجموعات من الذرات التى لا عد لها ، متجانسة ولكن تختلف فقط فى الجرم والشكل والموضع . تسرع فى الفضاء اللانهائى فى حركة لا تنقطع ^(٣) . وبإذاعة هذا المذهب فان الجهد لتصور العالم فى حدود عناصره المادية أنجز سبيله الى التمام .

١٦ - وكان من الطبيعي تماما أن المشكلات التى تتعلق بطبيعة الواقع عما اذا كان واحدا أو كثرة ، يجب أن يجيب عنها هؤلاء الفلاسفة الأوائل فى حدود الطبيعة . وكانوا يعنون بلفظ Physis اما جسما واحدا واما كثرة من الجسوم ، وفى الحالة الأخيرة تكون الجسوم اما محدودة واما غير محدودة العدد وتختلف فى نوعها أو تتجانس . وكان لابد أن يجيء وقت تنهض فيه فكرة واقع روحى ، فى عقل المفكرين الاغريق ، ولكن لم تكن الساعة قد حازت بعد لهذا وتظهر كل مرحلة للفلسفة الاغريقية متعاقبة فى نظام التقدم المنطقى اطاعة لقانون لم تفرضه ظروف خارجية ولكن طبيعة العقل الانسانى الملزمة . ويجب ألا نظن أن هؤلاء الباحثين الطبيعيين كانوا يتجاهلون وقائع حياة الانسان العقلية والخلقية . والتميز ، وهو جد مألوف ومع هذا فانه جد محير للفكر المعاصر ، بين المادى والروحى لم يكن حتى ذلك الحين قد تحددت معالنه . فعلى سبيل المثال ، ذهب أناكسيمانس المليطى الى أن الروح هو بخار ^(٤) . وتسمية هذا مادية بالمعنى الحديث يكون أقل صدقا من القول ان

(١) مذهب الكثرة - يقابل الواحدة ويعتمد فى تفسير الكون على مبادئ متعددة كعناصر (أنبادقليس) ومونادات (ليبنتز) .

(٢) عن عدم رضا سقراط عن تصور الذهن كقوة آلية (ميكانيكية) واستبعاد العمل الذى توفر فيه الغرض ، راجع البيان الهام عن تاريخه العقلى الباكر فى أفلاطون فايدو Phaedo الصفحات ٩٦ وما بعدها .

(٣) كتب دموقريطس من أبدرا فى طراقية ، خليفة لوسيبوس والأبعد منه صيتا ، فى الثلث الأخير من القرن الخامس عندما كانت آراء السفسطائيين الجدد التى تثير مسائل عن نظرية المعرفة وقواعد السلوك قد ملأت الاتفاق . ان مذهب الذرة لأبيقور (راجع فصل ٦ - ١٨) مؤسس على مذهب دموقريطس .

(٤) كان « هواء » أناكسيمانس يشتمل على « نسمة » الحياة والريح والبخار .

بخاره كان شيئاً ليس مجرد مادة • ومرة أخرى ، تحدث هيرقليطس عن نار توقع الجرم بكل شيء وعن الشمس تراعى حدود العدالة ^(١) • بينما الحب والكفاح وهما القوتان المحركتان عند أنبادقليس كانا يصوران كتلتين ماديتين ونوس nous «عقل» عند أناكساغوراس على أنه «علاء الفراغ» ولكن لم يكن إلا بعد انقضاء شطر عظيم من القرن الخامس أن تفكير الناس ومسلكتهم استرعى نفس الانتباه الذي كان يوجه الى مشكلات الطبيعة المادية • ثم جاء في البداية السؤال : بما أن الموازين الخلقية والمعتقدات الدينية وقوانين ومنظمات دولة - المدينة تقدم ، كالطبيعة المادية ، مشهداً من عدم الاستقرار والتغير ، فهل هي ، نتيجة لهذا ، ذات قيمة محلية وعابرة فقط و « أوضاع » أقامتها بصفة مصطنعة ، قوانين وضعها الانسان ؟ أو هل يوجد ثم فيسس physis أو خلق أدبي طبيعي • ثم قانون لا يتغير ، من وضع الله أو الانسان تكون الأوضاع المتغيرة هي شكلها العابر • كان لا معدى عن مثل هذه الأسئلة في زمن سادة القلق السياسى عندما كان قد قوم أذهان الناس أكثر من قرن من البحث العقلى • ولقد سألهم اغريق الأعوام الوسطى من القرن الخامس وبمجرد أن تلقوا السؤال فانهم أنجبوا ، كما سنرى فى فصل تال ، ليس فقط الفلسفة السياسية والخلقية ولكن تصورا فسيح المجال ، جديداً عن طبيعة الواقع ومكان الانسان ومصيره فى الكون •

١٧ - ويبقى علينا أن نشير الى الرابطة المزدوجة للعداوة والامتزاج بين الفلسفة حديثة المولد والدين القديم ^(٢) • فمن جهة كان من شأن توسيع مجال

(١) شذرة ٢٧ وازن شذرة ٢٩ • « أن الشمس لا تتخطى حدودها ، فإذا فعلت فان الارينوس Erinyes ، خدمة العدالة سيكشفن أمرها • وعلى هذا ، فان الأشياء عند أناكسيماندر تقوم بالتعويض والترضية ، الواحد نحو الآخر ، لجورها فى مرحلة من الزمن ، (بورنت - الفلسفة الاغريقية الباكزة ص ٥٢) •

(٢) وفقاً لغرضنا من تركيز الانتباه على تلك العوامل التى كان لها أعظم تأثير مباشر على الأزمنة اللاحقة ، فقد أهملنا موضوع الدين الاغريقى الشيق الا فيما كان له من أثر على تاريخ الفلسفة الاغريقية • ولقد ألقت البحوث الحديثة الكثير من الضوء على هذا الموضوع وهو ذو أهمية ليس فقط لفهم الشعر الاغريقى والقانون والحياة اليومية ولكن أيضاً بالطبع ، لدراسة الأديان الأولى ، دراسة موازنة • وثمة مسألة لها أهمية خاصة لقراء هذا الكتاب هى التفرقة بين الآلهة الألومبية الذين يمثلهم أبولو وآلهة الأسرار الذين يمثلهم ديونوسيوس ، وكان الأولون كائنات فوق مستوى البشر أضغيت عليهم الصفات المثالية ومتعالين تعالياً بعيداً وكان يعسر تصور أى شيء له خصيصة الاتصال الروحى الشخصى معهم • أما الآخرون فكان يمكن ، لمن تلقن أسرارهم ، الاتصال بهم اتصالاً مباشراً ، فى حالة الجذب =

الاختبار بين الناس ونمو المزاج النقدي ويقظة المطامع الخلقية العليا. بعث مذهب التشكك (الارتياب) ولكن هذا التأثير كان ينحصر في الأقلية الذين كانوا يفكرون في جد في مثل هذه المسائل أو على الأغلب في الجمهور المثقف . وكان يمكن لاناكساغوراس أن يعلن أن الشمس ليست الها ولكنها حجر ببلغ حجمه حجم بلوونيس ، وكان الأثيني في القرن الخامس يحس بارتياح لاختلاصه وحكم على الفيلسوف بالزندقة (عدم التقى) وكان مرجع هذه العداوة ليس الى مج للتفكير ولكن لولاء متأصل لعبادات المدينة ، التقليدية .

وكان هذا ، السبب الأصلي لعدم الثقة في العلم والفلسفة التي عبر عنها تعبيرا رائعا في تهكم مسلاة (كوميديا) أتیکا القديمة . وكانت إحدى الاتهامات التي وجهها الى سقراط متهومه تهمة ادخال آلهة جدد وتعليم الناس أن يكفروا بالآلهة الذين كانت تعبدتهم المدينة . وكان أمرا ذا مغزى عظيم في الحياة الاغريقية أن المعارضة ضد الفلسفة ، كان لا يتزعزعا الكهنة ، ولكن الشعراء والسياسيون . وكان الفلاسفة من جانبهم يشددون النكير دون هوادة ، على المعتقدات التقليدية . وخاصة في ايونيا موطن العلم والتاريخ حيث كون الأمراء التجار جمهورا مثقفا ، كان ذيوع روح التشكك سريعا وعاما . وكتب اكسنوفانس Xenophanes القلوفوني (Colophon) « لقد نسب هومر وهزيود الى الآلهة كل الأمور التي تكون عارا وخزيا بين الناس ، السرقات والفسق وخداع الواحد للآخر » ولقد قال هيرقليطس « يجب أن يطرد من القوائم ويجلد بالسياط هومر وكذلك أرخيلوخس Archilochus . ولقد أشار أفلاطون في الجمهورية الى أن النزاع بين الشعر والفلسفة ظل دهرًا طويلا ، وكان لا يعنى نزاعا بين الفن والمعرفة ، لأن هذين ليس لهما مجال للصراع ولكن بين الدعاوى المتنافسة ، للتقليد الدينى والعقل العلمى ، فى تعليم الحق (١) .

١٨ - وفى موضوع علاقة العلم الجديد بعقائد دولة - المدينة المتناصلة كانت

= العاطفى وعن طريق طعام وشراب الفروض المقدسة . ولقد قدمت ديانات - الأسرار موادا للفلاسفة (راجع ما يلى § ١٧ وفصل § ٥ ٢١) . أما دين الألومبيين فقد أثار العداوة وحسب راجع محاضرات جفورد لوب (C.C.J. Webb) عن « الشخصية البشرية والالهية » ١ ، ٧٧ وما بعدها ويجب قراءة « مولد الأنساء » لنييتشه Nietzsche - راجع أيضا « خمس مراحل للدين الاغريقى » لجلبرت مرى ومؤلفات أخرى ذكرت فى قائمة الكتب الملحقه بالمجلد الثانى من هذا الكتاب .

(١) أفلاطون « الجمهورية » : ١٠ ، ٦٠٧ واكسنوفانس ، شذرة : ١١ وهيرق ، شذرة : ١١٩ وازن شذرة : ١٦ و ٣٥ و ٤٣ .

توجد من البداية نتيجة واضحة . وكانت الحال مختلفة وأقل بساطة فيما يتعلق بموجة إحياء الدين الشعبي البدائي التي اجتاحت اليونان في القرن السادس . ووراء عبادة الآلهة الألومبية التي رعاها الشعراء الهومريون وأرستقراطية العصور المظلمة ، ربما كان ما يزال راسخا في أذهان جمهرة الشعب قدر من المعتقدات القديمة ، ربما تكون ما تبقى من الدين المينوي السابق لقيام الهلينية ^(١) . وهذه المعتقدات البدائية التي تظهر آثار منها في القصائد الهزiodية وحتى في القصائد الهومرية كانت ترتبط بعبادة الموتى وبآلهة العالم السفلي وخاصة بتجسد الإله غير الهومري ديونوسيوس . وديونوسيوس وأورفيوس كانا كلاهما يرتبطان ارتباطا وثيقا بطراقيا . ولقد لقيتا اعترافا رسميا في الفرائض التآلهية لاليوسس Eleusis في أطيافا التي كانت تتكون من ضروب التمثيل الفاجعي للحوادث المقدسة والاحتفالات الأساسية لتطهير روح المعابد من الذنوب . والتطهير كان جوهر النهضة التي حدثت في القرن السادس . ويظهر الأنبياء ومطهرو المدن مثل افيماينيدس Epimenides الكريتي - الذي استدعى لتطهير أثينا - في العالم الهليني ، وكذلك تظهر جميعات الأخوان المنظمة التي قائل الكنائس ومنعزلة عن وشائج القرابة ودولة - المدينة ، وهي التي أقامت أساس العبادات المقررة . وكانت لديهم كتابات شعرية مقدسة منسوبة إلى أورفيوس البطل الأسطوري وتحوى مبادئ معينة لعلم الإلهوت ، وخاصة فيما يتصل بمصير الروح في عالم ما بعد القبر ، وكانت جمعيات الأخوان الأرفية تذيب التعليم عن وجود للروح سابق وعن خلودها الملازم بسبب قرباتها للآلهة وتجسدها المتعاقب في أشكال الناس والحيوان البدنية وتطهيرها من الذنوب باتخاذ الجذب مع الإله ^(٢) ، وكانت تقدم

(١) ربما كان الغزاة الشماليون (الأخائيون) هم الذين أدخلوا عبادة أبولو والدين الألومبي ، على وجه عام ولو أن العبادة الجديدة قد تغير مظهرها بتمثيل معتقدات الشعوب الإيجية ، الأقدم منها . ويمكن تفسير الارتباط الوثيق بين طغاة القرن السادس والانتعاش الديني ونشأة الفاجعة (الدراما) الباكراة (التي اتصل قيامها بعبادة ديونوسيوس) ، إذا اعتبرنا أن سلطانهم كان سلطان الرأسماليين الأثرياء الذي يعتمد على التعاضد الشعبي ضد الأرستقراطية الاقطاعية وكان هؤلاء ، بطبيعة الحال ، يرتبطون بالعبادات الدينية الألومبية ، التقليدية .

(٢) يعتمد الاعتقاد في الخلود على الاعتقاد بقرابة الانسان بالله ، ولا يمكن الوصول إلى الخلود إلا بأن يصير المرء الها . وفي التعليم الأورفي تتصور الروح بأنها إله هوى ويمكن إطلاق سراحها من سجن الجسد بالتطهير والفرائض المقدسة (الجذب - ecstasy - وبال يونانية ecstasis معناه «الخروج» عن الجسد) وتستعيد ألوهيتها (راجع بورنت ، الفلسفة الاغريقية الأولى =

للمناشئين الرجاء فى نعيم أبدى وفى هذه الحياة تعاني الروح الحبس ، والجسم هو قبرها ، وعن طريق سلسلة من الحلول فى الأجساد تنجز دورة مصيرها . وعمليا ، كان يبشر بهذه المبادئ وتقبل فى شكل مادى غليظ ، فكان التطهير يعنى مراعاة محرمات غريبة واحتفالات سطحية ، والحياة الأخرى فردوس للاستمتاع الحسى - وفى عبارة التحقير لأفلاطون - «نشوة سكر أبدية»^(١) . ومع هذا فقد كانت الآراء التى تتأصل فى التعليم الأورفى خليفة بتفسير أعلى . لقد استخدمها شعراء مثل فنندار وأسخولس فى الجهد الذى بذلوه للتوفيق بين السلطة الدينية ومطالب الوعى الخلقى فى زمنهم ، الأكثر سموا^(٢) . و «فايدو» لأفلاطون هو أثر تذكارى لا يفنى للاستجابة التى كان يمكنهم إثارتها من الفلسفة . وفى هذا ، وفى غيره من كتاباته ، فإن نفس المفكر الذى صب جام غضبه على صانعى الغفران وأشياى صنف الأسرار الخرافية ، حول المبادئ الأورفية عن حبس الروح فى الجسد وعن سابق وجودها وعن خلودها وعن دينونتها فى عالم آخر الى أداة لأسمى تعليم

= فصل ٢ الصفحات ٨٠ - ٤) . أما فى الدين الهومرى (الألومبى) ، فإن الآلهة والناس طيقتان من الكائنات مختلفتان ، ولا يمكن أن يصبح أى انسان الها وعلى ذلك ، فلا يوجد خلود لبنى الانسان . فقط قلة من المحظوظين ، كان يحملهم الآلهة الى الوميس أثناء حياتهم وام يكن يحمل أحد بعد الموت . ويعتقد هزيرود أن الأبطال يمكنهم الذهاب عند الموت الى الوميسوم Elysium بدلا من الجحيم Hades . وكان الأمر جد مغاير فى الدين البدائى وفى نهضته فى القرن السادس . ويجب أن يلاحظ أن اعتقاد الاغريق فى الخلود استخدم موادا استمدت من الدين البدائى بينما نهض اعتقاد العبريين فيه فى استقلال تام عنه . راجع عليه فصل ٣ § ١٥ صفحة ٩٧ تذكرة . وعلى هذا فإن تصور الاغريق ، على غير شاكلة تصور العبريين كان يدل على وجود سابق أى الخلود الاغريق كما es parte ante راجع عن الموضوع كله « المذهب الأورفى Orphism » لجوثرى Guthrie

(١) راجع النص بأجمعه عن تذييد الأسرار والتعليم الأورفى (الجمهورية: ٣ ، ٣٦٣ وما بعدها) .

(٢) راجع فنندار « الومب » : ٢ ، ٦٢ وما بعدها و « شذرات » : ١٢٩ - ٣٣ وأسخولس ، أما : ٢٦٩ وما بعدها « الديونونة بعد الموت » وبخا Bacchac لأريفيديس - احدى أخريات رواياته (شقيقة على الاخص لأجل المسائل التى تثيرها) .

دينى ومتافيزيقى (١) . وهنا كان أفلاطون يقتفى الخطوات الفيثاغورية (٢) . وكانت أبحاث هذه المدرسة العلمية ترتبط ارتباطا وثيقا بعقائدهم الدينية ومذهب الزهد الذى اتخذوه قاعدة الحياة . وكان فيثاغورس نفسه قد وضع المثل لهذا الامتزاج وهو يعلم أن العلم كان التطهير الحق للروح وأن الخلاص يمكن ادراكه بالتنشئة فى خفایاه . ومنذ ذلك الوقت كانت الفلسفة تعنى للمفكر الاغريقى « مذهباً للحياة » (٣) . والفيلسوف فى نظر الفيثاغوريين وفى نظر أفلاطون ، كان قديس المذهب العقل وفى اجتماع الحديث الفلسفى Symposium فان العقيدة الأورفية فى اتحاد المتعبد مع الهه عن طريق الجذب تصاغ فى حدس عقلى للجمال المطلق وهو منتهى الطواف الشاق تصعيدا فى سلسلة جبال الاستدلال العلمى (٤) . وسنرى ثمرات أخرى لهذا التصور عندما يحين الوقت للتحدث عن الأفلاطونية الحديثة فى القرون الأولى من العهد المسيحى . ومن نفس المصدر الفيثاغورى فاض التمييز ، الذى استمد عن طريق التشبيه من الألعاب الهلينية ، لثلاثة ضروب من الحياة الانسانية ، فالبعض كأولئك الذين يغشون تلك الاحتفالات لبيع سلعهم اختاروا سبيل الرضى المادى سبيل الكسب وأسباب المتعة وآخرون كاللاعبين المتنافسين يطمحون لنيل التكريم فى ميدان العمل ، فى السباحة أو الحرب بينما يوجد أولئك الذين يؤثرون ، على مثال المتفرجين فى الألعاب ، حياة المتفرج يتأملون بعقل لا تعيقه ميول بيت سجنه الجسدى ، مرأى الحق الكامل ، وتصور التأمل العقلى (thecrio) هذا ، كأرفع نشاط انسانى قريب لما هو الهى ، ذاك الذى أدركه أولا الفيثاغوريون ونماه أفلاطون وأرسطو يأتى بنا الى صميم العبقريّة الهلينية عينه .

٦ - الخاتمة

١٩ - ان نسق التوسع الذى دون فى هذا الفصل يوضح صفة الهلينية العقلية . يوجد منطق ملازم فى كل ما خلقه الاغريقى . ونظرة الى فنهم المعمارى والمأمة التام بالصوغ والوظيفة والتوازن الرياضى تكفى لأن توضح

(١) وخاصة فى الأساطير التى تتصل بالأمور الأخروية فى Phaedrus, Republic, Phaedo, Gorgias راجع « أساطير أفلاطون » لاستتوارت و « الفكر الدينى فى اليونان » لآدم .

(٢) أهديت Phaedo الى الرابطة الفيثاغورية فى اليونان الأوربية ، لقد عقد سقراط الصلات الوثيقة بعدد من الفيثاغوريين الذين التجأوا الى اليونان بعد نفيهم من ايطاليا فى غضون النصف الأخير من القرن الخامس .

(٣) وازن أفلاطون ، الجمهورية : ١٠ ، ٦٠٠ .

(٤) أفلاطون : ندوة الفلاسفة . Sym. : ٢١٠ .

تراث العالم القديم

كيف بعثت الروح العلمية الحياة في الفن التخيلي . والاعتقاد أن « الله يهندس دائما » كان يتحكم في نظرتهم للطبيعة ، وفي انتاجهم الجمالى . والفن لدى الاغريق يعتبر أبدا أحد أشكال الحكمة (Sophia) وليس فقط المفكر الاغريقى ، ولكن الفنان الاغريقى أيضا كانا يملكان الاحساس بالحق الذى أدى بهما الى أن يفرقا فى وضوح بين المثالى والواقعى وأن يعطيا كلا منهما حقه . وقد كانا يشعران أيضا بالهام تلك القوة التى خصص لها حياته شاعر من بين الشعراء المعاصرين ، ولج تماما روح اليونان القديمة ، - رؤيا الجمال العقلى (١) .

ان الصرامة والصدق هما طابع الفن الاغريقى ، فمثلا عندما يقول هومر « هيلن » فانه يعنى « هيلن » وعندما يقول فرجل « ديدو » فانه يعنى « كليوباترة » أو « قرطاجنة » ويمكن تبين منطق مماثل فى منهاج تقدمهما . لقد رأينا آنفا كيف أن سجلات التاريخ السياسى وأدب الشعر والفكر العلمى تكشف عن تتابع أشكال منتظم (٢) . وما لحظه الفلاسفة الايونيون فى الطبيعة يصدق أيضا على عقل اليونان . ففى كل مكان يوجد تنوع وتغير ، ولا شئ فى استقرار . ولكن التغيرات ولو أنها لا تنقطع وتستغرق كل شئ ، فانه كانت تسير على هدى قانونى عقلى . وطراز يتبع طرازا ومدرسة تقتفى أثر مدرسة فى تعاقب منطقى الى أن ينتهى مدى كل الشكول الممكنة وتكمل دورة التقدم . وكانت خدمة اليونان الأساسية للمدينة أن تخلق فى العمل وتحدد فى الفكر الحاصلات الجهورية فى تجارب الانسان . ان الصيغ التى نستخدمها اليوم للتعبير عن الفروق والتجميعات التى تكون أساس فهمنا للعالم فى السياسة الملكية monarchy والأرستقراطية aristocracy والديموقراطية democracy وفى الأدب - الملحة Epic والبصيدة الغنائية lyric والفاجعة drama والمأساة tragedy والمسلاة comedy وفى المعرفة - أسماء الفنون والعلوم الشعر poetry والطبيعة physics والفلك astronomy والرياضة mathematics والتاريخ history والفلسفة philosophy نفسها ، كلها صيغ اخترعها الاغريق . والشكول التى ميزوها وسموها هكذا هى التى أنشأوها فى سير تاريخ حياتهم . ولا توجد سلاله أدركت فى مثل هذه البصيرة الصافية

(١) راجع شلى Shelley « أنشودة للجمال العقلى » .

(٢) راجع على الأخص دراسة شكول الحكومة السياسية التى تحوى عيوباً ، فى جمهورية أفلاطون الكتابين الثامن والتاسع حيث يعرض النظام المنطقى الذى يعالجها فيه أفلاطون ، أشباهها كثيرة لمنهاج تطور التاريخ الاغريقى الواقعى .

وحددت فى مثل هذه الدقة ، حقائق الحياة والمعرفة (١) . وبسبب هذه
الموهبة العجيبة فى الحكم العقل ، التى عاونتهم فى الفكر والعمل على ادراك
الموضوعات التى وضعت لها هذه الصيغ ، أن جميع الأجيال المتعاقبة رضيت
وفى الواقع أجبرت ، على أن تقيم البناء على الأسس التى أرسوها .

(١) ان سجلات العيادات الطبية للأبقراتيين ، على سبيل المثال ، هى
بيانات دقيقة عن الوقائع لا تثقلها أية زيادة فى اللغة فوق ما تدعو اليه
الحاجة . وحتى الخطباء الاغريق كان ديدنهم الاقتصاد العجيب فى خطبهم .

الفصل الخامس عظمة أثينا

١ - دولة أثينا

١ - كان في أثينا في القرن الخامس أن المدنية الاغريقية وصلت ذراها . وكانت أثينا في ذلك الوقت أهم مدينة تجارية وسياسية في العالم الهليني الذي كان تفيض اليه كل تيارات الأدب والفن والمعرفة وفي عبارة بركليس رجل السياسة فيها ، الشهيرة ، أصبحت « مدرسة هلاس » . ولا يوجد في التاريخ ما يعادل الثروة وتنوع العبقرية الخالقة للذين انتجتها أثينا في هذا القرن أو ضمتها اليها من جميع أرجاء اليونان . وفي مدينة واحدة لم يكن تعداد سكانها الأحرار ، أكثر من تعداد سكان بلدة انجليزية متوسطة الحجم ، كان يقطن خلال ثلاثة أجيال من مدى الحياة الانسانية ، رجال سياسة مثل ثيسطوقلس وبركليس والثلاثة من شعراء المأساة أسخولس وسفوكلس ويوريبيدس ، وشاعرا المسلاة (كوميديا) أرسطوفانس Aristophanes وفيدياس Phidias ومدرسة النحاتين الرائعة التي كانت له ، والمؤرخان هيرودوتس وثقوديدس والفيلسوف أناكساغوراس وسقراط أعظم معلمى البشر أجمعين ، وتلميذ سقراط الخالد ، أفلاطون . وكان يوجد غيرهم كثير ، لا عد لهم - رجال سياسة وشعراء ومفكرون ، من بينهم عدد وفير ليسوا أكثر من مجرد أسماء للآزمنة التي ترادفت وهم مع ذلك ، فى عهد أقل التماعا كان يمكن أن يكونوا من بين مشاهير رجال التاريخ . ويخال أن فردية المدنية الاغريقية بذلت الجهد فى فترة نضجها الوجيزة لتتجاوز حدود أجل عمل ممكن .

٢ - ولو أن أثينا تطورت الى مدينة تجارية عظيمة ، فان أساس حياتها المدنية كان زراعيا . ولقد انضم ، قبيل القرن السابع ، سكان أتيكا فى اتحاد (كومونولث) واحد ، وأخلت الملكية مكانها لحكم أرستقراطية من ملاك الأراضى وأصبحت فروق طبقات الاشراف والزراع وأصحاب الحرف ، وقد تحددت نهائيا وغدت مساوى الدين والعبودية الشخصية واضحة وضوحا بينا . وصار الأصاغر من ملاك الأرض مدينين للكبار لدرجة ميثوس منها وسمح لهم بأن يرتهنوا حريتهم الشخصية لدائنيهم . ولقد رأى ختام ذلك

القرن نشر مدونة قوانين وهو حادث له أهمية فى تاريخ كل الجماعات الأولى وعلى الأخص فى حالة أثينا حيث كان « القانون المتماثل » *isonomia* فخر مواطنيها ووصل علم الاختصاص القضائى الى مستوى من الكمال لا يضارع فى العالم الهلينى ^(١) . وبفضل قربها من البحر وفرضتها فرايوس *Piraeus* تمكنت أثينا من الحصول على قسطها الكامل فى توسع التجارة . وهنا ، كما فى أماكن أخرى ، كان فيض الثروة وقيام حكم الأغنياء من التجار مما زاد القلق السائد شدة . وكان مصدر المتاعب يرجع الى أن الامتيازات السياسية أصبحت تنحصر فى ملاك الأرض . وسمح صولون بادىء ذى بدء ، للذين يملكون رأس مال تجارى بأن يشتروا الأرض من الملاك الذين يعوزهم المال ، وعلى ذلك يكونون أهلا بصفة فعالة لحقوق المواطنين وللوظائف العامة . وفى بواكير القرن السادس وقد استدعى صولون لتولى زمام الحكم حتى يحل الأزمة الاقتصادية وانهاء النجاح - باصلاح القانون الجنائى وخاصة بإنشاء المحاكم الشعبية التى كان الحكام مسئولين أمامها - فى وضع أسس الديمقراطية . وفى المجتمع القديم ، كانت محكمة القانون وليست الجمعية ، موطن الحرية السياسية حيث ظفر الشعب بالرقابة على السلطة التنفيذية . وأعقب هذا فى تتابع سريع تغييرات دستورية طوال القرن السادس . وكان حكم بيسطراطس الاستبدادى ، الذى ربما كان يستند الى تعضيد عماله فى مناجم أتيكا الجنوبية ، يتميز ، بصفة ملحوظة ، باحترامه للقانون واجراءاته الدستورية وتشجيعه للزراعة والتجارة وانهاش الفن والثقافة . وقد شجع أيضا صغار المستردين للأرض البور فى أتيكا . وقد مدت أثينا فى ذلك الحين علاقاتها التجارية والسياسية على كلى شاطئ بحر ايجا ^(٢) . وكان حكم

(١) عن *isonomia* راجع هيرد : ٣ ، ٨٠ وما بعدها وازن ٥ ، ٧٨ وفيه التعبير المستعمل *iségorié* « المساواة فى الحديث » .
(٢) راجع الاستاذ ف. ن. يور *Préf. P.N. Ure* « النهضة الاغريقية » فصل ٧ - عن علاقة الطغيان على وجه عام وطغيان بيسطراطس على وجه خاص ، بالراسمالية واستخدام العمال .

وقد عالج البحث فى استيفاء أعظم فى مؤلفه الذى جاء بعد ذلك « أصل الطغيان » وقد كان حكم بيسطراطس من الأهمية بحيث يعتبر فاتحة عصر جديد لأثينا فى الفن والأدب والدين . ولقد أصبحت أثينا عندئذ مركز النفوذ الهومرى فى اليونان . وعن هذا ، راجع مري *Murray* « خمس مراحل للدين الاغريقى » صفحة ٦١ . وبازدياد سكانها ، كانت أثينا تجلب مايلزمها من المواد الغذائية من يوبيا *Euboea* والأكسين . ولهذا كان امتداد قوتها البحرية فى الشرق والشمال الشرقى أمرا جوهريا لبقائها . وكانت حالها كحال هولندا فى أواخر القرن السادس عشر والقرن السابع عشر . وهذا =

ببسطراطس الاستبدادى قصير الأمد ، لأن التعطش الى المساواة السياسية وقد أثير فى ليفيف المواطنين الأثينيين ، أصبح من الشدة بحيث لا تشفى غلته ولا يقبل هواده . وقد نفيت أسرة ببسطراطس بثورة شعبية تظاهرها قوة اسبرطية ولكن أعداءهم الحقيقيين كانوا القمايوندا Alcmaeonidae وهم أسرة منافسة ، من النبلاء . وفى ختام القرن أوقع اقلستينس Clisthenes ضربة قاضية على نفوذ الأرستقراطية الاقليمية وأعاد تنظيم الحكومة على أساس ديمقراطى صريح . ولم يسمح فقط للمقيمين الأجانب بكسب حقوق المواطن الكاملة ولكنه حل التجمعات السياسية التى كان أساسها روابط الأرض المحلية ، واستبدلهم بقبائل جدد جلب أعضاءها من أنحاء متفرقة فى أتيكا . وكان من أثر هذا ، أنه عندما فاضت موجة الغزو على اليونان فى فجر القرن الخامس ، استطاعت أثينا أن تواجه الأزمة بمساعدة من المنظمات السياسية حقيقة بمزاج مواطنيها وبمكائنتها الجديدة فى اتحاد (كومونولث) دول - المدن الهلينية . ثم فى قدرتها على التقدم السياسى وفى حرية التواصل بالمدن الأخرى ، قدمت أثينا فى هذا الوقت وما بعده تقيضا ظاهرا للدولة التى كانت لها السيادة على أرض اليونان الأصلية ، اسبارطة (١) . ومن موطنهم فى وادى يوروتاس Eurotas المنعزل ، أخضعت الأرستقراطية الاسبارطية بلوبونيسس الجنوبية اخضاعا تاما . وبفضل شجاعتهم التى لا تقارى ومهارتهم فى استخدام السلاح ، اعترف بهم دولة عسكرية دانت لها الزعامة فى اليونان . ولكن اسبارطة كانت ثكنة ، لا دولة ، وكان يتحكم فى تدريب وحياة مواطنيها ، الهدف الأوحد وهو حذق فن الحرب . وقد احتفظت بمنظمتها البدائية قرونا ، دون أن يطرأ عليها تغيير ، فى الغالب . ولما كانت تحقر التجارة ، فقد قامت بحراسة تخومها من تدخل الأجانب ، فى بأس . ولم تصف الا القليل أو أنها لم تصف شيئا على الإطلاق مما له قيمة دائمة فى بناء المدنية الهلينية . وكانت قوتها ترجع الى شدها أزر العهد القديم Ancien Régime فى كل مكان فى اليونان ، فى سياستها الشعبية Herrenvolk ومبدأ العزلة الذى ضمن لها سيادتها . ولقد أنجبت جنودا شجعانا . ولكن لم تنجب الا القليل من رجال السياسة الممتازين . وكان المواطنون أولو المواهب العظيمة أهدافا للريبة فى موطنهم ، وعندما كانوا يتحررون من جو التقاليد الاسبرطية ، يصبحون فرائس للفنناد ، سهلة .

= يفسر السبب فى أن الديمقراطية الاثينية كانت دائما تنادى بالتوسع الامبراطورى .

(١) يعبر ثوقوديدس عن هذا التناقض فى خطبة المبعوثين الكورنثيين فى اسبارطة فى ٤٣٢ ، ١ ، ٧٠ وكذلك فى خطبة الجنازة لبركلييس ٢ ، ٣٥-٤٦ التى جاءت مقتبسات منها فى § ٥ من هذا الفصل .

وأنا لنعجب للصيت الذى أحرزته اسبارطة فى عيني اليونان المعاصرة وللسلطة الخلقية التى بسطتها على الكثير من أحسن العقول الهلينية . ولما قنط أفلاطون من خلاص أثينا السياسى ، تطلع صوب اسبارطة بحثا عن العلاج ويرجع السبب الى هذا : أنه ولو أن الارستقراطية الاسبارطية كانت ضيقة وغير مثمرة وظالمة فقد ظهر أن ثباتها والتمسك بوحدة المبدأ والولاء للدولة يكمل النقص الذى كانت الحاجة تمس اليه للديموقراطية أثينا العاطفية التى لا استقرار لها (١) .

٣ - وأتاحت الحرب مع فارس الفرصة العظمى لأثينا . لقد سبق أن سردنا قصة نهوض الدولة الفارسية السريع واخضاعها الاغريق الآسيويين تحت نيرها . وهدد أسطولها البحرى الذى جند رجاله من مدن فينيقية التجارية ، بتحويل ايجا الى بحر فارسى . ولقد اصطدم الحكم الذاتى فى دولة - المدينة الاغريقية بالقيصرية الفارسية بينما ألقت الحركات الديموقراطية وهى تهدد الحالة الراهنة ، الاقتصادية والسياسية ، بحمايتها المحافظين بين يدى فارس . وقد وصم القوميون الاغريق هذه الوسيلة للنجاة « بالميدية » لأن تاريخها يرجع الى ما قبل قيام فارس . وقد أوقعت القوة البحرية التى كانت لبوليكراتس الساموسى ، الخطر على تحكم فارس فى سواحل آسيا الصغرى . وفتحت غزوات دارا فى طراquia عيني مليطوس التى كانت فى البداية قد طغت عليها « الميدية » . وقد أكدت ثورة الاغريق الايونيين فى السنوات الأولى من القرن الخامس ، للحكومة فى سوس الحاجة الى تعزيز حدودها الغربية ، وفى عام ٤٩٠ ، أرسلت حملة تأديبية بحرا ضد الأثينيين الذين كانوا قد قدموا قوة عسكرية مسلحة كعون للثورة الفاشلة التى أشعلها ذوو قرابتهم الايونيون . وقد قوبل جيش فارس وأوقعت به الهزيمة ، على سهول مراثون Marathon على ساحل أتيكا الشمالى الشرقى . ومن العسير ، بالنظر الى

(١) ان صورة أفلاطون للحكومة التيموقراطية (شكل للحكومة يؤهل فيها الأفراد للوظائف بما يملكون) فى الجمهورية : ٨ ، ٥٤٧ - ٨ يماثل بصراحة شكل الحكومة الاسبرطية . ومبدءاها الهاديان هما « الشرف » (timé) و « النصر » وهى أقل أنواع الحكومات « غير العادلة » فسادا ، وبعد ذلك ، فى « القوانين » نجد أفلاطون أقل تسامحا ، لحد عظيم ، نحو المنظمات الاسبرطية . ويوجه ارستطاليس النقد القاسى لاسبرطة فى « السياسة » ٢ - ٩ و ٧ - ١٤ ، ١٥ ويصرح بلوبيوس (٦ ' ٤٨ - ٥٠) فى فحصه للمنظمات الاسبرطية أنه لا يوجد مثيل لها للاحتفاظ بالاستقلال والاكتفاء الذاتى فى الداخل ولكنها غير كفيلة تماما بمباشرة العلاقات الخارجية والامبراطورية .

الحوادث التالية التى كان لها شأن أعظم ، أن ندرك ما كان يعنى هذا النصر لليونان • ولأول مرة قبل التمثال الفارسى الهائل فى الميدان المكشوف • وبالنسبة لأثينا ، قدمت مراتون ذكرى لا تفنى وبعد ذلك بزمان مديد عندما سرد أعظم خطبائها كيف جمع مواطنوه شملهم أمام كفاح الموت ضد مقدونيا ، فانه رجع بفكره الى أولئك الذين سقطوا مجدين فى مراتون (١) وأما بالنسبة للفرس فليس ثمة شك فى أن الموقعة لم تكن تعنى أكثر من صد عنيف لسياستهم الامامية على الحدود • وجعلت القيام بعمليات على نطاق واسع أمرا لا مناص منه ، ولكن جمع المجندين الامبراطورين تطلب زمنا • وسببت ثورة فى مصر وموت الملك دارا تأخيرا لسنين عدة • ولم يكن الجيش حتى عام ٤٨١ قد تجمع تحت قيادة خشيارشاي فى سردس ، بينما كان الأسطول فى ايجا مرابطا عن كتب ، لغزو اليونان غزوا نهائيا • ولقد وافت اللحظة الحاسمة المدنية الهلينية آخر الأمر وأثناء تقدم الفرس ، قدم نصف المدن الاغريقية خضوعها وقام مهبط الوحى فى دلفى بدور الحائن للدعوة الهلينية • كانت اسبارطة وهى العمود الفقارى للدفاع بالبر تفكر ، كما كان العهد بها دائما ، على الأخص فى البلوبونيسس • وفى تلك الآونة ، تقدمت أثينا كنصير للحرية الهلينية • ولقد شاهد مواطنوها مرتين ، من ملجنهم الجزرى فى سلاميس دون خوف نهب أراضيهم وتدمير مدينتهم • ولقد أحرز أسطولها النصر الحاسم فى سلاميس (عام ٤٨٠) وفى السنة التالية ، حارب جنودها جنبا الى جنب مع المشاة الاسبرطيين فى « الرحمة الحتمية » فى فلاتيا Plataea ووجدت أثينا فى شخص ثيسطوقلس قائدا له قدرة غالبية فى الحرب وفى السياسة ، ونجت اليونان وكانت نجاتها ترجع على الأخص الى وطنية أثينا (٢) •

وكان هذا آخر تهديد يوجه للحربة الهلينية من الشرق • وكان الخطر مزدوجا ، ففي الغرب أيضا كانت قرطاجنة قد هاجمت اغريق صقلية فى سنة غزو خشيارشاي فلحققت بها هزيمة قاصمة فى الهما على يدى جيلو Gelo طاغية سيراكوز • واستهل نصر جيلو حقبة باهرة فى سيادة سيراكوز • وفى

(١) دمستينس Demosthenes دى كرونا de Corona § ٢٠٨ •

(٢) راجع هيرد ٨ و ١٤٣ وما بعدها عن وطنية الاثينيين فى هذه الضائقة • وقد أورد قصة حملة عام ٤٩٠ فى الكتاب السادس ، ٩٤ - ١٢٠ وحملة خشيارشاي فى ٧ - ٩ • وقد وضع اسسبحولس هزيمة خشيارشاي فى فاجعة ، فى « الفرس » الكتاب الذى صنغه •

الحق تحتل سيراكوز من ذلك الحين المكانة الثانية بعد أثينا ، كمرکز للفن والثقافة الهلنيتين (١) .

٤ - وكان انتصار اليونان رائعا ، ولكنه على أية حال لم يكن أعجوبة . وهو يقدم أول مثال واضح ، فى التاريخ عن انتصار دنيوى للنوع ضد الكم . ولقد صنع الاغريق فى سلاميس وفلاطيا ما صنعه الاسكندر بعد ذلك فى أسسوس Issus وجوجيلا وكليف Clive فى الأزمنة الحديثة فى بلاسى Plassey (٢) . ان تاريخ الإنسان يكذب فى كل مرحلة المثل الأحمق بأن « الله يكون الى جانب الكتائب العظيمة » ، وإذا كان نابوليون قال هذا على الاطلاق فلا بد ان قوله كان يحمل فى مطواه تحفظا بأن « يكون النوع متعادلا » ، والأعجوبة الحقة هى فى استخدام الآثينيين للنصر الذى حازوه . ولقد اظهروا فى ساعة النصر ، نفس البصر بالحقائق واتساع النظر ، كما فى ساعة الخطر الداهم . وعندما ارتضت اسبارطة والدول الاغريقية الأخرى بما نالوه من أكاليل الفار ، أجمعت أثينا الراى على أن تواصل الجهاد حتى تتحرر كل مدينة اغريقية فى منطقة ايجا من النير الفارسى

وكانت السياسة وكذلك روح الوطنية دون ريب ، تشيران الى هذا الاتجاه ولكن مما فيه شرف أثينا الخالد ، أنه فى هذه اللحظة لامت أثينا بين دعوة نفع المدينة ودعوة الاستقلال الهلنى . ولقد جنت الشمار الف ضعف ، فى العظمة السياسية كما فى حياتها الداخلية التى تتصل بالمدينة وفى تجارتها وامبراطوريتها فى البحار ، وكذلك كما سنرى ، فى أنبل ثمرات الثقافة العقلية ، التى كانت أبدا من نصيب النوع الانسانى . وقد تركتها حرب التحرير (٤٧٨ - ٤٧٠) سيدة مياه ايجا دون منازع . وقد

(١) وجه بNDAR عددا من أحسن القصائد الغنائية الى الأمراء الصقليين بما فيهم Hiero خليفة جيلو . وقد زار اسخولس صقلية أكثر من مرة ومات فى جيلو Gela وكان جورجياس Gorgias الليونتينى Leontini من مشاهير السفسطائين وأستاذ الفصاحة . وفى القرن الرابع زار افلاطون سيراكوز فى مناسبتين أو ثلاث . وكان جيلو القائد العام لاولجارشية (حكومة الاقلية) من الراسمالين ، قاصرة عليهم ، وقد دعت المدن الايونية فى غرب صقلية قرطاجنة وهى فى يأس . وتقدم سيراكوز نقيضا يسترعى البال ، لأثينا الليوقراطية .

(٢) رأى الآثينيون أنفسهم فى وضوح ، أن النصر يرجع الى قوة ومهارة أسطولهم البحرى والى ذكاء تيسطوقلس ولروح حب الوطن التى لا تحيد ، التى تشيع فيهم (انظر نقد ١ ، ٧٣ و ٧٤ و ١٤٤) .

أمن تحصين المدينة ومرفئها ، فرايوس من منافسة اسبارطة لها في البر - وكانت أساطيلها تقوم بالحراسة على ايجيا الذي أصبح من الآن موصدا ، كما كانت أراضي ساحل آسيا الغربية ، أمام الفرس . وكانت هذه الحقائق أساس التفاهم الذي أنهى في عام ٤٤٨ الصراع الذي استطال حتى بلغ أربعين سنة ونيفا . ولقد تركت أثينا وفي حيازتها احتكار التجارة الشرقية . وكانت المدن المحررة ما تزال منتظمة في جمعية تحت رئاستها ولها خزانة مشتركة في جزيرة ديولوس المقدسة ، كانت تقدم اليها كل مدينة حصنة معينة للاحتفاظ بالأسطول البحري الحامي . وفي روعة بالغة ، حققت أثينا ما انتوته وقطعت العهد به . ولكن والقرن يسير في مداه ، حدث تغير في سياستها . لقد تحولت الدولة التي عقدت لها الرياسة على الاتحاد الديلي الى مدينة ذات سيادة على امبراطورية خاضعة لها . ولقد غدا حلفاؤها القدامى تابعين يلتزمون بدفع الضريبة وكان مطلبهم في الانفصال عن الجمعية يداس تحت الأقدام في عنف ، ونقلت الخزانة الى أثينا وأعيد وضع منظماتها الداخلية لصالح سيادة أثينا . ولما كانت أثينا ديموقراطية فان المدن الخاضعة يجب أن تكون أيضا ديموقراطية . ومن خصائص التاريخ السياسي الاغريقي أن الصداقة والعداوة بين الدول كانا يعتمدان الى حد عظيم على اللون السياسي للحزب الحاكم . وقد تحالفت الحكومات الديموقراطية مع أثينا والحكومات الارستقراطية مع اسبارطة . وفي زمن بركليس (٤٦٠ - ٤٣٠) كانت الامبراطورية الاثينية تشمل جزر ايجيا ومدن طراقيا وآسيا الصغرى الساحلية والسينطس والمجاز البحري الى الاكسين . ولو أن نكسس Naxos ثارت عام ٤٦٥ وساموس عام ٤٤٠ . وأكثر من هذا ، فان أثينا أظهرت نشاطها في محاولات فاشلة لبسط سيادتها على اليونان الوسطى وفي حملة عسكرية أنفذتها الى مصر وانتهت بنكبة . ونمت المدينة في الثراء والسكان كنتيجة طبيعية لتجارتها الواسعة المتنوعة . ومع الكراهية المريرة التي كان يشعر بها رعايا امبراطوريتها ، لا يوجد أى دليل على أنها كانت تحكم حكما غير عادل . ويجب أن يكون الهادى في حكمنا اعتبارين . بتركيز القضايا التي تنسحب على مدن مختلفة وكذلك أعظم الدعاوى الجنائية خطورة ، في المحاكم الاثينية ، فان أعلى مذهب في الإدارة القضائية ، رقينا ، كان يوجد في العالم في ذلك الحين ، فتحت أبوابه لكل اليونان الشرقية ، وعلاوة على هذا ، كانت أثينا تدرك تماما الواجب الذي تفرضه عليها سيادتها . وكان لزاما على مواطنيها ، كما كان يشعر على الأقل ساستها الذين كانت لهم الصدارة ، أن يعيشوا عيشا خليقا بقدر امبراطوريتهم . ولقد حازت جهود بركليس لادراك هذا المثل الأعلى ثقة شعب ديموقراطي . ولم يصل حلم اتحاد جامعة هلينية تحت زعامة مدينة واحدة ، اطلاقا ، قريبا من تحقيقه كما في عهد الامبراطورية الاثينية في زمن بركليس .

٥ - وعندما نضع الى جانب قوة أثينا الخارجية لنمعن النظر فى حياتها العامة الداخلية ، نجد أنه منذ عهد افلاستينس كان يهيمن على الحكومة ارادة لغير المواطنين الأحرار (١) . ولقد رأينا كيف أنه ، عند الاغريق كانت حياة المواطن الحق هي خدمة الدولة فى السلم وفى الحرب وقد حقق هذه الفكرة فى اسبارطة ، الأرستقراطية الحاكمة . ولما كانوا قد وهبوا الضياع التى يقوم بالعمل فيها الرعية من السكان ، فقد تاح لهم وقت فراغ ليعتصموا كل حياتهم للخدمة العسكرية . وقد جهد بركليس وخلفاؤه فى القرن الخامس فى جعل مثل هذه الحياة ممكنة لديموقراطية أثينا . واستحداث الأجرة لحضور المجلس ومحاكم القانون ، التى كان أعظم مشاغلها الدعاوى السياسية ، كان الوسيلة التى استخدمت للوصول الى هذا الهدف . وعلاوة على مهمة الحكومة المحلية ، كان مباحا لكل مواطن أن يحضر بشخصه وإن يدلى بصوته وأن يتحدث فى الاجتماعات الأسبوعية للمجلس ذى السيادة (Ecclesia) حيث كانت تهرم مواضيع السياسة الخارجية والامبراطورية والمواضيع المالية ويعين الحكام وتناقش تقاريرهم وتفحص . وكان مجلس الرأى Boule يعهد اليه بتحضير التشريع للجمعية وكان يجتمع عشر العدد (prytany) كمجلس تنفيذى دائم ، فى دار البلدية كل شهر فى السنة . وكانت لجان تتألف من بضع مئات من المحلفين يختارون بالقرعة من لغير المواطنين ، تصدر أحكامها فى الاتهامات الدينية والسياسية . ولقد صب الشاعر المحافظ أرسطوفانس التحقير المبرر على منالة هؤلاء الدبابير (٢) الأثينيين فى الدعاوى القضائية . ولقد تصاعدت روح التشيع وكان الحزب الأرستقراطى ينادى بالسلم والصدقة مع اسبارطه ، أما الحزب الديموقراطى بقوته بما يضم من السكان البحريين ، فكان يناصر توسيع الامبراطورية فى البحر والبر . ولكن عندما نتسامح فى المغالاة فى الروح الحزبية والمطامح الفردية فان الديموقراطية الأثينية لم تكن غير جديرة بالمثل العليا للسياسى العظيم الذى وطد سيادتها .

(١) يمكن أن يكون تعداد سكان أطيقة الأحرار فى عصر بركليس قد بلغ حوالى ٢٥٠.٠٠٠ نسمة ويؤكد ثقو ٢ ، ٣١ أنه حوالى عام ٤٣٠ كانت تبلغ قوة المواطنين الأثينيين ٣٠.٢٠٠ . ويجب أن يضاف اليهم نحو ٢٠.٠٠٠ من الطبقة التى لها أقل ملك فيكون المجموع ٥٠.٢٠٠ من المواطنين الذكور البالغين . وربما يبلغ تعداد النساء والأطفال والعجائز أكثر من ضعف هذا العدد ، وبذلك ربما كان يصل المجموع الكلى الى ٢٠٠.٠٠٠ نسمة من الأحرار يضاف اليهم ٥٠.٠٠٠ من الأجانب المستوطنين metics . ويظهر فى احصاء عام ٣٠٩ ق م نقص فى المواطنين الذكور البالغين ، يبلغ ٢١.٠٠٠ يضاف اليهم ١٠.٠٠٠ من الأجانب المستوطنين .

(٢) أرسطوفانس « دبابير »

ولقد عبر بركليس عن هذا المثل الأعلى في خطبة له في الثناء على الجنود الذين سقطوا في معمة القتال في حملة عام ٤٣١ . وقد سجل الخطبة المؤرخ ثقوديدس ويمكن اقتباس النص الاتي لتوضيح تصور بركليس للديموقراطية الأثينية :

« ان شكل حكومتنا لا يدخل في مجال التنافس مع أنظمة غيرنا ، واننا لا نحتذى حذو جيراننا ولكننا نضع المثال لهم . وهو صدق ان الديموقراطية تطلق علينا لأن الادارة في أيدي الكثرة وليست القلة ولكن بينما القانون يضمن المساواة في العدالة للجميع على السواء في منازعاتهم الخاصة فان دعوى التفوق يعترف بها أيضا وعندما يمتاز مواطن في أية ناحية فانه يفضل للخدمة العامة ، ليس كامتياز ولكن جزاء للفضل . ولا يكون الاملاق مانعا ولكن يمكن للانسان أن يحقق نفعاً لوطنه مهما كان شأنه مغورا . ولا يوجد احتكار في حياتنا العامة وبينما لا نخضع لأي قسر في تواصلنا الخاص فان روحا من الاحترام تشيع في أعمالنا العامة ويجنبنا عن ارتكاب الخطأ ، الاحترام للسلطة وللقوانين اذ لنا اعتبار خاص لتلك التي وضعت لحماية الذين وقعت عليهم مساءة وكذلك لتلك القوانين غير المكتوبة التي تجلب على الخارجين عليها تنبيذ الرأي العام اننا عشاق للجمال ولكننا بسطاء في أذواقنا واننا نثقف العقل دون خسران للرجولة . والشراء نستخدمه ليس للحديث والزهو ، ولكن عندما يوجد نفع صادق في استخدامه . والجهر بالفاقة عندنا ليس مذلة ، والمذلة الحقيقية هي في القعود عن عمل شيء لتحاشيها . ان المواطن الأثيني لا يهمل الدولة لأنه يعنى ببيته . وفيما بيننا ، حتى أولئك الذين ينهمكون في الأعمال ، لديهم فكرة جد طيبة عن السياسة ونحن ، دون سوانا ، نعتبر الرجل الذي لا يهتم بالمسائل العامة ، ليس شخصا لا ضرر منه ، ولكنه شخص لا جدوى فيه . واذا كازمت قلة منا مبتكرين ، فاننا جميعا حكام صادقون لثمة سياسة . والعائق العظيم أمام العمل ، في رأينا ، ليس النقاش ولكن الافتقار الى تلك المعرفة التي تكتسب بالنقاش ، ارهاصا للعمل . لأن لنا قدرة خاصة على التفكير قبل العمل وعلى العمل أيضا ، بينما ناس آخرون لهم شجاعة وليدة الجهل ولكن يترددون بعد امعان الفكر والخلاصة ، أقول ان أثينا هي مدرسة الاغريق وانه يبدو أن الفرد الأثيني في ذاته ، يستطيع أن يكيف نفسه في أعظم شمول العمل تباينا ، بأجل ما يكون من قدرة ، متعددة النواحي ، وكياسة . وليست هذه كلمة لغو عابرة ولكنها الحق والواقع . والتوكيد تصدقه المكانة التي رفعت اليها هذه الحصال الدولة لأننا أجبرنا كل بر وكل بحر ليفسح طريقا أمام بسالتنا وغرسنا في كل أوب ، آثارا خالدة لصداقتنا وعداوتنا . هذه هي المدينة التي لأجلها حارب هؤلاء الرجال وماتوا في نبل . ولم يكن في وسعهم

احتمال الفكرة بأنه يمكن أن تستلب منهم ، وكل واحد منا على قيد الحياة يجب أن يكبح في اغتباط لأجلها ، ^(١) .

٦ - ان امبراطورية أثينا وحكم الديموقراطية الذى خلقها ورباها كان كلاهما قصير الأمد . ويقع التاريخ الأثينى فى القرن الخامس فى ثلاث حقبة تتميز الأولى بنهوض قوتها فى الحرب الفارسية والثانية ببلوغ ذراها فى زمن بركليس والثالثة بدهورها وسقوطها . والحياة العامة الاغريقية هى فى كل مكان سجل من التغير متنوع المناظر . ولقد أطلت سحائب أيام قيادة بركليس السعيدة ، حتى قبل موت السياسى العظيم (٤٢٧) وكان منافسو أثينا يتحينون الفرصة لجمع الشمل ومهاجمة سيادتها . وأتى الواعز من دول البرزخ وخاصة من كورنث التى كانت مصالحها التجارية فى اليونان الغربية يتهددها مطمح أثينا المتزايد . وبينما كان الكورنثيون يدفعون الى النشاط قوات اسبرطة القوية ، ولو أنها متكاسلة ، كانت المدن الخاضعة فى الامبراطورية الأثينية ترقب فى تلهف الفرصة المواتية للثورة . وفى عام ٤٣١ قام الصراع الذى يعرف فى التاريخ باسم الحرب البلوبونيسية ^(٢) .

وفى الواقع تورطت كل اليونان فى الصراع وقد ناهضت قوة أثينا البحرية من جانب ، تحالفا ينتظم أعداءها تحت القيادة الاسبرطية . واستمر مع فترات انقطاع حتى عام ٤٠٤ عندما أعقب تدمير الأسطول البحرى الأثينى سقوط المدينة الامبراطورية . وقد سرد ثقوديدس قصة الحرب وقام بنفسه بدور فى مشاهدتها الأولى فى توليف سيبقى أبد الدهر خلقا رائعا للتاريخ الذى يتبع فيه التأمل . وعنده ، كان الصراع فاجعة تتركز حول خطيئة hubris الديموقراطية الأثينية التى كانت تأخذ فى النمو ، وتنتهى بالقصاص nemesis الذى نجم عندما تخطوا ، فى محاولة غزو صقلية ، المعلم . وكما فعل سالفه هيرودوتس فى تقفى أثر يد عناية الهية غيورة ، فى القصص الذى لحق الامبراطورية الفارسية عندما ألفت بجحافلها فى صلف القوة ، ضد اليونان ، رأى ثقوديدس فى روح فلسفة أكثر نضجا فى الجائحة التى أصابت المدينة وطنه فى اللحظة التى ظهر فيها أن تعطشها لامبراطورية عالمية قد أدرك مرماه ، عملية لا ليان فيها للقوانين التى تقرر مصير الأمم . والديالوج الذى يقص فيه انذار أثينا النهائى الى سكان لجزيرة ميلوس بتوكيده الذى لا هوادة فيه ، أن الضرورة لا تعرف أى قانون وأن حاجة السياسة الملحة لا تعبأ بكل مطالب الفروض الخلقية وأن طغيان القوى على الضعيف هو الحق الطبيعى للالهة والناس ، يجىء بعده دون فاصل ، قصة إبحار الأرمادا ضد سيراكوز وما أصابته من ضروب النجاح الأولية

(١) ثقو ، ٢ : ٣٧ - ٤١ (ترجمة جوت Jowett) .

(٢) كان يتوقع حدوثها من حرب سابقة (٤٦٠ - ٤٤٥) .

وما أعقب ذلك، من نكبات ثم ذهابها أبابيد (١) . ولم تقم لأثينا قط قائمة بعد هذه الضربة . ولما رأى السبيادس صديق مسقراط وأعظم شخصية سياسية التماعا وتعددا في نواحي قدرته ، أن النائبة أوقعت عليه العار ، انضم الى أعدائها ونصح بالتحالف مع فارس التي أمدتهم بموارد غير محدودة لخلق قوة بحرية . وما كانت أثينا لتتقهر الا بالبحر . وقد استمر شعبها في القتال في ثبات وشجاعة عجيبيين ضد كثرة هائلة ولكن دم حياتهم كان قد نضب معينه وكان لا مندوحة من الخراب في النهاية (٢) . وعندما وافت النهاية ، كانت حامية من الاسبرطيين المقوتين تمسك في الأكروبول ، ووقعت المدن الخاضعة التي كانت قد ثارت ضد أثينا والأمل يحدوها في استعادة استقلالها في قبضة الظافر ، ولا حول لها . ولو أن أثينا استطاعت أن تزيع نير اسبارطة ، ولو أن الديموقراطية استعادت وفاضت التجارة مرة أخرى في فرايوس ، الا أن امبراطوريتها أصبحت في خبر كان . ووجدت عبقرية المدينة ، بعد فترة وجيزة من الروعة السياسية والعسكرية ، موطنها الحقيقي الدائم في ميادين الأدب والفكر .

٢ - الفن والأدب في أثينا في القرن الخامس

٧ - نوهنا فيما سبق بأن جميع ألوان النشاط الخالق التي عبرت عنها العبقرية الاغريقية تجمعت في أثينا في أزهى القرن الخامس العظيم . ويصدق هذا ، في المكان الأول ، على فنون العمارة والتصوير والنحت التي تربطها قرابة . ولقد كان الوازع للثلاثة وازعا دينيا ، اقامة وزخرفة المعابد لعبادة الآلهة . وكان الطرازان ، الدوري والايوني في فن عمارة المعبد ، الواحد ضخيم وقاس والآخر أكثر أناقة وزخرفة ، قد تطورا في الحقبة السابقة ، من أشكال بدائية للبناء بالحشب (٣) . وكان النحت أيضا منشؤه حفر الحشب وقد حل محل دمي المعبد الحشبية في عصر التوسع التجاري وتحت

-
- (١) راجع ثقو . ٥ ، ٨٩ وما بعدها عن الديالوج الميلي . وتورد هذه الآراء في الحاح للذاكرة دفاع الألمان عن انتهاكهم حياد بلجيكا في عام ١٩١٤ ، ان ثقوديدس يكتب كمتفرج في عيادة للمرض السياسي .
- (٢) كان الحزب الأرستقراطي والمشايع لاسبارطة يعمل داخل المدينة لصالح العدو . وكان يرجع نشاطهم الى عام ٤١٥ (ثورة الأربعمائة) وكانت صيحة - الحرب ، السياسية - العود الى عام ٤٦٠ « أي قبل بركليس .
- (٣) من المعابد الاثينية في عصر بركليس كان ثسيوم Theseum وبارثنون Parthenon (راجع § ٨) أهم مثالين للطراز الدوري والارخشيوم Erechtheum ومعبد « النصر دون جناح » (Nike Apteros) للطراز الايوني .

رعاية الطغاة الأثرياء التماثيل من الحجز . وفي القرن السادس ، تقدمت مدارس أرجوس وسسنيون Sicyon وأيجينا Aegina وأثينا تقدما سريعا في مهارة الصنعة وفي معرفة التركيب التشريحي وحرية المعالجة وتحرر في النحت من ارتباطه القاصر على الموضوعات الدينية . وتوضح تماثيل اللاعبين الرياضيين الاهتمام المتزايد بطرز جمال الرجولة . ولقد وصلت هذه التطورات الباكورة الى قمته في المدرسة الأثينية في عصر بركليس تحت زعامة فيدياس . وقد قدم الى أثينا أيضا بوليغنوتس Polygnotus مواطن ثاسوس Thasos ، أعظم مصور في ذلك الزمن والذي اشتهر بإنشاءاته العظيمة الهائلة مثل نهج طروادة وأدوسيس في الجحيم وقد امتدحه ارستطاليس لحداقته في تصوير خليقة الانسان ^(١) . ولقد دمر الغزاة الفرس أبنية أثينا وفي الجليلين التاليين وطن ساستها العزيمة على جعل المدينة المجددة خليقة بمكانتها في الامبراطورية . وجهد بركليس على الأخص ، في تدريب المواطنين على حب ما هو جميل عن طريق أبنيته وما يزرعها من أفانين النحت . وفي عصر كانت فيه الكتب نسيبا ، لا سبيل الى الوصول اليها ، فمن المستحيل المغالاة في تقدير قيمة الأبنية الرائعة ، في التعليم . وكان الاكروبول في أثينا ببوابة المدخل ومعابده وتماثيله ، يؤدي للآثينيين في ذلك الزمان ، نفس الخدمة التي كانت تؤديها الكاتدرايات التي نزرع بالنحت ، لمدن أوروبا في العصور الوسطى . وفي عبارة جاءت في «الجمهورية» بختم أفلاطون حجته بأن حكام المدينة المثالية ، من السباب ، يجب أن تحيط بهم بيئة من الرشاقة والجمال بهذه الكلمات :

هل يجب أن نفتصر على الاشراف على السعراء وقسره على أن يصفوا على انماهم طابع الحصال الخلقية الطيبة وجزاء مخالفة ذلك عدم قرض الشعر بيننا ، أو هل يجب أن نبسط اشرافنا على أساتذة كل حرفة أخرى على السواء ونمنعهم من أن يطبعوها بتلك العلامات سيئة النوع من الانحلال والحسة وعدم الأنافة سواء في صور الكائنات الحية أو في الأبنية أو أى عمل آخر من صنع أيديهم . ونمنع منعا كليا أولئك الذين لا يستطيعون القيام بغير هذا ، من العمل في مدينتنا حتى لا تكون تربية أوصيائنا بين صور الرذيلة كما في مراعى غير صحية يقتطفون الكثير كل يوم ، قليلا قليلا ، من أمكنة عديدة ويطعمون منه حتى يجمعوا ، دون أن يشعروا ، كتلة عظيمة من السوء في قرار أرواحهم ؟ ألا يجب علينا ، على النقيض ، أن نلتمس فنائنا من طابع آخر ، أولئك الذين بقوة العبقرية يمكنهم أن يقصوا طبيعة ما هو جميل ورشيق حتى ان شبابنا ، الذين يقطنون كما هي الحال بصقع صحى يتاح لهم أن ينهلوا الطب من كل مكان وبقع أى فيض من الاعمال

(١) ارستطاليس ، الشعراء فصل ٢ وفصل ٦ والسياسة ٨ ، ٥

النبيلة على أعينهم أو آذانهم ، كعاصفة تجلب العافية من المراتع الصحية ودون أن يحسوا ، يظفر بهم منذ نعومة أظفارهم ليكونوا على تشابه وحب وانسجام مع جمال العقل ، الصادق ؟ ^(١) • ولا يستطيع أى فرد أمضى حياته تحت ظلال ثمة كئندراية رائعة أو داخل حيطان كلية من كلياتنا العتيقة أن ينازع هذا الحكم على ما للفنون من تأثير خفى غير مدرك على خليفة وعقل الانسان •

٨ - وأهم الأبنية التى أقامها بركليس على الاكروبول كان معبد أثينا العذراء ، البارثنون • ولم يعرف ضرب فى أى عصر لأعمال النحت التى كانت تزين المعبد ، من صنع فيدياس وزملائه من مهرة الصنّاع • وفى بواكير القرن التاسع عشر جلب لورد الجن معظم ما تبقى منها الى انجلترا وهى الآن فى المتحف البريطانى • لقد صور على الطنف منلثة الشكل مولد الالهة أثينا من رأس زيوس والصراع بين أثينا واله البحر بسيدون على امتلاك تربة اتيك • وعلى ألواح الأفاريز التى كانت بزخرف الشريط الخارجى من الحجر المحيط بالمعبد فوق صف العمود الدورية ، نحتت مشاهد الكفاح فى أسطورة البطولة ، فى المباراة بين سننورس Centaurs ولاپثس Lapiths • وعلى النقيض من المناظر المصورة على المعبد من الخارج ، كان الانريز الذى يربط الحائط الخارجى للناوس cella يحمل رسوما بالنفس البارز الوطنى عن الحياة التى تتصل بالمدينة ، لأثينا المعاصرة ، الركب الدينى فى عيد الجامعة الاثينية ورجالا فى المركبات وعلى متون الخيل والأغنام والماشية تقاد للتضحية وحكام المدينة والموسيقيين والفتيات اللواتى يحملن الرداء المنسوج المقدس ، قربانا لأثينا وهى تجلس بين الهة الاولمب • والشكل الأوسط فى المجموعة ، تمثال أثينا الهائل الذى صنعه فيدياس من الذهب والعاج ، أتى عليه البلى • ولكن الأشكال المصنوعة من المرمر فى متحفنا الوطنى ، تكشف للرجل الانجليزى المعاصر أكثر من أية آثار تذكارية أخرى من العصور الفلنية عن صفات النشاط والاسترواح والمثل الأعلى الرفيع والجمال الرزين ، التى تميز بها الفن فى عصر بركليس ^(٢) •

٩ - وفى مجال الأدب ، فلاثينا القرن الخامس الذكر الباقي لخلق شكلين من التعبير ، جديدين ، الفاجعة (الدراما) فى الشعر والتاريخ فى النثر •

(١) أفلاطون « الجمهورية » ٣ ، ٤٠١ (ترجمة ديفس Davies وفوغن. Vaughan) لاحظ تعرف أفلاطون أهمية ما دون الشعور •

(٢) يجب ألا يغرب عن البال أن خارج المعبد وكذلك الأشكال المنحوتة. كانا ملونين •

تراث العالم القديم

ان الحافز على تمثيل الشخصيات تمثيلا فاجعيا يشترك فيه كل بنى الانسان فى الواقع لانه كما المع أرسططاليس فى « نقد الشعر » تقتصل عادة المحاكاة والبهجة فى انتاجها فى طبيعة البشر^(١) . ولكن توجد هوة واسعة بين ارتجالات الاغريق الاوائل والسلالات الاخرى ، التى تظهر فيها الفلطة وأمثال تلك النماذج العليا التامة من الفن الدرامى كالمأساة والمسلاة فى اثينا فى عهد بركليس . واحصاء وتفسير هذا الكنز الزاخر من الادب الفاجعى يقعان خارج نطاق هذا السفر ويكفى أن نشير الى عدة خصائص مميزة تكون المعرفة بها مطلباً لدراسة الروايات عينها دراسة فطنة^(٢) . والقارىء فى زمننا عندما يراوده التفكير فى الفاجعة ، فانه يعكر فى شكسبير ، بما لا معدى عنه ، ولكن الرواية الاغريقية كانت تختلف اختلافاً بينا فى الجو وفي التركيب جميعاً عن الطراز الشكسبيرى ويرجع بعض الاختلاف ، الى الأحوال التاريخية التى ظهرت فيها الفاجعة الانيكية الى حيز الوجود^(٣) . فعلى سبيل المثال ، كان يؤلف المأساة والمسلاة شعراء مختلفون وكانتا تمثلان فى أعياد مختلفة ، الواحدة تعالج الموضوعات المالية والاخرى تصور طبيعة الانسان فى مستوى أوطى من المستوى العادى وكانت تنير الضحك بالسخرية من نفاص

(١) أرسططاليس « نقد الشعر » ، فصل ٤ ، توضح هذه العجالة كيف أن الاغريق ، فى الشعر كما فى غيره من الميادين ، لم ينتجوا النوايف وحسب ولكنهم كانوا يصلون بالتفكير الى نظرية انتاجها والقسم الموجود بين أيدينا من « نقد الشعر » يعالج فى معظمه المأساة ، وقد فعد الكتاب الساسى الذى يعالج المسلاة . ويشير أرسططاليس (١٤٤٩ ا ١٠) الى أن المأساة والمسلاة كليهما ، ترجعان الى الارتجال .

(٢) عن الآراء فى الترجمات الانجليزية ، راجع فهرس المراجع .

(٣) ان الفارق بين الفاجعة الشكسبيرية والمهينية كان مرجعه أصلاً الى الاحساس بالنظام والقاعدة وهو من خصائص العقل الاغريقى . وقد وضع الفرنسيون ، بعد ذلك ، التقليد فى صوغ قانونى فى مبدأ نوحدهات الفاجعة (توحيد المكان والزمان والعمل ، الثلاثة فوائن للدراما الاتباعية) (الكلاسيكية) - المترجم) وهو ما لم يضعه الاغريق مطلقاً ولم يكن له الا اليسير من الأثر فى هذه البلاد حيث قام شكسبير بعمله ، دونه . « وكان للنوحدهات أثر فى فرنسا لأن الفاجعة الفرنسية كانت قد برهنت على أنها ليست حد فعالة دونها . ولقد وضع شكسبير ، دون أن يسير عليها ، نماذج مسرحية عجيبة من ابتكاره وبلغ بعضها الكمال فى الصوغ والتماثل » . (و . ب . كير W. P. Ker عن « المنزل الأعلى لعالم الآداب القديمة - مواضع ودراسات لأعضاء الجمعية الانجليزية » المجلد السادس) .

البشر (١) . وكانا يختلفان في ظروف أصلهما . فقد قامت المأساة (تراجيديا = tragos = عنزة) من الترانيم التي كان يغنيها جوق يرتدى جلود المعز ، بين الدورين في بلوبونيسيا الشمالية بينما درجت المسلاة في صقلية وكانت نشأتها في المجون الذي لا ضابط له ، لمسمى الولايم الصاخبة (Komos = عصابة من الماجنين) الذين كانوا ينعمشون مواكبهم في فصول الحصاد وجنى الكرم بقذف شخصيات من رفاقهم من أجلاف المهرجين بين الحشد الذي يحلق حولهم . ومما يسترعى الانتباه الخاص ثلاث خصائص أخرى تبرز من خلال تاريخ الفاجعة الاثينية . (١) في « الحوادث » الفاجعية أو الفصول وفي القصائد الغنائية المذهبية التي كانت تفتى في العترات التي تقع خلال التمثيل ، نجد الاتجاهين الأساسيين في الشعر الهليني الباكر ، وهما يتألفان في وحدة أعظم ، الملحمة والقصيدة الغنائية . انه وجود هذا العنصر الأخير بما يصحبه من موسيقى ورفض حتى ان الفنون الثلاثة تكون


(١) انظر أرسططاليس « نقد الشعر » فصل ٢ ، ٢ وبصل ٥ ، ٥ ويجب ان يلاحظ أن أرسططاليس يتجاهل الفاجعة التي تكون واقعية تماما . وفي ختام « ندوه الفلاسفة » لافلاطون (٢٢٣) بصور سقراط وهو يقيم الدليل على أن شاعر المأساة يجب أن يكون أيضا شاعر المسلاة . وفي مقدمة Samsen Agonistes يتحدث ملون عن « خطأ الشاعر في مزج مواد المسلاة بحزن واكتئاب المأساة » . ومن الجهة الأخرى ، يقول شلي في « الدفاع عن الشعر » الذي صنعه ، ان « ما جرت عليه العادة الحديثة من خلط المسلاة بالمأساة ولو أنه عرصة لأن يساء استخدامه اساءة عظيمة من حيث مراعاة » هو دون ريب بوسيع للمجال الفاجعي « واضرب مثلا بالملك لير King Lear وتعريف أرسططاليس ، الشهير ، للمأساة ، في « نقد الشعر » فصل ٦ - ١٤٤٩ ب ، ٢٤ وما بتلوها هو ما يأتي : « المأساة هي محاكاة عمل يتسم بالجد وكذلك بما له من عظم ، يكون كاملا في ذاته : وفي لغة لها أدوات مبسورة التناول ، فان كل صنف يوضع على حدة في أجزاء النوليف ، في صيغة فاجعية وليست قصصية بوفائع نثر الاشفاق والرغبة وبذلك يحقق التطهير catharsis لامال هذه العواطف » (ترجمة بابونر Bywater) وتشير الشطرة النائية الى مزج الأغنية المذهبية بالموسيقى والرقص وكلمة « جد » والاشارة الى الاشفاق ، والرغبة ، هو ما يفرق بين المأساة والمسلاة ولفظ Catharsis ، تعبير طبي معناه « التطهير » . ويناقش بايوتز تفسيرات التعبير المختلفة في تذكرات النص في طبيعته « نقد الشعر » . ان العواطف تطرد كأنها بمطهر عن طريق نفس اثارها في الفاجعة - وعلى حد قول ملتون فان المتفرج « يصرف ، يغمره السلام والعزاء وسكينة العقل وقد زال كل الانفعال » (ختام سطور Samsen Agonistes) .

انتاجا واحدا من الجمال الفني تكون فيه كلمات الأغنية العامل الحاسم ، هو الذى يظهر لنا عند أول تعرفه أنه غير مألوف ^(١) . وكانت الترنيمة المذهبية فى ذلك الحين أو dithyramb - النواة الأصلية للفاجعة . وقد فصل على التدرج عنصر القصص وتحول أولا ، الى شكل فواصل ينطق بها قائد الجوق بين أجزاء الترنيمة ثم الى اشراك مجيب hypocrites أو ممثل يتحدث من مسرح (وهنا نجد بداية الديالوج والتمثيل) ثم الى اضافة ممثل ثان وأخيرا ممثل ثالث . وبهذا تدرج العامل الفاجعى صعودا على حساب عامل الشعر الغنائى الى أن أصبح دور الجوق ، وهو الغالب فى الأصل ، يخضع خضوعا تاما للديالوج والتمثيل ^(٢) . وفى هذا ، وفى اختيار المدار بما يغلب أن يكون عاما ، من قصص البطولة ، نرى تأثير شعير الملحمة . لقد بين أرسطاليس الذى كان شغوبا بتقصى أثر السوابق لما جاء بعد ذلك من أشكال أن « كل أجزاء الملحمة تضمها المأساة ولكن أجزاء المأساة لا توجد كلها فى الملحمة » ^(٣) . وبهذا نمازجت الطرز الأولى من شعر الملحمة والشعر الغنائى ، وكذلك الموسيقى والرقص وانضوت تحت شكل التمثيل الفاجعى فى هذا الخلق المتفوق ، للعبقرية الشعرية الاغريقية ^(٤) .

(١) راجع أفلاطون « الجمهورية » ٣ ، ٣٩٨ لقد سار من الموسيقى وفن الرقص فى تطورهما ، فى اليونان ، تربطهما آصرة وثيقة بالشعر الغنائى الذى كان الغرض منه دائما أن يغنى بمصاحبة الموسيقى والرقص .

(٢) تبين « الفتيات المتوسلات » لأسخولس وربما كانت أقدم فاجعة اغريقية باقية الى الآن ، أن « الجوق » ما يزال له السيادة ، والتجديد الحاسم كان اشراك الممثل الثانى ، وهو يرتبط باسخولس الذى استخدم تالفا بعد ذلك . ولم يكن يوجد اطلاقا أكثر من ثلاثة ممثلين لهم أدوار يدور فيها حديث ، يشركون خلال فاجعة اغريقية ولو أنه قد يظهر ممثل واحد فى أجزاء مختلفة من مشاهد مختلفة . وأقوال الرسل التى تجيء كثيرا فى روايات المأساة الاغريقية تعيد الى الذاكرة الفواصل القصصية ، التى كانت فى عهد أسبق .

(٣) « نقد الشعر » فصول ٥ و٢٦ وازن الفصول ٤ و٢٣ و٢٤ .

(٤) ان التمثيلية كلها كانت شعرا واستخدمت أوزان الشعر الغنائى فى الاغاني المذهبية والوزن iambic القدم الذى يكون فيه النبر على المقطع الثانى ( هو القدم iambic) الذى لا تصحبه موسيقى ،

ويتكون من ستة أقدام (« أعظم الأوزان قابلية للنطق » كما يقول أرسطاليس) فى الديالوج والاحاديث . ويوضح كولريدج Coleridge وزن iambic بالعبارة « الأوزان iambic تسير من القصير الى الطويل » ويقول السيد =

(٢) وكانت الأحوال الخارجية التي أنتجت فيها الروايات لها تأثير على خصائصها . لأبها ، لسبب ، كانت تمثل في الهواء الطلق في مسرح نحت في منحدر الأكروبول على مقربة من معبد ديونوسيوس وكان يشهدها حشد عظيم من المتفرجين ربما يبلغ عددهم زهاء ثلاثين ألفا يجلسون في منحنيات متحدة المركز ، ترتفع فوق الفرقة الموسيقية والمسرح اللذين كان موضعهما في القاعدة^(١) . وقد جعل هذا من الضروري استخدام الوسائل الاصطناعية لمساعدة النظر والسمع ، والأحذية ذات النعال العالية لرفع قامة الممثل والتحشية والأقنعة التي ترمز للدور الذي يمثل ، وقد ركبت فيها أنابيب للتحدث ، لمعاونة الصوت حتى يصل الى أقصى مداه . ولقد عظمت هذه الأدوات ، بالضرورة ، الصفة التقليدية للفاجعة الاغريقية التي كانت تمثل الأنواع في أشخاص الأفراد . ومع هذا فقد نجح واضعو الفاجعة والممثلون الاغريق باتقانهم الصنعة ، في التغلب الى حد كبير ، على هذه الحوائل . ويمكننا أن نستتبع نمو وضع خصائص الفرد ونحن نسير من أسخولس الى سفوكلس ومن سفوكلس الى يوريبيدس . ولكن حتى في آخر تطور لها ، كانت الفاجعة الاغريقية أبسط ، الى حد بعيد ، في مدارها وتكوينها ، من الفاجعة في أوربا الحديثة^(٢) . (٣) وكان شعراء الفاجعة ، كالرياضيين في الألعاب ، يصاول الواحد الآخر ، للظفر بجائزة . وعندما نذكر أن كل متسابق كان يقدم أربع روايات تمثيلية في احتفال واحد وأن المباريات كانت كثيرة وتقع مرارا عديدة ، فيمكننا أن نقدر وفرة الخلق الفاجعي في أثينا القرن الخامس . وليست الروايات التمثيلية الباقية لدينا وهي سبع فاجعات لأسخولس وسبع لسفوكلس وثمانى عشرة ليوريبيدس ، واحدى عشرة مسلاة لأرستوفانس ، الاجزاء يسيرا من مجموع المؤلفات الدرامية التي أنتجها هؤلاء وشعراء غيرهم من ذلك العصر ، كثيرون . وكان لغشيان هذه الاحتفالات المسنم والدربة التي اكتسبت فيها على الحكم بالجوائز ما أتى ، في زمن كانت فيه الكتب نادرة ، بتأثير تعليمي له قيمة خارقة العادة ، على الجمهور

= فرنون رندال Mr. Vernon Rendall « ان المقادير الانجليزية قلما تكون واضحة ، ولكن قد تكون أكثر وضوحا في الكلمات الأجنبية التي أدخلت الى اللغة الانجليزية مثل a rose, a canthus, asphodel, Chrysanthemum (iambic - مكونة من I à m - النبر فيها على المقطع الثاني - المترجم) (١) وعلى هذا كانت التمثيليات منظورة و (بفضل الوسائل التي أشير اليها في النص) كانت مسموعة لحشد عظيم كالذى يجتمع في زمننا لمشاهدة مناظرة تجريبية او مباراة دولية في كرة القدم . (٢) على سبيل المثال ، كان يوجد مجال أقل الى مدى بعيد ، من الفاجعة الحديثة ، للمدار الفرعى .»

الأتيني . ونعلم من توكيد أفلاطون لأهمية مقاييس الانشياء الفاجعى ،
الحقة ، من الوجهة الحلقية على تدريب الأحداث ماكان لتعليم الشعراء من أثر
عميق على عقول المستمعين ^(١) . وكما فى السياسة ، كذلك فى الأدب ،
لابد أن المواطن الأتيني كان فى جميع الأحوال ، حكما صادقا ، لما له قيمة
جمالية ، ان لم يكن المبتكر له .

١٠ - ويشير الشاعر شلى فى عجالة ، سبق لنا أن اقتبسنا منها ،
الى الفاجعة الأتينية قائلا انه « مما لا نزاع فيه أن الفن نفسه لم يفهم قط
أو ينتهج وفق فلسفته الحقيقية ، كما فى أثينا » . وبعد أن وكد الحصلة
العقلية للفن الهليني ، كما سميناها آنفا ، يضيف : « لأن الأتنيين استخدموا
اللغة والتمثيل والموسيقى والتصوير والرقص والمنظمات الدينية لكى
يتشجوا تأثيرا عاما فى تمثيل الملل الأعلى فى ذروته ، للعاطفة والقوة ، وكل
قسم فى الفن وصل به فنانون وانتمهم مهارة فى أبعد حدها ، الى مرتبة
الكمال فى نوعه وفوم فى تناسب جميل ووحدة ، الواحد تجاه الآخر .
وعلى المسرح الحديث ، لا يستخدم الا القليل فقط من العناصر القادرة على
التعبير عن شكل تصور الشاعر ، فى آن واحد . ان لدينا المأساة دون
موسيقى ورقص وموسيقى ورقص دون أعلى تمثيل للشخصيات وهو ما يلىق
أن تصاحبها ، وكلاهما دون دين ووفار . لقد أصبح من المعتاد إبعاد التعليم
الدينى عن المسرح ، فى الواقع » ^(٢) . انه هذا الترابط الوثيق بالعرف
الدينى ، هو الذى تتألف منه أعظم خصائص الفاجعة الأتينية ظهورا . وكان
يحتفل بأعياد « الفاجعة » تكريما لاله الطبيعة ديونوسيوس وقد عقدت
رياستها لكاهن ديونوسيوس على مقربة من معبده بمصاحبة المراسم
الدينية ^(٣) . وفى وسط الأوركسترا orchestra أو حلبة الرقص ،
كان يقوم « حراب الاله » ولقد كان شهودها واجبا من واجبات الفن مفروضا
على كل مواطن صالح . وكجزء لا يتجزأ من عبادة دولة - المدينة ، فان الأعياد
كان يعهد بها ، بصفة مباشرة ، الى الحكام المدنيين . وتقديم الروايات
التمثيلية نفسها الأمثلة العديدة عن الشعور بحب الوطن الذى يجيش فى

(١) أفلاطون ، الجمهورية : ٢ و ٣ .

(٢) شلى « دفاع عن الشعر » .

(٣) ليكن معلوما أن المأساة والمسلاة كليهما تنتهجان فى الأصل الى
ديونوسيوس أى الى دين التاله المتميز عن الدين الأولمبى . وفى القرن الخامس ،
فان أبولو وهو الاله الأولمبى المثالى ، وليس فى خدمته تاله ولكن معرفة
بالذات خالصة - يأتى فى الفاجعة بما يلىق له ويتركز دين سفوكلس حول

أبولو . انظر ولاوتز - مولندورف Wilamowitz-Moellendorff

محاضرة عن أبولو (اكسفورد - مطبعة كلارندن ١٩٠٨) .

نفس الشاعر . وكان مدار الرواية - على الأقل في المأساة - يستمد في المعتاد ، من قصص الآلهة والابطال التقليدية ويمكن أن يستدل على مدى وتنوع هذه المادة من الحقيقة الواقعة وهي أن أكثر من مائتين من مختلف الموضوعات ، على ما هو معروف ، عالجها واضعو الفاجعة في القرن الخامس . وعلى هذا ، كانت الفاجعة الاغريقية تدور حول مواقف متتالية وحوادث كانت - على الرغم من الحرية التي كان يسمح بها للشاعر في معالجة الشخصيات والوقائع المفصلة - مألوفة تماما للمستمعين الذين كانوا يعتقدون أنها وقعت فعلا في أزمنة البطولة ، المواضي . ومن هذا كله ، قام في عقل الجمهور الاثيني ترابط وثيق بين شعر الفاجعة وتعاليم الحقائق الخلقية والصلاح . ويقوم الدليل على أن الأمر كان كذلك حتى في المسلاة من دعوى أرسطوفانس بأن شاعر الفاجعة كان المعلم الخلقى للمواطن البالغ ^(١) . ولكن كان الثلاثة العظام من واضعي المأساة ، أسخولس (٥٢٥ - ٤٥٦) وسفوكليس (٤٩٦ - ٤٠٦) ويوريبيدس (٤٨٠ - ٤٠٦) هم الذين أودعوا في تقاليد الاغريق الدينية معنى روحيا جديدا . وسعى أسخولس في لغة أوحث مرارا بأنها تتماثل مع بصوص جاءت في النبوة العبرية لكي « يبرر طرق الله للناس » وأن يفسر سيادة زيوس القديرة حتى يمكن أن يجعل البر الالهى على نوائق مع حقائق الألم والخطيئة ، وأن يلائم بين فوانين الجبرية والقدرية التي لا ليمان فيها وحرية الارادة البشرية ^(٢) . وفي سفوكليس تمثل المراسيم الالهية بأنها تعمل عن طريق خليفة الانسان ، الوسيط الخفى ، والحيد دون نعقل والعمل الأحق الذى يكون وليد العناية والجهل ، يستنزلان القضاء غير المتوقع على طبيعة هى ، دون هذا ، نبيلة ^(٣) . وكان الشاعر على دين أبولو ، اله

(١) أرسطوفانس « الضفادع » ٢ ، ١٠٠٩ و ١٠٥٥ وازن ٦٨٦ : « انه جد خليف بالجوق المقدس أن يقدم النصيح ويعلم المدينة ما هو صالح » وفى ١٥٠٠ وما بعدها ، حيث يدعو Plutus أسخولس بأن ينقذ دولة - المدينة الاثينية بالنصائح الحسنة . وفى الجوق السابق (١٤٨٢ وما بعدها) يبين فى وضوح النقيض بين حكمته ومهاترة سقراط التي لا طائل تحتها ويدور كل المشهد الختامى (١٤١٨ وما بعدها) حول وظيفة شاعر المأساة فى المحافظة على الدولة .

(٢) راجع على الأخص برومثيوس المقيّد Prometheus Bound وربما كان يظهر الملحق ، برومثيوس الطليق Prometheus Freed زيوس وقد روضه الألم على الشعور الانسانى .

(٣) هكذا كان مصير أوديب Oedipus فى « أوديب ملك » راجع أرسطط « نقد الشعر » فصل ١٣ ومآساتان (تراجيديتان) شبيهتان نجمتا عن الخطأ فى الحكم والنوازع العمياء تكونان موضوع عطيل Othello والملك =

الطهارة والنور ، بكلمة النداء التى تضمنها « اعرف نفسك » ومثله الأعلى لقواعد السلوك السفسرسونية Sôphrosyné وهى نتعارض مع تأكيد الذات وكبرياء الحياة (هبرس Hubris) وفى جد خلقى معادل ، ولو أنه يعبر عن مذهب الشكاك الدينى الذى يتناقض مع التقى المحافظ فى سالفه ، مزق يوريبيدس ، قناع التبجيل الذى كان يخفى أفعال وخصال الآلهة عن التحليل النقدى ، وفى واقعية لا هوادة فيها ، أظهرها للعيان كما كانت فى الواقع . ويخال أنه يقول : انكم تطلبون الحقيقة وها أنا ذا أعطيها لكم ، إذا كانت هذه الأمور ، كما تعتقدون ، حدثت فعلا فإن الآلهة الذين ارتكبوها لم يكونوا صالحين ولكنهم كانوا أشرارا ، وليسوا آلهة مثاليين ولكن قساة ينزوعون الى الانتقام وفيهم شر عواطف النوع الانسانى . لقد كانت صورة مزعجة ، تلك التى رسمها ، تعبر عن المزاج الذى تغير فى عصر عقلى المذهب وكان يوريبيدس كذلك جادا الى غور عميق فى هذا التحليل الذى لا رحمة فيه للعقيدة الصادقة ، ونى عزمته التى لا يعثرها وهن ، لأن يرى الحق ، وأن يواجه حقائق الحياة . وفوق كل شيء فى اشفاقه على الضعيف والمنكوب ، على النساء والأطفال والأسرى والعبيد وعلى جميع الضحايا الذين لا عد لهم ، لجور الانسان والقانون الطبيعى (١) . وكان قد وافى الزمن عندما كانت القوى خارقة الطبيعة لعقيدة اسبق ، تخلى السبيل لقوى الطبيعة ، أمام العقول المفكرة . ولكن بمجرد أن أصبح هذا جليا ، فان مهنة الشاعر ، كمعلم للمعرفة صار مقضيا عليها وتطلع الناس الى العلم ، وليس الى الشعر ، للهداية فى البحث عن الحق .

= لير King Lear وعن دهاء الخليقة ، راجع فلوكتينس Philoctetes وبين مصير دينرا فى طراخنيا Trachiniae ، جيدا كيف أن الأمل والخوف يتحدان فيعيان حكم امرأة ضعيفة ويستغويانها الى موارد الهلك - راجع عليه فصل ٦ ، ١٢ .

(١) توضح هبوليتس Hippolytus هذه النقاط . ومن الناحية الأخرى ، تبين أنه كان فى قدرة يوريبيدس أن يندمج فى روح ديانة ديونوسوس . وكلما كان القرن يتقدم فى مداه ، كانت تؤخذ قصص الآلهة فى حد أقل ، وبينما كان الجمهور الأثينى المثقف يسير وفق عبادات دولة المدينة فانه كان متشككا فى صراحة . ويمكننا أن نتبع فى صدور الأوانى ، فى ذلك الزمن تحول الاهتمام من الموضوعات الدينية الى مسائل الصناعة فى جميع الأشكال وانجازها . وهكذا كانت الحال فى فن عصر النهضة فان الدافع التعبدى يخلى السبيل أمام الدوافع الجمالية الخالصة ، فى معالجة صور العذراء Madonna

١١ - وكانت « المأساة » قد وطدت لنفسها مكانا في أثينا قبل الحروب الفارسية . ولكن كانت تلك الأزمة وما أعقبها من توسع الحياة العامة الأثينية هما اللذان أوجدا الحافز في سبيل تقدمها . ان كل واحد من واضعي « المأساة » ، الثلاثة العظام يمثل أحد العصور الثلاثة التي ينقسم إليها تاريخ أثينا القرن الخامس ، بطبيعة الحال . كان أسخولس فد حارب في مراثون وفي مصنفه « الفرس » وضع في صيغة الفاجعة الانتصار البحري في سلاميس . وفي سموكليس هو التعبير الذي وصل الى مرتبة الكمال لمناسبة عصر بركليس . ويعبر يوريبديدس ، كما لاحظنا ، عن القلق العفلي الذي يسيطر روافه فوق أثينا في سني الحرب البيلوبونيسية . ولكن في المسلة الأتيكية نجد أعظم آصرة مباشرة بين الفاجعة والحياة المدنية الأثينية . وكان أرسطوفانس ، كمعظم شعراء المسلة ، محافظا أضفى المثل الأعلى على الديموقراطية المعتدلة في زمن الحروب الفارسية . ولما كان ذا منحى شخصي وفيه مجانة رابليه Rabelais لدرجة لا يمكن تصورها في أحوال الحياة الحديثة فانه هال التهكم ، في رواياته التمثيلية ، على الاتجاهات الجديدة في الشعر والفلسفة والسياسة ، التي قامت في السلك الأخير من القرن (١) . وفي الفرسان (٤٢٤) كان همدنا لسخريته كليون Cleon السياسي الديموقراطي وفي « الدبابير » (٤٢٢) المحلفون في محاكم القانون الشعبية وفي « العصافير » (٤١٤) أحلام الامبراطورية الجامحة التي أدت الى الكارثة الصقلية وفي « الضفادع » (٤٠٦) فن يوريبديدس الحديث ، وهو الذي يمثل في « المأساة » الثقافة الجديدة وفي « السحج » (٤٢٥) آراء وتعليم سقراط وفي لبسسترا Lysistrata (٤١١) و « السيدات في البرلمان » (٣٩٢) مطالب النساء في أن يسهموا في الحياة العامة للمدينة ، المطالب التي نادى بها الكليون من أتباع سقراط وبعد ذلك أفلاطون في « جمهوريه » (٢) . ان لأغانيه العاطفية التي تتناثر في رواياته التمثيلية جمالا خارق العادة . ومن مظاهر « الكوميديا القديمة » التي أتاحت للشاعر فرصة خاصة للتهكم الشخصي كانت « براباسس Parabasis » وهي بقية من احتفالات القربة الصاخبة ، القديمة ، وفيها كان الجوق يستدير في وسط الرواية التمثيلية ويخاطب الحاضرين بأغنية فيها مساس بأشخاص أو بموضوعات اليوم . ولقد أوقع سقوط أثينا وانتهيار سياستها الديموقراطية ، الضربة القاضية على مثل هذا النقد السياسي

(١) كانت لغلظة « الكوميديا القديمة » مغزى تعبدى ، ومن الضروري أن نتذكر هنا كما في كل مكان في الفاجعة ، علاقتها الوثيقة بالعبادات الدينية .
(٢) راجع « الجمهورية » الفصل الخامس . العنوان الاغريقي لرواية أرسطوفانس التمثيلية هو Ecclesiastousai ومعناه الحرفى « أعضاء الجمعية الشعبية » ، ecclesia من الاناث .

الصريح . والحال مع الشعوب كالحال مع الأفراد في أنهم يستطيعون فقط الاستمتاع بالسخرية طالما كان وعيهم بالأمان باقيا لا يتزعزع . وفي ساعة القوة ، كان الأثينيون يحذون حق كل مواطن في الإفصاح عن دخيلة عقله دون أن تقيده قوانين القذف . وقد عبر عن حرية الكلام هذه التي اختصوا بها ، أصرح تعبير في « الكوميديا القديمة » . ومن الجهة الأخرى فإنه بقيام القرن الرابع ، كفت المسألة عن أن تكون شخصية أو تعنى بالسياسة وكانت « الكوميديا الجديدة » كوميديا أخلاق تصور طرزا من الحياة الاجتماعية في مناهج اتبعها الرومانيان فلاوطس Plautus وطرنس Terence وفي الأزمنة الحديثة مولير Molière وواضعو الفاجعة الانجليز في عصر الإصلاح . وقد شاهد نفس العصر تدهور المأساة . ولكن أعمال واضعي الفاجعة في القرن الخامس تظل مع نحت فيدياس من عداد جلائل الأعمال التي بلغت الذروة التي قامت بها العبقرية الهلينية في مجال الخلق الجمالي . وفي عبارة شاعر معاصر وهو يجيل الفكر في تمثال زيوس الهائل الذي صنعه فيدياس من ذهب وفضة لمعبد ألومبيا وفي المأساة التي صورت فيها أصخولس المارد الجبار الذي وهب الناس النار ولغتون وقد صفده بالأغلال ، « على القوقاز المغطى بالصقيع » ، طغيان الآله ذاته ، التلق .

قضى الآله العظيم المصنوع من ذهب وعاج ، عندما سقط الندى عشية أمس أن رغام الأرض أو زبد المحيط رمز رأسه .
والأرض والمحيط سيكونان ظللا ، عندما يحين حين بروميثيوس (١) .

١٢ - لقد كان موطن أدب النثر الاغريقي ايونيا حيث تطور الى صورتين ، الفلسفة والتاريخ (٢) . وقد سبق أن تحدثنا عن الفلاسفة الايونيين الأوائل . كان اناكسيماندر أول من عرف أنه صنف كتابا . وكان

(١) سوينبرن Swinburne « أثينا » و « الفاجعة » المشار اليها هي بالطبع « بروميثيوس المقيد » . ولا يغيب عن القارىء تأثير نماذج وقوانين الانشاء التي قدمها واضعو الفاجعة الاغريقية وأرستطاليس في « نقد الشعر » على الأدب الفاجعي الأوربي في القرنين السابع عشر والثامن عشر وهو تأثير كانت نتيجته ، من وجوه عدة ، أشكالا صورية مصطنعة . وتوضح « فاجعات » كلدرن Calderon وكورنى Corneille ورأسين Racine وفولتير Voltaire هذا التأثير في مستويات من الجودة متباينات . ويمكن أن يشار في هذه المناسبة الى Samson Agonistes للفتون و Iphigenie لجوته . ولكن « بروميثيوس الطليق » Prometheus Unbound لشلي تمثل روح الفاجعة الاغريقية تمثيلا أبعد من هذا بكثير في قدرته .

(٢) كذلك كان الحديث المنظوم في الفاجعة وكان الوزن Iambic من

أصل ايونى .

أدب اليونان الغربية شعرا حتى شسوط بعيد في القرن الخامس عندما أدت دراسات جورجياس الصقلي الفصاحية الى تطورات هامة في كتابة النثر ولو أن فارميدس وأنبادقليس كانا قد أوضحا فلسفتها نظما . وكان أول مؤرخ نقدي ، هكتايوس Hecataeus من أهل ميليوس وكان له دور بارز في الثورة الايونية ضد الفرس . وتبين كلمات كتابه الافتتاحية ، المحفوظة في جذادة أنه ضرب على نغمة علمية جديدة بالموازنة بتواريخ البلدان ، الاخبارية في جيل أسبق . ويتحدث هكتايوس الميليوسى ، انى اكتب كما ارى أنه صدق لان تقاليد الاغريق تخال لى أنها متعددة ، ومضحكة^(١) . لقد خلق الاغريق التاريخ ، كما خلقوا الفاجعة ، اذ كانوا أول من فهم كنه حقيقتها الجوهريتين ، التفرقة التي لم يدركها قط في وضوح مؤرخو الجوليات الشرقيون بين الواقع والخرافة والحاجة الى تفسير للحقائق المدونة يقوم على الاستدلال العقلي^(٢) . والقول أنهم قدفوا بشخصيتهم فى كتابتهم ودونوا انطباعاتهم واحكامهم هو طريقة أخرى فقط لذكر الدعوى نفسها . لقد كان التاريخ العبرى لا ينسب الى اسم بعينه ، انه كان تنساج جماعة . وحتى الأنبياء يضعون التمهيد لرسالتهم ليس بالعبارة « هكذا يقول أشعيا » بن عاموس « ولكن « هكذا يقول الرب » . لقد كان المؤرخ الاغريقى كالفيلسوف الاغريقى يتكلم كل منهما باسمه الخاص . هذا هو عرض لبحث هيرودوتس الهلقرناسسى Halicarnassus و « كتب ثقيوديدس الاثينى عن حرب البلبونيزيين والاثينيين » . ولقد فعلوا ذلك عن صواب لان التاريخ والفلسفة على السواء ، يعبران عن نقد المفكر الفرد نقدا تأمليا لحقائق الحياة . ولقد وصل البنا مؤلفان تاريخيان عظيمان من القرن الخامس وكلاهما يرتبط ارتباطا وثيقا بأثينا فى عصر بركليس . ان هيرودوتس اتخذ موطنه هناك أعواما

(١) مرى Murray - « الأدب الاغريقى القديم » .

(٢) وعلى هذا فان الساميين ، على الرغم من كل احساسهم بالمغزى الدينى للحوادث التاريخية ، لم يتركوا تاريخا جديرا بهذا الاسم . والأسفار التاريخية فى العهد القديم ، على سبيل المثال ، ليست الا مجرد تاريخ اخبارى ، التعبير عن حكم جماعى وليس فرديا . وكان الاغريق أول من أقاموا الحكم على الماضى بالاستدلال العقلى . وكان مدلول كلمة historiê فى الأصل واسع النطاق - كان معناها « البحث » وكانت تنسحب على جميع البحوث فى مسائل الواقع ، والتاريخ الطبيعى والجغرافيا وعلم الانسان (انثروبولوجى) وكذلك التاريخ السياسى . ولقد نبئنا أن مؤرخا إغريقيا من القرن الرابع (افورس Ephorus) وجه اللوم فى صراحة لادخال الأسطورة (mythos) فى التاريخ

قبل أن يلحق بمستعمرة بركليس في ثوري Thuri في إيطاليا الجنوبية ، وكان تقوديدس أثيني المولد وتشيع في حياته بتقاليد سياسة بركليس العظيمة . وكان هيرودوتس رحالة نافذ البصيرة وزار مصر وفينيقيا وبابل وسواحل الأكسين وكذلك كل أرجاء العالم الهليني ونزعت المتحمسة للاستطلاع والرغبة في فهم ما يسمعه ويراه « الأعمال العجيبة التي قام بها الاغريق والهجم وخاصة لتذكر الأسباب التي لأجلها شن هؤلاء الحرب ، الواحد على الآخر » مما يجعله على الراجح أعظم من توفرت فيه الخصائص الاغريقية من بين جميع الكتاب الاغريق ^(١) . وفي السياسة الهلينية تجيش فيه عواطف قوية نحو أثينا والحكومة الديمقراطية . انه مرارا وتكرارا يظهر المساواة في القوانين وحرية القول ضد دعاوى الطغيان ^(٢) . وفي منهاج العقل ، له صفات النوع لجبل كان يتأرجح على خط الحد بين التصديق والتشكك . انه يوشك على الدوام أن ينبئنا بأن تقاليد شعبه الدينية حكايات عجائز ولكنه لا يستطيع قط أن يوطن نفسه تماما على أن يقول ذلك . وهو يرى الى ما وراء كل الطبيعة وتاريخ البشر ، يد اله خفي « اله يشكل مصائرنا ، وينحتها في أول صورة ، لما سنكون » . ولقد ظفر ، بعدالة ، باسم « أبى التاريخ » ليس لمجرد أن تاريخه هو أول تاريخ موجود يفرق بين الحق والحرافة ويسعى الى معرفة أسباب الأمور التي تحدث ولكن أيضا لأنه سعى أولا الى أن ينظم قصته لغرض واحد وهو أن يستعرض قيام فارس والقصاص الذي لحق بها لحطيتها hubris ، باستخدام اليونان أداة لذلك ^(٣) . وكان موضوع

(١) ولد هيرودوتس في حوالى عام ٤٨٤ في هلقرناسس في آسيا الصغرى الجنوبية الغربية وزار أثينا حوالى عام ٤٥٠ واستقر في ثوري عام ٤٤٣ وكان قاريا Carian في تبعته ، ايونيا في ثقافته وأثينيا في عواطفه وآخر اشارة في كتابه (٧ فصل ٢٣٣) هي الى الحوادث التي وقعت في العامين ٤٣١ - ٤٣٠ في بداية الحرب البلوبونيزية والعبارة المقتبسة جاءت في الجملة الافتتاحية من الكتاب الأول .

(٢) انظر الفصل § ٤ ٥ تذكرة ا عليه ووازن بالنصوص التي اشير اليها فيه ، ٥ ، ٧٨ و ٩٢ وما بعدها (عن الطغيان في كورنث كتوضيح لمساوئه) وعن وطنية أثينا الديمقراطية ٧ ، ١٣٨ وما بعدها و ٨ ، ١٤٣ وما بعدها .

(٣) عن خطيئة خشيارشاي راجع ٧ ، ٧ وما بعدها وعن غيرة العناية الربانية وعدم ثبات رخاء البشر ١ ، ٥ ، ٣٠ وما بعدها . والأسفار ١ - ٥ . فصل بالتاريخ حتى الثورة الايونية والسفر ٦ حتى انتصار مراثون بينما تسرد الأسفار ٧ ، ٩ قصة غزو خشيارشاي . كان في نية هيرودوتس أن يكتب تاريخ حرب التحرير (راجع ٧ ، ٢١٣) ولكنه ترك عمله دون أن

ثقوديدس أكثر تركزا ونظرته للأمر أعظم مراعاة للنهج العلمي ، وكان هدفه تدوين الحرب البلبونيزية حتى سقوط أثينا عام ٤٠٤ (١) . وبينما يسرد هيروdotس قصة الخطيئة الفارسية hubris بكل ما لدى فنيان أدب من سماحة واستفاضة مزهوا في بهاء الظفر الرائع ، فان ثقوديدس سجل قصة أثينا في وقار صارم كثيب تدفعه الرغبة الوحيدة في كشف الغطاء عن الحق في واقعه المرير . وبين المؤلفين ، حدث ليس فقط سقوط أثينا ولكن عصر الاستنارة . وفي اللغة وأكثر من ذلك في الفكر ، ينتمي ثقوديدس الى صفوف السفسطائيين . ولما كان يكتب كسياسي لتعليم السياسيين ، فانه يحلل في دقة أسباب ونتائج الظواهر الخلقية والسياسية (٢) . ولقد أشرنا الى قصته عن الحملة الصقلية التي دونها في شدة فاجعية لا مثيل لها في الأدب التاريخي لأن ثقوديدس كان يعتقد كما كان يعتقد يوربيدس أن منهاج الحياة البشرية لا تقرر عوامل خارقة للطبيعة ولكن يقرره القانون الطبيعي . وهو يبدي ضيق تشكك تام في قبول الدعوى بوجود دافع لعمل الانسان لا غرض من وراءه وله كل ايمان رجل ينتهج المذهب العقلي ، بالعقل كمفتاح يكشف أسرار خلائق الرجال ومسلكتهم . وأخيرا في الأحاديث التي يزخر بها مؤلفه ، يمكننا أن نتتبع تأثير فن الفصاحة الجديد الذي كان موطنه صقلية

يتمه . ولقد أدمج ثقوديدس خلاصة السنوات ٤٧٨ - ٤٣٢ في السفر : ١ ، ٨٩ - ١١٧ من تاريخه .

(١) لقد كان ثقوديدس منفيًا عن أثينا لمدة عشرين عاما نتيجة لفشله كقائد للأسطول لانقاذ أمفيبولس Amphipolis في سنة ٤٢٣ . ولم يكن صديقا للديموقراطيين الذين جاؤا بعد بركليس (مثل كليون Cleon) وكان من أعوان المذهب التحرر المعتدل البركليسي . ولقد عاش بعد سقوط أثينا (٤ ، ١٠٤ - ٧ و ٥ ، ٢٦) ولكن سار بتاريخه فقط حتى عام ٤١١ . وقد استمر اكسنوفن Xenophon في كتابه Hellenica وهو عمل أقل مرتبة من عمل ثقوديدس ، في القصة من هذه المرحلة حتى موقعة منطينيا Mantinea (٣٦٢) .

(٢) راجع على الأخص ، العبارة الافتتاحية (١ : ١ - ٢٢) - قصة الطاعون في أثينا وأثرها الخلق (٢ : ٤٧ - ٥٤) الدراسة التحليلية للثورات السياسية (٣ : ٨٢ - ٤) عرض القصص الأثينية والطفيان الامبراطوري (١ : ٧٤ - ٨ و ٣٧ : ٦ و ٨٣ وما بعدها وفوق كل هذا الديالوج الميلي ٥ : ٨٤ وما بعدها) والمقابلة بين الخليفة والسياسة الأثينيتين والاسباطيتين (١ : ٧٠ ، ٢ : ٣٥ - ٤٦) وكذلك Cornford Thucydides Mythistoricus

ولكن سرعان ما وجد جوا صالحا في أثينا (١) . وفي الربع الأخير من القرن الخامس ، بدأ يكون له أثر حاسم على النثر الاتيكي . واتخذت الخطابة في المحاكم والسياسة مكانا معترفا به ، كصورة لفن أدبي . وفي القرن الرابع ، لا نجد المستوى العالي للخطابة الاغريقية في خطب ديمسثينس فقط ، ولكن في ديالوجات افلاطون الفلسفية ، العمل الجليل الذي وصل الى أعظم كمال في النثر الذي عرفته اليونان والعالم على الاطلاق ، فيما هو راجع .

٣ - السفسطانيون وسقراط

١٣ - لاحظنا أن تاريخ ثقوديدس ، وتراجيديات يوريبيدس ، وكوميديات أرسطوفانس على السواء ، في مختلف طرائقها تحمل طابع الحركات التفكيرية الجديدة ، التي كانت تموج في العصر البركليسي ، وكانت نزعة الفكر المتزايدة تتجه نحو مسائل النظرية الخلقية والسلوك . وكان بعض هذا يرجع الى شعور بالاصطدام بالواقع فيما يتصل بالبحوث الطبيعية في الحقبة السابقة ، وكانت خطوط التفكير المتنوعة قد أنجزت حتى تمامها وأصبح يواجه الناس تيه من النتائج المتضاربة التي يبدو ان التوفيق بينها كان مستحيلا . ولقد قنطوا من الوصول الى اليقين في مثل هذه المسائل ، وتحولوا الى السعي نحو معرفة لها اتصال مباشر أعظم ، بالحياة العملية . وكذلك غدا للعلم الطبيعي نواحي تخصص أكثر ، وكان المتخصصون يميلون الى استنكار اقتحام الفيلسوف للأمكنة التي هي حرم لهم . وعلى أية حال فإن المشكل الخلقى كان ينادى بأعلى صوت لمعالجته وفقا لمناهج البحث العقلية . ولقد رأينا في الفصل الأخير ، كيف أن نقدا للمقاييس والمنظمات الخلقية ،

(١) عن خطب ثقوديدس راجع «الكلمة الافتتاحية» من وصفه (١ ، ٢٢) وعجالة جب Jebb في Hellencia . والخطبة الجنائزية التي اقتبس من عاليه (§ ٥) تكاد لا تكون شيئا غير ، تقرير دقيق لعبارات وحجج بركليسي وربما أقيمت على مسمع من ثقوديدس نفسه .

ومما يسترعى النظر عند قراءة أعمال المؤرخين الاغريق (والرومان) قريبا الوثيق للشعر وخاصة الشعر الفاجعي في الصيغة والفحوى والغرض . ولقد كانوا يفهمون التاريخ على أنه شيء جد مختلف عما يذهب اليه تصورنا في القرن العشرين . انه كان فنا وليس علما ولم يكن يدرس قط ، كما تدرس العلوم ، في الجامعات . فضلا عن هذا ، فإنه كان يكتب لنقوية رجال الأعمال . ويبدى كونطليان Quintilian ملاحظا (Inst. Orat. ١٠ ، ١) §§ (٣١ ، ٣٤) : « ان التاريخ يأتلف ائتلافا وثيقا بالشعر ويمكن أن يشبه بقصيدة منشورة وغرضه هو السرد وليس اقامة البرهان وقيمتها الرئيسية هي في تقديم أمثلة لتعليمنا » .

كان النتيجة المنطقية للجهد الذى يبذل للعثور على جوهر دائم يقع فيما وراء تغيرات الطبيعة المادية . ولقد عمل على تنمية الاهتمام ، الذى استيقظ حديثا ، بالمسائل التى تتصل بقواعد السلوك ، الأحوال الخاصة للحياة العامة فى أثينا الديمقراطية ، والطموح العام لمقياس أعلى ، فى الدين والأخلاق الذى جهد الشعراء ، على تحقيق بغيته . وكان العهد من عام ٤٥٠ وما بعده عهد خصب خارق للعادة ، فى النقد وفى الانشاء على السواء ، فى الفكر السياسى والذى يتصل بقواعد السلوك ، وقد مهد هذا كله الى ثورة قوية الاثر فى حياة الاغريق العقلية ، وعن طريق الاغريق فى الحياة البشرية . ولأول مرة فى التاريخ ، سلط نور العقل الصائى على مسألة سلوك الانسان . ولقد كان عصر استنارة كالعصر الذى أطلقت عليه مثل هذه التسمية ، فى أوروبا القرن الثامن عشر ، حيث كان فيه فولتير قطب الرحى . وكما أن الاستنارة الحديثة أدت الى فلسفة « كانت » الانشائية العظيمة ، فكذلك مهد العصر الأسبق الطريق لفلسفة أفلاطون . ويمكن أن يعتبر قول فروطغراس : « الانسان مقياس كل الأشياء » دليل ذلك العصر (١) . وقد قام اعتقاد واسع النطاق فى العالم الهلنى مؤداه أنه فى المهن الخاصة وفى الفنون ، على السواء ، وفى فن العيش على وجه عام ، لا سبيل للنجاح بغير اعداد من المعرفة يقوم على الاستدلال العقلى ، وأن الفضيلة (areté) لا تعتمد على القدرة الطبيعية أو على هبات الثراء وحسب ، كما كان يتوهم الناس على وجه عام ، ولكن على عدة من النظريات المكتسبة . وقد قامت الحاجة الى نوع جديد من التعليم تأهب له وقام على تنشئته لفيف من المعلمين النابهين وقد جعل أساتذة الثقافة الجديدة معرفتهم تأخذ وجهتها نحو المران على الحرب والموسيقى والزراعة وكذلك التدريب الأكثر تخصصا على الفروسية وفن المسرح والطبخ . وقد وضعوا كتباً للتعليم أطلق عليها technai (فنون)

(١) وقد شرع فروطغراس من أبدا فى طراقية ، الذى ولد حوالى عام ٥٠٠ وتوفى حوالى عام ٤٣٠ ، لمستعمرة بركليس فى ثورى . وقد طلب الى أحسن عقول فى اليونان القيام بهذا العمل . ولقد وضع تخطيط المدينة هبودامس من هليطس ، أعظم مهندس معمارى وكان هيرودوتس ، كما ذكرنا آنفا أحد سكان المستعمرة . ومعنى قول فروطغراس ، الذى اقتبس فى النص ، أن حكم أى فرد كان المعيار لما كان مرغوبا فيه أن يفعل أو لا يفعل فى أى موقف عملى . وبعد ذلك طبق المبدأ آخرون لدعم نظرية عن نسبية المعرفة ، أى ، أن أى شيء يدركه الانسان ادراكا حسيا يكون صادقا لديه عندما يدركه . وأن هذا هو الصديق الواحد الذى يمكن الوصول إليه . راجع ثياططس لافلاطون (Plato's Theaetetus) عن هذا التطور ، ونقدا له على أنه القول الفصل ، كإى شيء فى الفلسفة يكون كذلك .

عن طائفة عظيمة من مثل هذه الموضوعات ، وعلاوة على هذا كله ، فانهم كانوا يعلمون الفصاحة ، فن مخاطبة الجماهير الذي كان لا غنى عنه للاستقراطي الذي كان يجد نفسه على الدوام مهددا باتهامات أمام المحاكم الشعبية وللشباب الطامع الى مراتب الشرف السياسى فى محكمة القانون وفى الجمعية . ولقد أثر نهوض الفصاحة لا على خاصية الحياة العامة الاغريقية فحسب ، ولكن على تطور الأدب الاغريقى عن طريق الفنيين القريبين له ، النحو والأسلوب ولكن أهميتها الكبرى كانت فيما قدمته من تدريب على السلوك العام ، فى الحياة العامة والخاصة . عندما سأل سقراط فروطغراس ، فى ديالوج أفلاطون الذى يحمل اسمه ، ما الفوائد التى سيحصل عليها تلميذه الحدث ، أجاب بأنه سيعلمه أن يتكلم وبذلك يجعله يوما بعد يوم مواطنا أفضل وأكثر قدرة على الاضطلاع بالشئون سواء أكانت شئون دولة - المدينة أم شئون بيته الخاصة (١) .

وفى الواقع استهل واضعو الفصاحة عهدا جديدا فى البحث الخلقى ، ان الالفاظ رموزا لأفكار ، ودراسة التعبير عن الأفكار الخلقية يترتب عليه تحليل الأفكار نفسها .

١٤ - وكان يطلق على القائمين بالتعليم الجديد السفسطائيين Sophists وكان معنى اللفظ ببساطة أساتذة الحكمة (Sophia) ولم يكن بعد قد اتسم بالدلالة التى كان مصدرها أفلاطون ، بأن الحكمة التى جهرها بها كانت خدعة (٢) . ولقد قدموا من جميع أصقاع العالم الهلينى ، وكانوا يرتحلون

(١) أفلاطون ، فروط : ٣١٨ - ١٩ وازن ٣٢٨ و « الجمهورية » ٦٠٠ ، ويجب دراسة الديالوج بأجمعه على أنه مثال لتعليم السفسطائيين . ولقد قال اسقراطس فى القرن التالى ان السفسطائيين كانوا يدعون أن أولئك الذين يأخذون العلم عنهم « سيعرفون ماذا يجب أن يفعل وعن طريق هذه المعرفة يحققون السعادة » .

(٢) ان ما يوحى به التعبير مبدئيا هو التعليم المهنى ، ولو أنه يطلق أيضا فى معنى أوسع على أى رجل حكيم ، كان يكون شاعرا . ان هيردوتس يدعو صولون سفسطائيا . ولقد كان السفسطائيون كثيرا ما يأخذون أجرا عن تعليمهم ، وقيل أن فروطغراس سمح لتلاميذه فى نهاية الفترة الدراسية ان فروطغراس كان أول من سمى نفسه سفسطائيا . ولقد كان أفلاطون بأن يدفع كل منهم ما يعتبره موازيا لتعليمه . ويقول أفلاطون (فروطغ ٣١٧) يفرق بين الفيلسوف الصادق والسفسطائى تفريقا دقيقا مطبقا نقيضته المحبوبة « حقيقى » و « ظاهر » راجع غرغ . Gorg. : ٤٦٣ ووازن سف Soph. ٢٢١ « الذى يتمرس بفن من فنون الخديعة ، الذى دون معرفة

من مدينة الى مدينة ويلقون المحاضرات والتعليم غير الرسمي في جميع فروع المعرفة (١) .

وقد ادعى هيبياس (Hippias) وهو أحد جماعة السفسطائيين الذين قدموا الى الفروطغراس ، بأنه أستاذ كل فن ، وعلاوة على ما قدمه من بحوث ذات قيمة حقيقية في علمي الرياضة والفلك فإنه كان يعلم علم التقويم وعلم اثار الذاكرة (mnemonics) وعلم الأصوات ودراسة الايقاع ونظرية النحت والتصوير والموسيقى والمهن الصناعية . وقد جاء في قصة أنه ظهر في الألعاب الاولمبية وهو يرتدى ملابس ، كلها من صنعه .

وقد كان أيضا عالم أخلاق وشاعرا وخدم دولته الوطنية كسفير ، ومن الخطأ الظن بأن علم السفسطائيين كان سطحيا لأنه في تلك الأزمنة ، كان من الأيسر أن يكون المرء عارفا بعلوم وفنون عديدة عما هي عليه الحال الآن - حيث تتطلب المقادير العظيمة من المواد ، التخصص .

ووراء عداء أفلاطون للطراز ، يمكننا أن نتبين احترامه الصادق للمفكرين العظام من أمثال غريغياس وفروطغراس ، ولقد قال الأخير : « ان الثقافة لا تزدهر في الروح الا اذا سبى المرء أغوارها » ولم يكن السفسطائيون شيعة تلتزم مبدأ منتظما ، وانا اذا التمسنا نظيرا في العصر الحديث ، قاننا نجده في الصحفيين في زمننا أو فيما كان للكتاب أمثال هكسلي Huxley ورسكن Ruskin وماثيو أرنولد Matthew Arnold من تأثير على الرأي العام الفطن في النصف الأخير من القرن التاسع عشر (٢) . وكان في مقدور

حقيقية بما هو خير يمكنه أن يضفى على نفسه مظهر تلك المعرفة . وهكذا قال أرسططاليس في « الفصاحة » Rhet : ١ و ١ و ٤ « مدع يداجي بالمعرفة مستخدما ما يعلم أنه باطل بغرض الخديعة والكسب المالى » ولقد كان جورج غروت George Grote (تاريخ اليونان : ٨ فصل ٦٧) هو الذى أنقذ صيت السفسطائيين من الوصمة التى ورثوها من أفلاطون وأرسططاليس . وفى هذا ، سبقه الى حد ما ، هجل .

(١) مثل غريغياس ، من ليونطينى فى صقلية ، وهبياس من الس Elis وفردقس Prodicus من الجزيرة الابيجية قاوس Ceos واثراسومخس Thrasymachus (راجع « جمهورية » أفلاطون : ١) من خلقدون Chalcedon

(٢) أو ، مرة أخرى ، هربرت سبنسر . ومن بين الكتاب المحدثين « يمكن موازنة مستر برنارد شو وهـ جـ . ولس بالسفسطائيين الاغريق . ويمكن أن نجعل الفكر أيضا فى التوسع السريع فى جامعاتنا فى تطبيق تراث العالم القديم

أفلاطون أن يحقر السفسطائي وينعته بأنه « مصدر بالجملة لبضائع روحية صنعها آخرون » ، وفي أحوال معينة كان للزراية ، دون ريب ما يبررها . ولكن كان بينهم عدد ليس بالقليل جمعوا في أشخاصهم مواهب الوسيط العقلي ومواهب المفكر المبتكر .

١٥ - وكانت المناقشات التي تتصل بعلم الأخلاق ، التي أثارها تعليم السفسطائيين تتركز حول لفظي طبيعة (physis) وعرف (nomos) (١) . وقد اختلف أفراد السفسطائيين اختلافا بعيد المدى في النتائج التي وصلوا إليها ، فكان بعضهم مثل هيباس يذهب الى أن أساس الواجب الخلقى هو قانون الطبيعة غير المكتوب ، الأبدى والالهي ، في حين يعتقد غيرهم مثل ثراسومخس Thrasymachus أن الحق للقوة بموجب قانون الطبيعة أو ، مرة أخرى ، أن العدالة الاجتماعية كانت تصالحا مصطنعا فرضه على القوى الضعيف ، في الدفاع عن النفس . وأنكر غيرهم أيضا مثل فروطغراس ، وجود أى مبدأ طبيعي لا يتغير وكانوا يعلمون أن قواعد العرف في المدينة يجب أن يقبلها ويراعها المواطن (٢) . وتهمي هذه المناقشات في نغمتها شبيها يلفت النظر بتلك التي جرت في استنارة أواخر القرن الثامن عشر والتي تضمنتها كتابات روسو Rousseau وتوم بين Tom Paine ووليم جودون William Godwin .

وفي مقدمة إعلان الاستقلال الأمريكى وفي بيانات الثورة الفرنسية وفيما أثاره في زمننا ، المنادون بدعوى الانسان الأعلى (السوبرمان)

النظريات على الأعمال ، فى الزراعة والهندسة والتجارة والعلوم الاجتماعية وبخاصة أعمال الرعاية والخدمة الاجتماعية . ومن شأن التعليم فى زمننا أن يعمل لأجل الكثرة ما كان السفسطائيون يدعون عمله نحو القلة .

(١) Nomos = « العرف » وكذلك « القانون » أى ما يكون من وضع الإرادة البشرية ويمكن أن يشرع أو يلغى ويختلف باختلاف الزمان والمكان . وكثيرا ما يستخدم فى معنى « القانون والعادة » كما جاء فى نص لأرسططاليس (علم السلوك - ٥ فصل ٢ § ١) بأن ما لا يأمر به nomos فانه يمتنع . (٢) عن آراء هيباس راجع اكسنوفن Mem. : ٤ ، ٤ وازن انطيفون ، كسفوكلس ٤٤٩ - ٥٧ عن مبدأ مماثل . وعن ثراسومخس ، راجع أفلاطون « الجمهورية ١ » ووازن خطاب غلوقن Glaucon فى مستهل الكتاب الثانى . ويجى حكم أفلاطون النهائى عن التناظر التاريخى بين nomos, physis « فى » القوانين ٨٨٩ .

والدولة العليا ضد قيود التقديرات (١) الخلقية التقليدية ، وانها لتمثل عبقرية الاغريق ، في ادراك المشاكل الجوهرية والدائمة في سلوك الانسان ، ولقد افاضوا البحث في موضوع الطبيعة والعرف ذاته ، في متنوع تطبيقاته ، على أصل المجتمع واللغة ومركز المرأة والرقيق الاجتماعى ، واقامة نظام الملكية الخاصة وصحة التقاليد الدينية (٢) .

وكان نتاج المناظرة استخلاص تصور أكثر صدقا ، عن الطبيعة وللطبعي على أنها يعينان ، ليس حالة بدائية وهمية تتجرد عن كل اكتسابات اجتماعية ، ولكن بالحرى الادراك التام لطبيعة الانسان الاجتماعية ، وكان هدف أفلاطون في « الجمهورية » - الكشف عن هذا المثل الأعلى لشخصية انسانية ، اكتملت لها خصائصها ، وبهذا يشفى الانقسام الجافى بين نفع أو صالح الفرد وذلك النى يكون للمجتمع .

وسنعود فيما بعد الى حله للمشكل ، وهو الذى جعلته بحوث السفسطائيين الكنفدية ميسورا . ولو أن تعليمهم كان ينحو منحى التشكك ، وبهذا اثار الحصومة المبررة فى المحافظين أمثال أرسطوفانس ، فقد ثبت مع هذا أن نتائجه كانت فى جوهرها انشائية ، وكان من الضرورى التحليل التام للمعتقدات التقليدية ، اذا كانت القيم الخلقية ليعاد صوغها على مبادئ عقلية ، وقد اتى نقد السفسطائيين النفاذ بالشار على مذهبى أفلاطون وأرستطاليس ، التفكيرين .

(١) كان الانسان الأعلى superman موضوعا شائعا فى اليونان فى النصف الاخير من القرن الخامس . وكان يمثل البطل هرقلس Heracles راجع تمثيلية أريغيدس « هرقلس المجنون » . وعن الدولة العليا راجع الديالوج الميلى Mellian dialogue فى ثقوديدس .

(٢) عن أصل المجتمع - راجع أفلاطون - فروطغراس صفحة ٣٢٠ وما بعدها والجمهورية : ٢ (خطاب غلوقة) . أما عن الرق فانظر التذكرة الاضافية عن هذا الفصل . ويجب الا يغيب عن الذاكرة أنه بينما كانت الثقافة الاغريقية تقوم ، دون ريب ، على أساس الرق فان الاغريق كانوا أول شعوب شك فى مبرراته . وعن الشيوعية راجع أفلاطون : الجمهورية - ٤ ، ٤١٦ - ١٧ و ٥ . وينتقد أرستطاليس - السياسة : ٢ هذه الآراء وخطط فلياس الخلقدونى Phaleas of Chalcedon لوضع تعادل بين الملكية الحقيقية وامتلاك الدولة للعبيد ، وما يترتب عليه من رقابة الدولة على الصناعة وعن مركز النساء ، راجع أول التذكرات الاضافية فى هذا الفصل .

١٦ - وأبعد المفكرين شهرة ، فى ذلك العصر ، دون منازع كان سقراط الأثينى (٤٦٩ - ٣٩٩) أعظم معلم بشرى عاش على الإطلاق (١) . وبين فيض العبقريّة التي ازدانت بها أثينا فى النصف الأخير من القرن الخامس كانت شخصيته فريدة ولها تأثير فى الروح ، الى أقصى حد . كان مظهره الغريب وأساريه - الشكل البدن والرأس الصلعاء ، والأنف المفرطح والشفتان المكتظتان والعينان الجاحظتان - يذكر أفلاطون بصورة اله الغاب سيلنوس Silenus وكان يسير فى خيلاء وهو حافى القدمين مهلهل الشياب ، خلال شوارع أثينا « كابن الماء » كما يقول أرسطوفانس ، وكانت عاداته وسمته يبعثان الانزعاج فى نحو غريب ، عندما كان يفاجئ جماعة من السفسطائيين أو الصاخبين فى وليمة ، أو نبلاء أحداث فى حلبة المصارعة ، أو وهو واقف فى تجهّم وصمت مددا من الزمن فى طريق المرور أو فى المدخل ذى العمى وقد استولت عليه غيبوبة تألهية (٢) . والهاتف الداخلى أيضا - (الشئ الالهى) "daimoneon" كما كان يدعو - الذى كان يقدم اليه النصيح فى صوت مسموع ليتجنب الخطر فى اللحظات الحاسمة فى حياته وينهاه على سبيل المثال ، من ولوج السياسة ، كان مما يتفرد به عن غيره من معلمى زمانه (٣) . ولقد كان يعيش فى فقر نسبي ويحقر أن يستولى على أجر عن القيام بما كان يعتبره رسالة الهية ، وكان يقف فى معزل عن السبيل المعترف بها للوصول الى الميزات المدنية ، الا فى فرصتين حدثتا فى ختام حياته عندما أجبر على أن يكون فى الطليعة فى السياسة ، وأظهر الاستقلال

(١) إن أهم المصادر للمعرفة بسقراط هي مذكرات اكسنوفن Xenophon's Memorabilia والسحب "Clouds" لأرسطوفانس وديالوجات أفلاطون . وما ذكر فى النص يرجع أصلا الى المصدر الأخير . وليس من الميسور فى هذا المؤلف مناقشة الاحتمالات التى تحدو الى رفض اعتبار سقراط أفلاطون ، أسطورة فاجعية . وللقارىء أن يرجع الى كتابات الأستاذين بورنت Burnet وتايلور Taylor (اللذين أثرت آراؤهما على ما أورد هنا) على أن يذكر أن ما وصلا اليه من نتائج ليس ، بأية حال موضع قبول عام . ومع هذا فإن المؤلف مقتنع أنه اذا لم يقبل أفلاطون على أنه المصدر الأساسى عن سقراط ، فمن المستحيل تقديم تفسير مفهوم لفلسفة أفلاطون أو تأثير سقراط أو « تهكم » أرسطوفانس . راجع بورنت من ثاليس الى أفلاطون Thales to Plato وتايلور «متنوعات سقراطية Socratica Varia» ومقدمة طبعة بورنت لكتاب أفلاطون Phaedo

(٢) أفلاطون "Symposium" - ندوة الفلاسفة ٢١٥ - ٢٢ وعن الغيبوبة Sym. : ١٧٤ - ٥ قابل أرسطو : الغيوم ١٥٠ .

(٣) عن daimonion راجع Apol. : ٣١ ، ٤٠ و Rep. : ٦ .

الذى كان ديدنه فى مقاومة وصاية الديمقراطية ووصاية الطغيان ، على السواء ^(١) . ومن الوجهة الأخرى ، فإنه خدم فى مناسبات عديدة فى بسالة ظاهرة فى الميدان ، وكانت شجاعته الشخصية مضرب الأمثال فى جميع أرجاء اليونان ^(٢) . ولم يكن سقراط معزولا ، ولم يكن فى طبعه شئ من الصرامة التى تكون فى الأرستقراطية العقلية أو زهد المتطهرين .

وكأخـر — كان يأتى طاعما شاربيا ، وكانت رقة حاشيته صفة تميز بها كضبط النفس الذى أثار إعجاب وحسد معاصريه . وكان سر تأثيره فى قوة شخصيته وفى سحر حديثه . وفى هذا ، كما كان أيضا فى مظهره العجيب ومسلكه ، ورعاية اهتمامه الانسانى وميله الشديد للجدل وحبه للمدينة التى لم يغادر حيطانها قط الا عند الاحتجاج — «انى أتعشق المعرفة، والناس الذين يقطنون بالمدينة هم معلمى ، وليس الاشجار أو الريف» ^(٣) . — فإنه يورد الى ذاكرتنا أحيانا دكتور جونسون ، ولم يترك أية كلمة مكتوبة ، ولكنه عاش مدى سبعين عاما تحت بصر الجمهور ، ينفق أيامه فى محادثات مع أقرانه من كل صنف وحالة ، الأغنياء ، والفقراء ورجال السياسة وقواد الجيش والشعراء والمفكرين والوضعاء من رجال الحرف والنسوة الدنيويات ، محادثات يصفها أفلاطون بأنها مضحكة عند أول سماعها . وحديثه يدور حول الحمالين والحدادين ورائقى الأحذية ، وهو أبدا يكرر نفس الأشياء فى نفس الألفاظ حتى ان أى جاهل أو أى شخص غمر لم تصقله التجارب قد يحس ميلا الى الضحك منه . ولكنها ألفاظ هى فى صميمها الألفاظ الوحيدة التى تحمل معنى فى مطاوها والتى هى الهية الى أعظم حد ، وتزخر بالجميل من صور الفضيلة ومفهومها أعظم ما يكون رحابة ، أو بالجرى تنسحب على واجب الرجل الخير الكريم ، بأجمعه ^(٤) .

١٧ — وعندما يلخص أرسسطاليس ما أضافه سقراط لتاريخ الفكر فى عبارة « الاستقراء والتعاريف العامة » فإننا نتعرض الى هزة من الرجوع للواقع وذهاب الوهم ^(٥) . ان عمل حياته لابد أنه كان يعنى أكثر من ذلك . ان أرسسطاليس بالطبع معنى بخدمة سقراط للمنهج الفلسفى وكل باحث يعلم كيف ان اصلاح المنهج يعلن مقدما عن كل تقدم حاسم فى تاريخ العلم . وفضلا

(١) كانت المناسبتان فى ٤٠٦ و ٤٠٣ راجع أفلاطون . Apol. : ٣٢ .

(٢) راجع Symp. فى النص المذكور .

(٣) أفلاطون : Phaedr. ، ٢٣٠ .

(٤) على فم القبيادس ، يمتدح سقراط Sym. ٢٢١ - ٢ .

(٥) Met: ١ ، ٦ و ٨ ، ٤ .

عن هذا - فان استقراء سقراط كان يتضمن الاعتراف بطبائع الأشياء ، الحقيقية التى تشتمل عليها مظاهرها المحسوسة ، بينما «التعريف» فى اعتباره كما فى اعتبار أرسططاليس لم يكن مجرد ألفاظ ، ولكن التعبير الدقيق عن جوهر الأشياء المعروفة . وفى حديثه ، كما تعلم من « الفيوم » ومن نص عن تاريخ حياته فى « فيدو » لأفلاطون كان سقراط باحثا شغوفاً فى المذاهب الطبيعية التى اكتسحت وقتذاك الميدان . ولكنها عجزت عن ارضائه لأنها كانت تتحدث فقط عن « كيفية » الأشياء وكانت رغبته تجنح الى معرفة « أسبابها » ، وخرج من نفس الباب الذى دخل منه ^(١) . والفيتاغوريون وحدهم ، الذين هدتهم البحوث الرياضية الى التفكير فى حقيقة فطنة تقع الى الخلف من رأى الظواهر المحسوسة ، كان يظهر أنهم يبينون الطريق الذى يؤدى الى هدف مسعاه ، المعرفة التى يدعمها الاستدلال العقلى بالخير المثالى . ولقد كان سقراط مفكراً يسير على النهج العلمى ومتألفاً دينياً فى الوقت عينه . وكان ايمانه بالعقل لا تطفأ غلته - انه كان ابن اليونان الصادق فى اعتقاده أنه فقط بالكدح العقلى تستطيع روح الانسان أن تصل الى رؤية الحق الكامل ، ولهذا كان تقويم الفلسفة فى نفس الوقت ، انجاز دعوة دينية . وقد حفظت القصة التى تحكى كيف أنه وهو بين الثلاثين والأربعين عاماً من عمره أعلن مهبط الوحى فى دلفى أن سقراط أحكم الناس ، وعلى ذلك استدعى الى الرسالة التى خصص لها بقية حياته ^(٢) . وقد سأل نفسه كيف يتأتى ذلك بما أن الله وحده هو الحكيم وهو ، سقراط ، لا يعلم من الحكمة شيئاً . ولدينا هنا التفسير لتصور سقراط لأروس Eros أو الحب ، وليد الوفرة والحاجة الذى كان يتلاعب حوله فى أحاديثه مرة فى مزاح ومرة فى جد عميق - الفكرة أن الانسان خليفة عالمين ، ويتوسط الطريق بين الجهل والمعرفة وخلاصه يكون فى التعطش بعاطفة عنيفة للحكمة "Philosophia" ذلك التعطش الذى يقود الروح صعوداً من حب مسائل الحس الزائلة ، الى حدس جمال عقلى ، نوره وحده هو مصدر النعمة والحق لحلم الحياة القلق ^(٣) . وقد صدق سقراط مهبط الوحى بقوله : « انه ولو لم يؤت من العلم شيئاً آخر ، فانه يعلم أمراً واحداً - جهله هو ، بينما كان غيره يظنون أنهم حكماء وهم ليسوا على شئ من ذلك . وهذا هو « تهكم » سقراط (irony) منهج

(١) راجع Phaedo : ٩٦ وما يليها . فى مطلع شبابه ، قابل سقراط فارمنيدس وزينون وكذلك فروطغوراس : أفلاطون : Parm. : ١٣٠ : ١٣٥ و Protag. : ٣٦١ .
(٢) Apol. : ٢١ وما يليها .
(٣) شلى «ترنيمة للجمال العقلى» . Hymn to Intellectual Beauty .
راجع Symp. : ٢١٠ وما يليها .

سقراط في المناقشة بادعاء الجهل (الذى كان ينير مثل ذلك الدهش والضجر في سائليه ^(١) . كيف كان يستطيع أن ينقذ أرواحهم بالكشف عن معرفة هو لا يزال يبحث عنها - الا باقناعهم بجهلهم هم ، وبذلك يوقظ فيهم الرغبة فى أن يعرفوا ؟ وهذه كانت فى الحق الرسالة التى تهيا لها فى ولاء لا تترتب كلاله ، أن يأتى بالفحص على موازين الرجال فى السلوك والغايات التى يحبونها ويعيشون لأجلها ويختبرها بمنطق صارم مبدد ، الى أن ينزاح عن السامع طمأنينته ويقر أنه أصبح مثلولاً ولا حول له . . . ولقد قال سقراط « ان حياة لم تفحص لا تستحق العيش » ^(٢) .

وقد شبه نفسه بنعرة أرسلها الله ليلسع حصانا كريما هو الشعب (demos) الأثينى ليخرجه من عموة الخمول ، ومرة أخرى يشبه نفسه بقلبة روحية تأتى بمولد أفكار صادقة فى أرواح الناس ^(٣) . وعلى هذا يمكن أن نتخيله وهو يسأل انجليزيا معاصرا - ماذا كان يعنى على وجه التدقيق بمثل هذه التعبيرات ، الشرف "honour" الرجل المهذب "gentleman" أو مسيحي "Christian" ولماذا حدا به الطموح لدخول البرلمان « ولماذا أرسل ابنه الى الجامعة أو الى مدرسة عامة .

وكان سقراط يعمل دون هوادة ليكشف غموض آراء الناس فى مثل هذه المسائل وأنهم لم يقطعوا بالتفكير فيها نهاية الشوط أو يواجهوا بديلا لها ، وفوق كل شئ أن نظراتهم ومراسمهم العملى لم يكونا الا انعكاسا باهتا لرأى يمثل المستوى العام لما يراه العالم المحيط بهم . وهذا يعتبر الموضوع ذا الاهمية القصوى الدرة غالية الثمن ، الخير الأعظم وغاية الحياة .

وعلى هذا ، اتخذ تعليم سقراط ، صورة سلبية تكذب مغزاها الحقيقى . وتخلى عن لقب معلم لأنه كان يعلم أن الحكمة المنقذة يجب أن يظفر بها كل انسان لنفسه ، وأن مهمته الخاصة تكون فقط فى أن ينتزع حجاب الجهل الذى يخفى الناس عن أنفسهم . والمعرفة بالذات وهى شعار معبد دلفى ، كانت الشئ الوحيد الذى يحتاج اليه فى الحياة وقوام الفضيلة .

وكان يقول ان الرذيلة هى الجهل ، أو اذا اقتبسنا ما يظهر أنه طرفا نقيض

(١) Symp. : ٢١٦ - Eiron = ماكر (بورنت الذى يقابلها

باللفظ الاسكتلندى "Canny" . كان يوجد الكثير من الحس المشترك فى سقراط ويستخلص من تهكم رفضه اطلاق « معلم » عليه . Apol. : ٣٣ .

(٢) Apol. : ٣٨ .

(٣) Apol. : ٣٠ ، ٣١ ، Theact. ، ١٥٠ ، ٣٥١ راجع أيضا Meno

٧٩ ، ٨٠ لما كان من تأثير على سامعيه .

«لا يخطئ» أحد بارادته الحرة» (١) . وكان يعلم أن الرخاء دون معرفة بالذات كان مصدر نصف التعاسة والشر في حياة البشر ، وكان يعلم أيضا ، وأفرط في علمه ، كيف أن الناس ، يغتفرون أى شيء إلا اظهار جهلهم لهم وكيف يفتنون ممتا مريرا تحطيم شعورهم بالرضى عن ذواتهم ، ذلك الرضا الذى قبروا فيه أرواحهم . وقد أنبأ قضاته « لم أكن غير عليم بالعداوة التى أثرتها ونالنى الأسى والخوف من ذلك ولكن الضرورة وضعت على - ورأيت أن كلمة الله يجب أن يكون لها الاعتبار الأول » (٢) . - والقاعدة الرئيسية التى وضعها لآخوانه المواطنين بأنه يجب عليهم « أن يراعوا أرواحهم » ، كانت تحمل دلالة ، تميز عصرا ليس فى الفلسفة الاغريقية وحسب ، ولكن فى الفكر البشرى بأجمعه عن الروح ، وكانت الروح (Psyché) تعنى للاغريقى العادى فى القرن الخامس ما كانت تعنيه لهومر ، وكما سبق أن رأينا (٣) ، للعبريين كذلك ، بأنها أصل الحياة الذى يغادر الجسم عند الموت ويسير الى العالم السفلى حيث يعيش كشبح لا حياة فيه ، فى حالة دونوعى . ان أمر الناس بمراعاة مثل هذه الروح ، كان استخدام الفاظ لا معنى لها . ومن الجهة الأخرى ، فإن المعلمين الأرفيين والفيثاغوريين ميزوا فى تحديد واضح الروح بأنها الهية ، وعلى ذلك خالدة ، عن الجسد الذى احتبست فيه عقابا لحطية ما قبل الميلاد ، وهى فى غفوة الا فى أحلام التنبؤ وكانوا يعلمون طريقا للخلاص ، بالتطهير من الحاجة الى العود للجسد . ومثل هذه الطريقة للتطهير يمكن على اليقين أن توصف بأنها «مراعاة الروح» . ولكن سقراط كان يعلم شيئا آخر يختلف عن أى من هذين الرايين . لقد رأى فى هوية الروح شخصيتنا الواعية ، الذات التى تقلك القدرة على النشاط العقلى - التفكيرى والعملى كليهما - الذى اذا ما روعى فى عناية فإنه يجد تعبيرا له فى المعرفة العلمية وفى الطبع الخلقى على السواء . وكان هذا مبدأ ثوريا وجديدا على الاطلاق ، ويمكننا أن نفهم فى يسر ما كان له من مغزى لسقراط والعداوة التى أثارها فى جماعة سامعيه الذين فزعوا لما كان ينطوى عليه من معان ، وأخرجهم عن طمأنينتهم (٤) .

(١) المعرفة بالذات : Phaedr: ٢٢٩ و Mem., Xem. : ٤ ، ٢ ، ٢٤ وما يليها . الخير هو المعرفة Laches : ١٩٤ و Protag. : ٣٤٥ و Apol. : ٢٥ راجع Mem, Xem. ٣ ، ٩ ، ٤ و Ethics, Arist : ٣ ، ٧ ، ٣١ ، ب ١١٤٥

(٢) Apol. : ٢١ ى .

(٣) راجع ما سبق فصل ٣ § ١٥ تذكرة ١ .

(٤) راجع بورنت عن مبدأ سقراط عن الروح (Proc. Brit. Acad., 1915-6) أعيد طبعه فى « مقالات وخطب » ، Essays and Addresses London 1929, pp. 126-62.

١٨ - وجاءت النهاية عام ٣٩٩ عندما وصل سقراط الى سن السبعين ، وقد وجد أنه أذنب في تهمتين - عدم التقى وافساد الشباب وحكم عليه بالموت - والعجيب حقاً هو أنه تأجل زمناً استطال بهذا المقدار وكان الأثينيون كغيرهم من الشعوب الأخرى يحدوهم ميل للاشتباه في أولى العقل ولم يظهر سقراط قط أنه يضرر للديموقراطية ودا . وكان يعتقد أن الحكومة السياسية ، كأي ناحية أخرى من نواحي العمل ، يجب أن تكون في أيدي أولئك الذين يعلمون . وفوق هذا كله ، وهنا قوة الاتهام - عد من بين المقربين الى سقراط رجلاً يحملان من بين الكافة ، المقت الذي نجم عن سقوط أثينا حاكم القلة اقريطاس وهو أحد الطغاة الثلاثين الذين أقامهم الاسبرطيون لتولى زمام الحكم بعد استيلائهم على المدينة والسيادس الذي أدى به مطعمه الجامع أولاً الى الخوض على الحملة المشؤومة الى صقلية ، وبعد ذلك الى ما قدمه من نصيح لأعداء أثينا عن السياسة التي كان فيها دمارها . ولم يكن هذا ، في نظر الديمقراطيين الذين أعيدوا للحكم الا ثمرة التعليم الجديدي فعادوا باللائمة على سقراط باعتباره المصدر الحقيقي لما أصابهم من محن . على أية حال كانت عداوتهم سياسية وليست دينية ، لأن سقراط كان يحرص أدق الحرص على المحافظة على عبادات المدينة . وكما حدث ، فانه كان قريباً من الحكم ببراءته . لو أنه رضى بالانسحاب الى النفي ، أو لو أن دفاعه لم يتخذ صورة تبرير رسالته تبريراً لا يقبل مساومة ويغلب أن يكون فيه زراية ، لكان قد انقذ حياته دون ريب . ولكن طبيعة سقراط لم تكن لتهمي، أي سبيل لفكرة المساومة على التصالح . لقد أقامه الله حارساً ويجب أن يكون أميناً على حراسته . وقد دفع عنه ما عرض عليه من فرار من السجن ، اذ عده عملاً ينطوي على عدم ولاء لقوانين أثينا التي في كنفها ولد ونشأ ، كما ولد ونشأ والداه ، ومات يتجرع السم ^(١) ، شهيداً في سبيل العقل وحب الحق ^(١) . وهو برفضه أن ينكر ما كان يعتبره

(١) hemlock - شوكران - صرو - درست (فارسية) Conium masculatum l. (المترجم) .

(٢) راجع Apology و Crito و Phaedo لأفلاطون ولغايدو الذي خص بها رفاق سقراط الفيثاغوريين ، أهمية خاصة (١) في أنها توضح تأثير الأفكار الأورفية والفيثاغورية على سقراط وأفلاطون ، عن الروح والفلسفة على أنها نهج في الحياة والصور (أو الأفكار) على أنها موضوعات المعرفة الحقة ، (ب) للتمهيد الذي يعالج السيرة حيث يسرد سقراط تاريخه العقلي المبكر ، (ج) للشهد الختامى الذي يصف موت سقراط وربما كانت أعظم نص في الأدب المنشور بأجمعه . ويذكر هجل (فلسفة التاريخ ٢٨١) أنه ولو أن سقراط أدى واجبه في ولاء نحو دولة المدينة ، فان عالم الفكر ، وليس أثينا ، هو الذي كان موطنه الحقيقي .

رسالة الهية ، ولو لجرد انقاذ حياته وفي رفضه أن يرتكب ضرا ضد سلطة القانون ، بتجنب العقوبة التي أوقعتها المحاكم فإن سقراط يقدم أعلى مثال للمعارض الذي يهتدى بضميره .

٤ - أفلاطون

من بين رفاق سقراط الاحداث ، كان أفلاطون (٤٢٧ - ٣٤٧) وهو ثرى أثينى من أسرة كريمة خصص أعوام نفيه الاختيارى التي أعقبت الحكم بإعدام استناذه لتلك الكتابات التي حفظت ذكرى عقل سقراط وشخصيته أحسن حفظ . ويقع خارج نطاقنا أن نتتبع أثر ينبوع الفكر ، الذهبي الذي يفيض خلال الدialogات الأفلاطونية (١) . ان هذه نماذج عليا بلغت الغاية في الاستدلال العقلى الذى يسير على النهج العلمى ، وفى الفن الفاجعى ، على السواء . ويمكننا أن نقدر تمام التقدير كيف أن أفلاطون ، فى صدر شبابه اجتذب الى كتابة الشعر . ولم تفسح الصورة الدialogية المجال فقط أمام خيال الفنان ولكنها كانت تعكس - بطبيعة الحال - الحركة الحية لمحادثات سقراط وتصور أفلاطون الخاص للمنهج الفلسفى على أنه المحاولة الصاعدة للأرواح

(١) لقد وصلت إلينا جميع كتابات أفلاطون . ولا يمكن أن تذكر هنا الأسباب التى حدثت الى تحديد ترتيبها التاريخى لدرجة عظيمة من الاحتمال . ويمكن أن تذكر النتائج كالآتى لارشاد القارئ فى أول تعرف بأفلاطون . والترتيب بين كل حقبة أكثر مدعاة للشك .

الحقبة الأولى - (بين ٣٩٩ وحوالى ٣٨٧) :

Crito, Apology, Euthyphro Euthydemus, Cratylus, Lysis, Laches, Charmides, Meno, Gorgias, Protagoras,

(والثلاثة الأخيرة كانت فى ختام الحقبة) .

الحقبة الثانية - (حوالى ٣٨٧ الى حوالى ٣٧٥) :

Phaedo, Symposium: (مبكرا) و Phaedrus, Republic

الحقبة الثالثة - (حوالى ٣٦٧ الى حوالى ٣٦٠) :

Politicus Sophist (أو السياسى) , Parmenides, Theaetetus,

الحقبة الرابعة - (حوالى ٣٦٠ الى ٣٤٧) :

Critias, Timaeus, Philebus Laws.

و « الجمهورية » هى نقطة التحول عندما بدأ فكر أفلاطون ، الذى كان دائما لا يننى يتحرك ، فى الانتقال الى ما يوالى خطوط فلسفة سقراط ، وفى الدialogات الأخيرة ، لا يكون سقراط (الا فى فليبس Philebus) بعد ، المتحدث الرئيسى . وعن الموضوع برمته راجع بورنت Thales to Plato وتذكرة ١٦٩ . ورسائل أفلاطون اما أنها أصلية واما أنها على أية حال وثائق معاصرة عظيمة القيمة .

المتقاربة ، بمصاولة العقل للعقل فى السعى وراء الحق المطلق (١) . ومن بين هذه الكتابات تقدم « الجمهورية » التى وضعها بعد عودته الى أثينا ، وعندما بلغ نضج عبقريته مداه ، أفضل مدخل الى دراسة فلسفة أفلاطون (٢) . ولقد أوجزت أعظم إيجاز فى مدى جميع الديالوجات وتستهل بالسؤال ماهى العدالة ؟ وهى تضع صورة للمجتمع المثالى ولتقدم الروح صوب الحكمة الفلسفية وتختتم بصورة للحياة فيما إلى القبر ، ويعالج مسائل علم الأخلاق والسياسة وعلم النفس والتعليم والأدب والفن والدين والعلم فى وحدة حية كموامل فى مسألة الكون الموحدة ، مفكر كان موضع فخاره الذى يزهو به أن يكون « المتفرج على الزمن كله وعلى الوجود كله » (٣) . ولكن جاء الإلهام لأفلاطون ليس فقط بدافع الفلسفة ليعرف الحق ، ولكن أيضا عن عاطفة منحمسة للإصلاح العملى . ومنذ حدائته عندما كان يتطلع الى ولوج الحياة العامة فى أثينا وطنه حتى رحلته الأخيرة ، فى شيخوخته الى صقلية التى كانت على غير طائل ، كانت تستبد به رغبة مستعرة لكى يخلص أرواح الناس وأن يفهم ، على قدر ما كانت تسمح به الأحوال الدنيوية « مدينة الله » على التربة الهلينية وعنده ، كما كان عند أستاذه سقراط ، كانت الفلسفة أبدا « نهجا فى الحياة » وكان قد تعلم من سقراط أيضا أن الخير كان المعرفة وأن الأساس الوحيد الوطيد للسلوك العملى كان الإدراك الذى يقوم على الاستدلال العقلى ، لمبدأ الخير . وعلى هذا فإن المسألتين ، التفكيرية والعلمية أوجدتا لأفلاطون حلها المشترك فى الفلسفة ، فى معرفة يجب أن تكشف حقيقة العالم الداخلية ، كخير مالى وتكون الهدف لعمل الفرد والمجتمع . ما كنه هذه المعرفة ، وكيف يستطيع الإنسان الوصول إليها ؟ هذه هى الاسئلة الأصلية فى فلسفة أفلاطون .

٢٠ - ولم يخامر أفلاطون ريب قط فى أن المعرفة يجب أن تكون معرفة ما هو كائن وموضوعها يجب أن يكون له وجود حقيقى . وعنده أن الحقيقة

(١) ان تعبير أفلاطون عن الفلسفة ، كعلم وكنهج على السواء هو dialectic وهو مستمد من الفعل dialegesthai (= يتحدث) ويرتبط بلفظ « ديالوج » . ويقول أفلاطون ان الروح ، حتى عندما يكون الإنسان مشغولا فى تفكير منعزل ، تنساجى نفسها فى ديالوج (Theaet., 189, Soph., 263) . وكان أفلاطون نفسه يفضل التعليم الشفوى على العبارة المكتوبة راجع - Phaedr. : ٢٧٥ وما يليها .

(٢) ربما أكملت الجمهورية فى الوقت الذى كان فيه أفلاطون مشغولا بتأسيس الأكاديمية بين حوالى ٣٨٧ وحوالى ٣٧٨ . وكان حينئذ بين الأربعين والخمسين من عمره .

(٣) "Rep." الجمهورية : ٦ - ٤٨٦ .

لا يجب أن تكون قابلة للمعرفة وحسب ، ولكن المعرفة يمكن فقط أن تكون بما هو حقيقي . إذن أين يوجد الموجود الحقيقي ؟ اعتقد هرقليطس أن كل ما يوجد في عالم الحس هو في تغير لا ينقطع يصير أبدا إلى وجود وينقطع عن أن يكون موجودا ، ولا يظل ثابتا في وجود . وطبق أتباع فروطغراس هذا المبدأ ليبينوا كيف أن كل مظهر عابر ، على الأقل في مجال الحس ، كان حقيقيا بالنسبة للفرد القادر على الإدراك الحسي في لحظة إدراكه الحسي ، ولقد جردت هذه الآراء الحقيقة من كل معناها ولم يستطع أفلاطون أن يظل قانعا بها وعلى ذلك ، سيق مثل سقراط قبله إلى أن يلتمس الموجود في مكان آخر غير عالم الحس . وبين التأمل في تفكيرنا الواقعي أنه يشمل مواضيع من نوع جد مختلف عن معطيات - الحس لأن هذه يمكن معرفتها فقط بمعاونة التصورات العامة التي تدرك ليس بالحواس ولكن بالفكر . وهذا جلي على الأخص في أحكام علم الرياضة وتلك التي تعبر عن القيم الخلقية والجمالية . ولا توجد خطوط أو دوائر تدرك بالحس ، تتعادل تعادلا تاما وإطلاق « خير » على عمل و « جميلة » على صورة يتضمن ميزانا واحدا من الخير أو الجمال ، وتكون الحالات الفردية بالنسبة له تقريبا ناقصا (١) . وعلى هذا انتهى أفلاطون إلى الاعتقاد بعالم يمكن أن يدرك بالتفكير فقط حيث تكون فيه الصور أو الأفكار في « وجود » لا يتغير كحقائق مادية ، وهي الأنواع الأولى في درجة الكمال « يسهم فيها » أو « يحاكيها » نماذجها العديدة المتغيرة ، في عالم الحس . وهذه الصور وحدها كانت « واضح » المعرفة « العلمية » وأمثلتها المعينة ، في عالم الحس ، من الجهة الأخرى ، كانت مواضيع « الظن » المعرض للخطأ والتقلب ومصدر الخطأ التفكيرى والخذعة الخلقية . وذلك الذي يفكر ويعيش في عبودية لجسده وأشياء الحواس فإنه على الرغم من بصيرته النفاذة في الظروف الخاصة التي تحيط به يشبه شخصا يسير وسط أطياف حلم في نومه ، والفيلسوف بعين عقله وقد حددها في الحقائق التي يمكن أن تدرك بالتفكير فقط ، هو دون سواء الذي له رؤيا يقظة (٢) . ولقد نادى أفلاطون ببدا عالمين وربما لأول مرة في تاريخ الفكر الغربي ، ينسب الوجود الحقيقي للجواهر غير المادية . وبالإضافة إلى هذا ، فإن الصور ليست ذرات روحية

-
- (١) راجع Phaedo التي توضح كيف وصل أفلاطون (سقراط ؟) إلى مبدأ الصور (أو الأفكار) بدراسة الأحكام الرياضية والخلقية والجمالية .
 (٢) راجع الجمهورية : ٥ ، ٤٧١ وما يليها ٦ و ٧ . من المحتمل جدا أن مبدأ الصور (ويستخدم أفلاطون اللفظين Eidos (صورة) و Idea فكر - واللفظ الأخير غامض في الإنجليزية) ، قال به سقراط وأنه استمد من التفكير الفيثاغوري . وقد وضع أفلاطون النظرية ، كما قدمت في Phaedo و « الجمهورية » ، موضع النقد والتعديل الأساسى في الدialogات الأخيرة (وخاصة Parmenides) .

منعزلة ولكنها تكون اقتصادا أو نظاما يمكن ادراكه بالتفكير فقط ومهمة الفيلسوف الأساسية هي في تقصيه . وفي أسنى مكانة في هذا النظام التدرجى الذى يقع فوق ما يدرك بالحس ، تملو صورة الخير ، أصل القدرة على المعرفة وعلى الوجود ، على السواء في جميع الصور الأخرى وهو في ذاته « يسمى فوق المعرفة والوجود » (١) . وفي « الجمهورية » يعبر أفلاطون عن ضيقه في أن يفسر تفسيراً مباشراً « موضوع المعرفة الأعلى » هذا ولا يأتى بتكملة النقص في أى مكان في كتابته ، وفي الواقع فإنه يذكر بإيضاح في خطاب « لا توجد كتابة لى عن الموضوع ولن توجد أبداً . لا توجد القدرة على التعبير عنه كغيره من فروع الدراسة ولكن نتيجة للتواصل الطويل وحياة عامة أنفقت فيه ، فإن نورا يشتعل كشرارة تقفز وعندما تصل الى الروح تجد تغذية لنفسها » (٢) . ومع هذا فإننا نعلم أن الخير كان يكون المرمى لكل مسعى أفلاطون العقلى وأنه كان يلقي محاضرات عن الموضوع في الأكاديمية حتى ختام حياته (٣) . لقد أعطى وحدة ومذهباً للعالم الذى يمكن أن يدرك بالتفكير فقط ، وجاء بالانسجام على الصور فى غرض عام واحد وله مكان السيادة .

وكما فى عالم الحس تكون الشمس مصدر النور والحياة لكل المخلوقات فهكذا الحال فى عالم الفكر ، تستمد الصور قدرتها العقلية ووجودها من صورة الخير (٤) . كان هذا مجمل جواب أفلاطون على السؤالين : ما هى المعرفة؟ وما هو الوجود؟ وهما اللذان يكونان عبء الميتافيزيقيا (ماوراء الطبيعة) فى جميع العصور وحله عرضة لاساءة التفسير وفى ثلاثة اتجاهات: (١) ان الصور ولو أنها تدرك بالذهن عن طريق التصورات العامة ، ليست معنويات فكرية ولكنها جواهر توجد مستقلة عن ذهن أى مفكر ، فى عالم روحى موضوعى (٥) . (٢) وصورة الخير لا يربط أفلاطون هويتها بالله . ان الله ليس صورة ولكنه روح نشيط حتى . المصدر - المتحرك بذاته - لحركة السموات وكما يسرد أفلاطون فى لغة شبه أسطورية فى « طمايوس » ، فإنه خالق الكون الذى يدرك بالحس (أى الكون المحسوس)، نقلا عن نماذج الصور ووفقا لقانون

(١) الجمهورية ٦ ، ٥٠٩ هذا التعبير كان النص الذى استمدت منه ، بعد ذلك ، الأفلاطونية الحديثة فكرة الواحد ، الذات الأعلى = الخير وهو أعلى عضو فى ثالث فلوطينس Plotinus الروحى (راجع المجلد الثانى فصل ٩ § ١٢) (٢) Epp. : ٧ - ٣٤١ (ترجمة بورنت) .

(٣) لقد نشر ارستطاليس تذكراته على محاضرات أفلاطون عن الخير ولكن هذه لسوء الحظ لم يحتفظ بها .

(٤) « الجمهورية » : ٦ ، ٥٠٤ وما يليها .

(٥) فى Parmenides : ١٣٢ ، رفض فى ايجاز الرأى الذى يقول ان الصور هى تصورات فى العقل .

رياضي . ان المبادئ، القائلة ان الله هو بذاته الخير الاعظم وان الصور هي أفكاره الأبدية ووجودها كائن في العقل الالهي ، لم تكن مبادئ أفلاطون ولكن تعديلات لنظرية أفلاطون أوحمت ، بطبيعة الحال بذاتها للأفلاطونية الحديثة ولمفكرى العصور الوسطى ^(١) . وأخيرا (٣) يجب ألا يذهب الظن الى أنه بابتكار المعرفة العلمية لأشياء الحس ، فقد نبذها أفلاطون على أنها خدعة أو لا قيمة لها . ليس لأن عالم الحس لا حقيقة له ، ولكن لأن حقيقته الجزئية يمكن أن يراها فقط الذهن الذى يدرك اعتمادها على الصور - هو ما يدعو أفلاطون الى أن يصر على أن الصور هي ذاتها موضوعات الدراسة العلمية الحقة . وفي الواقع تصور أفلاطون عالم الحس بأن الله صاعه فى الفراغ من أشكال هندسية وهي نظرية لا تبعد كثيرا عن ارجاع ديكارت للنسج المادى الى حدود امتداد له شكل . ولقد كان أفلاطون باحثا متميكا فى العلوم الرياضية التى كان يعتقد أنها المدخل المناسب للفلسفة . وتوجد أسطورة تقول انه كتب على بوابات الاكاديمية هذه الكلمات « لا تدع أى شخص لا يلم بالهندسة يدخل هنا » . وفى رأيه ، كانت الرياضيات تهيء التفسير للطبيعة المادية ونظريته التى جاءت بعد ذلك، عن الصور، كانت على ما يرجح كثيرا مبداء من مبادئ النسب الرياضية ، قريبا من مبداء علم الطبيعة الحديث ، إلا أنه فى اعتبار أفلاطون ، يتطلب التفسير الرياضى أساسا له - وهو أبعد من أن يعزل الشرح عن حدود الغرض - صورة الخير الذاتية ^(٢) .

٢١ - وفى طبيعة الانسان ، يظهر التمييز بين النظام الذى يمكن ادراكه بالتفكير فقط ، والمحسوس ، كالتمييز بين الروح والجسد والروح psyche

(١) وهب الله العالم المحسوس روح - عالم حتى يمكنه، الى أبعد حد ممكن، أن يشبه خيره هو . ولقد كان لهذا التصور تأثير على التفكير اللاحق . وكان فيلو Philo (القرن الأول الميلادى) اليهودى المتأهلا ، فى الاسكندرية أول من عالج الصور على أنها أفكار الله . ويذهب بورنت «ثاليس الى أفلاطون» الفصل ١٧ الى أن أفلاطون كان أول فيلسوف يضع الألوهية على أساس علمى .

(٢) عن العلوم الرياضية راجع الجمهورية : ٧ ، ٥٣٢ وما يليها . وكانت فلسفة أفلاطون ، كفلسفة سقراط ، فى جميع مناحيها ، تنتهج بحث العلة الغائية ، ويرجع الموجود أو الحقيقة لكل جزء فى الطبيعة الى وظيفته أى فى علاقته بغاية أو خير . ويكون أحسن فكرة لصورة الخير كفاية عليا ، وحدة ، تجمع كل الغايات الفردية والجزئية فى وحدة ذات مذهب . وكل قوانين الموجود لأجزاء العالم الخاصة يمكن الاستدلال عليها من هذه الغاية العليا الوحيدة . ان مبداء أفلاطون يبعد بعدا عظيما عن مبداء الحتمية الميكانيكية ، وإنما يجد قانونا وهو يجده فى كل مكان ، فانه يجد العقل والخير .

عند أفلاطون ، كما كانت عند أرسططاليس بعده هي أصل الحياة والحركة وعلى هذا ، فأينما توجد الحياة والحركة ، توجد روح والروح الانسانية وهي أبعد من أن تكون التعبير الوحيد أو الرئيسى للروح ، ليست الا صورة واحدة من مظاهرها . والفلسفة الاغريقية تتناقض تناقضا تاما مع النزعة الحديثة فى اعتبار الذهن الانسانى الواقعة المحورية للتجربة . وبجانب الروح البشرية وما دون الروح البشرية ، يوجد فى كون أفلاطون روح الله وروح العالم والارواح الالهية التى تحرك النجوم . وفى شدة اعتقاد عنيفة ، كان أفلاطون يؤمن بأن الارواح خالدة خلودا ملازما ، وبرهانه القاطع الذى ذكر فى فيدرس ومرة أخرى فى آخر ديالوج له « القوانين » يقيم الدليل من واقعة الحركة على ضرورة سبب للحركة التى تتحرك ذاتيا وعلى ذلك لا يمكن أن تبدأ أبدا أو تنقطع عن الحركة (١) . وتبعاً لهذا فإن الروح البشرية كغيرها من الارواح كافة ، كانت توجد قبل حلولها فى الجسم وستبقى بعد موت الجسم . وبهذا يشرح أفلاطون كيف أن نسخ الصور ، غير الكاملة ، فى عالم الحس تورد للذهن ، الأنواع الأولى الكاملة التى كانت تعرفها قبل الحلول فى الجسد وتوجد حلاً للسؤال الصعب وهو « كيف يتاح للانسان معرفة تتعالى عن حدود الاختبار الحسى » (٢) . وتساعده أيضا على معرفة السبب فى أن الألم الحاضر هو تكفير عن شر ارتكب فى تجسد سابق وعلى أن ينشئ المبادئ الخلقية الصادقة عن الثواب أو العقاب بعد الموت وفى التطهير الاطرادى فى سلسلة من الحياة (٣) . وهنا يقيم أفلاطون البناء على تربة التعليم الاورفى الذى وصل اليه عن طريق الفيشاغوريين وسقراط . ان الجسم هو سجن وقبر الروح وموته هو تحرير الروح وحياة الفلسفة التى تعلق فكر الذهن على صور ما وراء الحس هو التمهيد لهذا التحرر وفى الحقيقة البحتة ، دراسة الموت (٤) . وتظهر الروح البشرية وهى فى اتحادها الموقوت بالجسد ، ليس فى نقاوتها الطبيعية ، ولكن كاله البحر غلوقس Glaucus فى القصة ، « تتغشاها الاصداف والاعشاب البحرية » ، حتى ان طبيعتها الذاتية ، « العقل » يكون مستخفيا عن الرؤية الخارجية (٥) . وفى تجاربنا الواقعية تكون الروح

(١) Phaedrus ٢٤٥ ج القوانين : ٨٩٣ ب وما يليها . وقد أهملت الأدلة الأولى فى Phaedo و « الجمهورية » فى الديالوجات التى جاءت بعد ذلك ومن المرجح أنها كانت أدلة سقراط خاصة ، بمعزل عن حجج أفلاطون .

(٢) راجع Meno ، ٨١ وما يليها عن مبدأ التذكر anamnésis ، هذا .

(٣) راجع الأساطير فى Republic, X, Phaedo, Gorgias, Phaedrus

وأساطير أفلاطون لاستوارت Stewart

(٤) راجع Phaedo ، ٦٤ وما يليها .

(٥) Rep. ١٠ : ٦١١ .

وحدة مركبة من ثلاث قوى : العقل وهو الموهبة الفلسفية والسلطة العدل
فى اقتصاد الروح الذى يضمن حكمه الانسجام فى الداخل وكذلك مع العقل
القريب له فى الأرواح الأخرى وفى الكون ، ثم الموهبة « النسيطة »
أو العاطفة المندفعة ، المشاغبة وهى الخادم الطيع للعقل ولكنها عرضة اذا لم
توجه ، لأن تقود الروح الى الانحراف فى طريق التوكيد الذاتى والشهوات
التي ترتبط بالمتع الجسدية ، بعضها مشروع والبعض الآخر غير مشروع
ولكنها جميعا لا يشفى لتعطشها للرضى غلة واذا لم يقومها العقل فى صرامة
فانها تهوى بالروح فى مضطرب من الفوضى والتفكك . ويمكننا أن نتصور
وراء مظهر الرجل ، الخارجى ، مخلوقا يتركب من ثلاث طبائع - تلك التي
لرجل (العقل) ولأسد (العاطفة) والعداء hydra^(١) ذى الرؤوس العديدة
(الشهوات)^(٢) . ومنهاج « الجمهورية » الخلقى والتعليمى يستند فى معظمه
على هذه التنفقة النفسية مثلثة العرى ، فمثلا صورة ثلاثة أنواع من الحياة ،
أهم بها على التعاقب ، حب المتعة وحب الشرف وحب الحكمة وتحليل الفضيلة
الخلقية الى ثلاث الصور المعينة ، الحكمة والشجاعة والاعتدال ، التي ترجع
الى أصل واحد وهو العدالة والمبدأ الذى يعاون كل قسم فى النفس على القيام
بعمله المناسب ، فى اقتصاد المجموع ويضمن انسجاما أو « موسيقى » فى
الروح بأجمعها وتقسيم التعليم الى موسيقى وألعاب بدنية وأنواع تقويم
الشهوات و « المزاج » ، التي تكون الأساس الخلقى المطلوب لاستخدام العقل
فى الأعوام الأكثر نضجا وأخيرا تصور الفلسفة على أنها تحويل الروح من
ظلمة عالم الحس الى نور عالم الصور وعلى أنها استعداد يستمر مدى الحياة ،
لمراس العقل مراسا لا يعوقه عائق فى عالم ما وراء القبر^(٣) .

٢٢ - وعلى النقيض من أولئك الذين كانوا يعتقدون أن الأخلاق ما هى
الا مجرد عرف وأن الفرد يجد سعادته الحقيقية فى حياة توكيد الذات ، بين

(١) العدار هو فى أساطير اليونان حية عظيمة قتلها هرقل وزعموا أنه
كان لها تسعة رؤوس كلما قطع رأس منها نبت آخر . وفى أساطير العرب دابة
فى اليمن لها شئ أعظم من رؤوس عدار اليونان - المترجم عن معجم الحيوان
لأمين المعلوف .

(٢) « الجمهورية » : ٩ ، ٥٨٨ - ٩ قابل تشبيهه مركبة الروح
Phaedrus ، ٢٤٦ وما يليها .

(٣) عن علم النفس عند أفلاطون وتطبيقه على علم الأخلاق وتعليم
الصغار راجع « الجمهورية » : ٢ - ٤ ولتدريب العقل تدريبا عاليا -
« الجمهورية » : ٧ (وخاصة القصة الرمزية عن المسجونين فى الكهف)
وكذلك عجالة نلتشب Nettleship عن نظرية التعليم فى « جمهورية
أفلاطون » فى المجلد بعنوان Hellenica

أفلاطون كيف أن الانسان فى صميم كيانه ، عينه ، تميز بالتعاون الاجتماعى وقد صاغ موقفين لهما ارتباط وثيق وهما أن كل فرد له بطبعه قدرة فريدة تحدد وظيفته الخاصة فى المجتمع وأن هذه الوظيفة يمكن فقط القيام بها على الوجه الأتم ، حتى تجلب السعادة للقائم بها ، عندما يكون المنظم لهما ، « الخير العام » (١) . ان «اقتصاد» الدولة يتوقف على نفسية المواطنين ، وهذا التماثل بين دولة - المدينة والفرد يتحكم فى صورة طرزهما ، الحيرة والسيئة خلال « الجمهورية » بأجمعها . ويلزم تقسيم الوظائف الاجتماعية على أساس خصال المواطنين الفردية ، فأولئك الذين تغلب فى نفوسهم الشهوة يؤدون العمل البدنى بأن يمدوا المجتمع بحاجاته المادية كالصناع والزراع ، والنفوس « النشيطة » تكون الطبقة العسكرية ، والنفوس « الفلسفية » التى برهنت فى اختبارات متكررة على قدرتها على حياة العقل ، يوكل اليها أعلى مهمة وهى الحكم . وبهذا يخلص أفلاطون ، فى خلال خطوات منطقية ، الى نقيضته المشهورة « الى أن يصبح الفلاسفة ملوكا والملوك فلاسفة فلن يكون خلاص للدول أو لأرواح الناس » (٢) . ولن يكون خلاص للدولة بما أن العقل هو القوة الكامنة فى الروح ، التى تدعو الى الوحدة . وتحقيق العقل فى الحياة الفلسفية هو الضمان الوحيد من الفوضى الاجتماعية ولا يكون خلاص لروح الفرد لأنه اذا لم يكن للعقل السيادة فى المجتمع ، فلن يستطيع أى فرد مقاومة ما للرأى العام وغوايات العالم (٣) من تأثير مفسد . ولما كان يعتقد أنه فى مقدور الفيلسوف أن يصل فى مدرجة حياته الدنيوية الى قصارى المعرفة التفكيرية فى رؤية الخير المطلق فقد استخلص النتيجة اللازمة الطبيعية فى أن الفشل فى التوافق فى السلوك مع تلك الرؤية ، كان مما لا يمكن تصوره وكانت المعرفة فى هذا المستوى الرفيع تتطلب توافق السلوك . وكان من المستحيل ارتكاب الخطيئة ضد النور . ولقد آزرت المسيحية فى الحال المبدأ الأفلاطونى وأدخلت عليه التعديل . فمن جهة كان للمفتدين فى النعيم الذين يستمتعون برؤية الله رؤية مباشرة ، الخير المطلق non posse peccare

ومن جهة أخرى لم يكن فى مقدور الناس فى هذه الحياة الوصول الى تلك الرؤية المباشرة حتى فى المستوى الأعلى من التأمل التألهى . والقديس ، على الرغم من كل قداسته ، يظل خاطئا . انه يرى الله فقط « من خلال

(١) راجع الجمهورية : ٢ ، ٣٦٩ وما يليها ويعبر عن مطالب التوكيد الذاتى فى الفرد ثراسومخس Thrasyarchus فى الكتاب الاول ، وغلوكون Glaucon وأديمنطس Adimantus فى بداية الكتاب الثانى وقليلقلس Callicles فى غرغياس Gorgias

(٢) الجمهورية ٥ ، ٤٧٣ .

(٣) الجمهورية : ٦ ، ٤٩٢ .

زجاج ، فى ظلام « per speciem in aenigmate » وليس « وجها لوجه » وصورة الخير عند أفلاطون لم تكن هويتها الله (الذى كان « روحا » وليس « صورة ») ولكن كان يمكن للفيلسوف معرفتها « وجها لوجه » وعلى هذا وقد واثاه بعض الالهام من الاعتقاد بأنه فى مجتمع كامل يجب أن تكون كل الأشياء مشتركة ويشعر كل عضو بالفرح والحزن فى فرح وحزن كل واحد غيره ، وبعض الالهام الآخر من شعور بالخطر ، حتى على القلة المختارة ، من لعنة المصالح الخاصة فان أفلاطون كان ينكر على الطبقات الحاكمة الاستحواذ على الممتلكات الخاصة واستبدال بالمنزل الخاص أسرة - دولة واحدة ينظمها الملوك والفلاسفة فى حزم لا هوادة فيه . وفى هذه الشروط نرى على الفور شوق أفلاطون العارم للوحدة وإدراكه الواضح لعوامل الشر التى هى أبدا على أهبة لأن تؤكد مطالبها فى حياة الفرد والمجتمع . ولقد تألفت مثاليته الصارمة ومنطقه الذى لا هوادة فيه ليؤدى به ، فى مزاج مؤسس نسله بأن يقضى عنه كل المغريات ، كالممتلكات الخاصة والفن الفاجعى ، التى قد يرجح أن تثير الإباحية الخلقية . وهو ينحى على عالم زمنه وعلى الأخص نغمة أثينا القرن الرابع ، السياسية والخلقية ، باللائمة ، فى « الجمهورية » دون تحفظ . وكان يظهر له أن الفرد الأثينى قد قذف به بعيدا عن اتجاهه السوى فى طوفان من الفساد العاطفى وأن الدولة الأثينية قد مزقتها أربا التشيع الحزبى والتعاطف الذاتى فى قاداتها . وإذا كانت نفوس الناس أو المجتمعات الانسانية لتظفر بالخلاص ، فيجب أن يكون هذا عن طريق تغير أساسى فى القلب ، تغير يحمل معه تقويم الذات تقويما غنيا وثورة فى مبادئ الحياة والحكومة .

وتذكرنا بصيرة أفلاطون النفاذة ، فى شر طبيعة الانسان واحساسه المرير بأن المجتمع الواقعى لا رجاء فيه ، مرارا كثيرة ، بتولستوى ولكنه كان يختلف عن تولستوى فى أنه كان أيضا على الدوام فيلسوفا . وكان علاجه لمساوىء العالم هو أن توضع السلطة فى أيدي أولئك الذين يعلمون ، فانهم دون سواهم ، الذين وصلوا ، كشمرة لتدريب عقلى وخلقى مديد ، الى معرفة واجب الخير الأعظم ، هم المؤهلون لتكليف خليفة المواطن وتوجيهه سياسة الدولة . وعلى النقيض من المثل الأعلى عند الديموقراطية البركليسية فان أفلاطون يبشر باشتراكية الأساتذة .

وفى تشبيه شهير جاء فى الكتاب السادس من « الجمهورية » ، يمثل الشعب الأثينى برهان سفينة دمت الطبع غير أنه متكاسل ، سهل التأثر بتملق النوتية الدهاة الذين يتنافسون الواحد منهم مع الآخر فى التزلف اليه ليوكلي سكان السفينة لواحد منهم ، ولم يكن واحد منهم قد تعلم قط فن الربان أو أوتى المعرفة الحقة التى يكون فيها صالحا لقيادة السفينة على الطريق الأقوم . وطوال الزمن يظل الربان الحقيقى الذى اتقن مهنته مهملا ووحدا وعلى هذا ، فى رأى أفلاطون وقع الشعب الأثينى فى أيدي

مغامرين لا يقيمون وزناً لشيء وليسوا بأكفاء ، بينما الفيلسوف بحقه الطبيعي ، الحاكم ، الخليق بالحكم بنشأته ، يحكم عليه بخمود حياته الخاصة (١) .

٢٣ - ولا حاجة للقول ان أفلاطون فشل في اقناع مواطنيه وواصلت آثينا سيرها حتى مجيء المغير المقدوني . ولما كان لا يعتريه كلال في جهوده في القيام بالاصلاح العبدى فقد زار ، ثلاث مرات ، سيراكوز الصقلية والأمل يحدوه في أنه كمناصح لطاغية ، قد ينجح في انشاء الدولة التي تقوم على أساس فلسفى ولكن كان قد وصل في « الجمهورية » الى الرأى بأن المدينة المثالية كانت « أنموذجا أقيم في السماء » لا يمكن تحقيقها تحقيقا كاملا على الأرض (٢) . وفي اثنين من الديالوجات الأخيرة « السياسى » و « القوانين » عبر عن مزاج أكثر اعتدالا نحو الصور الموجودة للحكومة وفي مصنفه الأخير وضع تخطيطا مجملا لسياسة في المستوى الثانى تكون مجالا للمثل الأعلى الذى يتكافأ مع حقائق الحياة ولكن وظيفته الحققة في خلال الأربعين سنة الأخيرة من حياته كانت فى الأكاديمية كلية البحوث العلمية والفلسفية التى أسسها ومنحها الهبات . ويمكن أن تقيم الأكاديمية وهى على حق ، الدعوى فى اعتبارها أقدم جامعة فى التاريخ . وكان الطلاب يهرعون الى هناك من جميع أنحاء العالم الهلينى وخاصة أدكسس Eudoxus (٣) وهو رياضى وفلكى من كوزكس Cyzicus وأرسيتطاليس الشاب من ستاجيرا ، على الساحل المقدونى . وكان أعضاء المدرسة يسهمون فى حياة مشتركة وقيمون فى الأكاديمية وينهمكون لا فى الدراسات الفلسفية الخالصة فحسب ، ولكن فى البحوث ، فى الرياضيات وعلم الحياة ومسائل الأخلاق والقضاء . وكان من بين جلائل أعمالها وضع الهندسة المجسمة ، ولقد نادى أفلاطون عند وضع تخطيط مجمل ، لمنهاجه فى الدراسات العليا ، فى « الجمهورية » بمعاونة الدولة لهذا العلم الجديد (٤) . ويرجع أساس النهج الذى سار عليه بعد ذلك الفكر والمراس التعليمى فى العصر الاغريقى - الرومانى وفى العصور الوسطى على السواء ، الى انشاء أفلاطون للأكاديمية ولقد جرت العادة فى البحث عن المصلحين فى التشريع من بين صفوف المدرسة . وآخر مصنفات

(١) الجمهورية : ٦ ، ٤٨٨ ، ٤٩٦ .

(٢) الجمهورية : ٩ ، ٥٩٢ .

(٣) عن أدكسس راجع هيث Heath فى « تراث اليونان » الصفحات

١١٧ وما يليها وقد كشف عن نظرية التناسب التى جاء شرحها فى اقليدس الكتاب الخامس وكذلك منهج الفناء فى قياس المساحات والمجسمات منحنية الأضلاع ، الذى أفاض فيه بعد ذلك ، أرخميدس .

(٤) الجمهورية : ٧ ، ٥٢٨ .

أفلاطون «القوانين» هو مثل لهذا الفرع من بحوثها (١) . وللأكاديمية تاريخ طويل باقى الذكرى . لقد كانت النموذج للمؤسسات التى جاءت بعد ذلك مثل كلية أرسططاليس فى اللسيوم Lyceum «الملاعب الرياضى» وكليات الرواقيين والأبيقوريين واستمرت قائمة كموطن مركزى للتعليم الأفلاطونى طوال ألف سنة الى أن قطع الاعانة نهائيا عن المدارس الوثنية وألغى نظامها ، الامبراطور المسيحي جوستينيان (٥٢٩ م) .

٢٤ - لقد ظهرت فلسفة أفلاطون ، بسبب اعراضها عن الدينويات ومشاليتها الكاملة، التى لاتقبل انتقاصا، لعقول كثيرة، أكثر قربا لروح المسيحية منها لروح اليونان التى كانت تتطلع الى هذه الحياة وفرصها لارضاء مطامع الانسان العقلية والخلقية . وفى هذا التوكيد صدق ، ولو أن للاختلافات أهمية حيوية أكثر من التشابه . ان مبادئ أفلاطون عن خلاص النفس عن طريق تقويم العقل تقويعا شاقا وقيام أرسطقراطية علمية بالتوجيه الروحى للمجتمع ، تقصينا فى شوط بعيد ، عن المثل الأعلى لحكومة روحية يكون دخولها ليس للحكيم والمتعقل ولكن بروح الطفل الصغير . وعلاوة على هذا ، فقد قام الدليل على أن أصول التصورات فى فكر أفلاطون ، أثبت بالثبارة فوق ما كان يتوقع ، فى صوغ المثل الأعلى الهليني فى الحياة . وظل الاعتقاد الذى عبر عنه فى «الجمهورية» بأن أسعى حياة ليست حياة المتعة أو السلطان ، ولكن حياة التأمل ، المثل الأعلى الذى كان له السيطرة على الفكر القديم . وعندما فقدت دولة - المدينة استقلالها وأوصدت الحياة العملية للنشاط العام أمام المواطن الاغريقى فان أحسن العقول شغلت نفسها ، فى زيادة مطردة ، بالسعى وراء المعرفة . ان أرسططاليس ولو أنه كان على نقيض أفلاطون ، فى الكثير الغالب ، فانه مع هذا يقيم البناء فى كل مرحلة ، على أسس استأذه ويمكن بالحرى أن يعتبر أول أفلاطونى عظيم أسهم فى اعتقاده بأن حياة الفلسفة هى الحياة التى تجد فيها الروح أتم رضى وتقرب قربا عظيما مما هو الهى . وفى القرون التى ترادفت بعد ذلك ، كانت نفس العقيدة يشترك فيها على السواء الأفلاطونيون والأرسططاليون والرواقيون والأبيقوريون (٢) ولم

(١) ان وضعه لمدينة القانون الاغريقى وخاصة الأثينى ، كما تطور فيما بعد ، كان له تأثير عظيم على القانون الهليني وعن طريق القانون الهليني ، على القانون الرومانى ، راجع ما يلى فصل § ٦ تذكرة ٢ .

(٢) وخاصة أشياع الأفلاطونية الحديثة راجع السفر الثانى فصل ٩

تكن محصورة فى العالم الوثنى . ولما انتزع عنها التفسير العقلى الخاص بها ، بصفتها حياة الفلسفة فان المثل الأعلى لنشاط التأمل ، أصبح يسيطر على مسيحية القرون الوسطى (١) وأصبحت مريم ومرثا اللتان ذكرهما الانجيل تمثلا نوعين من الحياة ، الحياة النظرية وحياة العمل والنشاط وقد اختارت الأولى النصيب الأفضل . ان قيام الرهبنة وكتابات دانتي وفنون النحت التى تزدان بها كاتدرائيات العصور الوسطى كلها شواهد على السيطرة التى ظفرت بها هذه الفكرة ، وهى نتاج العبقرية الهلينية والعبقرية المسيحية مجتمعتين ، على مطامح البشرية ، الروحية . ان أفلاطون مثل جميع عظماء الاغريق ، سواء أكانوا فى الأدب أم فى الفلسفة ، له اعتبار شئ ذى نفع عام . وكلما تعرض روح الانسان عن عالم الحس والتغير وتوجه صوب ما هو أبدى ولا يتغير وله وحدانية ، سواء أكان فى التأمل العقلى أم الدينى ، فانها تكون قد أقامت دعوى القوابة بروح أفلاطون .

تذكرة إضافية

من بين الاسئلة الخلقية السى كان المفكرون فى عهد الاستنارة فى القرن الخامس فى اليونان يلقونها على أنفسهم ، كأن يوجد سؤالان يتنبوق اليهما القارى. فى عصرنا ، بصفة خاصة وهما (أ) مسألة مركز النساء فى المجتمع (ب) مسألة الرق .

١ - مركز النساء (١) :

فى الخطبة الجنازية كما أوردها ثفوديديس ، خاطب بركليس الناضحات من النسوة بكلماته المعروفة تمام المعرفة : « اذا كان لزاما على أن أحدث عن الفضائل النسوية الى أولئك من بينكن اللواتى سيصبحن أرامل منذ الآن فاسمحن أن أجملها فى نصيحة واحدة وجيزة : انه لمجد عظيم الا تظهر المرأة ضعفا أكثر مما هو من طبيعة جنسها وألا يتناولها الحديث بالخير أو بالشر بين الرجال» (٢) . وهذه العاطفة التى لا يمكن تصورها على شففى رجل سياسة معاصر يقدم تعزية علنية لشكالى الحرب ، لا بد أنها كانت تظهر مناسبة للمقام تماما لدى غالبية مستمعى بركليس من الجنسين . ومنذ قرن قبل ذلك ، كان كيوجنس قد كتب « اننى أمقت المرأة التى تملكها نزعة الاندفاع هنا وهناك » وبعد ذلك بقرن ، أعلن مناندر Menander « ان باب المنزل هو حد المرأة الحرة» ولم يكن للنساء دور فى حياة آتينا العامة المدونة . ومع هذا ، فى الفن والشعر كما فى الدين ، فانهن حاضرات فى كل مكان . وقد يكن حيناً موضوع شفقة وحيناً آخر موضوع رعب وقد يضافى عليهن المثل الأعلى فى فزع ، أو يؤننى عليهن بالتحليل فى تدبر ديق ، ولكن لا يهمل شأنهن أبداً . كانت بطلات هودر يستمتعن بوفار وحرية يتنافضان مع خضوعهن وانعزالهن فى الأزمنة اللاحقة ولو أنه من الجائز أن فروسية الاخائين ، كفروسية العصور الوسطى ألقمت على زوجات وبنات الرؤساء هالة من الرومانسية « الابداعية » أنكرت على النسوة من أصل

(١) راجع بالاضافة الى المراجع الموضحة فيما بعد ، أكسنوفون Oeconomicus (ترجمة دكينس Dakyns) ، وبنىكى Benecke «النساء فى الشعر الاغريقى» Women in Greek Poetry وزمرن Zimmern الجزء الثالث فصل ١٢ .

(٢) ثفور : ٢ ، ٤٥ ترجمة جوت Jowett .

وضيغ (١) . ولا يوجد أدب فاجعى فيه مثل هذه الوثرة من صور النساء كما فى الأدب الاغريقى ، الذى لم يهمل أى مظهر من مظاهر البشرية النسوية - الا (حتى الأزمن الهلينيستية) الحب الذى يقع بين فتى وفتاة ، بغير أن يرتاد (٢) . ان كلتمنسترا Clytaemnestra وأنتيجون Antigone وميديا Medea وفيدرا Phaedra والسستس Alcestis يقفن فى مستوى بطلات مآسى شكسبير ، العظيمات . وفى حياة الاغريق الواقعية ، لا نتبين الا القليل الذى ينطبق على هذا الاهتمام . والمرأة الوحيدة التى كان لها شأن يذكر فى التاريخ الاثينى اسفزيا Aspasia كانت أجنبية وارتبطت ببركليس فى رابطة ليس فيها تكافؤ (٣) . وفى أثينا كانت دائرة المرأة المنزل . أما دائرة الرجل ، من الناحية الأخرى ، فكانت المدينة ولم يكن للمنزل الا شأن يسير فى حياته . وفى اسبارطة ، لأسباب عسكرية ، كان يسمح للنساء بحرية أعظم وقد كن يتدربن على التمرينات العلنية حتى يشببن أمهات جنود ، قويات . ولقد أثبتنا أن النتيجة هى أنهن كن ، على ملاحظتهن ، سرعات الحركة ، يملن الى الترف والبخل والعصيان وينزعن الى الدسائس السياسية (٤) . ولقد أثار ابعاد النساء عن الحياة العامة الاغريقية الكثير من

(٢) ومن المرجح أيضا ، كما يذكر الاستاذ مرى Murray (نهوض الملحمة الاغريقية صفحة ٧٥ p. 75 Rise of the Greek Epic) ، ان تقليد نظام الامومة الذى كان حيناً من الزمان سائداً فى العالم الايجى ، بقى بعد الغزو الاخائى . ويشير نفس الكاتب (ص ١٢٤) الى أنه فى الالياذة ، كملحمة حرب ، لا نسمع الا القليل عن النساء (الا فى نصين عظيمين الالياذة ٣ و ٦ ، ٢٣٧ حتى النهاية) فى طروادة . ويظن أنه فى الحملات العسكرية ، كانت النساء محظورات . ولقد كان صموئيل بتلر يصدق النقيضة الشيقة أن امرأة كتبت الاوديسيا وربما كانت نوسيكيا Nausicaa (انظر كتابه « مؤلفة الاوديسيا ») .

(٢) ان الاستثناء الوحيد فى رواية باقية لدينا من العصر الاتباعى هو حب هيمى Haemon وانطيجون فى « انطيجون Antigone » لسفوكلس . وفى « المسلاة الجديدة » فى القرن الرابع يكون الحب بين فتى وفتاة ، الذى ينتهى بالزواج موضوعا شائعا .

(٣) بعد قانون عام ٤٥١ ، الذى كان ينص على أن كلا للوالدين يجب ان يكونا مواطنين ، اذا كان الاطفال ليعتبروا شرعيين ، أصبح هذا الزواج الثانى من النسوة غير المواطنين ، أمرا ذاثعا ولم يكن يلحق به شين .

(٤) رفى زمن لاحق ، أصبحن يملكن جزءا عظيما من الاراضى الاسبرطية . وعن النسوة الاسبارطيات ، راجع أرسططاليس « السياسة Politics ٢ ، ٩ وكذلك افلاطون : القوانين ٧٨٠ وما يليها و Protag. : ٣٤٢ و Euripides ، 'Andromache' ، ٥٩٥ وما بعدها .

الاعتراضات فى القرنين الخامس والرابع . ومما يدل على أن خطط الإصلاح كان يدور التفكير فيها ، المسلتان ليسستراتا Lysistrata (٤١١) وبرلمان النساء Ecclesiastical (٣٩٢ أو ٣٨٩) وفيهما نال أرسطوفانس مطالبهن فى التحرر ، بالتفريع . وكان يوجد بين الكليين نسوة مبعوثات ، ولقد كانت تجيش فى يوريبيدس عاطفة من الاشفاق والاشمئزاز لمصير النسوة اللواتى كان يفرض عليهن عند الوضع تحمل آلام أشد قسوة من تلك التى يلاقىها الرجال فى معمة القتال (١) . ولقد تأثر أفلاطون من ضياع مادة طبية لخدمة الدولة . وكان يعتقد أن الاختلاف بين الجنسين لم يكن اختلافا فى النوع ولكن فى الدرجة . كانت النساء فى الواقع أضعف من الرجال ولكن لسن أقل قدرة على أن يساهمن فى وظائف المدينة بما فيها وظيفة السيادة الفلسفية ويمكن أن يكون للنساء مكان فى كل من الطبقات الثلاث فى مدينته المثالية . وكما يساهمن فى الوظائف فكذلك يساهمن أيضا فى تعليم الرجال ولا يوجد تفكير هنا فى « حقوق المرأة » وكان لزاما أن يتبع فى تعليمهن المناهج الموضوعة للرجال ، ليس لصالح جنسهن ولكن لصالح المجتمع ويسير النص بأجمعه الذى جاء فى الكتاب الخامس من « الجمهورية » على مذهب المنفعة الى حد عظيم . وعلاوة على هذا ، فإن أفلاطون يقترح إلغاء البيت الخاص وادماج جميع المواطنين من كلا الجنسين فى أسرة - دولة واحدة والارتباطات الزوجية وتربية (أو التخلي عن) الأطفال والتغذية فى بواكير الطفولة يجب أن تسيطر عليها ، بصفة شاملة ، الحكومة (٢) . وكانت الدوافع التى جهر بها :

(أ) تحسين النسل للمحافظة على نوع الطبقة الحاكمة .

(ب) الخوف من التفرق والتشيع المدنى (Stasis) اللذين ترجع نشأتهما الى المصالح والممتلكات الخاصة .

(ج) مطمح مثال الى مجتمع لا يعرف تفرقة بين «مالى» و «مالك» ، ولكن يدق فى نبض واحد ينتظم جميع الأعضاء (٣) .

(١) "Medea", Eur. ٢٤٨ وما يليها ومناجاة السستس Alcestis لنفسها فى الرواية التى تحمل اسمها يستفاد منها أمور كثيرة عند موتها سيصيب طفلها الابن حظه ولكن ما سيكون من أمر البنت ؟

(٢) ان واد الأطفال ، الذى يرجح أن أفلاطون أقره فى بعض الحالات ، كان شائعا فى كثير من المجتمعات القديمة ولو فى غير أثينا على ما يحتمل . ان خطب اسأوس Isaeus تقدم الأدلة على ما يناقض هذا . لقد كان ، على وجه عام ، الأطفال من الاناث هم الذين يلاقون هذا المصير .

(٣) انظر الجمهورية : ٥ .

وأخيرا وطن أرسططاليس نفسه على حصر مشروعات المصلحين من الأحرار المتطرفين في داخل حدود الحس المشترك : واعتقد ، على عكس أفلاطون ، أن النساء يختلفن عن الرجال في النوع وعندهن نقص في القدرة العقلية والقدرة الخلقية ولو أنهن لا يفتقرن كلية اليهما . وعلى هذا فبينما يحال بينهن وبين حق المواطنين الكامل ، يجب أن يحكمهن الرجال حكما دستوريا لا حكم طغاة ، كالعبيد . ويجب أن يستمتعن بحرية محدودة ويلقن تعليما ، جعل بحيث يتناسب مع وظيفتهن الثانوية في دولة - المدينة ، وما يظهر أنه كان متأثرا به هو عدم وجود فطنة علمية لديهن وخصيصة العقل الذى يكون له السلطان (١) . ويمكننا أن نسمعه يردد صدى صوت تفوق الذكور في كل عصر : « كوني طيبة . أيتها الفتاة الحلوة ، ودعى من له القدرة » - والرجال - « كونوا مجتهدين » وظل على اتصال وثيق بالفكر الاغريقى السائد وهو يضع فيه خيرة من بهار التحرر ولكن في معالجته للقيم المثالية وحقائق الطبيعة البشرية ، على السواء ، فانه كان يتخلف عن أفلاطون شوطا بعيدا .

ب - الرق (٢) :

كان الرق بين الاغريق ، كما كان على وجه عام خلال الأزمنة القديمة جزءا من نظام تقليدى وبهذه الصفة كان يقبل دون سؤال . ونقرأ في هومر وخاصة في الاودسيا عن عبيد - قليلي العدد نسبيا - يؤسرون في القرصنة أو الحرب . لقد كان مصيرا يمكن أن يلاقيه أى انسان . كان يومايوس Eumaeus ويوروكلية Eurycleia عريقى النسب ولو أنه كان يشطر عن الضحية « نصف رجولته » فلم يكن يترتب عليه أى عار . كان يومايوس يستمتع « بحياة طيبة » كملحق بالأسيرة ، مكرم ويتحدث الى أسرة سيده كما يتحدث رجل الى رجل . وكانت خطوط الفواصل الاجتماعية أقل حدة في تلك الأزمن الأكثر بساطة (٣) .

ويظهر في العصر التالى مع الغزو الدورى نوع من الرق جديد . ان الرقيق كانوا أهليين مقهورين يرتبطون بالأرض كالعبيد فى اسبرطة Helots Penstae فى ثساليا ، وبعد ذلك أيضا ، جلب انتشار الصناعة والتجارة فى أعقابها تجارة الرقيق فى العالم الايجى ، والمناطق الرئيسية التى كانوا يؤخذون منها كانت بين همج آسيا الصغرى وتراقيا والأراضى التى تقع

(١) راجع على الأخص « السياسة » : ١ ، الفصلين ١٢ ، ١٣ وما وجه من نقد الى « الجمهورية » فى ٢ الفصول من ٢ - ٤ .

(٢) راجع عن الموضوع زمون فصل ١٥ وقاموس سمث عن الآثار والفن Smith's Dictionary of Antiquities, Art, servus.

(٣) عن يومايوس Eumaeus راجع الاودسيا : ١٥ ، ٣٨٠ وما يليها .

حول أكسين ، وكانت الأسواق الهامة ، فى الولايات البحرية التى كانت تسيطر على تجارة النقل مثل خيوس وبعد ذلك أثينا . وفى أثينا ، كان يستخدم العبيد : (أ) فى البيوت للأعمال المنزلية وليس كما كانت الحال بعد ذلك فى روما ، للمتعة (ب) فى الصناعات العظيمة وخاصة فى مناجم الفضة فى لوريون Iaurion (ج) كرقيق دولة ألخ ، كمجذفين فى السفن الحربية (١) . وقد أوردت قائمة الإحصاء عن سنة ٣٠٩ ، عددا من العبيد يبلغ ٤٠٠.٠٠٠ فى أتيكا . وكانت الغالبية العظمى همجا أما الأسرى الاغريق فكان المجال مفتوحا أمامهم للخدمة . وكان يوجد ما يخفف من مصير الرقيق الاثينى العادى ويمكن مقابله مقابلة موفقة بمصيره فى عصر لاحق فى روما أو فى مزارع ملاك الرقيق المسيحيين فى زمننا الحاضر . وكان القانون الاثينى يبسط حمايته على الرقيق ولم تكن حياته رهن مشيئة سيده . وكان تعذيب الرقيق محصورا داخل حدود محكمة ، ولم يكن، يوجد تمييز فى الملابس بين الرقيق والأحرار ولو أنهم كانوا ممنوعين عن ارتياد المعابد وميادين وأبنية الرياضة والحديث Gymnasia ، والجمعية العمومية ، فانهم فى الكثير الغالب كان يسمح لهم بحرية الكلام والعمل . ويدعو اكستونفون الرقيق « الزميل العامل » للمواطن ، الذى يجب أن يحكم بالحق وليس بالعنف ويوعز اليه بأن يعمل عن طيب خاطر على أمل التحرر . وهو يأتى بالتعليق على اللين الذى يعامل به العبيد فى أثينا وحكمه تؤيده الصور المرسومة فى « المسلة الجديدة » وتقريع أفلاطون الساخر للإباحية التى يتصف بها الرقيق فى الدولة الديموقراطية (٢) . ولقد أصبحت عادة شائعة أن يمنح السيد رقيق منزله العنق اما فى حياته ، واما فى وصية عند موته . ودون ريب ، كان يختلف مصير الرقيق اختلافا عظيما تبعا لمركزه كخدام أسرة أو صبي مهنة فى التجارة أو مرة أخرى، بما فيه عشور جده، كمستخدم فى المناجم . والحقيقة البشعة كانت ماثلة خلال التاريخ الاغريقى كله . ولكن التوكيد بأن المدنية الاغريقية كانت تعتمد على الرق كأساس لها ، يصدق فقط بتحفظات والأمران لا يختلف الواحد منهما عن الآخر اختلافا فيه تناسب . كان الرق على مجال واسع قد جاء لاحقا لقيام الفن والعلم الهلينى

(١) كان الرجل الفقير يمتلك عبدا واحدا لمنزله وقد يقتنى الغنى عددا قد يصل الى الخمسين . وكانت مساوىء الرق أكثر وضوحا فى المناجم . وقد كان نسياس Nicias يمتلك ألفا من الرقيق فى لوريون . قابل ثقيو : ٧ ، ٨٧ عن محن الأسرى الاثينيين فى معاجر سيراكوز . ولقد أورد بروننج Browning فى قصيدته مغامرة بلاوستيون Balaustion's Adventure قصة ظفر بعض هؤلاء الرقيق بحريتهم بتلاوة يوريبندس . (٢) Mem. , Xen. : ٢ ، ٣ ، ٣ والجمهورية Ath. : ١ ، ١٠ ، ١٢ وأفلاطون : الجمهورية : ٩ ، ٥٦٣

وازداد كلما سار ذلك الفن وذلك العلم الى تدهور . ان الامم الاخرى مثل مصر وأشور التي كانت تستخدم الرقيق في اعداد أكثر وفرة عجزت عن أن تحقق ثقافة يمكن مقابلتها بثقافة اليونان . وعلى ذلك فلا يمكن تفسير الصفة الفريدة التي اختصت بها المدنية الاغريقية ، على أنها ترجع الى الرق . وفوق كل شيء كان الاغريق أول من ناقش المبرر الخلقى له ^(١) . حتى لو أن ثقافتهم كانت ترجع الى الرق ، فكذلك كان أيضا فكر أولئك الذين وصلوا ، مثل السفسطائيين ، الى أصول هذا الشر . لقد كان موضوعا عاما بين شعراء وفلاسفة القرنين الخامس والرابع ، أن الرق لا يقوم على أسس طبيعية ولكن على العرف . ولقد كان الكليون ينادون في جسارة بالتحريم . وكان السفسطائي الكيداماس Alcidas يبرر في أرجاء اليونان بأن « الاله خلق جميع الناس أحرارا وأن الطبيعة لم تستعبد أى انسان ^(٢) . وقد نعى أفلاطون استعباد الاغريق للاغريق ^(٣) . وعلى هذا المثال فعل أرسططاليس الذى عالج الموضوع في « السياسة » كالمهد به ، بروح مصلح محافظ ^(٤) . وكان يعتقد أن العبيد بالطبيعة كانوا ، مثل معظم الهمج ، أولئك فقط الذين بسبب قصور فى العقل والقدرة الخلقية فقدوا أهليتهم للاشتراك في حياة دولة - المدينة . ومثل هؤلاء الرقيق « الطبيعيين » كان مقضيا عليهم بالعبودية كأدوات لازمة للحياة الحرة ، للمواطن الهليني الحر . لقد كانوا وسائل لغايات آخر ، ولم يكونوا غايات فى أنفسهم وفى لغة زمن جاء بعد ذلك كانوا « متاعا » ولم يكونوا « أشخاصا » ويجب أن يحكم الرقيق حكما استبداديا ، لصالح سيده ، وليس لصالح الرقيق ذاته الا أن يكون ذلك بصفة عارضة . وكان يجب حقا أن يعامل بروح انسانية ولقد ذهب أرسططاليس ابعد من هذا حتى صرح أن الرقيق ، بهذه الصفة ولو أنه لا قدرة له على حياة العقل ولا يستطيع أن يكون له أية علاقة صداقة (philia - رابطة الاتحاد الاجتماعى) مع سيده ، فإن مثل هذا الارتباط قد يكون ميسورا له بصفته انسان . ان منحا يتناقض تناقضا ظاهرا مع المثل الأعلى المسيحي للروح الانساني . وعند أرسططاليس لا يكون للفرد من الناس ، على شاكلة هذا ، قيمة جوهرية ولم يخطر له على بال أبدا أن

(١) راجع مري نهوض الملحة الاغريقية الصفحات ١٦ وما يليها .

(٢) وهكذا يوربيدس Ion : ٨٥٤ - ٦

« الاسم فقط هو الذى يرى فيه العبد عارا

وفى كل الامور الاخرى ، فان رجلا كريما استعبد

لا يقل مستوى عن طبيعة الحر » .

(٣) « الجمهورية » : ٥ ، ٤٦٩ . يظهر أنه لا يوجد رقيق فى « الجمهورية »

وفى « القوانين » حيث يعترف بالرق ، توجد نصوص لتخفيف مساوئه .

(٤) راجع على الاخص « السياسة » : ١ ، الفصول ٣ - ٧ و ١٣ .

السلالات المتخلفة يمكن أن تدرب حتى تصل الى القدرة على حياة أتم وتقرر مصيرها نسبيا . وكان أرفع وظيفة لهم هى القيام على خدمة حاجات المواطن الهليني المادية . ان طرق الحصر هذه طليقة فى ظاهرها . لقد أدت عند الاغريق كما عند غيرهم ، الى مساوئ خلقية لا يرغب أى شخص فى التخفيف من خطورتها . وان ما حدث من أن المفكرين الاغريق ادركوا وجود المشكل وحاولوا إيجاد حل له ، يدل على تقدم عظيم على كل ما تحقق حتى ذلك الحين فى التاريخ . وفى قصر الرق على أولئك الذين لم يكن لهم قدرة على الحياة الحرة فانهم صاغوا مبدأ يمكن أن يتوسع فى تطبيقه فى نطاق لا حد له وهشال ذلك ما فعله الرواقيون . وتوجد مشاكل مماثلة فى العالم الحديث ولو أن حالة الرق وطرازه قد عفا عليهما الزمن . وعلى سبيل المثال : كيف يمكن تحقيق مستوى من الثقافة ، رفيع دون التضحية بالكثرة فى سبيل قلة تاح لها وقت فراغ وكيف تذاغ المعرفة بين الجماهير دون المجازفة باستقرار المجتمع^(١) . ان ما تسير عليه الامور فى عصرنا الحاضر كما يقوم عليه الدليل فى معاملة السلالات المتخلفة والسير الرتيب وبشاعة الاحوال الصناعية فى البلاد المتمدينة ، على السواء ، هو على نقىض صارخ مع المثل الأعلى الذى جهر به . وليس من اللائق لناقد أن يقذف حجرا على الاغريق القدامى ، لأن ما قاموا به فعلا كان دون مستوى وصايا أعظم مفكريهم .

(١) ان قراء روايات هنرى جيمس Henry James لهم أن يعجبوا ، كيف يمكن للعالم المثقف الرائع الذى صور فيها أن يحتفظ بكيانه وهو بمعزل عن الرق الموجود افتراضا وليس فعلا ، فى الجالين لراحته غير المثقفين .

الفصل السادس

الثقافة اليونانية المقدونية

١ - الاسكندر

١ - بانبلج فجر القرن الرابع نلج علما جرى عليه التغيير . ولم تعد السلطة السياسية تتركز بؤرتها في أثينا واسبارطة ، ولكن مكانها انتقل الى مراكز جديدة في الشمال ، وبدأت أحلام حكم عالمي في مجال لم يسبق له مثيل في التاريخ الاغريقي تثير مطامح رجال السياسة والقادة العسكريين . ولم تكن لسيادة اسبرطة - قصيرة الامد ، تلك التي أعقبت سقوط الامبراطورية الاثينية - الا أهمية يسيرة أو لا أهمية للمدنية ، وسرعان ما أيقنت المدن البحرية خواء دعوى اسبرطة الظافرة في أن تكون محررتهم من نير الاثينيين ، وأن أصبح طغيانها الصغير أغلظ من حقوى أثينا . وكان العالم الاغريقي يتحرق خجلا وسخطا عندما أعادت في صلح أنتالسيداس Antalcidas (٣٨٧) المدن الآسيوية الى ملك فارس ، ومما كان له مغزى أبعد في خطورته ، اتجاه مركز الثقل السياسي صوب الشمال ، أولا الى طيبة في بويوثيا عندما حطمت تشكيلاتها المتكتلة المتراصة مشاة الاسبرطيين الذين كانوا مرة ، أولى منعة ، في لوكترا Leuctra (٣٧١) ثم عن طريق ثساباليا الى مقدونيا . ان قيام مملكة مقدونيا هو الواقعة الأساسية في تاريخ يونان القرن الرابع^(١) . وكانت تربط المقدونيين آصرة قرابة مع الاغريق في السلالة واللغة . ولما كانوا من سكان الجبال الاصلاب ومحاربين بنشاطهم ، ويملأهم نشاط مضطرم ويخلصون الى رؤساء عشائرتهم فقد حافظوا على عاداتهم البدائية التي كانت لغزاة العالم الايجي الاولين . على الرغم من قسرة الثقافة التي تحيط ببلاط كان قد رحب بمؤلفي الفاجعة يوريبيدس وأغاثون Agathon . ان ملكا قويا داهية يستطيع أن يظفر ويستحوذ على اخلاص النبلاء الجامحين وأتباعهم ، كان ليجد في هذا الشعب أداة رائعة لسياسة عسكرية عظيمة .

(١) سمح للمقدونيين الذين كانوا قد حاربوا مع الاغريق ضد فارس بدخول الألعاب الأولمبية ، عام ٤٧٦ .

وفى الواقع كان مثل ذلك الملك ، فيليب الذى ارتقى عرش مقدونيا عام ٣٥٦ وهو فى سن الثانية والعشرين . وفى شبابه كانت تنشئته فى طيبة حتى يقدر الثقافة الهلينية ، وما كان أقرب لغرضه ، أن يتقن تنظيم المحاربين ، للمشاة المتكتلين المتقاربين (phalanx) . وعلى غرار بطرس الأعظم الروسى الذى استخدم المدنية الغربية لتوثيق شمل امبراطورية شبه همجية فقد نقل فيليب حاضرة ملكه من الداخل الى موقع ضاح على مقربة من الساحل وأعاد تنظيم مملكته ودرب المحاربين من رعاياه على فن الحرب . وبهذا السلاح الذى صنعه فتح تراقيا الى الشرق وأفاد من التفرق الدائم بين الدول الاغريقية فى اخضاع مدن ايجا الشمالية وأمكنه أحيانا بالقوة وأحيانا بأعمال السياسة التى كان فيها أستاذًا لا يجارى أمكنه بهذا كله الظفر بالسيطرة على ثساليا واليونان الوسطى . وحاز ذروة النصر فى خايرونيا Chaeronea (٣٣٨) على جيش طيبة وأثينا مجتمعين فغدت اليونان كلها تحت قدميه . وكانت خايرونيا - التى تتجلى فيها البطولة ، تعنى أكثر من فعل جهود ديمستينس Demosthenes خطيب أثينا الوطنى ، لانقاذ دعوة الحرية الهلينية . لقد دق فى ذلك الميدان المشئوم ناقوس موت دولة - المدينة المستقلة . ومنذ ذلك الحين ، أصبح تاريخ اليونان السياسى تاريخ غزاتها المقدونيين .

٢ - وكان اخضاع اليونان فى اعتبار فيليب مجرد الخطوة الأساسية لتحقيق مشروع امبراطورية ، كان يعمل فى عقول رجال السياسة والمفكرين فى اليونان خلال نصف قرن ونيف . وقد بينت هزيمة الغزاة الفرس عام ٤٨٠ تفوق جيش من المواطنين مدرب ، يدقعه الولاء لدولة - المدينة الحرة فى الحرب على الوفرة الهائلة من المجندين سيئى النظام والتقويم ، الذين كانت رابطتهم الوحدة فى الاتحاد ، خضوعهم المشترك لطاغية شرقى - وتعلمت فارس أن تعترف بهذا التفوق ، وقبل ختام القرن الخامس رحبت بزعماء العصابات المرتزقة من المغامرين العسكريين condottieri فى خدمتها بينما تمكنت بأربها السياسى وذهبها من بث الفرقة فى الوطن الاغريقى . ولقد أوضح ارتداد ١٠ر٠٠٠ من المرتزقة الاغريق من قلب الامبراطورية الفارسية حتى الاكسين عبر أرض وعرة وبين أهلين معادين يناوئهم جيش من الأعداء - أن اليونان لا يمكن التغلب عليها حتى لو كانت الحرب على غير تربتها .

ومنذ تلك اللحظة (٤٠١ - ٤٠٠) خامرت فكرة حرب انتقام ، غزو يونانى لفارس ، عقول القادة الاغريق^(١) . ولقد رأى الفلاسفة وأصحاب

(١) مثل الملك أجسيلاتوس Agesilaus الاسبرطى وجيسون Jason من فراى Pherae الزعيم التسالى القوى .

المثل العليا من السياسيين من أمثال أفلاطون واستقراطس في حملة صليبية قومية ضد الهمج الفرصة للاتحاد الهليني وعلاج الصراع الداخلي (١) . ولكن دول - المدينة في اليونان كانت تحرص على استقلالها حرصا جاوز الحد ، دعاهم ألا يتسامحوا في قيام تكتل سياسي . ولقد فرض الاتحاد من الخارج ، الملك المقدوني . ولما دانت السيادة لفيليب بعد خايرونيا بقوة عتاده ، أعلن عن المغامرة التي طال وضع الحطة لها . وكان جيشه قد نظم وأخذ أهبطه للحرب عندما مات بيد سفاح (٣٣٦) . ووقع عبء تحقيق المهمة على عاتق ابنه الاسكندر .

٣ - ان الاسكندر يجيء في ختام فصل قديم في تاريخ العالم وبداية آخر جديد . كان غزو خنسيارشبای لليونان قد استهل ناحية جديدة في المباراة العتيدة بين الشرق والغرب . وكان اجتياح الاسكندر للامبراطورية الفارسية ختام هذه القصة في الفاجعة التاريخية . وكانت الكارثة تعشى البصر في سرعتها . ففي ربيع عام ٣٣٤ عبر الاسكندر السبنطس وسحق حرس الفرس الامامي على جرانيفس Granicus واجتاح الاراضي الساحلية في آسيا الصغرى واستوثق التحكم في الطريق العام العظيم التي نيسر عبر جبال الداخل حتى بوابات كيليكية . وفي السنة التالية ، ظفر بأول نصر له عظيم على الملك دارا بشخصه في اسوس Issus في الركن الشمالي الشرقي من أرض المشرق وقد عرض عليه الملك المغلوب الشطر الغربي من امبراطوريته حتى الفرات غير أنه رفض في استعلاء تصالحا فيه مساومة .

ان الاستيلاء على صور في عام ٣٣٢ بعد مقاومة تنبىء سلفا عن مقاومة قرطاجنة أو اورشليم - كان الساميون مروعين عندما يحاصرون - جعل الاسكندر يملك زمام القوة البحرية في شرق البحر المتوسط وأعقب هذا اجتياح كنعان ومصر .

وفي عام ٣٣١ واصل السير الى قلب الامبراطورية الفارسية وظفر بالغبلة في ذروتها على دارا في جوجميلا ، في وادي دجلة . وقد كشف موت الملك الهارب ، في الصيف التالي للعالم عن غرض الاسكندر الحقيقي الذي كان الى ذلك الحين ، ملكا مقدونيا وقائدا عاما للاغريق ، وهو الآن يبرز للامام كوارث للمملكة الفارسية ، « كملك المملوك » ، بدلا عن دارا . ولقد شهدت السنوات الخمس التالية سلسلة من الحملات الرائعة والتقدم دون عائق وأخضع فيها الاسكندر الولايات الشرقية حتى أكسس

(١) يظهر أن هذا ما ينطوي عليه ما جاء في جمهورية أفلاطون

جاسكرتس Jaxartes وإلى ما وراء الهندوكوش ، واخترق ممر خيبر وفتح البنجاب واجتاز وادي السند حتى مصبه . وعندما رفض جيشه السير صوب الشرق الى الكنج Ganges عاد الأسطول عن طريق الخليج الفارسي والقوات البرية عبر صحراء مهران المروعة ، ورجع الاسكندر الى سوس حاضرة فارس القديمة في ربيع ٣٢٤ وقد خصصت شهور قليلة لتنظيم الامبراطورية واسعة الأرجاء . وقبل يونيو من عام ٣٢٣ كان قد جمع في بابل جيشا لجبا لغزو بلاد العرب . وهناك اخذته فجأة حمى ووافته المنية بعد مرض دام عشرة أيام ، وله من العمر اثنان وثلاثون عاما .

٤ - وقد فتحت غزوات الاسكندر عالما جديدا أمام اليونان ، وبتوسيع مدى المعرفة أتت بنتائج هامة على الفكر العلمي . ولكن أعظم جلائل أعماله كان نشر الهلينية على العالم الشرقي . وتظهر عبقرية الاسكندر السياسية في أعظم بيان فيما انتواه عن تدبر ، من صهر الروح الهلينية والروح الشرقية في كتلة واحدة .

فمن جهة تبني الوسيلة الفارسية في العيش واللبوس الفارسي والعادات الفارسية - ومارس وشجع التزاوج المتبادل واعترف بديانات الشعوب المغلوبة وصار في جميع الأمور شرقيا أمام الشرقيين . ومن الجهة الأخرى أدمج في نظام المشاة المتكتلين المتقاربين ، الفرس وربى شبابهم على الثقافة الهلينية ورقى أشرافهم في خدمته . ولما كان يدرك في وضوح أن سياسة المزج هذه يجب أن تقوم على أساس اقتصادي ، جهد في أن يخلق مذهبا للتجارة العالمية يربط النيل ودجلة والسند ، بالبحر المتوسط^(١) . ان قلة من أتباعه المقدونيين كانوا قادرين على أن يسهموا في هذه الأفكار العظيمة وانا لنقرأ عن سخط وعصيان بين حين وآخر في الأعوام التي تلت عام ٣٣٠ مما كان يدفع الاسكندر الى ندرة من أفعال القسوة هي على نقيض بين من ديدنه في السماحة وانسانية طبعه . وكانت أدواته الهامة في العمل على تلاحم الشرق بالغرب ، تأسيس المدن على النموذج الهليني وكانت مدن الامبراطورية

(١) كان الاسكندر يقدم نفسه في كل مكان على أنه نصير الأديان والعادات الوطنية . وقد أظهر مجاملات خاصة ، على سبيل المثال ، لليهود ومن المحتمل أن اليهود كانوا منتشرين في جماعات عظيمة في أرجاء الامبراطورية الفارسية وكانوا يحافظون على طرق المواصلات الداخلية (وخاصة مع بيت المقدس) ، قدموا له خدمة عظيمة كمرشدين في سيره في بلاد لا بد أنها كانت ، في الواقع ، غير معروفة . ويتحدث مهافي Mahaffy عنهم في « امبراطورية البطالمة » صفحة ٨٥ ، على أنهم « ادارة مخبراته الطبيعية » .

الفارسية قليلة العدد وهي حقيقة تفسر نهائية انتصاراته الحاسمة في الميدان .

وكان الاسكندر يقيم المدائن في كل مكان أثناء تقدمه

الاسكندرية وهي أشهرها جميعا ، في مصر ، وفي وادي الغرات ، وفي أقصى شمال شرقي التركستان ، وعلى ضفاف السند ، وعلى شواطئ الخليج الفارسي . وهذه المدائن بمستعمراتها من المقيمين المقدونيين والهلينيين كانت تكون المراكز الدائمة للثقافة الاغريقية . وكانت نتيجة هذه السياسة ، التي اتبعها خلفه ، ان حياة الاقليم الشاسع من ايجا الى السند ومن القزوين الى الحبشة أتت عليه الروح الهلينية بالتحويل ، في درجة تعظم أو تصغر ، وقد تأصل العلم الاغريقي في بابل وتأثر فن ودين وحكم الهند السياسي ، بطابع العقل الاغريقي . وعندما تمن الفكر في أن هذا العمل العظيم يمثل جزءا فقط من سياسة الاسكندر أنجزه في سهور الفراغ القليلة بين الغزوات ، تدرك أنه حدث لا يكاد يوجد له مثيل في تاريخ البشر .

٥ - وقد ادعت الاسرة الحاكمة في مقدونيا أنها من سلالة اغريقية وكان الاسكندر في خصائص الخليفة الجوهريّة ، اغريقيا - وفي اوقات ، كانت العواطف الجامحة تحطم حدود ما كان يتجمل به من شمائل انسانية وتقويم نفسى بطبيعته ولو أنه اظهر ، عن أعمال العنف القليلة المدونة ، ما يوازيها من ندم عارم . ولم تكن الثقافة الاغريقية عنده ، كما كانت عند الكثرة من ضباطه قشرة رقيقة تحجب الطبع الهمجي فيه - ان شعرها وفكرها أثارا اثاره عميقة بطبيعته المتحمسة المستعرة ، وكان لمدة ثلاثة أعوام في حياته وهو بين الثالثة عشرة والسادسة عشرة تلميذا لا رستطاليس أعظم مفكر في عصره ، ولقد تغذى خياله بقصيد هومر ، وفي بلاطه ومعسكره كانت تقام احتفالات الالعاب الرياضية وتمثيليات الفاجعة ، وفي ساعة الانتقام من طيبة عفا عن منزل بندار من أن تلتهمه السنة النيران . وعندما كان يجلس « كملك الملوك » على عرش دارا العظيم أو يتخذ في مصر انواع التشریف التي كان يتميز بها فرعون ، لم يكن أبدا ضحية مجده الخاص ، ولكن ظل قلبا وعقلا اغريقيا وكانت له قوة بدنية عظيمة وشجاعة ويجازف بحياته في تهور ظاهر في الميدان . وحدث مرة في الهند أنه وثب مع ثلاثة رفاق داخل مدينة محاصرة واصابته جراح كادت تقضى عليه . وكان لزاما على ملك المقدونيين غلاظ القلوب ، الذين كانوا ينفذون الى الحرب ، أن يملك زمام ولائهم بالبسالة الشخصية . ان قلة من الشخصيات التاريخية العظيمة يتجردون عن ضعة الروح ، كما كان الاسكندر .

ولما كان مكشوف الطوية ، صادقا ، متحمسا في الصداقة الشخصية - ويتسم بصفات الفروسية للأصدقاء والاعداء على السواء ، وتستبد به

كبرياء نبيلة وحب للشرف فانه قسر قواده وجنوده كليهما على خدمته بوشيجة قوية من المغناطيسية الشخصية ، وكانت نقاوة خصاله الخلقية مضرب الأمثال ، وأعجوبة زمانه . وبهذه الخصائص في عقله وشخصه كان يألف صفاء البصيرة وقدرة على أن يلائم بين الوسائط والغايات وأسمى نفوق في فن الحرب والجمع النادر بين الخيال السياسي وفن ادارة شؤون الدولة ، في ذروته . وكان بطل خياله الابداعي (الرومانسي) أخلوس الالياذة ولكن في الاسكندر ترى وقد ازدوج بالحماس والشجاعة وحب المجد الذي كان للبطل الهومري ، ميراث الثقافة الخلقية والعقلية الزاخر الذي جاءت به السلالة الهلينية في مجرى تاريخها الطويل .

٦ - وقد جاء في الأسطورة أن الاسكندر وهو في النزاع عندما سأل قواده عن يورثه امبراطوريته ، أجاب « للأقوى » ولمدى عشرين سنة كانوا يتآمرون ويتحاربون من أجل الميراث ، الى أن قررت معركة أفسس في فروجيا (عام ٣٠١) - الحطوط العريضة للتقسيم ، للعصر اللاحق . وقد آلت شيمه جزيرة البلقان الى لوسماخس Lysimachus وكونت مملكة مقدونية منفصلة لها السيادة على اليونان الاوربية وكان بطليموس قد احتل مصر عقب موت الفاتح العظيم مباشرة ، واستمرت أسرته في حكم ذلك القطر الى أن اندمج في الامبراطورية الرومانية . ووقع معظم أملاك الاسكندر ، الأقاليم الآسيوية من ايجا حتى السند ، في يد سلوكس الذي أصبح منذ ذلك الحين ملكا على آسيا . ولا يمكننا أن نتقصى التاريخ المفصل للمشاحنات التي وقعت بين هؤلاء الحكام خلال القرنين التاليين اللذين ثارت فيهما العواصف والتغيرات . لقد كانت سياسة شرق البحر المتوسط في أيدي حكام مستبدين ، هيلينيين كثيرا ما كانوا قادة قادرين في الحرب والسياسة ، وكثيرا ما كانوا ابداعيين (رومانسيين) في شخصياتهم وأقدارهم ، ومن الجهة الأخرى ، كثيرا ما كانوا مجرد أوساط ، لعبا للفرص والظروف ، مغامرين محبين لذواتهم أو هاويين فن ، فيهم همولة ، أو عبيدا للفساد والعاطفة التي تنزع للانتقام (١) ، وفي عصر كان يتيح فرصا لا حد لها للعبقرية الفردية فاننا لا نجد زعيما للناس من الطراز الأول الا الى تلك اللحظة التي سار فيها في فجر القرن الثاني

(١) ان أول السلوكيين ، وأول البطالة وحكام فرغاسس الأتاليديين هم أمثلة للحكام ذوي القدرة ، دمتریوس Demetrius محاصر المدين (Poliorcetes) وفورهس الافروسي Phyrus of Epirus زعيم عصاة المرتزقة من الجنود المغامرين ، الرومانسي وانطيوخس افيانيس Antiochus Epiphanes (مظهر الله) من هواة الفن . وتضيف « الأميرة - النمرة » التي ترجع الى أصل مقدوني اضافة عظيمة ، الى الاهتمام بأشخاص العهد (راجع بيفان Bevan - بيت سلوكس House of Selencus) .

شخص البطل القرطاجنى العظيم الى مصيره ، عبر المنظر العام للعالم الشرقى
يضمرو الى النهاية المريرة ، كراهية لروما لا يخمد أوارها .

ولكن هنيبال كان ساميا ومنفيا فى بلاد غريبة ، وكان حكامها
الانتيجونيين والبطالة والسلوكيين قد صيغوا فى قالب جد مغاير . وأهميتهم
للتاريخ ترجع غالبيتها تقريبا الى توسيع سياسة الاسكندر فى صبح الشرق
باليينية . وبخلاف ذلك فقد تابعوا طريقة التعاظم الشخصى او
اتبعوا فى مناهجهم فى الادارة النماذج التى وضعها السلف من حكام مقدونيا
ومصر والامبراطورية الفارسية .

ولما كانوا اغريقيا فى السلالة واللغة والعادات ، فقد كانوا يديرون دفة
الحكم فى القصور الهلينية بمعاونة الجند الهليني والوزراء الهلنيين . وفى نية
مدبرة نشروا المدنية الهلينية وحافظوا عليها ، وسبقوا فى جيلهم رسالة روما
التاريخية فى زمن لاحق ، وكان تأثير هذه السياسة فى الشرق وفى الغرب على
السواء لا يمكن حصره . وكان معظم نجاحها مستقلا عن شخصية الملك الذى
كان . كما لاحظنا لا يعمل شيئا أو فظا جافى الطبع . أن بلوببوس يوصم اسم
البطالة فى صراحة بأنهم شخوص لا أهمية لهم ^(١) . ومع هذا فقد كان
هؤلاء البطالة عينهم هم الذين درجوا على تأليه الحكام . لقد كان ملوك مصر
القديمة يعبدون على أنهم المظاهر الجسدية لأمون (= رع) وحتى الاسكندر
عبد كاله أثناء حياته . وسرعان ما شاعت العادة ، بين السلوكيين مثلا .
وفى منشأها كانت هلينية دون أن تكون شرقية . ان الدين الالومبى كما
رأينا قد صور الالهة فى شكل الانسان وفى نهج غريب عن ديانات
الشرق ، وكان اختلافهم عن الناس اختلافا فى الدرجة لا فى النوع ، الا فى
واقعة خلودهم . وفى العصر الهليني كانت الحاجة الى الخلاص يحس بها
احساسا ملحا ، والانجيل الفلسفية (التى سأحدث عنها قريبا) كانت
عسيرة الفهم عسرا تجاوز الحد ، لتستهوى الخيال الشعبى ، لماذا اذن
لا يجب اعتبار مخلص حى لها ؟ وزيادة على ذلك فإن الممالك التى تركز الحكم
فيها والننى أقيمت فى الحيل الذى جاء بعد الاسكندر كانت فى حاجة الى رمز

(١) انه يقابل « عدمهم » (Oudemēia) بقدره السلوكيين العالية ٣٤ ،
١٤ . ولو أن الاسكندرية كانت مركزا هاما للثقافة الهلينية (راجع القسم
الثانى) فقد حكم البطالة مصر على مناهج الفراعنة القدامى ، واستخدموا
القطر كضخمة شخصية تأتى بالكسب قاصرين همهم على سبيادتهم ونفعهم .
وانا نسمع القليل عن وزراء السلوكيين ولكن يبدو أنه أحسن القيام على
الحكومة حتى تحت حكم ولاة خاملين . ان البيروقراطية كانت قد وطدت
نفسها ، قبيل هذا الوقت ، فى عالم البحر المتوسط .

ظاهري للوحدة والولاء الشخصي للحاكم . وقد حققت عادة التأليه هذه المطالب الجديدة في عهد السيادة المقدونية كما بعد ذلك ، في عهد سيادة الامبراطورية الرومانية ، وانها تظهر للعبريين والمسيحيين الذين ترعرعوا في عبادة اله واحد ، خالصة ، لعنة كفر . ولكن الاغريقى والرومانى كانا ينظران اليها نظرة جد مغايرة . ولم تكن تعنى عندهم أكثر ما يعنى الوضع في قائمة القديسين ، عند المسيحيين الكاثوليك في زمننا ، الا قليلا .

لقد كانت طريقة طبيعية للتعبير عن العرفان بالجميل لمنافع الحاصل . ولو كان ما لدينا من سجلات وافيا أكثر مما هو عليه ، لكننا على الأرجح قد وجدنا أن مهمة بسط الهلينية كانت في أيدى بيروقراطية قديرة ، وأن الادارة كما حدث بعد ذلك في عهد الامبراطورية الرومانية حافظت على كفائها على الرغم من شطحات الافراد من الحكام . ومثل يسترعى النظر ، لهذه الكفاءة هو تقدم الزراعة المصرية تقدما سار على مذهب منظم ، في عهد البطالمة وهى مهمة كان قد أهملها الحكام الفرس . ونتيجة لهذا ، أصبحت مصر أهم مخزن للذخائر في الامبراطورية الرومانية ، وزيادة على هذا - فان المدينة الهلينية وهى أداة السياسة العظيمة كان من شأنها بمجرد أن تؤسس ، أن تزدهر عن طريق حيويتها الخاصة ، العضوية . وسنتحدث في قسم ثان قادم ، من هذا الفصل ، عن طبيعة الثقافة التى نشأت على هذا المنوال فى الاسكندرية عند مصب النيل وفى انطاكية على الاورطط وفى سلوكيا على الدجلة وفى مائة مدينة أخرى كانت تدين بوجودها الى الاسكندر وخلفائه . ولقد كان الملوك السلوكيون فى آسيا ، من بين الاسرات الثلاث الاغريقية المقدونية هم الذين حملوا أثقل عبء ، ومع هذا فقد ساروا قدما فى العمل على نشر الهلينية بما كان له عظيم الأثر . وكانت كل من مقدونية ومصر دولة متضامة متجانسة ومن السهل نسبيا الدفاع عنها ، بينما كانت الامبراطورية الاسيوية يعوقها عدم الوحدة الداخلية والتماسك ، كما كانت الحال عينها فى فارس فى زمن مضى ، وقام الدليل على أن ملوكها كانوا غير أكفاء على أن يصاولوا فى نفس الوقت منافسيهم فى الغرب ، وفى الشرق ، البطالمة والمقدونيين من جانب ، ومن الجانب الآخر الدولة الفارثية التى نهضت فى القرن الثالث فى ايران (١) . وسرعان ما استعادت البنجاب استقلالها (٢) ، وآلت الولايات الى الشرق من دجلة ، الى الفارثيين ، وفى

(١) كان الملوك الفارثيون أسرة سقوثية ، واستقروا على الهضبة الايرانية .

(٢) يجب ألا يغيب عن البال أن مدنا اغريقية بمستعمرات اغريقية اقيمت فى البنجاب وأن النفوذ الاغريقى فى ذلك الجزء من الهند لم ينته باستعادة الاستقلال . لقد كتب أمير وطنى الى انطيوخس الاول يطلب منه أن يرسل سفسطائيا اغريقيا الى البنجاب ، وأجاب انطيوخس أن السفسطائيين لا يباعون (بيغان ١ ، ٢٩٧) .

بواكير القرن الثاني وجد خلفاء سلوكس أنفسهم محصورين في الأراضى التى تقع بين الفرات والمشرق وقد حبسوا بين فارسيا وروما . وبعد مائة سنة ، توارى حكمهم حتى من سوريا وواجهت جحافل الرومان الفارثيين على الفرات .

ومع هذا - ففي خلال هذه القرون القلائل حقق بيت سلوكس أمورا عظيمة للمدينة . وبتأسيس طائفة عظيمة من المدن في سوريا وبلاد بابل وفي آسيا الصغرى والأراضى الواقعة حول القزوين ، فانهم غرسوا الهلينية في الشرق الأوسط ومهدوا ساحة اجتماع للفكر الاغريقى والشرقى (١) . ولم يكن الدين من جانبه واحد وحسب . واذا كانت الثقافة الهلينية قد تأصلت في آسيا ، فان ديانات الشرق أيضا بدأت تسيطر على عالم البحر المتوسط . وكان الاندماج مشحونا بنتائج هامة . انه كان في انطاكية الحاضرة السورية للسلوكيين أن تلاميذ الديانة التى قدمها الشرق الى الغرب أطلق عليهم لأول مرة الاسم الاغريقى المسيحيون (٢) .

٧ - لقد ذكرنا آنفا أن قيام الدولة المقدونية كان معناه سقوط دولة - المدنية الهلينية ، كوحدة سياسية مستقلة ، وكان هذا الشئ الذى دفعته اليونان للفرصة التى تاحت لها فى بسط الهلينية على الشرق . وكان هذا العمل الجليل ميسورا فقط لدولة عظيمة ، وفى الأئمنة القديمة فى طول مداها ، كان معنى الدولة العظيمة ، الحكم الاستبدادى ، وسنرى كيف أن روما أيضا كفت عن أن تكون جمهورية عندما استحوذت على امبراطورية عالمية . ان الأساليب التى تستخدمها الأمم الحديثة للتوفيق بين ممتلكات فسيحة الأرجاء والاحتفاظ بالحرية السياسية وهى الطباعة والنقل بالبخار وطرق المواصلات بالكهرباء ، وفوق هذا كله الحكومة النيابية ، لم تكن معروفة للأقدمين . ولكن توكيدنا ولو أنه صادق فى معظمه ، يجب أن يقبل بتحفظات معينة . ويرجع أحد الأسباب الى أن المدنية الهلينية ماتت موتا عسيرا ولقد شأهت

(١) حلت سلوكيا على الدجلة محل بابل التى أصبحت منذ ذلك الحين مجرد مركز دينى . وظلت سلوكيا مدينة اغريقية فى عهد الفارثيين (Tac; Ann. : ٦ ، ٤٢) وقد نسب اسطرابون (١١ ، ٥٠٩) ، الذى عاش فى عهد أغسطس عدم تقدم موارد هورقنيا Hyrcania واقليم القزوين فى زمنه الى ما وقع من أن الاغريق لم يحكماهما اطلاقا . لقد قامت الحكومة الاغريقية المقدونية فى حماس بتنمية التقدم المادى والاقتصادى ، الطرق والرى والمصارف ٠٠ الخ . وعن عاليه ، راجع بيفان ١ ، ٢٨١ وعلى وجه عام الفصول ١١ الى ١٤ من كتابه .

(٢) الأعمال : ١١ و ٢٦ بدأ مذهب مشرا فى الذبوع فى آسيا الغربية فى عهد خلفاء الاسكندر ، راجع السفر الثانى فصل ٩ § ٨ .

الحقبة الاغريقية المقدونية مكافحات متكررة بين القوات التي تناصر النزعة الجمهورية وتلك التي تنزع الى الحكم الاستبدادى ، ولم يكن فى قلة من الحالات أن الجمهوريات كانت قادرة على الاحتفاظ بكيانها . وكان الامر كذلك فيما يوالى حدود امبراطورية الاسكندر فى الغرب حيث ظلت جماعات مثل سيراكوز وطرنم Tarentum ومسيليا Massilia مستقلة الى أن أدمجت تحت حكم روما . وفى جهات أخرى نجد المدن الفردية تحتفظ أو تسترد استقلالها طبقا لظروف الزمان والمكان المتغيرة . وفى اليونان الاوربية فازت أثينا واسبارطة وفاز التحالف الايطولى والتحالف الاخائى بحكم ذاتى لفترة عابرة ، وشبيه هذا يصدق على بوزنطية ، وهرقليا ، على الاكسين وخيوس وبعض بلدان ايجة ، ولقد استتمعت المدينة الجزرية ، رودس « خاصة » بعهد باهر من الرخاء التجارى تحت حكومة جمهورية ألغت القرصنة وبسطت حمايتها على الولايات الاضعف دون فرض ضريبة وأنشأت مدونة قانون بحرى ، جليلة الشأن وقامت بالوصاية على الدين والثقافة جميعا وحافظت على ابتعادها عن المشاكل الدولية حتى منتصف القرن الثانى (١) .

ومثل آخر : كانت فرغامس Pergamos التي ازدهرت كموطن للفن والثقافة تحت حكم ولاية منها ، بيت أطلس Attalus وكانوا أمراء من التجار ذوى ثراء دافعوا عن دمار الهلينية ببسالة ضد حملات المغول الهمج على آسيا .

ولكن غالبية المدن الهلينية كانت خاضعة سياسيا لاحدى الممالك المقدونية الثلاث ولقد سمح لهذه المدن ، فى معظم الحالات بالحرية التامة فى الحكومة المحلية واعترف بكثير منها مثل أزمير أو المدن الهامة فى كليكىة وفينيقيية ووادى الاورنط بأنها « مقدسة ومعصومة » ، تقوم خارج مذهب الادارة العادى ، وكان مركزها تحت الحكم المقدونيين . كما كان فى عهد روما ، مماثلا لمركز المدن الهانسيية الحرة فى زمن الامبراطورية الرومانية المقدسة . وكان الحكام حريصين على مراعاة صور الاحترام الخلقى بتقاليد دولة - المدينة الهلينية ، العليا ، وأن يتحدثوا ليس عن « رعية » ولكن عن « حلفاء » وعن « المساعدات الاختيارية » ، بدلا عن « الجزية » وأن يقولوا صالحهم المادى بمنح سخية وخاصة لمعابد المدن وأن يحجبوا على وجه عام ، تحت قناع من الحرية المعترف بها ، حقيقة الخضوع القاسية . وكانت المدن فى دورها على استعداد بأن تتزلف الى الطغاة بأنواع التكريم الالهى ،

(١) أسست رودس عام ٤٠٨ وكانت تقوم بما يقوم به الوسييط ، بين اسكندرية وسوريا والاكسين والموانى الاوربية .

وهذا علامة على تدهور في مزاج دولة المدينة في القرن الخامس (١) . وفي جميع الأحوال ، كان السلوكيون يحبون الهلينية حبا صادقا ، وكانوا يعلمون تمام العلم أن بسط الصبغة الهلينية كان يمكن انجازه فقط عن طريق متعضى المدينة . ولكن عندما يضع المرء موضع الاعتبار الكلى استتقلال المدن الفردى وتضاعف البلدان الجدد ، في المملكة السلوكية وسياسة التسامح التي جرى عليها حكامها للتقديم منها والجديد على السواء فإن الحقيقة تظل قائمة بأن سيادة دولة - المدينة الاغريقية ومعها أصل نبع روح الحرية السياسية قد ذهبت عن الوجود . وعلى ذلك يمكننا أن نقدر المقاومة في حماس شديد التي قامت بها أثينا ضد فيليب بزعامة ديموثينيس ورفض الولايات الاغريقية من أن تعميها روعة انتصارات الاسكندر التي تأخذ بالابصار ، عن التضحية الحقيقية التي كانت تترتب على تلك الانتصارات . ولقد شعروا - بالغيرة - أن ضربة قد وقعت على الجذور التي افرخت منها الهلينية . وفي الواقع كان الامر كذلك . وفي بطنه ولكن في توكيد فقدت السلالة الاغريقية نشاطها القديم في غصون العصرين الاغريقي - المقدوني والاغريقي - الروماني .

وكان الاغريق « أشبه بمالك أسرة قديمة لا مكوس عليها الا للملك ، رهن وفقد ميراثه ولكن لا يزال يسمح له بأن يعيش في بيته القديم . ولقد ذهب عنهم سحر الملكية الجوهرى ، ومعهم كل بهجة الحياة الاجتماعية وفيضها ، ولو أن هذه الكارثة كانت لتعمل على توسيع أفقهم العقلى وتوجد لهم مصالح جددا وعملا آخر يضطلعون به - فإن ينبوع جهدهم العقلى ما كان ليجرى مرة أخرى بمثل ذلك الصفاء والقوة كما في أيام الحرية الكاملة لدولة المدينة » (٢) الفردية . ودون ريب ، تفتحت في نفس الوقت امكانيات جدد أمام الهلينية وقد أتت مع تبدل الأحوال الاقتصادية ، نتائج اجتماعية وسياسية بعيدة المدى ، فانه بوجود معظم التجارة الشرقية في يد اليونان ، تقدمت مؤسسات الأعمال في قياس جديد على نطاق واسع . وحلت محل مناهج المصنارف القديمة مناهج أخرى ، واتسعت مسافة الخلف بين صاحب رأس المال والعامل الصناعى مع النتائج التي لا معدى عنها في أن أمان المدن التجارية الهامة أصبح يهدده الخوف من ثورة وارتفعت الأسعار في كل مكان بحيث خرجت عن كل تناسب مع زيادة الأجور وقد فقدت الدراخمة بين القرنين الرابع والثالث نصف قيمتها وكانت الجماهير في خطر دائم من حدوث مجاعة ولم يكن يوجد طبقة وسطى عظيمة لتكون جسرا للهوة التي كانت تفصل ذوى

(١) لقد منحت ديموقراطية مليطوس المعادة الرتب الالهية على انطيوخس الثانى الفاسد (Theos) . وعن تأليه الأمراء ، راجع مرى « خمس مراحل » الصفحات ١٣٣ وما بعدها .

(٢) ورد قول - Warde Fowler - دولة المدينة الصفحات ٣٠١ - ٢ .

اليسار العظيم عن الفقراء فقرا مدقما . ولهذا قامت الصيحات لمجموعة الأدوية التي تنفى جميع الأدواء الثورية كالفناء الديون وتقسيم الأرض تقسيما متعادلا ومصادرة الملكية الشخصية وتحرير العبيد - تلك التي وجدت عضدا نظريا من أفكار الرواقين التي كانت تنتشر الآن بين الطبقات المثقفة (١) . وعلاوة على هذا - فإن غزوات الاسكندر جلبت عالما أوسع الى داخل مجال نظر الانسان ، أكثر مما كان يتواءم مع الاحتفاظ بوطنية تتصل بالمدينة وحسب . وقد مهد استبداد مقدونيا وروما وهو يحطم الحواجز التي كانت تفصل الاغريق عن الهج والغربي عن الشرقي ، الطريق للمثل الأعلى للمذهب الكوني الذي كانت تعبر عن فلسفة الرواقين ، وفي القضاء الروماني وأخيرا في الديانة المسيحية . لقد كان يوجد شيء فيما خلقت له العبقريّة الاغريقية وفي روحها يتعالى على قصور السلالة التي انتهجتها . كانت الهلينية نورا ليس فقط للهلينيين ، ولكن للبشرية ورأت الساعة التي غابت فيها في سماء موطنها ، فجر طلوعها بين الشعوب غير الهلينية .

« ٢ - الثقافة الهلينية »

٨ - كان البلى الذي أصاب الهلينية جد تدرجي لأن الثقافة الاغريقية احتفظت بنضارتها وتميزها خلال الفترة المستطيلة من التدهور ، لقد غاضت الينابيع ، لكن الجدول كان لا يزال يفيض ولو أن جرمه أصبح أقل وفي ركود أعظم . وكانت الأمواه ، أمواه اليونان .

وغرضنا هنا أن نضع شكلا مجملا لخصيصة تلك الثقافة العامة لها يطلق عليه العصر الهلينيستي الذي يقع بين حكم الاسكندر وحكم روما (٣٣٠ - ٣٠ ق.م) (٢) . وفي فصل قادم ، سنتحدث عن الهلينية في عهد الامبراطورية الرومانية ، ويجب أن نأتي على ذكر حقيقتين حاسمتين ، في مستهل القول : **أولا :** كان يعني فقدان استقلال المدينة (الاستقلال المدني) أن مهمة الحكم الخطيرة لم تعد بعد من شأن المواطن الفرد ، ومنذ ذلك الحين ، يسير الأدب والفكر في جو من المصالح الشخصية وجو الحياة الاجتماعية ، وهي بمعزل عن الحياة العامة .

(١) راجع تارن Tarn ، «العهد الهلينيستي» الصفحات ١٠٨ - ٤٠ عن « المسألة الاجتماعية » بتوضيح مفصل ، من الحركات الثورية في اسبارطة في القرنين الرابع والثالث (Agis, Cleomenes and Nabis)

(٢) إن التعبير « هليينستي » Hellenistic غير واف ولكنه شائع الاستخدام . وأفضل منه التعبير الاغريقي المقدوني Graeco-Macedonian أما « الاسكندري » الذي يستخدم كثيرا ، فانه مفرر جدا . ومغزى التعبير «Hellenistic» أضيّق كثيرا من مغزى «Hellenism» .

ثانياً : ان اليونان تعي وعيا يطردها ازدياداً ماضيها الذي أنجز ، وهي حتى ذلك الحين كانت خالقة الحاضر والمستقبل تصبح الآن تاريخية تنزع الى التأمل . انه عندما يسير الواعز للخلق الى بلى ويبدأ النشاط في الوهن نتحول السلالة صوب جلال أعمالها الماضية لتحلل وتسجل . ان بومة منروا Minerva لا تشرع في طيرانها الى أن تبدأ ظلال المساء تخيم (١) .

٩ - ان الأدب الهليني والفن الهليني هما نتاج أحوال الحياة والفكر التي تغيرت . ان الأدب - بصفة عامة - يتميز بالثقة والعلم وبالنقد والتأمل ومحكاة النماذج القديمة ، وصب الخمر الجديدة في الفوارير العتيقة أو مرة أخرى ، بالرغبة في تقديم التسلية الاجتماعية لجمهور منقذ وهو يعتمد اعتماداً وثيقاً على رعاية العظماء . وفي هذا المجال ، كما في مجال العمل ، كان العصر عصر رجال ماهرين من الدرجة الثانية ، وكان رجل العلم الشاب حقاً ، أرتوستينس Eratosthenes (لقب ببيتا Beta) (أي من الدرجة الثانية) . ولو أن هذا فيما يرجع ، كان التعبير عن الغيرة التي كان يشعر بها اختصاصيون نحو زميل له نظرة عقلية أكثر اتساعاً من نظرتهم . وانا اذا استثنينا رودس ، وأثينا ، فان مراكز النشاط الأدبي والعلمي الهامة ، كانت قصور الطغاة ، وكان الشعر بالطبع ، أكثر نضارة أيضاً كانت الحياة في أعظم حرية ، كما في صقلية فيما يوالي مدى الامبراطورية المقدونية أو في أثينا ، موطن التقاليد العظيمة ، حيث كان مظهر الاستقلال السياسي على الأقل ، يحافظ عليه في حماس .

وكانت أناشيد الرعاة (idylls) لثيوكريتس Theocritus السيراكوزي (حوالي ٢٧٠) آخر الأعمال الجليلة التي قامت بها عبقرية الشعر الاغريقية الجديدة بالذكر ، ولها مرتبة هومر وواضعي الفاجعة الاثينكية (٢) .

لقد خلق ثيوكريتس صورة جديدة من الأدب . وكان مصدر الالهام لشعر المراعي لجميع الأزمنة اللاحقة بما فيها قصيد المراعي ، القصص Eclogues لفرجل ولوسيداس Lycidas الملتون وأدونس Adonis لشلي . وقد ازدهرت في أثينا « المسلاة الجديدة » ، في الإخلاق (٣٣٠ - ٢٥٠) التي كانت تصور أنواع الخصائص والمواقف في الحياة الاجتماعية الاغريقية ، بدلا من الشخصيات الأحياء الذين كان أرسطوفانس ، يهجوهم في تهكم ، ولقد جلب مناندر Menander وزملاؤه من واضعي الفاجعة ، الى المسرح ، الوالد المشاغب والأبن البسرف والطفيلي ومستودع الأسرار من الاناث ، والمحظية والبخيل ،

(١) هجل Hegal - مقدمة « فلسفة الحق Philosophy of Right »

(٢) ولو أن ثيوكريتس عاش في الاسكندرية في عهد بطليموس الثاني ،

فان روح شعره صقلية .

والمغامر الثرثار ، من أشباه الهرفجونيين Harpagons (١) والدجالد دلجتيين Dugald Dalgettye (٢) فى ذلك العصر ، وفى المسلاة والأمثال والملحمة كان أمر الحب بين الرجل والمرأة ، الذى كان يخلو منه بصفة ظاهرة ، الشعر الاغريقى ، الأسبق قد صار موضوعا سائدا (٣) . وعلى سبيل المثال كتب افولونيس ، الشاعر الرودى ، وهو يقلد صورة الملحمة ، فى عهد أسبق ، فى أبيات من ستة مقاطع قصة الأروغونوط Argonauts وحب ميديا ليسون Jason ولقد عبر عن روح الرومانسية (الابداعية) أجمل تعبير فى شعر المراثى الذى كان موطنه الاسكندرية .

وكانت المدنية نفسها ، تحت رعاية البطالة ، مركز العلم الهلنى وكانت تقوم مكتبتان ، تضم أحدهما ٧٠٠.٠٠٠ مخطوط ، وهما يدلان على الحماس الذى كان فيه يجمع الأمراء والعلماء ، عيون مصنفات الماضى ، وكانت مدارس من النقاد والشرائح تكدر فى مهام التحرير والتفسير . وإلى جانب العالم كان يوجد الطفيل والمتفقه . وكان العصر يجمع بين الثقافة العامة وبحث المتخصص . وبفضل البردى أصبح يوجد جمهور مثقف يعكف على القراءة وقد ازدهر النقد اللغوى والنقد الجمالى فى الاسكندرية ، وسهات فروع العلم قدما الى الامام بمعاونة الرسائل والمعطيات الجدد . ومن بين العلماء الذين كان موطنهم المتحف كان رجل الهندسة اقليد Euclid وأرشميدس الذى كشف مبدأ الرافعة والجغرافى ارطوسثينس Eratosthenes القورينوى أول من قاس درجة عرض على سطح الأرض والعالم الهومرى أرسطرخس (Aristarchus) السمثراقيوى (Samothrace) .

ولقد كان تقدير ارطوسثينس لمحيط الأرض بثمانية وعشرين ألفا من الأميال قريبا من الحقيقة قرابة تدعو الى الدهش حقا ، وكان ارطوسثينس ايضا هو الذى أدمج فى مصورته الجغرافية ثمرات الرحلة ذائعة الصيت التى

(١) شخصية فى مسلاة موليير «البخيل L'avare» مأخوذة عن Euclis لفلاوطس Plautus كان يمتلك خيولا لا يطعمها جيدا وخبدا لا يكسوهم ، أما تجويعه الفيران فليس محققا . (المترجم) .
(٢) دلجتيين . . . كابتن دجالد Dugald «Capt. Dugald» ، شخصية فى رواية «سكوت» Sir. W. Scott ، «Legend of Montrose» كان طالب لاهوت وأصبح من الجنود المرتزقة وهو شجاع ويمكن وضع الثقة فيه اذا دفع له مرتب حسن . (المترجم)

(٣) كان يوريبيدس أول واضعى الفاجعة الاغريقى ، فى اتخاذ حب الجنس من موضوعا أساسيا . ومع هذا ، فإن الحب فى معناه الحديث المثلث نادر فى الأدب الاغريقى . (راجع انطماخس القلوفونى Antimachus of Colophon ومركز المرأة فى الشعر الاغريقى تأليف (ى. ف. بنيكى E.F.M. Benecke

قام بها فوثياس (Pytheas) المرسيلي (أواخر القرن الرابع) في محاذاة ساحل أوروبا الأطلنطي حتى بريطانيا وسواحل بحر الشمال الى مصب الألب . وفي الواقع يمكن أن يعد اغريق القرنين الرابع والثالث خالقي علم الجغرافيا . وفي منتصف القرن الثالث وضع الرياضي والفلكي العظيم أرسطرخس الساموسي (حوالي ٣١٠ - ٢٣٠) نظرية مركزية الشمس ، وهو يقتفي آثار العلم الفيثاغوري والأفلاطوني^(١) . وفي الاسكندرية أيضا أصبح علم التشريح لأول مرة أساس علم الطب (هاروفلس Herophilus حوالي ٣٠٠ ق م) . وفي المستعمرة العبرية في الاسكندرية التي كانت تتمتع بميزات خاصة ، أتى اتصال الثقافة الشرقية والثقافة الغربية بالثمار في اصدار الترجمة السبعينية Septuagint ، النسخة الاغريقية لاسفار العهد القديم^(٢) .

ان هذه الحقبة تسترعى النظر أيضا بمصنفاتها التاريخية وأشهرها مؤلف بلوبيوس (القرن الثاني) وهو رجل سياسة جمهوري اغريقي حبل كرهينة الى روما في زمن فتح مقدونيا واستمتع بصحبة الرهط الاسقيفيوني ، ذائع الصيت .

ولقد سجل في لغته الأصلية توسع الدولة الرومانية وقد ألهم بذلك - وهو اعتراف نادر من مؤلف اغريقي - الاعتقاد في صلاحية السلالة الرومانية لحكم العالم . ومن الأمور ذات المغزى عن نجاح سياسة بسط الهيمنة كان تاريخ مصر الذي وضعه الكاهن الوطني مانيثون وتاريخ بابل كذلك الذي وضعه الكاهن الوطني بروسس (Berosus) وكان عالما بابليا ، يحمل الاسم الاغريقي سيليوكس هو الذي ناصر النظرية الجديدة لمركزية الشمس في السموات ، في القرن الثاني . ولقد أوجد الجو السياسي الذي كانت تتوفر فيه حرية أعظم في أثينا ورودس دافعا لقيام مدارس الفصاحة ذائعة الصيت . وستحدث في قسم قادم عن فلسفة العصر . وكان العهد أيضا عهد تنظيم

(١) راجع بورنت El.Gk. Ph. صفحة ٢٢٩ و Heath ، أرسطرخس الساموسي Aristarchus of Samos . ويذكر « بورنت » أن كبرنيكس صرح في خطاب للبابا بول الثالث أن دراساته للعلم الفيثاغوري هي التي أوجدت لديه الدافع لاعادة الكشف عن نظرية مركزية الشمس . وقد عاش اقليد في عهد بطليموس الأول وينتمي أرشميدس وأرطوستينس الى القرن الثالث وأرسطرخس السمثراقيوي للنصف الأول من القرن الثاني .

(٢) أصدرت الترجمة السبعينية (LXX). وقد أطلقت عليها هذه التسمية لأنه كان يظن أن سبعين مترجما قاموا بوضعها ، في القرنين الثالث والثاني . وقد عرفت الكنيسة المسيحية الباكرة « العهد القديم » عن طريق هذه النسخة على الأخص .

المعرفة في المدارس والمكتبات . ولقد قامت مراكز للجامعات ، على انموذج أثينا ، في العالم الهليني ، كما في رودس ، وفرغامس وطرشوس في كيليكية وفي ختام تاريخها ، فنيت الثقافة الاغريقية اعياء من فرط التعب في أكاديميات العلم ، ولكن كان في أكاديميات العلم أنها نهضت مرة أخرى وسرت فيها الحياة ، في ايطاليا في عصر النهضة . ومظهر آخر من مظاهر الادب الهلينستي جدير بالملاحظة . لم يعد المؤلفون يعد يكتبون كما كان يكتب واضعو الفاجعة الاثينيون ، لاجل مواطنيهم ولكن وفقا للنظرة العالمية الجديدة للجمهور كان عالميا ، وفي الوقت ذاته تدرب على ثقافة الماضي .

١٠ - وكان الفن في ذلك العهد كذلك ، منذ بداية القرن الرابع فصاعدا يعبر عن النظرة الى الحياة التي تبدلت ، واذا كان فن العمارة وفن النحت في عصر فيليب والاسكندر بعوزهما استقرار وعظمة الطراز السابق فانه يوجد كسب يعوض عن الخسارة ، في اتقان الصنعة اتقاناً متزايدا وتصوير العواطف الانسانية في حرية اعظم وقدرة عجيبة على ابراز الخصائص الفردية . وكلما تقدم الزمن أصبحت آيات التدهور ظاهرة للعيان في حب للناقاة التي تفيض زخرفا ، وما يبذل من جهد واع لمحاكاة المذاهب العتيقة .

ومن بين أروع آثار القرن الرابع التذكارية ، يمكن دراسة عمليتين منحوتين ، في المتحف البريطاني « الضريح Mausoleum » وهو القبر الذي أقيم في هلقرناسس Halicarnassus لماوسلس Mausolus ملك كاريا Caria (حوالي ٣٥٠) وهو عمل ، حمل سسقفوس Scopas الفارسي عبء القيام بجزء منه و « محراب نريد Nereid » من اكسنثس في لوقيا ، والاثنان يقومان شاهدين على ما ظفرت به الثقافة الاغريقية من طول باع بين السلالات غير الهلينية في آسيا الصغرى . وفي الومبيا لا يزال يمكن رؤية هرمص لافراكسيطيلس Praxiteles وهو نحات من المدرسة الاثينية خلقت تمائيله للالهة أفروديت طرازا جديدا من الجمال النسوى في الفن . وربما كان أعظم تقدم فني اختص به ذلك الزمن قيام التصوير . ولقد جلس الاسكندر مرارا الى النحات لوسيبوس Lysippus والى المصور الاغريقي العظيم أفلس Apelles القلوفوني . ولا توجد صور بين أيدينا ترجع الى ذلك العصر ولكن قسمت زعماء الحكام محفوظة على عدد عظيم من الجواهر والعملية . وفي فن العمارة ، عاين القرن الرابع استخدام تاج الأعمدة الكورنثي ذي الزهور (على سبيل المثال أثر خزجي للوسقراطس - Lysicrates في أثينا ، حوالي ٣٥٥) وفي اليونان الأصلية ، حلول الطراز الدوري الصارم محل الطراز الايوني الزاخر ، وعندما نصل الى القرن الثالث نجد أحسن فن كاحسن شعر ، يزدهر حيث تكون الحياة على أعظم جانب من الحرية . وفي اسكندرية كان يوجد اليسير مما هو جدير بالتسجيل فيما عدا احياء مصطنع للفن

المصرى الوطنى تحت رعاية البطالة ، ولقد ازدهر بطبيعة الحال تخطيط المدن .

ولما كان تخطيط المدن موضع اهتمام الاغريق منذ أن استخدم بركليس هيبوداموس Hippodamus المليتوسى لرسم موقع ثورى Thuri في مريعات ، ومنذ أن أعاد ديونوسيوس الأول وضع سيراكوز ، فقد ازدهر ، بطبيعة الحال ، في عهد حكام مقدونيا وأقيمت الاسكندرية وانطاكيا في تخطيط محكم يسير في مذهب منسق . وأعظم كل المدن جمالا ، في الموقع والبناء ، كانت فرغامس وهى من خلق أمراء بيت أطلس Attalus وكان كل من فرغامس ورودس مركزا للفن الحى في القرنين الثالث والثانى . وقد نمت الاولى حول حصن ربوة الى أن أصبحت حاضرة الأمراء المثقفين الذى على غرار أسرة مديشى (Medici) في عصر النهضة ، كانوا يجمعون حولهم الفلاسفة والفنانين . ولقد كانت رسوم فرغامس المنحوتة التى تخلد ذكرى انتصارات أطلس الأول (٢٤١ - ١٩٧) وأمينيس الثانى (Eumenes II) (١٩٧ - ١٥٩) على الغال أجمل ما وصل اليه ذلك العصر (١) . وفى تاريخ معين سابق ، توجت رودس مقاومة البطولة التى قابلت بها قوات الطفيان ، بإقامة التمثال الهائل (Colossus) وهو تمثال لاله الشمس ، يبلغ ارتفاعه ١٠٠ قدم ونيف ومن صنع أحد تلاميذ لوسيبوس ، ولقد شكلت مجموعة لاوقون Leocoon على نهج المدرسة الرودسية وكان فروطغنس (Protogenes) الرودسى أحد عظماء المصورين في زمنه . ويمثل ما جاء بعد ذلك من تطورات في فن النحت ، أعمال معروفة جيدا مثل أبولو بلودير Appollo Belvedere وفينوس (أفروديت) ميلوس . وتصوير المناظر المألوفة أو الريفية ، وصور مناظر داخل المنزل ، كأمثال صور عظام الفنانين الهولنديين في القرن السابع عشر كان له ذبوع هويقدم تمثيلا لمشاهد الحياة الاجتماعية « فى المسلة الجديدة » ، وفى عهد السليوكيين ذاع الفن الاغريقى صوب الشرق ، فى القارة الآسيوية . ويؤكد لنا الباحثون المعاصرون أنه كان عن الاغريق الذين حكموا لمدة قصيرة فى البنجاب أن الهنود تعلموا نحت الحجر وإقامة الأبنية به . ويجب أن نتذكر أيضا أن أدب وفن العصر الهلينستى وضعا طابعهما على أدب وفن روما وعلى هذا ، فعن طريق روما ، أثرا على المدنية الخالفة تأثيرا أكثر عمقا من تأثير الأعمال المثالية العظيمة فى عصر بركليس .

(١) مثل «رجل الغال فى النزاع» المحفوظ فى متحف كابثلون Capitoline

وكثيرا ما يطلق عليه خطأ (المجالد فى النزاع Dying Gladiator)
لقد كان فن فرغامس يتميز بواقعيته الفاجمية وتفوق الصنعة وكانت تشيع فيه الحياة الحقة أكثر من أى فن آخر فى ذلك العصر .

« ٣ - عصر أرسططاليس »

عندما فقد العبريون استقلالهم القومي سعوا الى اللباز بالدين . ولقد ترك تدهور دولة - المدينة الهلينية الاغريق ، دون ذلك المصدر للتعززة . ولقد رأينا أن معتقدات الاغريق الشعبية كفت عن أن تؤثر في أولئك الذين كانوا أعظم السلالة تفكرا وجدا وقد تحول هؤلاء - وهم أرسططراطية الثقافة - الى الفلسفة لتهديم السبيل وتقدم العون . انها فلسفة هذا العصر هي التي أثرت أعمق تأثير في أجيال البشرية اللاحقة .

ولقد كان أعظم تلاميذ أفلاطون ، أرسططاليس - معلم الاسكندر خلال ثلاثة أعوام - وربما كانت هذه أروع آصرة تقوم بين أشخاص في تاريخ البشرية . ان أرسططاليس ، على غرار الاسكندر ، يقف عند مفترق الطرق وتتأصل فلسفته في فلسفة أفلاطون ولا تكاد توجد فكرة من أمهات أفكاره لا توجد جراثيمتها في الديالوجات الأفلاطونية ^(١) . ولقد فاق أفلاطون الذي كان موقفه من حياة عصره موقف الاستنكار دون ترفق ، في أنه يمثل الحياة الاغريقية كما كانت تشتمل عليها دولة - المدينة . ويبدو أن أرسططاليس لم يكن عليما بأن ناقوس نعي المدينة الحرة قد دق في خايرونيا ، ان ادراكه القوى بالواقعي في الطبيعة والحياة الانسانية واهتمامه بظواهر العالم الهليني الاجتماعية والطبيعية ، هما اللذان جعلاه من فلسفته شرحا موضحا للثقافة الاغريقية .

وكان لأفلاطون نظرة أكثر عمقا ، في نوازع أعمال البشر ، ولكن أرسططاليس كان أكثر قربا من الهليني الذي يمثل النوع .

وكان مثله الأعلى السياسي ، دولة - المدينة الهلينية التي جاء عليها الإصلاح لا الثورة ومثله الأعلى للفرد ، حياة العقل التي تهيب الصورة كمبدأ للتناسب والقياس ، لمجال واجب المواطن الزاخر المتنوع الذي تقدمه حياة الدولة الاغريقية .

انه هذا الاحساس بقيمة الواقع الذي أدرك ، وضرورة تحقيق الصورة المثالية بين مواد الأحوال الفعلية ، هو الذي يميز أرسططاليس عن أفلاطون .

(١) كان أرسططاليس في الواقع أول أفلاطوني . وتفسير فلسفته على أنها التطور الأصلي لفلسفة أفلاطون أدق الى حد بعيد من التنويه بالتناقض بينهما ، كما جرت عليه الحال مرارا كثيرة في الأزمن اللاحقة . وبالطبع كان أرسططاليس تحدوه الرغبة في أن يوضح لجيله المواضيع التي انحرف فيها عن المذهب السائد . وكان هذا مدعاة لاساءة التفسير .

وعلى مثال أفلاطون كان يعتقد أن حياة التأمل هي أسمى حياة ، وعلى مثال أفلاطون كان يعتقد أن أعظم ما يكون حقيقيا هو أعظم ما يكون قابلا للمعرفة ، وقد التمس هذه الواقعية في الحقائق الأبدية التي تكون موضوعات الفكر ، لا الحس . ولكن هذه الصور الأبدية لم تكن في اعتباره كائنات عالم ينأى عن عالم التجربة الفعلية ، وإنما كانت المبادئ التي تسيطر على العالم الذي كان يعيش فيه (١) .

١٢ - وبينان مجال وقيمة فلسفة أرسططاليس في نطاق موجز ، هو مهمة غير عملية وخاصة لأنه لا يوجد توليف واحد يرجع إليه ، يهيء ، « كجمهورية » أفلاطون ، أساسا شاملا للدراسة .

لقد كانت أعماله عجالات تخصص كان يحتفظ بها في الغالب ، في صورة تذكرات محاضرة ، هو أو تلاميذه . موجهة الى عقول على المام بالموضوعات العديدة ويفترض فيها سلفا معرفة بأجزاء المذهب الأخرى والعلم كما لاحظنا ، كان قد أخذ طريقه للتفرع الى أقسام متنوعة . وتزخر كتابات أرسططاليس بالصيغ والتعابير الصناعية التي تفصلها هوة واسعة عن لغة التخاطب العادية . وليس الأمر في الواقع أن أرسططاليس يصعب فهمه أكثر من أفلاطون ، ان أفلاطون يصعد بأجنحة قوية نحو الشمس . وقليل هم الذين يمكنهم أن يتتبعوه في طيرانه ، « ان حاملي عصا باخوس thyrsus كثيرون ، ولكن الملهمين قليل » (٢) . ومع هذا فان عبقريته تجتذب القارئ دون مقاومة الى طبقة الهواء العليا ولو أن البهاء غير المعتاد يبهمه ويربكه . وليس لأرسططاليس مثل هذه الجاذبية السحرية . وفي دراسة فلسفته يتطلب الأمر من البداية ، جهدا صابرا وكامل قوة تلك « الرغبة في المعرفة » التي يقول لنا عنها انها طبيعة في الانسان (٣) . ولم يكن لدى معرفته ما يعادله في ذلك العصر أو في أى عصر آخر . والعجالات الموجودة لدينا ، تشبهل مصنفات في المنطق والمنهج العلمى وفي الفلسفة الأولى.

(١) فى الرسم التمهيدى Cartoon لرفائيل عن « مدرسة أثينا » . صور أفلاطون وهو يشير الى أعلى ، الى السماء ، وأرسططاليس وهو يشير الى أسفل ، الى الأرض . ويتضح من « أرسططاليس » لجيقر Jaeger تطور أفكاره بعيدا عن « العالم الأفضل » لأفلاطون ، واتجاهها نحو تركيز فى العلم الايجابى .

(٢) Phaed. ، ٦٩ .

(٣) Met. : ١ ، ١ ، الكلمات الافتتاحية .

تراث العالم القديم

أو الميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة) (١) وفى الطبيعة المادية وفى علم الاخلاق وفى علم النفس ، وفى الفصاحة وفى الشعر ، يضاف اليها عدد وافر من الكتابات جليلة الشأن فى علم الحياة . ويمكن أن يعد أرسططاليس واضع علم الحيوان وتلميذه ثيوفراسطس واضع علم النبات . لقد كان هذان العلمان هما اللذان كان يعنيهما شارلس دارون عندما كتب « لقد كان لنايوس Linnaeus وكوفيه Cuvier الهينلى ولو فى طريقين جد مختلفين ولكنهما كانا مجرد صبيى مدرسة بالنسبة الى ارسططاليس العتيد » (٢) . وفى مجال واحد فقط خبا ضوءه أمام غيره فى عصره ، فى علم الرياضسة حيث قام الدليل منذ زمن بعيد على أن نقائصه ، نظرا لما كان له من سلطة على الأزمن التالية ، كانت عقبة فى سبيل تقدم تلك العلوم - كالفلك - التى تعتمد على أسس رياضية . وبالنظر الى استحالة احصاء هذه المجموعة العظيمة من البحوث النظرية فاننا سنختار مسألتين من شأنهما أن يوضحا المبادئ الأصلية فى فلسفة أرسططاليس وكذا اختلافها عن فلسفة أفلاطون ، ونقدم القارىء الى تصورات أثرت تأثيرا عميقا على مدرجة الفكر الهلينى والفكر فى العصور الوسطى ، فيما جاء بعد ذلك من الزمان . وهذا هو مبدؤه عن الموجود ومثله الأعلى عن الخير الأعظم للانسان (٣) .

١٣ - نظرية الموجود : كانت واقعة التغير الظاهرة على السواء فى الحركة المادية وفى نمو المتعضيات الحية Living organisms وفى تقدم الانسان العقلى والخلقى هى التى أوجدت لأرسططاليس مسألة العلم التفكيرى ، الأساسية - ان التغير يتضمن ذاك الذى يتغير أى أن موضوعات التغير الدائمة - الأشياء الجامدة والأشخاص - التى تكون فى آن حارة ، وفى آن باردة وفى آن صالحة وفى آن طالحة وتتخذ صور الحرارة والبرد والفضيلة والرذيلة . ان البرد لا يصير حرا ولا تكون الفضيلة رذيلة - انها ليست الصورة التى تتغير ولكن الفرد الذى يستقبل الصور . وهذه الافراد الجامدة ،

(٢) أطلق تسمية « متافيزيقيا Metaphysics » (أى ما وراء الطبيعة) على هذه العجالة كتاب جاءوا بعد ذلك ، فى الأزمنة القديمة ، لسبب عرضى محض وهو أنها جاءت تالية لفيزيقيا Physics فى ترتيب أعمال أرسططاليس التى نشرت . وعلى هذا استخدم التعبير متافيزيقيا Metaphysics بصفة عامة ليدل على علم الموجود ، وهو مادة هذه العجالة . وقد أطلق أرسططاليس نفسه على هذا العلم « الفلسفة الاولى » أو علم اللاهوت .

(٢) دارون ، حياته ورسائله ، ٣ ، ٢٥٢ .

(٣) عن الأقسام التالية ، على القارىء أن يرجع الى المصنفات التى وضعت عن أرسططاليس ، التى جاء ذكرها فى فهرست قائمة الكتب فى المجلد الثانى .

هذا الحجر أو هذه الشجرة أو سقراط مركبات من المادة (hylé) والصورة (eidos) ولا يمكن إرجاعها إلى مجرد صورة لأنه كما قلنا ، لا يمكن للصورة أن تتغير ولا يمكن إرجاعها إلى مادة ، لأنه لا يوجد شيء إلا إذا كان ثمة شيء ، معين ، وهب خصيصاً أو صورة كحجر أو شجرة أو رجل . ومجرد مادة ، غير محددة على الإطلاق وخالية من الصورة ، ليست موجودة وجوداً فعلياً ولكن تصور محدد ، لازم لشرح الضرورة والتغير . كيف يمكن في الحق لأي شيء ، أن يصير إلى وجود ، من ذاك الذي لم يكن من قبل شيئاً محدداً ؟ والصورة ، مرة أخرى ، لا وجود لها كما كان بطن أفلاطون ، في سماء ، تسمو على الحس بمعزل تام الانقطاع عن عالم تجاربنا الواقعي لأنه ماذا كان يمكن لمن تلك الصور المنعزلة أن تضيف إلى وجود عالمنا عالم التغير ، أو إلى معرفتنا به ؟ وعلى هذا فقد كان أرسططاليس يذهب إلى أن الفرد الجماد وليس مجرد الفرد العام ، هو الذي له وجود جوهري . وعندما سُئل ماهو الجوهر (ousia) ؟ - أجاب : « هذا الحجر ، هذه الشجرة ، أنت ، وأنا »^(١) . وجميع حالات الموجود الأخرى هي صفات وميول أو علاقات هذه الحالة الأساسية ويمكن أن توجد فقط وهي تعتمد على الموجود الجوهري . ان « أسود » أو « تعادل » ، يمكن فقط أن يكون لهما وجود إذا كان يوجد شيء أسود أو شيئان متعادلان ، وشأن الفلاسفة هو الكشف عن علل هذه الجواهر الفردية وبهذا تشرح التغيرات التي تطرأ عليها ، ويوضح أرسططاليس كيف يتطلب مثل هذا الشرح تعاون أربع صنوف من العلة ، حتى يمكن لأي شيء أن يكون له وجود وافرض تمثالا ، فيكون المطلوب :

(أ) المادة (hylé) التي ينشأ منها مثل كتلة الرخام .

(ب) مبدأ للحركة خارجي يستهل عملية التغير النسقية أي العقل واليد والمنحاحات .

(ج) الصورة (eidos) التي تتحقق في العملية النسقية وعن طريقها

مثل صورة زيوس لفيدياس أو صورة هرمس لأفراكسيطيلس .

(د) هدف وغاية العملية أي التمثال المنجز كهدف لعمل النحات .

وعلى هذا يجب أن نفترض علة مادية وملائمة وصورية ونهائية . ومن الواضح أن العلل الثلاث الأخيرة من شأنها أن تتألف . انها صورة (ج) التمثال التي هي غاية النحات و (د) فكرة هذه الغاية في عقله هي الدافع المحرك (ب) التي تكون بادئة وهادية نسق عمله . وتصور الصورة على أنها غاية أو غرض التقدم ، بالمقابلة مع المادة غير المهيأة هو الفكرة الأساسية في

(١) في الواقع ، أدلى أرسططاليس بإجابات متعارضة عن هذا السؤال : ولكن النص يذكر الاتجاه الأساسي في حله للمسألة .

كل فلسفة أرسططاليس • وكذلك فى علم الاحياء وفى علم النفس وفى علم الاخلاق وفى نظرية الفن ، فان شرحه ، كشرح ألاتون ، ينتمى الى مبحث العلة الغائية ، وعملية الكون النسقية فى جميع تفصيلاتها تفسر على أنها جعل القدرة على تقبل الصورة واقعية ، فى تدرج وفى كل حالة تصل العملية النسقية الى غايتها فى تحقيق الصورة المناسبة وعلى ذلك فان الشئ الذى لم تكتمل تهيئته ، يجب أن يفسر فى ضوء الشئ المهيأ وليس العكس • ان الرجل يسبق الطفل وشجرة البلوط تسبق ثمرة البلوط - والبده من البداية هو ببساطة البده من الطرف الخطأ^(١) • وبهذا يعبر أرسططاليس عن الفرق بين المادة والصورة بما فيه أعظم جدوى فى حدود ديناميكية كحد القدرة (dynamis) والواقعية (energeia) فالطفل هو قدرة الرجل وثمره البلوط هى قدرة شجرة البلوط وعندما تجعل صورنا الرجل وشجرة البلوط واقعتين فى كلا الفردين على السواء ، فان العملية النسقية تكمل وتحقق الغاية • ولكن يجب أن يلاحظ ، اذا كانت العملية النسقية لتبدأ اطلاقا ، أن الصورة والواقعية سبق افتراضهما ولو أن هذا فى فرد آخر من النوع • ويمكن أن يصير الطفل الى وجود ، فقط عن طريق وساطة والد بشرى موجود فعلا • وبهذا النهج فى التفكير يصل أرسططاليس الى وجود الله الابدى كصورة خالصة • وبما أنه فقط فى قوة واقعية (صورة) موجودة فعلا - يمكن لقدرة الفرد أن تتحرك صوب الواقعية ، بما أن الانسان فقط يستطيع أن ينجب انسانا ، ويتطلب انتاج التمثال وجود سابق للصورة فى فكر النحات • فهكذا الحال أيضا مع واقعة التغير الأولى ، حركة الكون • واذا كنا لنتخلص

(١) هذا يبين كم كان تفسير أرسططاليس للطبيعة العضوية - على الرغم من اصراره على فكرة التقدم وعبقريته كعالم أحيائي - يختلف عن تفسير العلم الحديث الذى يقول بالتطور • ولم يطبق فكرة التقدم على الانواع ، التى كان يعتبرها منعزلة وثابتة • وقد أدى به مبحث العلة الغائية الى أن يرفض فى احتقار الآراء عن عملية نسقية تطويرية بالانتخاب الطبيعى وبقاء الأصلح التى أفضى بها أنبادقليس • « يمكننا أن نفرض أن جميع الأشياء حدثت عرضا كما كان ليحدث لو أنها أنتجت لثمة غاية • لقد بقيت أشياء معينة لأنها كانت فى الوقت نفسه قد حصلت على تكوين مناسب بينما تلك التى لم يتيها لها ذلك فنيبت وأنها تسير الى فناء كما يقول أنبادقليس عن الثيران التى لها رؤوس بشرية » • وهذا ، فى رأى أرسططاليس ، من شأنه أن يفسر الطبيعة على أنها وليدة الصدفة بينما الطبيعة لا تعمل عبثا وتحقق الهدف بطريقة عادية «فى الكثير الغالب» • راجع « الطبيعة » ٢ : ٨ وبورنت E. Gk. Ph. صفحة ٢٤٣ (عن أنبادقليس) الذى أوردت هنا ترجمته للنص قابل كذلك (عن انكسيمندر) E. Gr. Ph. صفحة ٧١ •

من الرجوع بالأسباب رجوعا لا نهاية له ، فيجب أن يوجد محرك أول أبدي لايجاد سبب حركة السموات الأولى ، الأبدية ، وبما أن السبب هو دائما شئ آخر غير النتيجة والمحرك غير المحرك فإن المحرك الأول لا يمكن ، كما كان يعتقد أفلاطون أن يكون متحركا بذاته ، ولكن يجب أن يكون هو غير متحرك ^(١) . والمحرك الأول الذى لا يتحرك هو صورة خالصة واقعى أبدا والهى . وفى مذهب الألوهية لأرسططاليس ، لا يوجد مكان لحائق ، لأنه ليس للكون بداية فى الزمن وفعل الحلق يتضمن حركة وتغير وقدرة فى الله ، كذلك يرى أرسططاليس الا مكان لعناية ربانية لأن الله يقع خارج الطبيعة ومنعزل عنها ، وحياته ليست حياة نشاط عملى ولكنها حياة تأمل بسيط (theoria) وهو لا يعرف حتى الكون ولكنه ادراك له وعى ذاتى خالص وهو فى نفس الوقت ذات ، وموضوع فكره الذاتى البالغ شأن الكمال . وهو الأحد فى هذا التعالى المطلق ، يجتذب العالم نحوه كهدف رغبته « ان العلة النهائية تنتج حركة كما يفعل موضوع حب » ، وعن طريق ذلك الذى يحركه (الطبقة الخارجية للنجوم الثوابت) تتحرك جميع الأشياء الأخرى ، وعلى مثل هذا المبدأ ، اذن تعتمد ، السموات وعالم الطبيعة ، وحياته تكون كاحسن ما نستمتع به ، ونستمتع به امدا قصيرا ، لأنه أبدا فى هذه الحالة (التى لا نستطيع أن نكونها) بما أن واقعها هو أيضا متعة . . فإذا كان الله على الدوام فى تلك الحالة الخيرة ، التى نكون فيها أحيانا - فان هذا يدعو جبرا الى عجبنا وإذا كان فى حالة أفضل - فان هذا يدعو جبرا الى المزيد منه . والله بالتوكيد فى حالة أفضل والحياة أيضا ملك الله . لأن واقعية الفكر هى الحياة والله هو تلك الواقعية وواقعية الله الذاتية هى الحياة على أعظم خير ، وأبدية . وعلى ذلك نقول ان الله موجود حى أبدي ، وهو الخير فى منتهاه ، وان الحياة والبقاء مستمرين وأبديين يملكهما الله . لأن هذا هو الله ، ^(٢)

١٤ - الخير الأعظم للإنسان . ودليل أرسططاليس على وجود الله من واقعة الحركة ، يهيئ الأساس الفلسفى لعلم اللاهوت فى القرون الوسطى . وكان له المكانة الرئيسية بين البراهين التى صاغها أكويناس Aquinas ويمكن تعرفه على أنه المصدر الذى استمد منه دانتى تصويره للمحبة التى

(١) ان تأثير دليل أرسططاليس على أن الله عمل خالص وأنه المحرك غير المتحرك ، للكون ، على فلسفة المسيحية فى القرون الوسطى ، كان عميقا كما يعرف كل قارئ لدانتى .

(٢) « ميتافزيقا » ١٢ ، ٧ (ترجمة روس Ross) ؛

تحرك الشمس والنجوم الأخرى»^(١) . والعبارة المقتبسة آنفا من «الميتافزيقا» توحى بجواب أرسططاليس عن المسألة الثانية من مسائلنا ، وهي Summum Bonum أو الخير الأعظم للإنسان . وبينما كان أفلاطون يلح دون هوداة على أن معرفة الخير المطلق كان أمرا جوهريا للفضيلة الحقة والنعيم وأن هدف طبيعة الإنسان كان يمكن فقط تحقيقه في حياة الاخلاص للفلسفة ، فإن أرسططاليس يتحول عن البحث عن المطلق الى البحث عن صورة خير الإنسان المعينة ، وهى الغاية التى يمكن أن يصل اليها المواطن الخير فى دولة - المدينة الهلينية فى مدار حياته الأرضية ، انها توجد هنا أو توجد فى أى مكان آخر ، لأن الروح الفردية ، كصورة للجسم العضوى ، تعيش فى اتحاد مع الجسد ، مادتها ، ولا يمكن أن يكون لها دعوى فى الخلود . وتحديد صورة الحياة الخيرة التى فيها يكون النعيم الإنسانى (eudaimonia) هو موضوع العلم السياسى الذى يعالج تقدم قدرات الإنسان الطبيعية نحو تحقيق هذه الغاية ولقد تناوله أرسططاليس فى عجالتين (Nicomachean) ، علم الأخلاق والسياسة^(٢) . وعند أفلاطون كان علم السياسة لا ينفصل عن الميتافزيقا (ما وراء الطبيعة) اذ يجب أن يكون الفيلسوف ملكا والملك فيلسوفا ، ومن الوجهة الأخرى يفرق أرسططاليس تفرقة قاطعة بين المعرفة والعمل وبين العلم النظرى والعمل . ولقد عنى أرسططاليس بمسائل الأخلاق بروح تجريبية واستقرائية ، وكان الفرض من العملين أن يكونا كتابين يدويين للشارع فى مهمته العملية فى تعليم المواطن استيعاب الصورة الكاملة للفضيلة الاجتماعية^(٣) . وقد عرف النعيم (eudaimonia) ، الخير الأعظم للإنسان بأنه « نشاط الروح المطابق للفضيلة (areté) والفضيلة بأنها « مزاج الارادة المستقر وهو ، فى معمله ، النسبى ، يحدده المبدأ العقلى وكما يمكن أن يحدده انسان ذو حكمة

(١) أكويناس Summa Thed. ، ١ ، ٩ ، ٢ ، Art. ٣ و Summa

contra Gentiles ١ فصل ١٣ - ودانتى « الفردوس » ٣٣ ، ١٤٥ .

(٢) ينصح الى القارىء ، اذا كان غير ملم بأعمال أرسططاليس ، أن يبدأ دراستها مع « علم الأخلاق » وعن الترجمة الانجليزية ، يراجع فهرست قائمة الكتب فى المجلد الثانى .

(٣) وهنا أهمية علم الأخلاق كمعبر عن المثل العليا الاغريقية الشائعة وأنواع السلوك . ويكتب أيكين Eucken « ان مذهب أرسططاليس متأصل تأصلا كليا فى العالم الكلاسيكى وتعمل آراؤه الأساسية وقيمها ، دون انقطاع ، فيه . ان مذهب أرسططاليس يبرز جوهر العالم الاغريقى الكلاسيكى فى تعبير علمى مكتمل رائع وعلى هذا يسلمه الى البشرية القادمة » (الحياة الإنسانية) .

عملية «^(١)» . ويجب أن يفهم « المعدل النسبي » على أنه ليس مقياساً للشئ
الوسط ، أو التصالح مع الشر ولكن مراعاة التناسب العدل الذى يقابل
الافراط ونقصان الوجدان والفرض فى كل من المواقف المتنوعة التى تستدعى
العمل . وقوة التعريف تكمن فى نزعتة الى مبدأ عقلى (logos) ويعنى به ليس
صبغة معنوية للسلوك ولكن حكماً صائباً فى جميع الأمور يوجد فى نفس
المواطن التفوق السامى فى الحكمة العملية phronêsis .

ان أرسططاليس يبحث طائفة من المسائل التى تنجم عن هذا التصور
للخير الانسانى كوضع مبدأ خلقى بالتعود على السلوك القويم وطبيعة العمل
الاختيارى والمسئولية عما يرتكب من خطأ وصور الفضيلة المعينة وما يقابلها
من رذائل ومقاييس العدالة فيما يتعلق بتطبيق القانون لها ، والعلاقة بين
النعيم والمتعة والمثال الاعلى للصدقة الانسانية^(٢) . وهو يوجه التفاتنا
خاصاً بالنظر الى تعرف سقراط وأفلاطون هوية واحدة للفضيلة والمعرفة الى
المطالب العقلية للخير والحياة الخيرة . ولو أنه لا يشك فى الحاجة الى التفوق
العقلى كأمر جوهري للعلاج الخلقى فان واقعة الرجل ذى الارادة الضعيفة
الذى يعرف ما هو صواب ، ومع هذا يفعل ما هو خطأ يبعد تعرفهم هذه
الهوية الواحدة لهما . وعلاوة على هذا فان الحكمة التى تكون مطلوبة ، ليست
حكمة (Sophia) الفيلسوف النظرية ولكن حكمة السياسى العملية^(٣) (Phronêsis) .
انه من الصعب الغلو فى بيان اثر بحث أرسططاليس
لهذه المسائل على الفكر فى الأزمنة اللاحقة . ان المبادئ الاخلاقية عند
الرواقين وأصحاب مذهب الافلاطونية الحديثة وحتى الأبيقوريين هى الى
حد عظيم تطورات لمبادئ أرسططاليس وقد أثرت معالجته للمسئولية عن
الجرعة على القضاء الرومانى ، والاقسام الخلقية فى "Summae" لاكويناس
وبنه وفحوى منظومة دانتي « الكوميديا الالهية » تبين أثر « علم الاخلاق »
فى كل حيدة^(٤) . واذا كان التفكير المسيحى فى قصارى نعيم الانسان
يقتضى ، بطبيعة الحال طريق « العالم الافضل » لأفلاطون فقد استمد الكثير

(١) علم الاخلاق : ١ ، ٧ ، ٢ ، ٦ .

(٢) التعود - « علم الاخلاق » ٢ - المسئولية « علم الاخلاق » ٣ و ١
صور الفضيلة والرذيلة ، المعينة « علم الاخلاق » ٣ و ٦ وما يليها ٤ و « علم
الاخلاق » ٥ المتعة - « علم الاخلاق » ٧ ، ٦ وما يليها ١٠ ، ١ - ٥
الصدقة « علم الاخلاق » : ٨ و ٩ .

(٣) عن ضعف الارادة « علم الاخلاق » : ٧ ، ١ - ٥ . عن التفوق
العقلى (وخاصة Phronêsis, Sophia) - « علم الاخلاق » : ٦ .

(٤) انظر المجلد الثانى فصل ١١ §§ ١٠ و ١١ و ١٤ .

من تعليم أرسططاليس. الخلقى فى تطبيق ذلك المثل الأعلى على حياة الانسان الأرض .

وأرسططاليس نفسه على الرغم من توكيده للمواضع التى اختلف فيها عن أستاذه يضرب ، فى ختام « علم الاخلاق » ، على نغمة أفلاطونية قوية وبما أن النعيم يكون فى ممارسة أعلى نشاط للروح وبما أنه فى الروح الانسانى يكون للعقل بالطبيعة المكانة العليا وعلى ذلك يتحتم أن تصل صورة وغاية تطور الانسان الى أكمل تعبير لها فى حياة التأمل الفلسفى وفى تلك الحياة يمكنه أن يستمتع ، ولو فى فترات متقطعة ، بنصيب من الرضى الذى يستمتع به الله ، كعقل خالص بصفة أبدية . وعندما يتحدث أرسططاليس عن واجب الانسان بأن يوجه حياته على هدى ذلك الذى فيه ، الذى يغلب أن يكون شبيها بالله والنعيم العجيب الذى يجلبه مثل ذلك الاخلاص ، من مجامع القلب ، ويعترف هوية هذه الخدمة الحرة فى حياة الدراسة الفلسفية فانه لن نفشل فى أن نتعرف فى لغته الانعكاس المباشر لتجربة شخصية « ان الانسان يجب ألا يفكر ، كما يظن أولئك الذين يقولون بذلك ، الأفكار البشرية لأنه انسان أو الأفكار الآدمية لأنه آدمى - ولكن بقدر ما يستقر فيه يجب أن يرتدى الخلود ويفعل كل شيء لكى يعيش وفقاً لأسمى ما فيه لأنه وان كان صغيراً فى الجرم ، فانه يسمو على كل ما عداه فى القوة والقيمة ، (١) .

١٥ - ولم يكن أرسططاليس مجرد تلميذ أفلاطون ولكنه رسول عهد جديد فى تاريخ الفكر ولقد زادت المواد الموجودة فى متناول المعرفة زيادة تربو على القياس ، عن طريق حملات الاسكندر وأصبح تحت تصرف أرسططاليس مجموعات هائلة جمعها العلماء الذين رافقوا تلك الحملات . ولقد كانت له الحرية فى استخدامهما لأبحاثه التى تتصل بعلم الحياة ، وكذلك للمعاونة على إعادة بناء فلسفة يجب أن تربط مختلف العلوم فى مذهب شامل . ان عمليتين جليلين يرجعان اليه خاصة ، لقد حدد منهج البحث العلمى ووضع مصوره بأقاليم المعرفة الانسانية . لقد كان أرسططاليس المؤسس الحقيقى للمنطق ليس فى معنى القول المأثور ذائع الصيت الذى يرجع الى جون لوك John Locke « لم يكن الله مقترأ الى هذا الحد على الناس ليجعلهم مجرد حيوان ذى رجلين ، فنترك لأرسططاليس أن يجعلهم أولى عقل » (٢) . ولكنه فى ذلك وهو يقيم البناء دائماً على أسس أفلاطون ، نراه يحلل طرق التدليل

(١) « علم الاخلاق » : ١٠ ، ٧ .

(٢) لوك « عجالة عن التفكير الانسانى » : ٤ و ١٧ .

العقلية النسقية ويصوغ المنهج الذى يمكن الوصول به الى الحق المرشد ،
الذى يتميز عن الحق المرجح وحسب .

ولقد أثارت الصورية والاصطناع فى المنطق الأرسطوى الكاذب لدى
رجال المدارس المتأخرة رد فعل طبيعى بين كبار رواد العلم فى القرنين
السادس عشر والسابع عشر ، وهو لا يزال يربك عقول الكثير الذين يجهلون
تاريخ الفكر .

وفى الواقع كان أرسططاليس ، الذى لم يكن قط عبدا للصيغ ، ليتعرف
فى غاليليو وفى ديكارت التحقيق الصادق لمبادئه الخاصة فى المنهج العلمى .
ولقد كان يستهمل كل عصر جديد فى تقدم العلم التفكيرى باصلاح فى المنطق .
وكانت الحال كذلك ، ليس فقط فيما يتصل بالأرغانون Organon
أو « أداة » أرسططاليس المنطقية ، ولكن أيضا بمباحث المنهج
"Discours de la Méthode" لديكارت والأداة الجديدة Novum Organum
لبىكون والمنهج النقدى Critical Method وكانت والمنهج الجدلى
Dialectic Method لهجل . ان الفلسفة والعلم يختلفان عن التفكير
الشعبى ليس لأنهما يعنيان بمواضيع مختلفة ، أكثر من أنهما يعالجان نفس
المواضيع بطريقة مغايرة . ان النبات والحيوان وهما يكونان مادة الموضوع
لعلم النبات وعلم الحيوان كانا قد وضعوا فى مجموعات وميزا فهما غامضا
قبل قيام هذان العلمان . وكانت مهمة العلم تصحيح هذه التصنيفات
الشعبية ووضع مذاهب لها ، وأن تحدد فى احكام الخصائص الذاتية للأشياء
وقوانين نموها . ولقد أدرك أرسططاليس فى جيله ، أن مسألة المنهج كان لها
أهمية حاسمة ووطن نفسه على تحليل منطق العلم فى بصر « منقطع النظير » ،
بطبيعة العملية النسقية للفكر البشرى . وثانيا - لقد حدد مختلف أقسام
العلوم كأجزاء فى كل واحد . ولا يوجد فليسوف وازن ، يمثل هذه العدالة ،
التناسب بين الكل والجزء فى المعرفة ، أو استمسك بمثل هذه القبضة الشائنة
على ما يوجد بين الأشياء من فروق مميزة حقيقية بينما أدركها جميعا فى مذهب
موحد . لقد كانت عبقريته فى وضع مذاهب تتألف بالمدى الشامل لبحوثه ،
وتقديره لتنوع المبادئ الأساسية فى عالم تجاربنا ونظيره الذى لا يخطئ .
فى تبين وجوه الاختلاف والقراءة فى النوع فى الكون بأجمعه ودقته المحكمة
فى صوغ المنهج الفلسفى ، هى التى تنجى مصداقا لقول دانتي فى نعت
أرسططاليس بأنه « سيد من يعلمون » ^(١) . وهى تبين السبب فى أن فلسفة
العالم الغربى سارت مدى ألفى سنة فى معظمها على الخطوط التى رسمها .
وكانت الثقة التى وضعت فيه فى جميع مسائل المعرفة الدنيوية لها أسمى

مكانة في خلال العصور الوسطى المتأخرة ^(١) . وحتى عندما أعلنت روح التعليم الجديد الغاء الثقة ، بالبحث الحر وأنكرت أرسططاليس المدارس فانها اقتفت دون انتباه خطواته . وكمنظم عظيم للمعرفة فان له في مسائل العقل مكانة تآمل مكانة الامبراطورية الرومانية في مجال الحكومة والقانون .

٤ - الرواقيون والابيقوريون

١٦ - كانت الفلسفة في اعتبار افلاطون وأرسططاليس « موجة حياة » يستطيع الانسان بها وحدها أن يصل الى معرفة الخير الأعظم الذي يجد فيه الخلاص .

ولكن استهواها كان لدى القلة الذين كانوا يشعرون بالدعوة الى التأمل العقلي ، وحتى لهؤلاء ، كان من شأن الفلسفة أن تهدور الى عدم مبالاة ارتياحي أو الى مذهب صوري ، خواء . ان الرجل العادي المثقف كان يحتاج الى شيء أقل عسرا ، وأكثر أن يكون عمليا بطريقة مباشرة ، مما كان يقدم اليه في الأكاديمية ، وملعب الرياضة والدرس Lyceum . والمعلم القديم ، دولة - المدينة ، لعبادتها الدينية وفروضها الخلقية كان يتوارى سراجا عن النظر ، ولما تقطعت الاسباب بينه وبين مرساه ، فانه التمس عقيدة تنقذ روحه من التحطم وتقوده الى مرفأ يلجأ اليه من شرور الحياة ^(٢) .

ولارضاء هذا المطلب ، ظهر في الجيل الذي جاء بعد جيل أرسططاليس والاسكندر ، مذهب الرواقيين والابيقوريين . وكانا كلاهما يسودهما النهج الخلقى ، فى الهدف والمبدأ ونظرية المعرفة (المنطق) ونظرية الطبيعة (الفيزيقيا Physics) . كانا يقومان كصقالة وليس كقسم لا يتجزأ من بنائهما الفلسفى ، بينما الميتافيزيقيا (ما وراء الطبيعة) النواة للتفكير الأفلاطونى والأرسططاليسى تراجعت بكيانها الى خلفية الصورة ، وفى مجال علم الاخلاق مرة أخرى ، أقام كل منهما الدعوى لتقديم الهداية لروح الفرد ليبين له كيف يعيش بحكمة ، ويصل الى سكيننة بمعزل عن العالم المضطرب فى الخارج وعواصف العواطف فى الداخل . وكلاهما صور خليقة الرجل الحكيم كأنموذج

(١) راجع موضوع الثقة فى أرسططاليس دأنتى "Convivio" : ٤ و ٦ ولم يكن هذا النفوذ دون عوائق أمام التقدم وخاصة فى مجال علم الطبيعة فعلى سبيل المثال ، كان تميز أرسططاليس بين السموات العليا والعالم الأرضى أشبه بحمل على علماء الفلك والطبيعة حتى القرنين السادس عشر والسابع عشر .

(٢) وبطبيعة الحال ، ظلت التصورات الدينية التقليدية ، والعبادة باقيتين. بين الجماهير ولكن لم يعد بعد أن يكون لهما تأثير فعال لهداية أرواح الناس ، كما كان تورااة العبرانيين .

للمحاكاة ، وكانا يعلمان كيف يمكن الوصول الى هذا الملل الأعلى ولكن هنا ينقطع التشابه وعندما نسال عن طبيعة الحياة الفلسفية ، تقدم المدرستان أجوبة مختلفة اختلاها عظيمًا فيذهب الرواقى الى أنها تكون باتباع الفضيلة، تلبية لقانون للطبيعة له السلطان أو العقل الحكيم ، باخضاع العواطف وبالانفصال عن عالم الظروف الذى لا يستقر على حال ، فيقوم روحه لتصل الى الاكتفاء الذاتى والاستقلال الداخلى ، ويذهب الأبيقورى الى أن الحياة الحرة هى حياة الاستمتاع فى تعقل ، بكل ما يقدمه العالم مما فيه الرضى ، والحكيم يتحكم فى الظروف باستخدامها كوسيلة لدعته - والخير هو المتعة أى لا يكون بارضاء مطالب الحواس ارضاء عابرا . ولكنه ثمار « حب الذات الرصين » . وفوق كل شيء مباحج الدراسة العقلية والتواصل الاجتماعى . وفى أحسن حالتهم ، كانت الرواقية أكثر سموا أما الأبيقورية فكانت أكثر سماحة وروحا إنسانيا ، من بين المثالين الأعلى . وكان الرواقى أرستقراطيا خلقيا ، فيه بعض النزوع الى الزهو بقوة تجلده على الزهد واحتقار اخوانه الأكثر ضعفا ، بينما كانت العقيدة الأبيقورية وخاصة فى اعترافها بتساوى الجنسين واصرارها على متع الصداقة أقل من أن تكون قاصرة على طائفة بعينها، وأكثر ديموقراطية . وفى مستوى أوطى تدهورت الرواقية الى رسميات ممحضين وتصلح افتاء ، مع العالم مما لم يكن يتوافق مع دعاواها الرفيعة ، كما انحدرت الأبيقورية الى رضوخ راض لسد رغبات الحياة الأكثر غلظة . ولكن كان كلاهما على السواء لا يبالى بنهج المجتمع والحكومة . لقد كان ذلك بين أيدي الطاغية وجيشه وموظفيه المدنيين . أما شأن الفرد فكان له وجهة أخرى فى تنظيم مدينة روحه الخاصة تنظيما صائبا .

١٧ - وكان لكلا المدرستين تاريخ طويل امتد الى شوط بعيد فى العهد المسيحي وكان للمذهب الرواقى من بين المدرستين ، التأثير الأبعد مدى فى العهود القديمة ، وفى العالم الحديث ، على السواء . ولقد استهوت مبادئه بطبيعة الحال رجال الأعمال وتبناها وأحيانا تمرس بها ، الحكام ، ورجال السياسة فى العصر الإغريقى المقدونى . ولقد أصبح مألوفًا ، كما سنرى فيما بعد . لدى الأشراف الجمهوريين فى روما . وكان يوجد شيء فى مزاج الرومانى العلى نحتته المذاهب الفلسفية الأخرى ، ولكن كان يتجاوب فى يسر مع العقيدة الرواقية . ولقد ترك طابعه على القضاء الرومانى وعلى الأفلاطونية الحديثة الهلينية على السواء ، حيث يمتزج التعليم الرواقى بالتعليم المستمد من أفلاطون وأرسططاليس . وقد اجتذب المفكرين المسيحيين بسموه الخلقى ومثاليته التى لا تقبل انتقاصا . وفى الأزمنة الحديثة أثار

اعجاب فلاسفة مختلفين من أمثال ديكارت وبیشوب ومانويل كانت (١) .
 اذن ، ما السر فى السيطرة التى ظفر بها المذهب الرواقى وحافظ عليها
 هذا الأمد الطويل ، على قلوب الناس ؟ ان الجواب يكمن فيما كان له من وقع
 على قوة ارادة الانسان وفى توكيده الوثيق للحرية البشرية وللعناية الالهية
 كليهما . لقد كان الرواقى يعلم أنه ولو أن الانسان عديم الحول ، كما يظهر
 فى مواجهة الظروف المعادية ، من رق وتعذيب ومرض وموت ، فانه فى
 الواقع كان سيد ارادته المطلق وانه غنى هذه السيادة على الارادة وحدها
 كانت تتوقف كل قيمة الحياة وخيرها . « لا شئ خير دون تحديد غير الارادة
 الحرة » وهذا القول المأثور الذى نطق به بعد ذلك بعشرين قرنا ونيف
 فيلسوف كينجزبرج "Königsberg" كان يمكن أن يتعرفه الرواقى وكأنه قوله (٢)
 لأنه فى اعتبار الرواقى ، كما فى اعتبار كانت ، تكون الارادة الحرة ، خيرة
 دون تقيد بشرط . ولا توجد درجات من الخير . فاذا كنت على صواب فأنت
 على صواب بصفة مطلقة . واذا كنت على خطأ فانك مخطئ بصفة مطلقة .
 وسواء أكنت على صواب أم كنت على خطأ ، فان هذا يتوقف على الخصيصة
 الداخلية لارادتك دون سواها . وبالإضافة ، فان الارادة خيرة عندما تريد
 الخير ، والخير هو - ما هو كائن . ونظام الكون وصدق كل أحداثه والطبيعة
 (Physis) التى هى طاقته الخالقة هو كامل وهو قانون وعقل والله (٣) .
 وعلى هذا فان الرجل الحكيم ، القديس الرواقى ، يتعرف عن طيب خاطر فى
 أية محنة تصيبه ، كائنة ما كانت ، اتمام غرض العناية الالهية وبوكد حريته
 غير المقيدة بشرط فى مواجهتها ، بأن يرضى أن تكون - ما هى كائنة -
 ويسير عقله قدما وهو جذلان ليقابل عقل العالم الذى تجمعه آصرة قرابة -
 وعلى هذا فانه بقوة الحتمية الذاتية الداخلية تكون له الغلبة على العاطفة
 ويظهر بسكينة الروح "e la sua voluntate è nostra pace" (٤) .

(١) عندما سألت الأميرة اليصابات ، عام ١٦٤٥ ديكارت ، الذى لم
 يضع أى تأليف فى علم الأخلاق ، عن آرائه فى الموضوع ، اجاب موصيا
 بعجالة سنيكا ، الرواقية الامتناع الممتع devita beata على أنها تقى
 بالغرض . راجع (أعمال Oeuvres لديكارت) طبعة آدم وتانرى
 Adam and Tannery المجلد الرابع الصفحات ٢٥١ وما يليها ٢٦٣ وما يليها .

(٢) كانت "Grundlegung zur Metaphysik der Sitten" القسم

الأول (ترجمة أبوت Abbott صفحة ٩) .

(٣) يوازن الاستاذ جلبرت مرى ، فى محاضراته عن المذهب الرواقى
 physis عند الرواقيين و élan vital عند برجسون Bergson ومن بين
 المذاهب الفلسفية الاغريقية كانت الرواقية فقط تقرب من مذهب وحدة الوجود

Pantheism (أى من يرون الله والعالم واحدا - المترجم) .

(٤) « و ارادته سلامنا » دانتى ، الفردوس Par. : ٣ و ٨٥ .

ولذا فإن النصائح الرواقية - « اتبع الطبيعة، اتبع العقل، اتبع الفضيلة » هي مجرد طرق متنوعة للتعبير عن الشيء بعينه . . وكان الرواقي يقول أيضا « اتبع الله » : لأنه على الرغم من مادية نظرياته الطبيعية الغليظة الى حد ما ، كان يعتقد أن القانون الذي يتحكم في نهج الطبيعة لم يكن ميكانيكية عشوائية، ولكنه انجاز غرض الهى متواصل ، ينتهج العقل ، وهو خير في ذاته ، وفي مبحثه القويم عن العلة الغائية ، سار المذهب الرواقي في توافق مع تقاليد أفلاطون وأرسططاليس^(١) ، وكون هذا المذهب مبتكر كعقيدة خلقية ، يرجع بعضه الى إستهوائية للارادة والبعض الآخر الى استقلاله الكلى عن تقاليد دولة - المدينة التاريخية ورسائله من البداية الى النهاية توجه الى الفرد وهى تأمره أن يقف متحررا عن جميع الروابط العرفية التى رسمها الانسان ، وجها لوجه ، بما له من قوة ، ضد جميع الرياح التى تهب . وفى وقعه الشخصى هذا ، وكذلك أيضا فى العقيدة الحاسمة التى وجه فيها ، نتعرف روح أول مؤسس للمدرسة . لقد كان زينون Zeno ساميا من كتيوم Citium فى قبرص ، استقر وهو لا يزال فى صدر شبابه فى أثينا (حوالى عام ٣٢٠) وكان يقوم بالتعليم هناك مدى نصف قرن ونيف فى الرواق المدهون (Stoa Poikilé) . وكان كثير من أبعد أتباعه شهرة من أهل الجزر وأراضى المشرق الساحلية . ويمكن تبين طابع العقل السامى على المذهب ، أسفل الوضع الهليني^(١) . ولقد كان المذهب الرواقي فى الحق ، أول الشار العقلية لسياسة الاسكندر فى المزج . ولم يكن يوجد شئ ضئيل فى زينون يورد للذاكرة ، الجبى العبرى ، وعبارة هذا ، « هكذا يقول يهوه » يظهر أن صداها يتردد فى الصورة « وهكذا قال العقل »^(٢) . وكان يجب أن يكون الصوت

(١) كل شئ حتمى فى المذهب الرواقي ، ولكنه أصبح حتما نتيجة عمل متواصل لغرض ينتهج العقل . وقد هيا مبدأ المطابقات فى الطبيعة الذى كان يتلاءم مع هذا التصور ، أساسا للتوافق بين الفلسفة الرواقية والاعتقاد بالرجم بالغيب ومظاهر أخرى فى الدين الشعبى . ويوضح فلوطرخوس Plutarch (راجع السفر الثانى فصل ٩ § ٧) هذا الميل . وقد استخدم الرواقيون القصة الرمزية والأسطورة استخداما طليقا . وقد أخذت عنهم المسيحية منهجهم فى التفسير بالقصة الرمزية ، لقد كان الرواقيون فى الواقع مهرة فى ايجاد أسباب التلازم .

(٢) كان خروسيب Chrysippus مؤسس الرواقية الثانى (٢٠٦) من أهل صولى فى كيليكية . وقد وضع لمبادئ المدرسة ، الصورة المنظمة التى ظلت قرونا . وقد جاء اقليدس (القرن الثالث) من أسوس Assos فى طرواد Troad وكان فنيطيوس Panaetius (القرن الثانى) من أهل رودس وفوسدنيوس Posidonius (بواكير القرن الأول) من سوريا ، وكانت طرسوس ، أهم مدينة فى كيليكية وبها جامعة ، مركزا مزدهرا للتعليم الرواقي

(٣) راجع بيفان Stoics and Sceptics

صوت العقل لأن زينون كان يبشر بانجيله للاغريق ، شعب التاريخ الوحيد الذى كان من العبث توقع استماعه الا اذا وجهت قولك الى فطنته ولكن بمجرد أن يخطر هذه الخطوة ، كان من شأن الوقع أن يضم أكثر من الحكم الخاص للمستمع الفرد ، والعقل كما بين أفلاطون ، هو مجال مشترك ، والتعليم الذى يكون وفقا له ، لا يمكن أن يكون انجيلا لمجرد الخلاص الشخصى الخالص . ولهذا كان الرواقى ، فى نفس الوقت ، يعلن مثلا أعلى ، عالميا ، والمدينة التى كانت تطالب بولاء الرجل العاقل ، كانت مدينة الطبيعة ، مدينة العقل ، مدينة الله . وكان هذا التصور لمجتمع يشمل كل البشرية يتوافق مع نظرة العهد الأكثر اتساعا وقيام دول العالم ، واقعيا ، أولا تحت الحكم المقدونى وبعد ذلك تحت حكم روما .

وقد ساعد على صوغ مبدأ قانون للطبيعة (jus naturae) تقوم عليه التشريعات الايجابية للجماعات المعينة ، التى تمثلها شارعو الرومان ، وعن طريقهم كان لها تأثير بعيد المدى على الأخلاق والقضاء فى العصور الوسطى والحديثة . وقد استخدم القديس بولس وهو من أهل طرسوس أحد مراكز الرواقية المختارة ، لغة تلك المدرسة للتعبير عن المجتمع الروحى الذى ينتظم فيه كل المسيحيين أعضاء . وتتردد باستمرار فى رسائله فكرة رعوية سماوية . وفى عظته فى أثينا ، اقتبس من أنشودة اقليدس Cleanthes الرواقى ، لزيوس وأعلن فى ألفاظ تردد صدى العقائد الأسامية فى المذهب الرواقى أن الله « لا يسكن هياكل مصنوعة بالأيدي » ، وأنه « صنع من دم واحد جميع أمم الناس ليسكنوا كل وجه الأرض » (١) .

١٨ - ولقد قيل ان المذهب الرواقى ، انتهى بحماس خلقى وافلاس منطقى (٢) ، ولقد كانت مبادئ الأبيقوريين منذ البداية أقل أهمية من وجهة التفكير ، وكان تأثيرهم على العالم أقل ذيوعا من تأثير الرواقيين ، لقد كان أبيقور Epicurus هيلينيا خالصا ، وربما كان من أهل ساموس قدم الى أثينا بعد زينون بزمن يسير وأسس هناك مجتمعا صغيرا من التلاميذ الشخصيين . ويتميز تاريخ أنصار المذهب فى مداه بالسير فى اخلاص ،

(١) الاقتباس من اقليدس Cleanthes (الأعمال ١٧ ، ٢٨) هو « لا نأى أيضا ذريته » ، وازن مع الأفكار الرواقية فى : ٣ ، ٢٠ وأفس : ٢ ، ١٩ الخ . والتماثل بين الحكيم المسيحى والحكيم الرواقى كور الأولى : ٤ ، ٨ وكور . الثانية : ٦ ، ١٠ وفلس : ٤ ، ١٢ ، ١٣ .

(٢) برت Brett تاريخ علم النفس .

وفق ذكرى وتعليم مؤسسه (١) . ولم تكن نظرية أبيقور عن الطبيعة مبتكرة ولذا كان له انجيل خلقى يشر به ، فقد اتخذ كاساس تفكيرى ، فلسفة دموقريطس الذرية ، اعظم مذهب مادى كامل ومنطقى فى الوجود . وكان دموقريطس يعلم أن الكون وكل ما يوجد فيه ، يمكن ارجاعه الى حدود ذرات متجانسة فى حركة دائمة ، فى الفضاء الفراغ (٢) . والضرورة الميكانيكية تحدد على السواء ، نهج الطبيعة ونهج النشاط الانسانى ، وينهى تنحية صارمة كل اثر للحرية والغاية . وقد أمكن تكييف مثل هذه المبادئ تكييفاً يدعو الى الاعجاب لتكون أساساً للرسالة الخلقية التى تكون دعوى أبيقور الصادقة فى الابتكار .

وكان هدفه الذى تابعه فى حماس اخلاص عنيف ، أن يحطم آخر حصن ، كان لا يزال الدين التقليدى يحتفظ به فى العقل الشعبى ، ان أنواع الرعب فى حياة مستقبلية فى أرض الأرواح المخيفة الاخرية حيث يقع من يدعون آلهة ارادتهم غير الانسانية ، على أطياف لا حول لها ، كانت فى نظره مصدر كل قلق وألم يقعان على الناس فى الحياة . « انه هو الخوف الذى كان أول صانع للآلهة » .

ومن الوجهة الأخرى ، اذا كان حقاً أن روح الانسان هى مجرد تجمع للذرات وشيك الزوال ، ينحل عند الموت ليكون جزءاً من تجمعات جدد ، مع انقطاع الحياة الشخصية والوعى انقطاعاً كلياً ، فإن الخوف يتبدد ويمكن للانسان أن يستخوذ على روحه فى سلام (٣) . والمتعة عند أبيقور يمكن

(١) راجع قصيدة لقرطيس de rerum natura السطور الافتتاحية من الكتب ٣ و ٥ و ٦ عن مديح أبيقور .

(٢) راجع عاليه فصل ٤ § ١٥ . ولو أن المذهب الأبيقورى لم يكن له الا القليل من التأثير على الأزمن اللاحقة الا أنه يمكن ملاحظة أنه فى القرن السابع عشر نشر الأب جسندي Father Gassendi وكان صديقاً لديكارث مذهباً فى الفلسفة يشتمل على نظرية ذرية طبيعية ومذهب لذة خلقى يماثل مبادئ أبيقور .

(مذهب اللذة Hédonism - مذهب اخلاقى . ويقوم على أن اللذة الخير الأسمى - المترجم) .

(٣) راجع النص العظيم لقرطيس : ٣ ، ٨٣٠ - النهاية . لقد كانت الفكرة الشائعة عن الله والخلود أمراً راعباً نلايتورية ولكن الأبيقوريين لم يكونوا كفاراً . لقد كانوا يعتقدون ، لما قام من التجارب النفسية خارقة العادة ، بأن الآلهة كانوا يوجدون فى منطقة من الكون - قاصية - لا يعيرون بنى الانسان التفاتاً ويستمتعون بحياة مباركة واكتفاء ذاتى يصل الى الكمال . راجع أيضاً الأمثال التى ترجمت فى « مذهب الأبيقورية » لولاس Wallace ، صفحة ١١٠ .

تفسيرها حقا بأنها التحرر من العاطفة والقلق (ataraxis) وهذا الوضع السلبي للتعبير يجعل مثله الأعلى ، على الرغم من مواضع اختلاف عديدة ، يسير على نهج تعبیر الرواقيين ^(١) . وانه لمن التضليل التام أن نعتبر القول « دعنا نأكل ونشرب ، لأن غدا نموت » ، لا يعدو أن يكون محاكاة ساخرة للمبدأ الأبيقورى . لقد كان أبيقور وتلاميذه يعيشون عيش بساطة رائعة يتميز بحب متبادل قوى ، وقد احتذى أتباعهم فى الأجيال اللاحقة ، مثالهم وحاز مبدأهم وعاداتهم اطراء حارا من الكاتب التهكمى لوقيان Lucian فى القرن الثانى بعد الميلاد . ولا يوجد مجال للسؤال بأن المذهب الأبيقورى جلب السكينة فى الكثير من النفوس المضطربة فى الأوقات العاصفة التى جاءت عقب تقسيم امبراطورية الاسكندر . ان قدرته وكذلك قدرة المذهب الرواقى على بعث الالهام والسمو تبينهما القصيدة الرائعة التى أدمج فيها الشريف الرومانى لقرطيس (Lucretius) ^(٢) معتقدات المؤسس ، الطبيعة وانجيله الدينى .

الخاتمة

١٩ - سنعود الى الفلسفة الرواقية عندما يحين الوقت للتحدث عن الصراع بين الهلينية كما يعبر عنها تعليم المدارس وروح المسيحية الجديدة . وهنا يجعل بنا فقط أن نذكر بأن كلا المثلين الأعلى للحياة ، الرواقية والمسيحية كان مولدهما فى العالم الجديد الذى فتحه الاسكندر على مصراعيه ، هو وخلفاؤه وهذا فى ذاته يكفى لتكذيب الرأى القائل ان قوة الهلينية خبا أوارها بانهايار استقلال دولة - المدينة ولكن الحال كذلك فى أن الهلينية كانت فى ذلك الوقت قد قاربت على انجاز عملها فى التربة الهلينية البحتة وأنه كان يكيف طاقتها منذ ذلك الحين ، الامتزاج بمدنية البلدان الأخرى وقبيل ختام القرن الرابع ، كان بنى المدنية الهلينية عضويا وكاملا . ولقد حاولنا أن ننقل ثمة فكرة عن خصيصتها وتاريخها فى هذا الفصل وفى الفصلين السابقين . ان أهميتها للتقدم الانسانى فى جوهرها وفى نتائجها واضحة ولا يمكن تقديرها . والعصر الذى شاهد خلقها ، من القرن الثامن الى القرن الثالث قبل الميلاد يعد من أعظم العصور باقية الذكر فى تاريخ البشر ، اذ فى غصونه يقع فقط خلق الهلينية ولكن تحول دين العبريين البدائى الى عقيدة لها قدر عالمى . وكان أول الأنبياء العظام ، عاموس وهوشع معاصرين

(١) راجع لقرطيس : ٢ ، ٢٢ وما بعدها و ٣ ، ٥٩ وما بعدها و ٩٩٥ وما بعدها و ٤ ، ١٠٣٧ وما بعدها و ٥ ، ١١٥٢ وما يليها . وعن المثل الأعلى للرجل الحكيم : ٣ ، ٣٢٢ وما يليها .
(٢) توفى لقرطيس عام ٥٥ ق.م .

لرواد الاستعمار الاغريقى ، فى البحر المتوسط - ويتفق السبى البابلى وكتابات اشعياى الثانى فى الزمان مع ميلاد الفلسفة فى ايونيا ونطور الدولة الاثينية فى عهد صولون وبسسراطس (١) . وكان واضعو المزامير يكتبون فى اورشليم أثناء الحرب الفارسية وعصر بركليس . ولم يكن الأمر قاصراً على هلاس والعبرانيين فى وضع أسس المدنية للزمن القادم على هذا النحو . ولقد تقدمنا بقصتنا أكثر من مرة فى هذه الفصول الى المرحلة التى جمعت فيها ثقافة البحر المتوسط فى دولة وحدة تحت الحكم الرومانى . ولم « نشيد روما فى يوم واحد » . وبعد أن تقدم الاسكندر ليغتم الشرق لليونان ويستهل السياسة التى كان من ثمارها الرواقية والمسيحية على السواء بزمن طويل كان رجال سياسة وجنود لم تصل البنا اسماؤهم يصيغون أسلحة للحرب والحكومة ويبنيان المنظمات والقانون ، مما عاون مدينة ايطالية صغيرة على الاستحواذ على السيادة فى البحر المتوسط وتوطيد أساس امبراطورية روما العالمية .

(١) مرى - « خمس مراحل » صفحة ٥٧ - يوجد اقتباس عن بيهان بأنه حدث فى اليونان وآسيا الدانية (أى فلسطين) والصين والهند فى القرنين السادس والخامس ، قيام عهد جديد .

تراث العالم القديم

الفصل السابع

الجمهورية الرومانية

- أسس الدولة الرومانية :

على سلسلة من التلال التي تقوم على شاطئ نهر التيبر وعلى بعد أربعة عشر ميلا من مصبه ، كانت تقوم في القرون الأولى من الألف سنة الأولى قبل الميلاد ، مجموعات من الأكواخ الخشنة يحيط بها سياج حيث كان الرعاة يأوون بقطعانهم عندما كان يهبط عليهم الغزاة السابنيين Sabine من التلال السابينية . وبمضي الزمن انحد عدد من هذه القرى الصغار داخل سور دائري واحد ونشأت مدينة^(١) . وكانت تحتل موقعا موفقا كسوق طبيعي لسهل لاتييم حيث كان النهر لا يزال صالحا للملاحة وبعيدا عن متناول القرصان الأترويين Etruscan الذين كانوا يغرون على الساحل^(٢) . وفي فجر تاريخها كانت هذه المستعمرة أحد أعضاء حلف أيده مراسم دينية ، عقدت رياسته لألبا وفيه اتحد سكان السيل ، لتبادل التجارة والدفاع ضد قبائل المرتفعات وكان الحلف يدعى الحلف اللاتيني وكانت المدينة الواقعة على ضفاف التيبر ، روما .

(١) توجد آثار واضحة لامتزاج باكر بين مستعمرتين أحدهما للاتين على التل الفلاتيني Palatine والأخرى للسابنيين على القويرينال Quirinal ويظهر أن السابنيين دانت لهم السيادة وأنهم كانوا أجداد أجيال الأشراف . وكان يطلق على مواطني روما في العهد الملكي قويريطين Quirites وهو اسم ربما يرجع الى أصل سابيني .

(٢) كان موقع روما ملائما للغاية . وفي عبارة لوى Livy كان الموقع « قد وصفت معاملة بصفة فريدة ليسمح بتوسع المدينة ، (ad incrementum urbis natum unice locum)

: ٥ ، ٥٤ ، ٤ . كانت روما تحتل موقعا متوسطا في إيطاليا ، شبه الجزيرة الوسطى في البحر المتوسط ويتعادل بعدها من قادس والإسكندرية ، وتواجه أفريقيا وفي نفس الوقت ترتبط بأوروبا الوسطى والغربية والجنوبية ومحمية عنها وكانت ميناء برنديزي تصل إيطاليا بالشرق .

ويمكننا أن نفتفي في خطوط عريضة بواكير نمو روما . وأول معلم واضح في قصتها هو طرد الملوك وتأسيس جمهورية أرستقراطية في ختام الفسرد السادس (٥٠٩ قبل الميلاد) وكانت قد ارتقت قبل ذلك التاريخ الى المكان الرئيسي في التحالف اللاتيني واستحوذت على شاطئ التيبر حتى مينس أوسطيا (Ostia) عند مصبه وأقامت منظمات سياسية وجيشا وطنيا منظما . ويظهر أنه في زمن ما في القرن السادس غدت روما حاضرة أمراء من أصل أجنبي دان لهم الحكم على أتروريا الجنوبية وكل سهم لاتيم ^(١) . وكان معنى طرد الملوك الاطاحة بهذا الحكم الأجنبي . ومع هذا فإن الاحتلال الأتروري قد غير بصفة دائمة مركز روما فيما يتعلق بجيرانهم اللاتين . ولم تهبط قط الى مكانتها الأولى كواحدة من المدن اللاتينية الكثيرة المتحالمة . ولكن احتفظت بسيادة فعالة وأولا السيطرة الأترورية فكان دستورها قد اتخذ صورة مغايرة . وكان لاتيني ، واجنا من القناصل . وفي الواقع عوضا عن الخضوع لهذا المطلب من جانب اللاتين فقد تاح لروما أن نحو الحلف في النهاية ، وكان الأسياد الأتروريون قد وضعوا أسس مجد روما المستقبل . ولقد بقيت الى اليوم قطع من فنهم المسماري ، كالحائط الحجري الذي ينسب الى سرويوس طلييوس . Servius Tullius بقوم شاهدا على مهارتهم وفي عبارة مونتسكيو « كان قد بدأوا بناء المدينة الخالدة » ^(٢) .

٢ - ان الوسيلة التي نهضت بها روما من هذه المصادر الوضيعة خلال قرون من النمو ، الى سيادة عالم البحر المتوسط ، هي احدى القصص التي تبقى ذكرها الى أبعد مدى في تاريخ الانسان . ولم تكن امبراطوريتها خلتا لامعانت به عبقرية فردية ، ولكن الناج البطني المنزل لنشاط تومي شوم شعب من أصل خليط ، ولكن يتحد في الفرض . وكان لهذا السبب ، أن ناه لها البقاء . ان أسسها كانت تناسل في احكام في خلية الشعب الروماني ولقد كتب فرجل "Tantae molis erat Romanam condere gentem" أي « كان عملا ذا صعوبة يمكن تأسيس السلالة الرومانية » (فرجل ايناد ١ ، ٢٣) . وكان يعلم جيدا أن « السمل العظيم » لم يكن إخضاع الامبراطورية

(١) الطرقتون Tarquins ، من المحتمل أنهم مستعمرو أتروريا الاغريق الذين غنموا ثراء وسلطانا في صناعة الفخار والتجارة . انهم مماثلون للطبقة الهلنيسية في نفس العصر . راجع « أصل الطينيان » للاستاذ ف . ن . يور ، فصل ٨ .

(٢) عظمة وتدمور الرومان :

"Grandeur et décadence des Romains"

الفصل الأول .

الرومانية ولكن « بناء السلالة الرومانية »^(١) . ان سجل تاريخهم الباكر أسطوري في معظمه لأن ما كان قد تدون من حوليات جائة ، دمر عندما حرق :يقال المدينة عام ٣٩٠ ، ولكن الخليفة القومية تنعكس في جلاء في الأساطير التي حازت الايمان بها .

لقد كانوا سلالة من المحاربين أصلاب القلوب ، ولقد كان الشعب الروماني وليس رميولس Romulus وريموس Remus الأسطوريين ، رضيع الذئبة الخارج من فرع مارس .

وقد قصت الأساطير أيضا كيف بن الرومانيين الأوائل عاشوا عيش النهب والسلب وكيف أن الدولة والأسرة على السواء ، كان أصلهما القوة^(٢) . ولقد أوجد أول ملوكهم اتحادهم السياسي وأسس الثاني ، نوما Numa العبادات الدينية التي كانت خلال التاريخ الروماني تقوم كعوامل في السياسة العامة ، ويمكن أن تقتبس أسطورة لها مغزى خاص وهي تسرد كيف أن ثلاثة هوراطيين Horatii ناصروا روما في عراك مع ثلاثة قورياتيين Curiatii من ألبا Alba وقد ذبح اثنان من الأولين وصمد هراطيوس Horatius الذي لم يصب بجرح في الميدان ضد خصومه الثلاثة . وبإدعاء الهرب ، أودى بهم الواحد بعد الآخر إذ أن الجراح كانت قد أقعدتهم . وعندما رجع ان روما يحمل الأسلاب انفجرت أخته ، التي كانت مخطوبة الى واحد من اغورياتيين الذبحاء في العويل ، وذبحها أخوها في الحال . وأدين بجرم القتل ، ولكن برئت ساحته بصوت الشعب وذلك لأنه نفذ العدالة في واحدة ناحت على عدو روما .

وبهذا كما اعتقدت العصور اللاحقة ، قام الحق الذي كرمه الزمن ، في أن يستأنف المواطن الروماني الحكم بالاعدام للجمعية العمومية (provocatio) لتتدبر مغزى القصة .

ان حظ الشعب الروماني كما لحظ مونتسكيو ، طوال تاريخهم ، ألب أعداءهم عليهم واحدا بعد واحد^(٣) . ان حروبهم تستهل على الدوام تقريبا ، بالوبال ولكن تختتم في جميع الأحوال بالنصر .

(١) فرجل ، انيد : ١ و ٣٧ « ان تكوين الشعب الروماني كان عملا جبارا » .
 (٢) مثال ذلك ، أسطورة اغتصاب النسوة السابيينات . راجع هجل « فلسفة التاريخ » الجزء ٣ ، قسم ١ ، فصل : ١ ويذكر بلويوس ١ ، ٣٧ كيف كان الرومان يستخدمون القوة في جميع مهامهم .
 (٣) Gr. et déc. فصل ٤ .

- ٢٤٦ -

وفوق كل شيء ، لم يشك الروماني قط في أن مطالب النفع الشخصي يجب أن تكون خاضعة لمطالب الولاء المدني . وكانت غريزة الخضوع وعادة احترام السلطة العامة تتأصلان تأصلا عميقا في طبيعته .

وكان فضيلة ، وذئوع صيت ، أن يفكر وأن يفعل كمواطن وكجندي روماني مثالي ، « أن يفعل في روما كما تفعل روما » (١) . ولقد كان أعلى مطمح له ، أن يعيش وأن يموت لأجل روما . أن روح التضحية هذه في سبيل نفع المصالح المشتركة هي التي تشيع النبل في التاريخ الجمهوري الروماني . وكان الفرد من أوساط الرومان يفهم معنى المسئولية العامة والواجب المدني . أن العصور اللاحقة استمسكت بهذه الحصلة في الخليقة الرومانية وعظمتها . وفي زمن متأخر في قصتها ، عندما كانت توشك على الذهاب بددا على أيدي الغزاة الهمج رى أوغسطين Augustine فيها ما يبرر قيام امبراطورية عالمية تخضع لروما .

وكان الاخلاص الروماني لدولة دنيوية مثلا لمواطني المدينة السماوية . وهويها من مكانها الرائع كان القصاص العدل ، للرجوع عن فضيلتها القديمة .

ولقد ردد صدى مديح أوغسطين ، دانتى بعد ذلك بتسعة قرون ، وفي الملكية « de Monarchia » يقيم الدعوى بأن « الشعب الروماني هيأته الطبيعة للامبراطورية » وذلك أنهم ، باحتقارهم الجشع وتعشقهم السلام مع الحرية فانهم تجاوزوا عن نفهم الخاص لضمان الأمن العام للبشرية . ويشير الى تضحية المواطن الروماني الفرد ، الذي كان يحتمل « الكدح والفقر والنفي وموت القريب ، وفقدان أعضاء الجسم والحياة وهو يجهد في تنمية الصالح العام » (٢) .

ورأى القديس والشاعر كلاهما الحقائق يضيف عليها المثل الأعلى من خلال ضباب الزمن الفاصل ، ولم تنفذ بصيرتهما الى ما يجاوز حدود تاريخ البحر المتوسط ولكن عندما تستبعد كل أنواع الحذف فإن حكمهما يستند الى أساس من الحق . وكما كان يعلم فرجل ، ان في حب أرض الآباء والتعطش الى الشهرة الذي لا يحده قياس ، يكمن سر سيادة روما بين الشعوب (٣) .

(١) Virtus = بسالة ، رجولة من vir = رجل .

(٢) أوغسطين de Civitate Dei الكتاب الخامس (راجع Figgis . المظاهر السياسية لمدينة الله » للقديس أوغسطين : صفحة ١١) ، دانتى : de Mon. : ٢ و ٥ .

انيد : ٦ و ٨٢٣

(٣) "Vincet amor patrioe laudumque immensa cupido"

٣ - ان مثل هذا الشعب كان مقدرا له أن يتفوق في مهام القانون والحكومة ، وكان قد وضع في العهد الملكي أسس الدولة الرومانية وضعا محكما صادقا . وبفضل الروح المحافظ الفطرى في خليفة الرومان فقد حافظت خلال جميع التطورات على المبادئ ، التي ابتدعت في صمت في أزمنة ما قبل التاريخ كمادات للسلالة ، غير المكتوبة ، ونفس الصور والمناهج للإجراءات التي كانت تنظم حياة المجتمع المدني في القرن السابع قبل الميلاد ، ظلت باقية - ولو أن القضاء الاغريقى وعلم الأخلاق المسيحي عدلاها وجعلها مطابقة للعقل - في مجموعة القوانين المختارة التي صنفها بعد ذلك بالف ومائتى عام جوستينيان . وبذلك أصبح في قدرتنا أن نعيد بناء ، ليس أفعال الأفراد أو حوادث التاريخ السياسى المفصلة ولكن المظاهر العامة للمجتمع الرومانى في عهد الملكية . وكانت الدولة الرومانية ، الأمرة المكبرة ، وكان الرومانيون يفهمون معنى وقدر الحياة المنزلية وعبروا عن ذلك في أدبهم وقد أوجدت عبادة آلهة الأسرة (لارس وبناتس) Lares and Penates مذهبا دينيا . وقد اقترح أفلاطون في جمهوريته إلغاء البيت الخاص ، لهذا السبب ضمن غيره من الأسباب وهو أنه كان يجزئ إخلاص المواطنين للدولة (١) . ولكن الأسرة الرومانية كانت في وقت واحد المرأة وميدان التدريب لنزعة حب الوطن المدنية وبنفس الكلمة (ورع) pietas كانت تدل على الإخلاص الذى يرجع للضمير ، الذى يكنه الابن نحو أبيه والمواطن للحاكم والانسان للآلهة . وشخصية الرومانى المدنية كانت تتألف من ثلاثة عوامل جوهرية : الحرية وصفته كمواطن وعضوية أسرة . والطراز الرومانى فى الأسرة فريد فى نوعه عندما يوازن ليس فقط بالأسرة الحديثة ولكن بالأسرة فى المجتمعات الأخرى القديمة وفى توكيده البالغ أقصى حد ، للسلطة الأبوية (٢) . وكانت تتحقق أفكاره الأساسية عن الوحدة والثقة فى شخص رئيسها بصفة قاصرة عليه وكان للآب (pater familias) طوال حياته السلطان المطلق (patria potestas) على الزوجة والأبناء والبنات غير المتزوجات والوكلاء والعبيد شخوصهم وممتلكاتهم ، وفى داخل الأسرة كان المالك الأوحد للمتاع والكاهن الأوحد والحارس لمقدسات sacra الأسرة والقاضى الأوحد . وكان من حقه اعدام زوجته أو طفله . وفى يده فقط كانت تنشئة أو اهمال شأن نسله حديث المولد . وكانت أوامر الأسرة يعترف بها عن

(١) الجمهورية ، الكتاب الخامس .

(٢) كان للرومان وعى تام بهذا . ونقرأ فى وصايا جوستينيان : ١ ، ٩ «ان حق السلطة التي نتولاها على أطفالنا هو الميزة الخاصة للمواطنين الرومان» .

طريق فرع الذكور ولم يكن القانون يعتبر الابن نسيبا لأقارب الأم وقربته حتى لأنه كانت عن طريق الأب^(١).

ولم يكن القانون الروماني يعترف بالأبوة عن طريق السفاح كنيء يفترق عن الأبوة الشرعية ، والابن المتبنى شرعيا كان يعدا ابنا تاما ، والابن الذي ولد عن غير رابطة الزواج الشرعية ليس ابنا على الإطلاق . وعند موت أبى الأسرة يصبح الأبناء على التو ، أرباب أسرته بينما تخضع الزوجة والبنات غير المتزوجات « لعدم ثبات مزاج المرأة » على حد قول جايوس Gaius لوصاية الأبناء . وعلى هذا فإن المرأة الرومانية ، المواطنة الحرة بالمولد ، كانت إما تحت سلطان أبيها potestas أو (بعد الزواج) تحت سلطان زوجها ، أو « فى حالة الترميل » تحت وصاية قريب من الذكور . وفى عبارة مجموعة القوانين المختارة (Digest) « المرأة هى بداية ونهاية أسرتها » لان القانون لم يكن يعترف بأبومتها ، ولم يكن لديها أية سلطة على أبنائها^(٢) . والوالد وحده ،

(١) كانت سلطة الوالد بالطبع مقصورة على المواطنين . وكان الابن عند موت أبيه ، يصبح « والد الأسرة » حتى لو كان غير متزوج ويكتسب «سلطة الوالد » فقط عند الزواج . والزوجة اذا كان زوجها مطابقا بدقة الصورة القانونية ، تصبح فى « يد » (manus) زوجها وتكون خاضعة لسلطته potestas فى مرتبة الابنة (loco filiae) . وكانت الابنة تحت سلطة أبيها (أو اذا كان ميتا ، فتحت سلطة قريب من الذكور) حتى تتزوج وعند ذاك تصبح فى عداد أسرة زوجها . وخاصية ظاهرة فى الأسرة الرومانية كانت حصر القريب المعترف به شرعا فى agnati أى أولئك الذين كان يمكن أن ينضوا تحت سلطة سلف من الذكور ، واحد لو أنه بقى حيا . فعلى سبيل المثال ، ابن « أ » كان « agnati » لـ « أ » أو ابن أخ وليس لأب الأم أو أخيها . وقد اعترفت القوانين اللاحقة فى ازدياد مطرد بقرابة cognati أى قرابة الدم سواء أكانت عن طريق الذكور أم الاناث . وعن الموضوع بأجمعه ، راجع مين Maine « القانون القديم » فصل ٥ . وأهم الذنوب من جانب الزوجة التى تستحق الاعدام كانت الزنى والسكر ونسج عن أم رومانية نفذ فيها الاعدام لأنها سرقت مفتاح قبو الحمر .

(٢) المرجع الى جايوس هو ١ ، ١٤٤ ، الى مجموعة القوانين المختارة Digest هو ١ ، ١٦ ، ١٩٥ ، « mulier familiae suae et caput et finis est » كانت أسرة المرأة تبدأ بها لأنه عند موت أبيها تصبح sui juris « مستقلة بحقها » وكانت تنتهى بها لأنه بمجرد أن تحاول مواصلتها بالزواج ، فانها تتحول الى « حق jus » زوجها وأسرته . وكانت تستطيع بالطبع أن تكون sui juris « مستقلة بحقها » ومع هذا تكون تحت الوصاية أى وصاية ابن أو أخ .

هو الذى كان يمثل الأسرة وكانت علاقته بالأفراد الآخرين من جانب واحد، فان كل الحقوق كانت الى جانبه ، وكل الواجبات الى جانبهم ، وفى نظر القانون ، كانت سلطة الوالد *patria potestas* مطابقة فى الأسرة كما كانت سلطة *imperium* الموظف فى الدولة^(١) . ولكننا نسيء تصور نظام المجتمع الرومانى كل الاساءة اذا توهمنا أن سيره كان يحدده فقط ، او حتى فى معظمه اعتبارات الحق النظرى وفى حالة الوالد ، كما فى حالة الموظف ، كانت النظرية القانونية عند التمرس بها عمليا تأتى بالتعديل فيها ، فى كل مرحلة تقريبا عادات السلف . وأعظم ما كان يوجد من قيود على سلطة الوالد، كان التقليد المعتاد أنه فى حالات عمل تأديبى خطير داخل الأسرة ، كان على الوالد أن يستدعى الأعضاء الذكور البالغين ، للمشورة . وعندما كان يقع الاتهام على الزوجة كان يستدعى أيضا ذوو قرباها من الذكور . وفى بواكير عصر الجمهورية نجد الرقيب يحط من مكانة شيخ (سيناتور) لانه طلق زوجته دون أن يطلب نصيحة مجلس الأسرة^(٢) . وكان مراس السلطة فى التخلي عن طفل محدودا فى شدة صارمة . ومراس السلطة فى بيع زوجة ممنوعا منعاً باتا وفقا لما جرت عليه العادة الدينية . وكان يسمح للأبناء وحتى الرقيق وفقا للعادة بأن يكذبوا تحت اسم *peculium* ما أصبح بمرور الزمن، افتراضا ، ولو لم يكن فى نظر القانون ، يعادل الملك الخاص . وكان الواقع فعلا أن يقوم الوالد فى المعتاد على ادارة ثروة الأسرة بروح القيم ، وليس بروح المالك الخاص . وكذلك - مرة أخرى - كانت الفروض الأدبية التى تقنع على الوالد نحو زوجته وولده ، معترفا بها اعترافا تاما من الوجهة العملية . ولقد كان كاتو *Cato* الرقيب ، وهو النصير الذى لا تلين قناته للتقاليد المحافظة ، يشعر بأن الواجب عليه كل صباح أن يرى طفله وقد اغتسل على الوجه المناسب . وكانت الأم الرومانية تستمتع بمكانة تكريم ، أنكرت على الأمهات فى أثينا وفى معظم البلدان الأخرى ، وكانت مكانة زادا ثابتا أنها كانت تستند الى عادة ، لا يمكن انتهاكها ، وبمرور الزمن ، تضافر تقدم الرأى العام ، والتخلي تدريجا عن صور الزواج القديمة التى كانت تضع الزوجة تحت يد *Manus* زوجها وادخال مناهج جديدة للتملص من قانون الوصاية -

(١) كان الابن ، ولو تحت سلطان أبيه ، يستطيع القيام بصفة المواطن كما لو كان والد أسرة ، أى كان يمكنه القيام بمهمة وظيفية وفى تلك الصفة تكون له السلطة العامة على أبيه . ان سلطة الأب لم تمتد الى *jus publicum* السلطة العامة .

(٢) لم يكن يفرض على الأب شرعا بأن يتبع نصيحة مجلس الأسرة أكثر من أن يكون مفروضا على الموظف شرعا اتباع نصيحة مجلس الشيوخ . ولكن السلطة (*auctoritas*) فى كلتا الحالتين ، كان لها شأن عظيم .

فى ضمان حرية واستقلال للمرأة الرومانية - يكاد لا يوجد لهما مثيل فى المجتمع القديم أو الحديث (١) . ومن وجهة واحدة فى الواقع ، ظلت سلطة الوالد *Patria potestas* لا تتغير ، وسواء أكانت دون قيد ، كما كانت الحال من الوجهة النظرية ، أو محدودة كما كان الأمر عمليا ، فانها كانت تظل باقية طوال حياة المالك لزامها . ولكن حتى فى الأزمنة الباكرة ، ولو أنها كانت صارمة فقد كانت فى النادر استبدادية . وكانت القسوة البالغة هى الاستثناء وليست القاعدة . وعلاوة على هذا ، فيجب ألا يغيب عن البال أن معايير الطهارة المنزلية ، والاحلاص لواجبات الأسرة التى كانت تلقن بمثل هذه الشدة ، ظلت المحافظة عليهما أمدا طويلا فى البيت الرومانى وقام الدليل على أنهما أديا خدمة لا تقدر للثبات الخلقى فى الدولة الرومانية (٢) .

٤ - لقد كانت روما دولة - مدينة ، وكانت منظماتها الباكرة ، الملك والمجلس الاستشارى ومجلس الشعب هى تلك المألوفة فى غيرها من فروع الأسرة الهندية - الأوروبية وقبيل فجر تاريخهم المدون ، كان الرومان قد تدرجوا ببدور التنظيم الاجتماعى ، هذه ، الى مجموعة من عناصر ومبادئ حكومة مدنية ، محددة تحديدا واضحا - وكان الملك (*rex*) كموظف أعلى يملك كحق له ، سلطة تنفيذية مطلقة *imperium* وعلى مدى التسارىخ الرومانى ، تظل سلطة الموظف التنفيذى كمحور للتقدم الدستورى .

ولما كانت هذه السلطة قد منحت بتصويت رسمى من المجتمع على واحد من أعضائه عينه الملك فى حضورهم (أو اذا لم يكن يوجد ملك ، فنائب الملك المعين من قبل مجلس الشيوخ) وصدق عليها بموافقة مجلس الشيوخ فان السلطة *imperium* كانت مطلقة شرعا فى السلم ، وفى الحرب جميعا وكانت

(١) كان الاعتراف بصور الزواج التى فيها لا تصبح الزوجة ، كما فى الصور القديمة ، فى يد *manus* زوجها ، أول انهيار خطير لسلطة الوالد . ويرجع تاريخه الى ما قبل القرن الثالث ق م .

(٢) لقد عبر عن هذا فى بيتى فرجل (*Aen* : ٩ و ٤٤٨ - ٩)

Dum domus Aeneae Capitoli immobile saxum

Accolet, imperiumque pater Romanus habebit

بينما يظل منزل انياس قائما الى جوار ضخرة الكابيتول

التي لا تتزعزع ، ويظل الأب الرومانى يحمل سيادته .

(ترجمة مكيل (Mackail))

المصدر الذى منه تستمد كل سلطة تنفيذية أخرى بطريق النذب (١) ، وكان الملك - فى نفس الوقت - القائد فى الحرب والقاضى الأعلى ورئيس دين الدولة . وكان القضاء الجنائى يتركز فى يديه . والتشابه الوثيق مع مركز الوالد فى الأسرة يتجلى واضحاً فى نظره ، ولكن فى الدولة ، كما فى الأسرة ، كانت العادة تهيئ حداً لمراش السلطة المطلقة ، ولقد كانت قاعدة أساسية عند الرومان أن القابض على زمام السلطة يجب أن يقوى نفسه بالتضحية . ان مجلس الشيوخ من رؤساء الأمر ، وهو نظرياً جماعة استشارية يعقدون اجتماعهم فقط بدعوة من الموظف لبحثوا ما كان الموظف يريد أن يعرضه عليهم ، أصبح عملياً ، مجلساً ذا مهابة فى الدولة . ويمكن تجاهل رأيه فقط بعمل من أعمال ثورة ، افتراضاً ، وكانت توازى سلطة الملك (imperium) سلطة مجلس الشيوخ الأدبية (٢) Auctoritas وأخيراً عندما كان يطرأ فى حياة المجتمع حدث يستلزم خروجاً على السوابق المقررة مثل اعلان الحرب

(١) كانت السلطة (imperium) ، فى العهد الملكى ، تمنح بالاجراء الآتى الذى يوضح توضيحاً رائعاً ، النهج الرسمى للاجراء الدستورى الرومانى . عند موت الملك (rex) كان مجلس الشيوخ (آباء العشائر الموكلون اليهم مهمة فرائض المجتمع الدينية) يعين رافداً interrex وهذا فى دوره يعين رافداً آخر لأن السلطة كان يمكن فقط نقلها الى الملك الجديد ، بتنصيب شخص كان قد تملكها (وأحياناً كان يعين رافداً ثالث أو رابع لوضع قناع على انقطاع الاستمرار ، بخراقة محسوسة) . وكان آخر رافداً فى السلسلة ينتخب ملكاً بالتشاور مع مجلس الشيوخ ، وعندئذ يعلن الرافداً اسم المرشح للملك للمجلس لقبوله وإذا قبل ، كان مجلس الشيوخ يصدق على تعيينه بصفة نهائية . وعلى هذا كان التعيين الشخصى وتعاون مجلس الشيوخ والانتخاب الشعبى تتألف كلها فى العملية النسقية . وكان هذا الاجراء عينه يتبع فى عهد الجمهورية فى حالة الموظفين المخولة لهم السلطة أى القنصلية والبريتورية فقط . (أ) لم تكن الحاجة الى رافداً موجودة فى المعتاد ، حيث أصبح يوجد موظفون لهم السلطة لتعيين المرشح الجديد . و (ب) بعد عام ٣٣٦ ، كان يجب الحصول على موافقة مجلس الشيوخ قبل الانتخاب الشعبى ، وعلى هذا فقد أصبحت صورية خالصة ، كالموافقة الملكية على مرسوم تشريعى فى بريطانيا فى الزمن الحاضر ، وكانت الحال كان الموافقة الملكية تصدر عن كل مشروع قانون يعرض على البرلمان قبل قبوله أو رفضه من المجلسين .

(٢) ان معنى auctoritas هو « النفوذ الأدبى » والكلمة الانجليزية authority بمعنى السلطة التنفيذية كان يعبر عنها فى اللاتينية بلفظ imperium أو potestas .

وتبنى أسرة جديدة آخر فرد من الذكور بقى على قيد الحياة من أسرة قديمة ، أو انتخاب خليفة للعرش كان من الأمور الجبرية الحصول على موافقة الشعب ذى السيادة (١) .

وكانوا يجتمعون لهذا الغرض فى جماعات Curies للتصويت على ما كان يعرضه عليهم الموظف الذى يتولى الرئاسة ، دون تعديل أو مناقشة وعلى هذا كانت الحكومة الذاتية الاستثناء لا القاعدة ، فى روما الباكورة ، وكانت العناصر الملكية والارستقراطية فى الدستور تربو الى حد بعيد على العناصر الشعبية . ولكن على الرغم من كل الظواهر المتناقضة فانه كان يوجد اعتقاد واحد يتأصل فى تقاليد المجتمع الأصلية ولم تعد بتاتا عواذى النسيان عليها ، بكليتها أن لفيف المواطنين كان المصدر النهائى . الذى له السيادة ، لكل سلطة قانونية .

١١ - قيام الجمهورية

٥ - رأت فاتحة القرن الخامس قبل الميلاد روما جمهورية وكان آخر الملوك الأترويين Etruscan قد تجاوزوا الحدود التى رسمتها العادة لمراس السلطة Imperium وكان أن طردهم رعاياهم اللاتين (حوالى ٥٠٩ ق م) ولم يترتب على هذه الثورة ، اذا كنا لنطلق عليها هذه التسمية ، أى تغيير فى مبادئ الدستور الأساسية ، ومنحت السلطة ، التى كانت الى الآن مخولة للملك وحده مدى الحياة ، لموظفين أعلىين متعادلين ينتخبهما سنويا الشعب بتصديق مجلس الشيوخ (٢) . وكان الحكم الثنائى من شأنه أن يضع حدا فعلا للسلطة ، ذلك بأنه ولو أن كل قنصل كان يستحوذ عليها فى كامل نطاقها ، الا أن هذه الواقعة بعينها كانت تعاون الواحد على نقض عمل الآخر ، وفى روما كما يكون بين موظفين متعادلين ، كانت الغلبة دائما للصوت

(١) كان التبنى أمرا شائع الحدوث فى روما ، لأن هم الرومانى - الاول - كان أن يترك خلفا من الذكور ، يعقبونه وعلى هذا يحتفظ بقيام أسرته ، فاذا لم يكن له ابن من صلبه ، فقد كان يستطيع أن يتبنى ابنا ، ليصبح من كافة الوجوه مساويا لذاك الذى ينبج عن طريق زواج شرعى ، ولكن اذا كان الابن المتبنى أبيا لأسرة فان انتقاله الى أسرة أبيه الجديد ، كان يترتب عليه انقطاع أسرة ومقدساتها sacra وهو مسألة دينية جد خطيرة تتطلب تصاميقا خاصا من المجتمع .

(٢) كان يطلق على الموظفين فى الأصل لفظ "praetors" ثم بعد ذلك "consuls" وأصبحت البريتورية وظيفة منفصلة .

السلبى . وزيادة على ذلك فإن من المحتمل أن القنصل لم يكن لينغلب على ارادة مجلس الشيوخ الذى صدق على انتخابه . والذى كان مآله أن يرجع الى صفوفه عند انقضاء عام ولايته ، لبقية حياته . وعلى هذا كانت فترة التحول الى الجمهورية تعنى أن حكومة روما آلت الى أيدي حكومة قلة من أسر الأشراف . ولقد توارى لقب ملك ، المقوت ولو أنه نص على إعادة الحكم الملكى مؤقتا فى وقت الأزمة ، فى شخص دكتاتور . وفى خلال القرنين التاليين (٥٠٩ - ٢٨٧) كانت الجمهورية الصغيرة يتألب عليها الأعداء من الخارج وتمزقها المشاحنات السياسية . وكان من أهم هذه المشاحنات ، الصراع الطويل بين المواطنين من الدهماء ، للمساواة فى الحقوق الاجتماعية والسياسية والدينية مع الأشراف ، الذى انتهى قبيل نهاية القرن الرابع بانتصار الأولين على طول الخط . وقد يكون منشأ التمييز بين الطبقتين ، على الأرجح ، الاختلافات السلالية كتلك التى كانت بين الأشراف النورمانيين والسامية المسكسون فى التاريخ الانجليزى ^(١) . وكانت المعالم الباكورة فى الصراع : (٤) القانون الذى ينص على أنه ليس لأى موظف أن ينفذ حكما بالاعدام على أى مواطن دون التصديق عليه من المجلس (ب) إقامة عشرة من الضباط (تريبيونين Tribunes) الشعبين ، نتيجة لاضراب عام قام به لفيف الدهماء ضد الدولة (٤٩٤) ، للحماية من الموظفين الأشراف وكذلك مجلس من العامة (ج) نشر الاثنى عشر لوحا فى منتصف القرن الخامس (٤٥٢ - ٤٥٠) وهى أقدم مدونة للقانون المدنى الرومانى . ولقد كان لنظام التريبونيون نتائج بعيدة الأثر على التاريخ الدستورى اللاحق ولم يكن التريبونيون موظفين ولكنهم كانوا ضباطا من العامة وكانت أشخاصهم معصومة (مخظورة، محصنة دينيا) ولهم السلطة فى ادخال النقض intercessio على أى عمل من أعمال الظلم يرتكبه الموظفون داخل حدود المدينة ^(٢) . وبتراذف الزمن ، اتسع سلطانهم فأصبحوا أولا ، القادة السياسيين الشعبين ، المعترف بهم وبعد ذلك السادة ، افتراضا ، لما لهم من حق نقض كل أداة الدولة . ولقد

(١) لا يمكننا أن نناقش هنا المسألة المرتبطة عن أصل هذا التمييز . لقد كان الأشراف والعامة كلاهما أعضاء لفيف المواطنين . ولكن لما كان الأولون السادة الأوحدون فى الدين فإن الآخرين كانوا فى واقع الأمر ، يقصون عن الامتيازات التى تتصل بشعائر الدين مثل الزواج ، فى مركز متعادل وعضوية مجلس الشيوخ وولاية الوظائف التى كانت تلازمها السلطة imperium

(٢) لم يكن نقض التريبون أو حق الاستئناف الى الشعب عن تهمة اعدام مجديا تجاهه . مراس السلطة imperium عسكريا . وعندما كان يعين دكتاتور ، كانت كل القيود تتوارى وكان التعيين يعادل اعلان الأحكام العرفية .

ترتب على توسيع نطاق الوظائف التدرجى ، بزيادة تعدد واجبات الادارة وتفقدتها ، تقسيم جرت عليه العادة ، لدوائر السلطة provincia ونتيجة لهذا ، مراجعة متبادلة يقوم بها الزملاء ، الواحد للآخر . ولقد أزاح القانون القانولى Canulesian (٤٤٥) الفوارق الاجتماعية بين الطبقات بأن إباح شرعا ، التزاوج بين العامة والخاصة .

ورأى القرن التالى (٣٦٧) خاتمة المناظرة الطويلة لتولى عليا الوظائف ، بصدر القانون الذى ينص على أن يكون قنصل ، منذ ذلك الحين ، من العامة . وقد فتح الطريق للوظائف الأخرى فى تتابع سريع ، ووصل انتصار العامة الى ذروته عندما استولوا على الجمعيات الدينية (٣٠٠) وفى عام ٣٣٦ تمكن دكتاتور من العامة من خفض رقابة مجلس الشيوخ على الانتخابات الشعبية حتى صارت من الرسمىات الحاوية (قانون فبيليا lex publilia) وفعل دكتاتور آخر فى عام ٢٨٧ (قانون هرطنسيا lex Hortensia) مثل هذا الصنيع فيما يتصل بالفوانين التى أصدرها المجلس الشعبى والتى أصبحت منذ ذلك الحين مفروضة (٢٣٦) ipso facto على المجتمع كله ^(١) وبهذا جرد التمييز بين العامة والأشراف من أى مغزى عملى . وزيادة على ذلك ، فقد كان يترتب على هذه الاصلاحات عينها ، على ما كان يظهر جليا للعيان ، أن الدولة الرومانية ، مرت من صورة حكم القلة الى صورة الحكم الديموقراطى . ولقد ثبت أن ما وقع كان بخلاف هذا ، ويرجع ذلك الى أسباب كان مصدرها يتصل فى الحياة الخارجية للمجتمع وسننظر فيها فى قسم آت . ولكن الصراع السياسى الذى أجملناه آنفا كان أبعد من أن يكون الدافع الوحيد لهيجان داخلى فى العصر الجمهورى الباكر . وانا لنقرأ أيضا عن المطلب الدائم من جانب فقراء العامة فى أنصبه فى أراضى الأعداء المغلوبين وفى الخلاص من ضغط الدين المائل على الدوام . ولقد كان الرومانى فى الأزمنة الباكراة مواطنين وجنديا وزارعا فى نفس الوقت ، وكان مركزه الاجتماعى ومركزه السياسى ، كلاهما يعتمدان على التزام تملك الأرض .

لقد كانت قوة الدولة العسكرية والسياسية تتأصل فى الشربة ،

(١) لقد أهملنا عن عمد التفاصيل عن مختلف المجالس فى الدولة الرومانية . ويكفى القول ان أقدم مجلس "Curies" زالت أهميته بعد العهد الملكى ، وان مجلس "centuries" (فى الأصل مجلس عسكري كان فيه للطبقات أصحاب الأملاك النفوذ الراجح) ، كان ينتخب القناصل والموظفين ذوى السلطة imperium بينما أصبح مجلس القبائل المنظم بطريقة ديموقراطية ، فى العصر الذى نتحدث عنه ، أهم جماعة تشريعية .

ولموضوع الزراعة الأهمية الأولى خلال التاريخ الرومانى كله . لقد كانت نزعة المواطنين الأكثر ثراء - الأشراف والعامّة على السواء - التى تطرد ازديادا ، للاستحواذ على مساحات عظيمة من الأراضى التى تم فتحها - بما كان فيه الضرر على السياسة الحكيمة فى تخصيص مثل هذه الأرض ، كممتلكات حرة للفقراء من الأهلىن - هى التى أثارت الاضطرابات المتكررة التى قام بها العامة . ولم ينجم عن قانون لقينيوس سكسطينيان *Lioinio - Sextian* الصادر عام ٣٦٧ الذى حدد مساحة أمثال هذه الأراضى « المحتلة » لتكون ملكا لا سيرة واحدة ، أكثر من ايجاد خلاص جزئى مؤقت من مساوىء سنجدتها تتكرر فى صورة حادة حدة بالغة ، فى مرحلة متأخرة من التاريخ الجمهورى . أما عن مسألة الدين ، فقد كان القانون الرومانى شديدا شدة رابعة ، اذ كان يترتب عليه أسر شخص المدين فى حجرات سجن الدائن ، وهنا أيضا أتى تشريع عام ٣٦٧ ببعض الانصاف ، فعلى مر الزمن تعدلت صرامة القانون ليفى بالحاجة الى معاملة أكثر نزوعا للروح الانسانى ، بينما جعل رخاء الدولة التجارى ، المتزايد ، المواطن أقل عرضة للافلاس .

٦ - ومن بين هذه الوسائل ، تبرز وسيلة مفعمة بمغزى خاص للمدنية الرومانية . لقد كانت مدونة الاثنى عشر لوتا التى وضعتها لجنة العشرة موظفين ، التشريعية *decemvirs* فى عام ٤٥١ و ٤٥٠ ، أول قانون مكتوب فى روما ، وبهذه الصفة كانت تعتبر خلال تاريخ الجمهورية والامبراطورية الأساس للقانون المدنى *jus civile* أى القانون الذى ينظم علاقات المواطنين الرومان (*Cives*)^(١) . عندما كان شيشيرون صبيا ، كان صبية المدارس ما زالوا يتعلمون عن ظهر القلب جملها الايقاعية بما يقرب كثيرا ما كان يجرى عليه الصبية الانجليز فى تعلم

(١) لما كان *jus civile* هو القانون المحلى لدولة - المدينة (*jus proprium civitatis*, Gaius) ، فانه لم يكن ينطبق على أحد سوى المواطنين . وكان يلزم صفة المواطن الكاملة ، الحقوق العامة (*publica jura*) كالخدمة فى الجيش ، والتصويت فى المجلس والأهلية للوظائف العامة وكذلك الحقوق الخاصة (*privata jura*) كالتزاوج والتجارة مع المواطنين الرومان . وفى عهد الجمهورية ، أصبحت توجد درجات من صفة المواطن يترتب عليها بعض هذه الحقوق بمعزل عن البعض الآخر (راجع مايلي §§ ١٠ و ١٧) ومرة أخرى ، كانت الحقوق « اللاتينية » تعاون مالكيها على المساهمة فى القانون المدنى . ويصدق هذا عندما منح حسق كالتجارة مع المواطنين الرومان لأعضاء مجتمع آخر ، بمعاملة خاصة . وعن *jus gentium* راجع § ٢٠ فيما يلى .

« أصول الايمان » ولو أنه بعد ذلك بجيل ، كانت قد بدأت تخلى المكان للصيغ البريتورية . ولا توجد ناحية استبانة فيها ، فى أعظم جلاء ، قدرة الرومان الطبيعية على الحكم الصائب فى المسائل العملية ، أكثر من مجال القانون وهو أعظم ما قدموا من اضافة باقية على الزمن ، لمدينة العالم . وفى غيره من المناحي ^(١) ، كانت وظائفهم ، تلك التى تكون للشرطى والوسيط ، أن يحافظوا على النظام فى منطقة البحر المتوسط وأن يسلموا ثقافة الشعوب الأخرى للزمن القادم . ان فلسفتهم كما كانت عليه حالها وشعرهم ، ولو أنه كانت تشيع فيهما روح الاخلاق الرومانية والتاريخ القومى ، كان الحافز والملم لهم النماذج الهلينية ولكن قانونهم كان فى معظمه من خلقهم الخاص . لقد اكمل اطار القانون الاغريقى بالصيغ البريتورية ، وقانون القضايا الرومانى . وعلى ذلك ، فمئذ عهد باكر وضعت أسس البناء الرائع الذى قام حجرا على حجر فى استمرار لا انقطاع لثلاثة آلاف سنة من الصنعة الى أن استوفى كماله فى مجموعة القوانين Corpus juris فى عهد الامبراطور جوستينيان فى القرن السادس بعد الميلاد . لقد كان يوجد تطور زاهر لقانون العادة الأسبق الذى تكتل فى صورة محددة فى عهد الملوك . وكان الرومان يعتبرون العادة دائما مصدرا للقانون الموثوق به . وتمثل الألواح الاثنى عشر نفسها منتخبات من العادة المعترف بها وتجعل تركيزها فى المواضع التى كانت عرضة لاساءة استخدامها اجتماعيا أو كانت مثار جدل ، ولو أن لوى Livy كان ما زال يمكنه اعتبار الألواح الاثنى عشر ينبوع لكل قانون عام أو خاص ، فإن القانون الرومانى كقانوننا ، لم يكن نتاج قوانين تشريع وضعية أكثر من أن يكون العادة التى لم يوضع لها سنن ، فسرتها وصاغتها تقاليد ثابتة لطبقة علماء من محامين محترفين prudentia وكذلك المراسيم البريتورية . ولو أن النفوذ الاغريقى موجود من البداية ولا يننى يتزايد فى غضون عهد الجمهورية ، فإن المنهج القانونى prudentia هو نتاج العبقرية الرومانية ^(٢) الذى تتميز به . ففى كثير من التفصيلات ، على سبيل المثال ، كان يفضل قانون العادة عند العامة على نظيره عند الأشراف وكان الهدف أاج تنازع الطبقات فى المجتمع المدنى . وعلى هذا ، كانت قوانين المدونة تفرض سلفا قانون دولة منظم على أن له وجودا . ولقد توارى منذ زمن طوبى فى روما الكثير من العادات البدائية المألوفة لدى القانون

(١) تسجل التقاليد أن الأعضاء العشرة درسوا نماذج اغريقية . وقد يكون الأمر كذلك ولو أن أثره لا يتجلى فى الألواح الاثنى عشر . وسنرى حالا كيف وضعت الهلينية طابعها على القضاء الرومانى ، فيما بعد .
(٢) راجع de Zulueta فى « تراث روما » الصفحات ١٨٦ وما يليها وشيشرون De Oratore : ٤٤١ و ١٩٧ الذى اقتبس فيه (صفحة ١٨٧) .

الباكر الهليني والألماني والسكندناوى ، ويكاد لا يبقى أثر لانتقام الدم لو شراء الزوجة أو الصراع بين قضاء العشيرة وقضاء الدولة ، وعلاوة على هذا فان الرومان كانوا منذ زمن باكر قد وضعوا فاصلا بين fas وهو القانون الدينى الذى ينظم أوامر الناس بالآلهة و Jus القانون الدينى للمجتمع الانسانى . ومع الصلة الوثيقة التى كانت تقوم بين اتحاد الأداة السياسية والأداة الدينية فى المدينة ، فان الخروج على القانون الدينى fas كان يندر أن تعاقب عليه ، السلطة الدينىة . وفى احكام متعادل فرقوا بين (١) القانون العام الذى يحدد دستور الدولة وتنظيم السلطة العامة ، والقانون الخاص الذى يحدد العلاقات المتبادلة بين الأفراد من المواطنين ، ونتيجة لهذا (٢) فانه فى الذنوب ، فرقوا بين الأضرار التى تقع على الصالح العام بما فيها جريمة القتل حيث تكون الدعوى من مهام الموظف التنفيذى ، والأضرار التى تقع على الأفراد العاديين حيث يتدخل القانون فقط بنسأ على شكوى الطرف المتظلم . وفى الحالة الأولى ، لم تكن الدولة فى حاجة الى استخدام الاجراء القانونى ، ولكن تنتصف فى الحال عما وقع عليها من مظالم . فعلى سبيل المثال ، كان يمكن لموظف المالية القسطور Questor أن يصادر السلع التى تكون من حق الحكومة ، دون اذن قضائى ، وعلى هذا فان الاقتصاد العام ، كان ينفذ من تلقاء نفسه ، ولم يكن للفرد حقوق قبل المجتمع ولا يمكنه اقامة دعوى قانونية .

وبين القانون الذى يتعلق بالذنوب الخاصة كما تفصح عنه الألواح الاثنى عشر ، التقدم التدرجى من :

(أ) عادة الانتقام الشخصى البدائية خلال مراحل (ب) التعويض الاختيارى بالدفع النقدي ، متوقفا على ارادة كلا الطرفين و (ج) التعويض الجبرى الذى يقرره القانون الى (د) منع الانتصاف الشخصى على الإطلاق وادماج جميع الأضرار الشخصية فى درجة الأضرار العامة باعتراف قانون الدولة وفى الألواح الاثنى عشر ، يجىء القتل وحده تحت الباب الأخير . وفى غير هذا من المواضع يسمح بالانتصاف الشخصى حيث لا يوجد ما يمنعه صراحة ويسمح بالتعويض الاختيارى عن السرقة الجسدية والأضرار البالغة التى تقسح على الشخص . أما عن الذنوب الصغرى فان الغرامة يحددها القانون ، وبضرب الجرائم مثل سوء معاملة الأبناء للآباء ونقل أحجار التخوم واتلاف المنطقة التى تنتمى على سموتها . كان القانون الدينى كفيلا بهذا ، ولكن فيما عدا حالات خاصة

تراث العالم القديم

قليلة ، لم تكن توجد محاكم نظامية للقضاء الجنائي . وكان يجب أن يساق مرتكب الذنب شخصيا أمام الموظف الذي كان يحيل القضية الى مواطن عادى ، القاضى judex لوضع قرار عن نتيجة الواقعة ^(١) . وهنا ، مرة أخرى نجد مثلا للاحاساس الرومانى بالتفريق البينة ، فقد وكلوا حكم القانون للموظف بصفته القائم على المحافظة على قانون الدولة ، وسماع الوقائع ، للقاضى ^(٢) judex . وكان هذا الاجراء ينطبق كذلك على القضايا المدنية ، التى كان للثنى عشر لوحا الشأن الأول فيها .

وكان القانون المدنى ينظم مجموعة العلاقات بأكملها بين المواطنين ، الزواج والأسرة والوصاية وتحرير الابن أو العبد والتركة بوصية والملكية والعقود ، فى أوضاع ضيقة فى الواقع ولكن فى دقة وبعد عن الغموض ، وهو ما كان خصيصة لروما من بين جميع المجتمعات الباكراة المعروفة للتاريخ . ولو أن كل ملكية كانت تعتبر أنها مستمدة عن طريق الانتقال المفهوم ضمنا ، من المجتمع ، وعلى ذلك يمكن أن يستحوذ عليها المواطنون فقط فان الملك الخاص ، كان منذ أمد طويل واقعة مقررة . وكان المواطن بمجرد أن يستوثق من حقه ، يترك فيما يقرب أن يكون حرية كاملة للقيام عليه والتصرف فيه كيفما شاء .

وكان قانون الوراثة الرومانى قد قطع شوطا بعيدا فى التقدم على غيره من مدونات القوانين الهندية - أوربية الباكراة فى أن النص على عدم وجود وصية كان خاضعا للاعتراف بالميراث الذى ترك بوصية اذ كان للرومانى

(١) لم يكن حتى قيام دكتاتورية صولا (٨٠ ق م) أن أنشئت محاكم جنائية دائمة (quaestiones perpetuae) بطريقة منتظمة . وفى حالة الجرائم العامة حيث تكون فيها عقوبة الاعدام أو غرامة تتجاوز مبلغا معيناً ، كان حق الاستئناف الى الشعب (provocatio) مسموحا به . وكانت معظم الجرائم تعتبر مظالم خاصة ولا تتدخل الدولة الا عند التماس الفرد الذى وقع عليه الجرم وتمثل فى اجراءاتها المناهج الانتصاف الشخصى .

(٢) كان لا يستطيع الموظف النطق بحكم (sententia) فى قضية متنازع فيها . كان يمكنه فقط أن يحيل القضية الى قاض judex وفى احوالها يقرر طبيعة الدعوى . وكان يترتب على هذا سماعها قانونا in jure ثم يلى هذا سماع الوقائع بالسير فى القضية in iudicio أمام القاضى judex الذى كان يصدر حكمه . وفقط عندما يعترف المدعى عليه أو يوافق على دعوى المدعى أن الاحالة الى القاضى يستغنى عنها ويصدر الموظف قرارا فى القضية على التو وتنتهى الاجراءات القضائية (in jure cessio)

الحرية في اختيار وريثه وتحديد ما يورثه وإقامة أوصياء على أبنائه الباقين على قيد الحياة^(١) . وفي حدود مرسومة ، في عناية ، كانت حياة المواطن وملكه حماية القانون الذي كان يعنى بإقامة معلم tutor للطفل وقيم Curator على المعتوه ، كما كان لا يتسامح في تنفيذ دعوى الدائن الكاملة ضد شخص المدين المفلس^(٢) . وكانت الألواح الاثني عشر تنص على عقاب الربا وتحدد نسبة قانونية للربح ، ثابتة . وقد أقرروا أيضا وسائل الاجراءات القضائية في روح قوية ونهج عملي صارم .

ولقد سار احترام الأوضاع القضائية جنبا الى جنب مع التخلص من التأخير الذي لا تدعو الحاجة اليه والرسميات المربكة . وكان تعذيب المواطنين شرعا ، غير معروف في ذلك الحين وفي خلال تاريخ القانون الروماني . وكانت تفصيلات الاجراءات ، حتى ذلك الحين ، في أيدي لجان الكهنة وكان الجمهور يستطيع قراءة مدونة القوانين ولكن كان يحال بينه وبين معرفة تفسيرها .

(١) قبل عام ٤٥٠ كانت الوراثة دون وصية ، القاعدة وكانت الوصية تتطلب موافقة الشعب بقانون خاص وكانت خاضعة لرقابة جمعية الكهنة (pontifices) . وبعد عام ٤٥٠ ، أصبحت هذه الرقابة مجرد شكل صوري . ومرة ، كانت الملكية الجماعية دون شك سائدة في روما ، وكانت الملكية الخاصة قاصرة على رقعة صغيرة من الأرض يقوم عليها بيت المواطن ، ولكن الملكية الجماعية توارثت قبل وضع الألواح الاثني عشر بزمان طويل . وكانت القيود الوحيدة على حرية المواطن في استخدام ممتلكاته والتصرف فيها ، ثمة ضمانات صغار لحفظ حقوق الجيران وصالح المجتمع . ويذكر جبون (فصل ٤٥) أنه عند الرومان « كان الحق المجحف لتأريث أول مولود ، غير معروف » .

(٢) كان يسمح للنساء باقتناء الأملاك بمقتضى الألواح الاثني عشر . وكان قانون الدين صارما الى أبعد حد . وكانت الصورة القانونية للوحدة للتعاقد في روما الباكرة هي nexum أو القبرض (معناه الحرفي ، الرباط القاسر) . فإذا قصر المدين عن الدفع خلال ثلاثين يوما من الموعد المذكور في العقد ، كان في مكدة الدائن استخدام القوة للحصول على مطلبه دون اجراءات قانونية أخرى بالقبض على المدين وسوقه الى سجنه الخاص . وكانت الألواح الاثني عشر تنص على وجوب حجزه هناك زمنا آخر يبلغ مداه ستين يوما ، ثم اذا لم يتوصل الى اتفاق فانه كان يحضر أمام الموظف ثلاث مرات وكان يستطيع الدائن (اذا لم يتقدم طرف ثالث كنصير ، تحت مسئوليته) ان يقتله أو يبيعه كرقيق . وفي أية لحظة سابقة كان سداد الدين يعني اطلاق سراح المدين . وقد خففت صرامة هذا القانون في بواكير عهد الجمهورية .

ومن المعقول أن هذه المجموعة الأولى من القانون المنشور كانت تنسم بالتصلب والضيق اللذين يعبران عن تقاليد مجتمع صغير بسيط . ولقد رأت القرون التي تعاقبت تعديلها التدرجى وتوسعها حتى لم يحتفظ بند ، قبيل ختام عصر الجمهورية بمغزاه الأصيل . ولكن الاثنى عشر لوحا لم تلغ قط .

وبينما استمسك الشعب الرومانى بتقاليده كما يستمسك بصخرة ، فإن ذكاه العمل ابتكر وسائل عديدة للتوفيق بين القانون القديم والحاجات المتشعبة لمجتمع يتزايد بسرعة ولايجاد انسجام بين التغيرات الأساسية فى التفصيل بنهج محافظ وثيق ، فيما يتعلق بميراث الماضى القانونى (١)

٧ - اننا نعرف القليل أو لا نعرف شيئا عن الرجال الذين وضعوا أنظمة وقانون روما على هذا النمط . لقد صاغ العمل ، ليس أفراد أولو عبقريّة استثنائية ولكن الشعب . والأسماء التى تجيء فى صفحات التاريخ الرومانى الباكر هي أسماء رومانين أو صباط ، أسماء جنود مواطنين لا تتميز حياة الواحد منهم عن حياة الآخر وتكون سلسلة رتيبة ، فيما عدا حالة يظهر فيها ثم أبيوس قلوديس Appius Claudius أحد الموظفين فى العشرة Decemvir أو رقيب Censor على السرح .

ان التاريخ الرومانى الباكر هو سجل للقوانين والسياسة المدنية وإقامة المستعمرات وإنشاء الطرق العسكرية . ولا يعنينا قانليوس Canuleius أو لقينيوس Licinius ، ولكن الخطط التى تحمل أسماءهم . وعادة على هذا فان خصيصة هذه الوسائل ، لم يحددها تفكير سابق مدبر يقدر ما كان يحددها الواقع الموجود . ولم يضع الرومان قط خطة لمستورهم الذى كان ينمو على شاكلة قانونهم كلما تطلبت الفرصة . ونتيجة لهذا ، فانه بعرض

(١) كان استخدام الأساليب القانونية الصورية استخداما طليقاً ومبيلة شائعة للتوفيق فى القانون الرومانى والقانون الانجليزى ، وكان التبرير مثلاً مبكراً وظاهراً ، وكذلك كان القبول المضمّن ، الذى يلاحظ بعد ذلك ، للتعديلات التى أدخلتها على القانون اجابات علماء القانون التبرير كان يذهب طوال الوقت أنها تفسيرات دقيقة لدونة القوانين التقاليدية . راجع من « القانون القديم فصل ٢ » . ان الأسلوب القانونى الصورى ، هو ابتكار طليعى للمجتمع يخدم المصالح وتواصل السلوك القانونى وبين التفكير الذى تتطلبه التجاريف الجديدة .

صورة (١) لا تشير على مذهب ، فريدة في ذاتها . ويتضح عدم وجود خطة منطقية من الوضع الذي كان الحجر الأساسى فى البناء اذ أننا نجد فى صميم نواة الحكومة الجمهورية ، السلطة imperium المطلقة التى لا تقبل قسمة فى حيازة قنصلين ، كموظفين تنفيذيين ، أعلىين متعادلين . ولصاحب النظريات السياسية ، تكون مثل هذه الثنائية فى السلطة العليا ، نذيرا أكيدا بوقوع الخطب . ولكن هذه الوسيلة التى لا يمكن تصورهما كما تظهر فى أطوار الأوراق ، سارت سيرا يدعو الى الاعجاب فى التمرس بها ، لأنها كانت وليدة التجربة ومؤسسة على الصخرة التى يقوم عليها الواقع .

لقد تعاظم طغيان عبء سلطة الموظف فى مجموعة المصالح الرومانية حتى أصبحت الحاجة لفرض الحدود على اساءة استخدامهما ، أكثر إلحاحا من وضع شروط لاستخدامهما دون قيد . وكانت الرقابة الثنائية اللياذ الذى يمكن اللجوء اليه لتحاىي الحكم الاستبدادى ، وقد كانت نشأتها فى عهد الجمهورية وظلت قائمة طوال خمسة قرون ، وعندما قام الدليل فى النهاية على أن لا حول لهما فى مواجهة الحكام الاستبداديين العسكريين ، أعيدت فى صورة بعدلة كنظرية للامبراطورية الباكرا (٢) وفى هذا ، وفى كثير غيره فى خصيصة الدولة الرومانية ترد الى ذاكرتنا مزاج ومراس شعبنا نحن . ان تاريخ روما الدستورى وتاريخ انجلترة الدستورى يعرضان نفس المظاهر العريضة للتقدم التدرجى على أساس التقاليد السلالية ، والاحترام الذى لا حد له للشكل والسابقة ، ومرونة التطبيق العمل وتقيد العرف والعادة للسلطة النظرية . وظل كلاهما قائما مدى قرون فى استمرار لا انقطاع فيه ، بفضل قدرتهما على التكيف وفق الظروف المتغيرة . وكلاهما يكون مجموعة من ابتكارات غير منطقية ، وخرافات غريبة وبقايا متهالكة ، وهى الثمن السهل الذى يكون غرما عن نظم ليست من عمل شارع فرد ولكن التعبير الرضى للتجارب القومية . وينسحب التشبيه كذلك على مسلكهما فى الحرب ، كانت الحرب فى الغالب تجد الرومانيين غير متأهبين وهو آية أكيدة على أن سياستهم لم تكن تنزع للحرب بل للسلم . وكانوا فى جميع الحالات تقريبا ، يلاقون صدمات جساما فى مراحل القتال الأولى ولكن يخرجون دائما مظفرين فى

(١) يذكر بلربيوس (٦ ، ١١) كيف ، صاغ الرومان دستورهم . ليس وفقا لنظرية ، ولكن عن طريق الكثير من المشاحنات والأزمات العملية . وكانوا يختارون أقوم سبيل فى كل موقف فور حدوثه . وفى (٦ ، ٤٣) يقابل عظمة روما بعظمة أثينا فى أن الأولى كانت ترجع أصلا الى طراز دستورهما اما الأخرى فالى عبقرية الافراد .

(٢) راجع المجلد الأول فصل ٨ § ٧ فى الرقابة الثنائية للزعماء principes ومجلس الشيوخ فى مشروع أوغسطس لاعادة التنظيم .

الحنام • وكانوا يتلقون دروسهم خلال الصراع وما كانوا قط ليرضخوا للمهزلة وسنأتى فيما بعد على ذكر التشابه بين المناهج التى كانت روما وبريطانيا يكيان بها مبادئهما فى الحكومة حتى نحقق المطالب المتغيرة لامبراطورية فسيحة. وكانت مهمة كل منهما حراسة العالم داخل نطاق نفوذها وكان الهادى لها فى منح الحقوق وفى المحافظة على السلام على السواء ، دوافع المنفعة وليس الخيال • لكن بالرغم من أوجه التشابه هذه ، الظاهرة ، فانه يوجد اختلاف واحد عظيم فى حياة الشعبين ، الدستورية • فبينما فى انجلترا ينحصر ،ركز الثقل السياسى فى البرلمان فان مثيله فى روما كان يوجد ، ليس فى التشريع • ولكن فى السلطة التنفيذية • ولقد قال ادموند بيرك Edmund Burke « ان المبادئ العظيمة لأجل الحرية فى هذا البلد ، كانت منذ أقدم العهود ، على الأخص عن مسألة فرض الضرائب وأغلب المبادئ فى مجموعة مصالح الأمم القديمة كانت تدور - أصلا - على حق انتخاب الحكام أو عن توازن طبقات الدولة ، العديدة • ولم يكن موضوع المال لديهم يمثل هذا الالحاح » (١) .

والتاريخ الانجليزى السياسى يزخر بموضوعات مثل حق التاج فى فرض ضريبة على المراكب وحق البرلمان فى فرض ضريبة على أمريكا أو حق مجلس اللوردات فى رفض الميزانية • وفى روما الباكرا لم يكن لموضوع فرض الضرائب وجود • وهناك كان الصراع كله من أجل الحرية يهدف الى تحديد سلطة imperium الموظف الأول •

٣ - توسع روما

٨ - ان العملية النسقية فى توسع روما تقع فى ثلاثة عصور (أ) فتح شبه الجزيرة الايطالية (ب) الصراع مع قرطاجنة للسيادة على البحر المتوسط الغربى و (ج) الاستحواذ على سيادة مماثلة على الشرق الهلينى •

(١) خطاب عن الصلح مع أمريكا • فى روما ، لم تكن توجد ضريبة مباشرة وكانت توجد ضريبة غير مباشرة ، يسيرة • وبعد ذلك كانت الأقاليم تدفع جزية ثابتة (stipendium) للخرينة الرومانية • وكانت الانصبية تدفع الى موظفى المالية quaestors جباة الضرائب فى الأقاليم أو (كما فى صقلية والشرق) تجبى بنظام يجلب الكسب الوفير للراسمالين الرومان •

١ - توسع روما في إيطاليا : (١)

ان الفترة (٤٥٠ - ٢٧٠) التي طالعت نهوض روما لتكون سيدة إيطاليا كانت تتفق في الزمن مع المساحات السياسية التي انتهت بصعود القانون الهرتسنسوى Hortensia (٢٨٧) ولمدة قرن ونصف قرن بعد ابعاد الملوك ، شنت روما حروبا لا تنقطع على جيرانها الأقربين . وفي الخمسين سنة الأولى من الصراع ، كان وجودها ذاته كدولة مدنية مستقلة ، مهددا بالزوال كل سنة ، على التقريب وبدأت روما بعد عام ٤٥٠ تسير قدما الى الامام وقبيل عام ٣٥٠ دانت لها السيادة على اتروريا الجنوبية وسهل لانيوم وحتى هجوم الغالين المظفر وتدميرهم المدينة عام (٣٩٠) أوقف فقط ، لعدد قليل من السنين تسير تقدمها المنتظم . وعندما استقر أمرها في لانيوم زال الحلف اللاتيني القديم عن الوجود الا في الرسميات المدنية فقد عاون روما في هاتيك الأيام الباكزة عدم وجود أى شعور قوى بالوحدة بين أعدائها الايطاليين . وانا نجد أثرا يسيرا لوعى ايطالى مشترك يمكن مقابلته بذلك الذى نجم عنه فى الاغريق الباكزة أحلاف مدن والألعاب الاولمبية . لفد قام دون ريب فى تاريخ لاحق ولكنه فقط بعد أن أدمجت إيطاليا سياسيا فى الدولة الرومانية ، وقد ترتب على غزو لانيوم أن أصبح لروما أواصر مباشرة بالمدن الاغريقية على الساحل القمبانيوى وبذلك دخلت فى صراع مع القبائل الجبلية القوية فى إيطاليا الوسطى . وبرزت روما كنصير للنظام والتجارة والثقافة الهلينية ضد عصابات السلب والنهب التي وجدت ميدان صيد هائلا بين الاغريق أول السراء الذين لاينزعون الى الحرب ، وأعقب ذلك الكفاح الطويل الشاق مع السامنيين (٣٤٣ - ٢٩٠) الذى ترك روما الدولة الوحيدة التي تمتد صوب الشمال حتى سفح الابنين وصوب الشرق حتى شواطئ الادرياتيک وأخيرا فى بواكير القرن الثالث أحضر فورهمس Pyrrhus ملك ابيروس Epirus أول قائد نى عصره ، محاربيه من سكان الهضاب وفيلته عبر البحر بحجة حماية اغريق طرنطم Tarentum من تفيدم روما صوب الجنوب . ولما كان جنديا بالمهنة من مدرسة الاسكندر فقد كانت تراوده أحلام جامحة فى أن يحقق فى الغرب انتصارات شبيهة بانتصارات الاسكندر فى الشرق ، ولكن كان ينقصه أرب الاسكندر السياسى ، وبرهنت روما وهى دولة حرة موحدة على أنها خصم من نوع يختلف اختلافا بعيدا عن فارس .

(١) كانت إيطاليا ، عند رومان الجمهورية ، تحد شمالا ليس بجبال الألب ولكن بالابنين وكان يطلق على المنطقة الواقعة بين الابنين والألب Cisalpine Gaul أى الغال على هذا الجانب من الألب . وكان يسكنها كلتيون ينتمون بالقرابة الى القبائل التي كانت تستوطن Transalpine Gaul أى الغال على الجانب الأبعد من الألب فرنسا وبلجيكا الحاليين .

وعندما فشل فورهمس ، وقع اغريق الجنوب فريسة سهلة للكنائب الرومانية واصبحت روما تحكم دون منازع من سهل لومبارديا الى مضائق مسينا .

٩ - والقول ان « روما لم تبني في يوم » ، يصدق ليس فقط على خصيصة وانظمة المدينة ذات السيادة ولكن على امبراطوريتها العالمية أيضا واستغرقت هذه الجهود الأولى للسيادة في ايطاليا مدة تبلغ في مداها ضعف المدة التي تمكنت فيها من الاستيلاء على منطقة البحر المتوسط بأجمعها . ويمكن أن نفتق في المناهج التي تمكنت بها بعد ذلك من السيطرة على العالم وحكمه . انا نلاحظ أولا ، كفاءة تنظيمها العسكري . ولقد أبدى أحد الكتاب اللاتين الرأي بأن الكتاب كانت الهاما من اله (١) . وكانت تجمع بين ثقل صفوف المشاة المتراصة المتقاربة Phalanx المقدونية والتفوق في الحركة كما قام عليه الدليل في الحرب ضد فورهمس . وفي التسليح ومناهج القتال كان الرومان أبدا على استعداد لأن يتعلموا من أعدائهم وكانت الهزيمة اشارة بالقيام بالاصلاح الذي كان يعاونهم على الخروج من الحرب وقد عقد لهم لواء النصر . وعلى هذا فقد استعاروا الرمح الثقيل من السامينيين كما تعلموا بعد ذلك تشييد السفن الحربية العظيمة من القرطاجنيين وفي نهاية الحرب الفونسية الثانية ، أوقعوا الهزيمة بهنيبال بالخيالة التي كانت الأداة التي استخدمها في انتصاراته الأولى . وعلى غرار الانجليز فانهم كانوا يقومون بحروبهم وقد أخذ منهم التخييط "Muddled through" وهي عبارة عامية تشير الى انتصار المشاة السلالية والقدرة على استخدام الهزيمة كوسيلة الى النصر وكان ايضا يحدوهم التواضع فيما يتصل بسبب انتصاراتهم وكانوا ينسبونونها الى « حنق الشعب الروماني » . وما له أعظم وقع في النفس هو الوثوق من الذات الذي لا يعتريه وهن . لم تعقد روما قط صلحا بينما كان يوجد على التربة الرومانية فرد من الأعداء . انها غلطة عظيمة أن نطن بأن الرومان كانوا شعبا يجنح الى العدوان ، يحدوهم الميل الى اخضاع ايطاليا أولا ثم بعد ذلك العالم . ان أعظم من هذا صدقا القول ان حروبهم جاءتهم بما لا معدى عنه في ترتيب الأمور . وفي كل مرحلة في تاريخهم كانوا يواجهون بالاحتمالين ، السير الى الامام أو النكوص الى الخلف . ولم تنكص روما الى الخلف بناتا ولما كان يتألب عليها جيران يسودهم الشغب فقد أوقعتها مهمة حراسة تخومها ، في حرب دائمة وكان معنى الحرب على مدى الزمن ، توسيع الامبراطورية

(١) واغيطيس Vegetius ، كما اقتبس عنه منتسكيو فصل ٤ . وفي واقع الأمر ، شكلت ولكن بتحسينات ، طبقا لتنظيم الاغريق العسكري . وعن تنظيم الكتيبة وتفوقها على المشاة المتراصة ثقيلة التسليح ، phalanx راجع بلوبيوس : ١٨ ، ١١ - ١٥ .

وكانت مجبرة على التدخل لكي تهدى النيران وكان يترتب على التدخل الاحتلال فى النهاية .

وكانت توجد فلسفة كلية فى سياسة روما وكان الهادى لسياستها دائما مبدأ المصلحة الذاتية ولكنها لم تتعطش قط الى الفتح ، وقصة امبراطوريتها هى أن تجد هوية المصلحة الذاتية فى دعوى القانون والنظام والمدنية .

١٠ - ويوضح تاريخ توسع روما فى ايطاليا بطريقة أكثر استدعاء للنظر عبقريتها فى الادارة المتأصلة ، وفى كل مرحلة كانت تلاحم فتوحاتها بمتاريس من حديد من الطرق العسكرية والمستعمرات . والقول « ان كل الطرق تؤدى الى روما » صدق ، ليس فقط فى مجال استعارة الطرق العامة للمدنية ولكن حرفيا بالنسبة لطرق المرور العظيمة التى كانت تشع من روما أولا عبر لاتيوم واتروريا الجنوبية ثم فى ايطاليا وأخيرا فى أقطار منطقة البحر المتوسط (١) . ولم تكن المستعمرة الرومانية على غرار المستعمرة الاغريقية دولة - مدينة مستقلة ولكن مستعمرة عسكرية للجنود الزراع فى وسط أعداء مغلوبين . وطالما ظلت هذه المستعمرات باقية على اخلاصها فقد يحتمل أن تقع الهزيمة بالكتائب الرومانية فى الميدان ولكن الدولة الرومانية تظل ثابتة الدعائم . وفى معاملتها للمهزومين كان المبدأ الرومانى فرق واحكم (divide et impera) . ولم يكن يتسامح فى قيام أية رابطة من التكتاف - فى الا زمن الأولى حتى فى حقوق التجارة والتزاوج - بين المجتمعات الخاضعة . وقد حلت الاتحادات القديمة فى كل مكان . ولقد حافظت روما على هذا

(١) كانت أقدم هذه الطرق فى ايطاليا ، طريق أبيا Via Appia وقد بدأها أبىيوس قلوديس Appius Claudius الرقيب ، عام ٣١٢ . وكانت تسير عبر لاتيوم فى خط مستقيم الى الساحل . ثم أكملت بعد ذلك مجتازة سمنيوم Samnium بجوار بنيونظم Beneventum الى ونوسيا Venusia (فى أفوليا Apulia) وبرنديزيم Brundisium (برنديزى الحالية) . وكانت طريق لاطينا Via Latina تسير أبعد الى المداخل ، من روما الى قفوا Capua وطريق افلامنيا Via Flaminia صوب الشمال عبر الابنين الى أريمينيم Ariminum (رمينى) على الأدرياتيك وامتد عام ١٨٧ الى افلاقنطيا Placentia (فيا قنزا) على البحر باسم طريق أميليا Via Aemilia . وفى القرن الثانى أنشئت طريق دوماتيا Domitia بمحاذاة خليج ليون Golfe du Lion لربط روما بأسبانيا وطريق اغناطيا Via Egnatia عبر شبه جزيرة البلقان من دوراشيوم Dyrrachium (دورازو) الى تسالونيقا Thessalonica (سالونيك) والسينطس .

المبدأ الأصلي دون أن تشوبه شائبة ، خلال تاريخها • ونفس التوجس من الجمعيات الخاضعة الذي أدى بها إلى إلغاء الحلف اللاتيني ، كان في عهد الامبراطورية الدافع لها على إلغاء فرقة مطافئ محلية في نقومدية Nicomedia^(١) • وعلى اضطهادها الكنيسة المسيحية كطائفة غير مصرح بها ومن الجهة الأخرى ، كانت كل المجتمعات الإيطالية على السواء تربطها مع روما أواصر تختلف قوتها • ومنذ ذلك الحين كانت إيطاليا تكون دولة واحدة تحت السيادة الرومانية • وكان الحرب والسلام والعلاقات الخارجية والعمل من شأن المدينة الحاكمة ، القاصر عليها • وأما ما خلا ذلك فكانت توجد تفرقة بين الأراضي التي تديرها روما مباشرة وتلك التي يستوطنها « أصدقاؤها وحلفاؤها الإيطاليون » على شبه تلك الموجودة في الهند اليوم بين الولايات الوطنية والأقاليم التي يحكمها الموظفون المدنيون البريطانيون ، وكانت تشمل الأولى ثلث إيطاليا تقريبا ، بما فيها روما والمستعمرات التي تضم المواطنين الرومان ذوي الحقوق الكاملة وبلدانا أخرى لها حقوق المواطنين الكاملة أو الجزئية (municipia) وهذه المستعمرات والبلدان municipia كانت تستمتع بقسط وافر من الحكم الذاتي ولو أن روما احتفظت بحق التدخل وكان يرسل الرؤساء perfects سنويا من العاصمة للقيام على القضاء •

ومن بين « الحلفاء » الإيطاليين من الجهة الأخرى ، كانت تحتل المستعمرات « اللاتينية » مكانة ممتازة ولها كامل الحقوق في التجارة والتزاوج مع المواطنين الرومان • وحتى منتصف القرن الثالث ، احتفظ سكان المستعمرات بحق استعادة صفة المواطنين الرومان في حالة عودتهم إلى العاصمة ولكن جمهرة « الحلفاء » كان يحدد مركزهم معاهدة خاصة ففي حالة المدن الهلينية كانت الشروط على وجه عام سمحة ، بينما هوت المجتمعات الأخرى في المناطق الأقل تمدينا ، إلى عبودية مفترضة وكان الكل عرضة للخدمة مع الجيش الروماني في الميدان^(٢) • ولا يمكن أن يقول مثال أوضح بيانا عن مرونة المذهب

(١) راجع خطابات بلني إلى الامبراطور طريان (بواكير القرن الثاني الميلادي) الكتاب ١٠ الرسالتين ٣٣ و ٣٤ (فرقة الحسرات) و ٩٦ و ٩٧ (المسيحيين) •

(٢) ان التقسيم إلى مواطنين (صفة تامة وصفة جزئية) وحلفاء يرجع تاريخه إلى القرن الرابع • وصفة المواطن الجزئية كان معناها استحقاقه على الحقوق الخاصة دون العامة • وكانت الحقوق الخاصة المنوّه عنها ، حقوق التجارة والتزاوج أما العامة فكانت حق التصويت والأهلية للوظائف • وقد منحت الحقوق اللاتينية إلى المجتمعات خارج لاتيوم في إيطاليا (وبعد ذلك) في الأقاليم وكان للحلفاء حكم ذاتي فيما يتصل بالحكومة المحلية وكانوا خارج دائرة التشريع الروماني والحكومة التنفيذية •

الادارى الرومانى وقدرته على التكيف مع الأحوال المحلية المتغيرة من الصورة التى يستعرضها حكمهم فى إيطاليا فى الفترة التى تقع بين الغزو الغالى (٣٩٠) ونشوب أول حرب فونية (٢٦٤) .

ب - الحروب مع قرطاجنة :

١١ - تدور القصة كيف أن فورميس هتف عند تركه المدن الاغريقية فى إيطاليا الجنوبية الى مصيرها « يا له من ميدان قتال ذاك الذى نخلفه للرومان والقرطاجنيين » . ولعدة قرون كان الاغريق الصقليون يكافحون ضد قرطاجنة من أجل جزيرتهم والآن أصبح لا يفصل صقلية عن روما سوى المضائق الضيقة . وكانت سيادة القرطاجنيين فى البحار الغربية حتى ذلك الحين ، لا يوجد من يتحداها ولو أن روما كانت قد بدأت فى حراسة ساحل إيطاليا بأسطولها ومنذ القرن السادس كانت تمارس التجارة مع صقلية وسردينيا وقرطاجنة وأصبح لها المام تام بالعادات الهلينية والفنية . وكان الصراع بين الدولتين الغربيتين العظيمة ، أعظم صراع مروع فى التاريخ القديم وقد بدأ فى عام ٢٦٤ واستمر ، مع انقطاع عشرين عاما لكى يتمكن المحاربون من استرداد قوتهم (٢٤١ - ٢١٩) ، حتى الانتصار النهائى الذى حازه اسقفيون على هنيبال فى زاما ، عام ٢٠٢ . ويقع خارج مجالنا الاستطالة فى الحديث عن تاريخه . وقد اكسبت الحرب الفونية (الفينيقية) الأولى (٢٦٤ - ٢٤١) روما أول اقاليمها ، صقلية وسردينيا وقرسيقا والسيطرة البحرية على البحر المتوسط الغربى . وفى الفترة التالية ، أخضعت الغالبين بين الابنين الشمالية واللب . واختتمت الحرب الثانية (٢١٩ - ٢٠١) ، التى جعلها غزو هنيبال العظيم لإيطاليا باقية الذكر على الدوام ، بفتح اصبانيا والنزول بقرطاجنة الى منزلة ولاية مقطعة . ولم يحدث فى تاريخها الطويل أن تجلت للمعان البطولة فى حب الوطن التى نهض بها الرومان أكثر مما كان فى الساعات الحوالك ، عندما كانت شرآذم الكتائب المحطمة تلم شعثها فى استبسال حول المغير . وعندما اقترب القنصل وارو Varro من المدينة بعد نكبة كاناي Cannae (٢١٦) المروعة - فإن أعضاء مجلس الشيوخ - أعداء السياسيين تقدموا لمقابلته حاملين له الشكر لأنه لم ييأس من الجمهورية . وبعد ذلك بأعوام قليلة عندما اقترب هنيبال من أبواب روما ، بيعت الأرض التى كان معسكره مقاما عليها فى المدينة بثمانى الكامل فى السوق ، فى زمن السلم . والمغزى الأدبى لنتيجة هذا الصراع التاريخى واضح كالشمس فى رائعة النهار . ان حكومة قلة تجارية - كالبندقية فى زمن متأخر ، تملكها الغيرة من عظماء مواطنيها وتعتمد على الجنود المرتزقة - لا يمكن أن تغلب بالسلاح على

جمهورية حرة (١) . ولم تكن عبقرية أعظم القادة العسكريين مجددة في تقويض بنيان المستعمرات الرومانية المتين . ولما تقررت النتيجة تصيدت روما عدوها وأردته موارد الهلاك في قسوة لا رحمة فيها فانتزعت أولا المنفى (٢) ثم قتل هنيبال ، الفرد الوحيد الذي عن لها اطلاقا ، أن ترهب جانبه ، واخيرا عندما نهضت قرطاجنة بعد نصف قرن من حشجة موتها ، في جهد بالغ لاستعادة حريتها فانها بعد مقاومة باسلة ، سويت بالأرض (١٤٧) .

(ج) فتح الشرق

١٢ - خرجت روما من هذا الصراع الهائل وهي سيده الغرب ، دون منازع . ومنذ ذلك الحين كان المشكل الذي واجهها في هذه الناحية مشكل التوطيد والحكم . وسنعود في الفصل التالي الى الوسيلة التي أنجزت بها رسالتها كعامل في بسط المدنية على اسبانيا وافريقيا والغال الجنوبية ، ولكن قبل أن تضع يدها على هذه المهمة الجديدة ، وجدت نفسها وقد اشتبك قهرا بسياسة الشرق الهليني . ولم يكن مزاج الحطينة hubris هو الذي دعاها الى التدخل ، ولكن منطق الوقائع الصارم . ولم تكن ، وقد أنهكتها حروب هنيبال وأصبحت تنوء تحت عبء الأقاليم الغربية ، في حالة تسمح لها بالشروع في مغامرات جدد ، لم يكن بالمستطاع التنبؤ بنتائجها . وكانت المطامع العسكرية التي تحدد ملوك مقدونيا وآسيا ، الاغريق تجبرها على العمل . والدولة التي لها السلطان في ايطاليا ما كانت بمسئولة في ذلك الحين ، أكثر من استطاعتها الآن ، أن تعين سير الحوادث في شبه جزيرة البلقان دون مبالاة ، وكدولة تجارية عظيمة ، كان على روما أن تحافظ على السلام في البحار المحيطة ، ولقد حاربت جنود مقدونيون في جانب هنيبال ، وكان أنطيوخس الثالث (العظيم) من أسرة سليفوكس يهدد استقلاله حلفاء روما ، أثينا ورودرس وفرغامس ، وكانت النتيجة سريعة ومجتنحة . ولقد سحقت مقدونيا في عام ١٩٧ وأنطيوخس في آسيا ، عام ١٩٠ . أما امبراطورية سليفوكس ، وقد قطعت روما أوصالها في الغرب ، ودولة بارتيا الناهضة في الشرق ، فقد هوت بعد معركة مغنسيا (١٩٢) لتكون ولاية سوريا الصغيرة التابعة . وعلى ذلك ، ففي عشية أو ضحاها أصبحت هيمنة أقاليم البحر المتوسط الشرقية في قبضة روما . ولقد أبدى مونتسكيو

(١) يقر فلوبيس (٥٢،٦) أن تفوق الرومانيين العسكري على القرطاجنيين كان تفوق الجنود - المواطنين الذين تحفزهم الروح الوطنية على المارترقة وهو يذكر أيضا (٣ ، ١١٨) أن الرومان أنقذتهم بعد كاناي «خصيصة تنظيمهم السياسي التي تتميز عن غيرها وتفوقهم في تدبير الرأي » وينسب توصيف امبراطوريتهم السريع الى نفس السببين .

(٢) بلوبيوس - راجع صفحة ٢٧٤ تذكرة (١) - المترجم

ملاحظة مفادها أنه بعد سقوط القرطاجنيين ، حاربت روما حروباً صغيرة فقط ، وكسبت انتصارات عظيمة ، بينما قيل ذلك ، كسبت انتصارات صغيرة وحاربت حروباً عظيمة (١) ، واننا نلاحظ في قصة توسعها الشرقي ، الرائعة ، ثلاث حقائق بارزة أولاً تظهر روما في كل مرحلة كنصير للنظام والشرطي الوحيد العامل في خضم العالم الهليني المضطرب اضطراباً مؤلماً . وعلى ذلك فقد تحالفت باستمرار مع الدول التجارية المسالمة مثل مصر ورودرس وفرغامس . ثانياً كان يلهم سياستها حماس صادق للهلينية ، وسنتحدث فيما بعد عن تأثير الثقافة الاغريقية التي تنزع الى التغلغل ، في هذا العصر في حياة ومزاج القادة من المواطنين الرومانيين ولقد تجلى مثلهم الأعلى في المشهد الفاجعي الذي أعقب الانتصار على مقدونيا عندما أعلن فلأمنيوس Flaminius على الاغريق المجتمعين عند برزخ كورنث أنهم منذ ذلك الحين أحرار ، وربما كان ليتنبأ مقدماً نصير للهلينية أقل تحملاً بالنتيجة . لقد انتهب سعي الفوضى ، في شبه الجزيرة كلها طوال نصف قرن الى أن اضطرت روما الى ضمها . وثالثاً يظهر في أعظم جلاء اعراض الحكومة الرومانية عن توسيع حدود امبراطوريتها خلال هذا العصر . ان سياستهم في مقدونيا تقدم المثال لذلك . لقد أيدوا بعد انتصارهم الأول (١٩٧) الملك المهزوم كأمر غير مستقل تحت السيادة الرومانية . وعندما أثار خلفه بعد ذلك بعشرين سنة حرباً ثانية خلع وقسمت أملاكه بين أربع سلطات محلية . وفقط - عندما فشلت هذه التجربة - جعل القطر اقليماً رومانياً (١٤٦) . وفي آسيا ، لم تأخذ روما شيئاً لنفسها ، وقد وكلت الاقاليم التي انتزعت من أنطيوخس الى امراء وكلاء والى خلفائهم الهلنيين . ويمكننا أن نوازن الأساليب المشابهة التي تذرعت بها الحكومة البريطانية في الهند في تأجيل ضم البنجاب من وقت الى آخر .

١٣ - ولو كانت غايتنا وضع تاريخ لروما لكان من اللازم أن نتتبع مرحلة بعد مرحلة حوادث هذه المناوشات بالتفصيل وأن نتبين في كل

(١) Gr. 'et déc. فصل ٥ : لقد أثرت السرعة التي استحوذت بها روما على سيادة العالم تأثيراً عميقاً في معاصريها . ومنهم ، مثلاً ، المؤرخ الاغريقي فلوبيس الذي كان الهدف من مؤلفه هو أن يوضح « بأية خطوات وبأي دستور انضوى العالم بأجمعه تحت حكم روما الواحد في غضون ثلاث وخمسين سنة » (١ ، ١) - أي ، بين نشوب الحرب الفونية الثانية (٢١٩) وتقسيم الهنديا (١٦٧) . وهو يذكر أيضاً (١ و ٣) كيف أنه في نصف القرن ذلك ، تقابلت تيارات الحوادث في الشرق والغرب ، المنعزلة ، لتكون مفعلة في الامبراطورية الرومانية وأصبح لتاريخ منطقة البحر المتوسط ، لأول مرة ، وسادة عظمية .

مرحلة متعاقبة ، تأثيرها المستمر على تكوين حكومتها الداخلية . فعلى سبيل المثال ، كان ضغط الحرب على أبوابها هو الذى أتى بالنفع على العامة الذين كانوا السلسلة الفقارية للجيش فى كفاحهم مع الأرستقراطية الأشراف ، وكذلك كان لادماج الشعوب الإيطالية وشعوب البحر المتوسط داخل دائرة السيادة الرومانية كما سنرى فيما بعد ، نتائج بعيدة الشأو على مذهبها الإدارى والقانونى . ولكن اهتمامنا الحالى بقصة تكوين الامبراطورية الرومانية لا ينصب على العملية النسقية أكثر مما ينصب على النتائج (١) . وهذه يمكن تلخيصها فى عبارة : قبيل منتصف القرن الثانى ، توطد حكم روما فى أعم خصائصه الجوهرية ، على عالم البحر المتوسط ، وفى الغرب كانت تحكم حكما مباشرا أقاليم صقلية وسردينيا وكورسيكا والغال جنوب الألب وإسبانيا الدانية والقاصية وأفريقيا . وفى عام ١٢١ أدمجت الأراضى الساحلية الواقعة بين الألب والبرانس فى إقليم الغال النربونزية ، الذى عرفت باسم « بورفانس » فى زمن لاحق . وفى الشرق كان يوجد فقط اقليمان : مقدونيا مع أخايا « اليونان » ، وآسيا - أى المنطقة الغربية من آسيا الصغرى - التى أرثها للدولة الرومانية عام ١٣٣ آخر أمير اغريقى لفرغامس . والى ما يوالى حدود هذه الأقاليم ، كانت توجد سلسلة من الدويلات مثل نومديا Numidia فى أفريقيا ومصر وسوريا (بقية المملكة السلوقية) ولايات صغرى عديدة تحكمها داخليا حكوماتها الخاصة ولكن تسيطر عليها روما فى جميع ما يتصل بعلاقاتها الخارجية . وكانت إقامة هذه الولايات العميلة ، تحت السيادة الرومانية مظهرا أصليا للسياسة الرومانية فى عهد الجمهورية المتأخرة والامبراطورية الباكرا . وكانت تقوم كولايات حاجزة بين روما ودول من أمثال بارتيا ، ووفرت أثقال الاحتلال العسكرى والحكومة ونمت انتشار المدنية خارج تخوم الأقاليم . وطالع القرن التالى تهذيب المذهب الامبراطورى بتكوين أقاليم جديدة ولايات تابعة واصلاح الإدارة الداخلية وقرار التخوم الدائمة للامبراطورية . وفى الزمن الذى وصلنا اليه ، كانت وظيفة روما فى تاريخ العالم قد تحددت معالمها . وكانت تلك الوظيفة مزدوجة وفقا لاختلاف الأحوال التى تواجهها فى الغرب والشرق . وفى الغرب ، كانت رسالتها أن توطد دعائم القانون والمدنية بين الشعوب الهمجية والشبيهة بالهمجية . أما فى الشرق ، من الجهة الأخرى ،

(١) ليست شخصية اسقفىون أفريقانس أو أعماله الباهرة هى التى يعتد بها فى التاريخ ، ولكن النفع الذى حققته روما من فتحه إسبانيا . لقد أطاح هنيبال بفلانيوس وكتائبه بالقرب من بحيرة اطراسمين ، ولكن اسم ضعيفته لا يزال باتيا كمنشئ للطريق العام الذى عبرت به الجيوش الرومانية الأبنين الى وادى البو وسفوح الألب .

فقد وجدت مدينة قائمة تتفوق الى شسوط بعيد على مدينتها ، وهناك كانت مهمتها ليس الخلق وانما المحافظة ، أن تنقذ من الفوضى والدمار ببيان الثقافة الهلينية وأن تسير فى النهوض بعمل الاسكندر وخلفائه ببث تلك الثقافة فى شعوب الشرق الأوسط والادنى .

روما فى القرن الثانى

١ - روما والهلينية :

١٤ - ان قدرة روما على النهوض الى قمة مسئوليتها كانت تعتمد أصلا على خليفة لفيف مواطنيها . وقد تألف فيض الثروة بذبوع الثقافة الهلينية خلال حقبة الحروب العظيمة لايجاد ثورة عميقة فى حياة المجتمع الرومانى الخلقية والاقتصادية . والى زمن الحروب الفونية ، كانت روما فقيرة نسبيا ، وكان يسود المواطنين مقدار من المساواة الحقيقية . والآن ، وجدت نفسها على حين غرة تقريبا غنية ومركزا لتجارة البحر المتوسط وأسواق الشرق والغرب تحت أقدام تجارها ومموليها .

وكانت النتيجة جليلة فى قيام طبقة من الأثرياء الذين جعل لهم ثراؤهم نفوذا فى روما وفى الأقاليم ، وفى ازدياد الترف بين أرسقراطية مجلس الشيوخ ، ذلك الترف الذى حاول عبثا الموظفون المحافظون من أمثال كاتو Cato الرقيب ، أن يضعوا حدا له ، وفى عادة المضاربات المالية ، وفى ظهور ضياع الأرض العظيمة وتدهور الزراع من صغار الملاك واستيراد العمال العبيد على نطاق واسع من الشرق ، ولم يمكن للزراعة فى إيطاليا أن تنافس الحنطة المستوردة من بلدان ما وراء البحار . وكانت النتائج السياسية والنتائج الخلقية متعادلتين فى خطورتهما ، وفى الأزمة الأولى من التوسع فى البحر المتوسط أثار الاداريون والتجار الرومانيون الدهش ، بسبب بساطتهم وحياة الأمانة الصارمة ، فى عالم تعود على الفساد الفونى (الفنىقى) والهلينى . ولكن فى النصف الأول من القرن الثانى كان يمكن لكاتو أن يجار بالشكوى من أن ذاك الذى يسرق من مواطن حر يقضى أيامه مكبلا بالقيود . ولكن من يسرق من المجتمع يقضيه وهو يرفل فى الذهب والأرجوان (١) . وقد خضعت مدونة قوانين الأخلاق القلبية بسرعة الى

(١) راجع مسن الكتاب ٣ ، فصل ٢ . تزعم كاتو (قنصل ١٩٥ ورقب ١٨٤) ، وهو من قدامى الجنود فى الحرب الهنيبالية ، وادارى قدير لاسبانيا ، المعارضة المحافظة للتأثيرات الجدد . ويعقد فلوبيس (٦ و ٥٦) وكان بالذات وطنيا اغريقيا ، موازنة بين أمانة الموظف الرومانى فى النصف الأول من القرن الثانى وبين فساد الاغريقى : « ان أولئك الذين فى أيديهم

الأحوال التي تغيرت، وفشا الجمول والعجز بين الطبقة الحاكمة ، بينما كان الأشراف يعيشون في أبهة على أسلاب المقاطعات واستخدم جباة الضرائب من الزراع والمتعهدون ثراهم في انشاء قوة جديدة منافسة في السياسة ، وتدهورت الجماهير التي أملت بها الفاقة والتي اكتظت بها الحاضرة ، الى طبقة عمال من الكسالى والمؤثرين للمتعة .

وكانت تحمل هذه التغيرات في الحياة الاجتماعية والأخلاق التي نجمت عن نهوض روما السريع الى دولة ذات سيادة ، نتائج تنذر بالشر ، ليس فقط على سياستها الامبراطورية ، ولكن على الاستقرار الداخلي للدولة . وكان أكثر نفاذا وله أثر بعيد المدى ، نتائج تمثيلها الهلينية .

١٥ - لقد كان في قمبرانيا Campania في القرن الرابع أن روما اتصلت لأول مرة اتصالا دائما بالمدينة الاغريقية وما وقع من أنها استهلكت تاريخها كدولة - مدينة بأنظمة شبيهة بأنظمة دول - المدينة في اليونان ، كان حلقة اتصال سرعان ما تبينها الرومان والاغريق على السواء . وعندما ظهر الرومان في عام ٢٢٩ للمرة الأولى على شواطئ الادرياتيک الشرقية ، سمح لهم في الحال بالعضوية في الألعاب الهلينية ولم ينظر لهم الاغريق قط على أنهم « هيج » . وردا على هذا فان الحكومة الرومانية والأفراد من الرومانيين ، مثل فلانيوس Flaminius اتخذوا في شغف وجهة موالية للهلينية في السياسة الخارجية . وقد شوهدت ثمار هذه القرابة ، الأكثر توثقا ، في غضون القرن الثالث في الوازع الذي أثارته اليونان في الأدب اللاتيني . لقد كان شعر روما الوطني والترانيم والقصيد الغنائي والملمهة الريفية ، خشفة في الصورة والمادة . وكان للشعراء القليل من الاعتبار ، ولا يوجد أساس سليم لما ذهب اليه ماكولي Macaulay من أن المشاحنات السياسية البواكر ألهمت بأدب يزخر بالقصيد الغنائي .

لقد كانت بدايات الشعر الروماني في الترجمات ومحاكاة عيون المؤلفات الاغريقية واستلهموا صيغ أوزان شعرية ترجع الى أصل اغريقي وخاصة الملحمة ذات الست مقاطع^(١) . ولكن يكون من الخطأ الظن بأن الشعراء

تصريف الأموال، العامة من الهلنيين ، حتى لو كان المبلغ مجرد « وزنة » يستخدمون عشرة محاسبين وعشرة أختام وضعف هذا العدد من الشهود ، ومع هذا لا يمكنهم أن يكونوا أمناء على ما عهد اليهم . بينما بين الرومان ، يراعى الرجال الذين يتسللون ببالغ جسيمة كالموظفين والسفراء التزاماتهم ، بضمائم قسم بسيط » .

(١) كان أقدم شمس روماني في وزن يطلق عليه Saturnian

يمثله البيت الانجليزي الاتي :

"The Queen was in her parlour eating bread and honey."

الرومان ، فى اتباع النماذج الاغريقية ، كانوا محاكين لأساتذتهم محاكاة عبيد فملقد نفثوا فى أعمالهم ، روح روما . ولقد عبر انيسوس Ennius الذى كان معاصرا للحرب الفونية الثانية ، واتخذ ذلك الصراع التاريخي موضوعا للمحمته ، عن صفات الجد ونشاط الرجولة والكبرياء القيصرى والذكاء السياسى مما كانت تتميز به الخليفة الرومانية . ويصدق هذا القول على مسلاة الأخلاق اللاتينية فى القرن الثانى . وقد أمكن تكييف النماذج الاغريقية للتعبير عن مصالح روما وحياتها الاجتماعية .

وكان هناك أسلوب خاص من الشعر يعتبر خصيصة ملازمة للأدب الرومانى وهو «التهمك» أو الخليلط "Satura" وكان أول واضعه لوكليوس Lucilius فى منتصف القرن الثانى ، وكان يصور فى أبيات من ستة مقاطع ، مشاعدا من الحياة الاجتماعية يتناثر فيها النقد الأدبى والسياسى والسيرة التى يضعها الانسان عن نفسه والمغامرة الشخصية وتواصل الأصدقاء . وقد أظهر الكتاب الرومان اشراقا خاصا وروعة فى هذا اللون من الشعر وفى عبارة ناقد حديث . لم يكن هوريس Horace وحده أو كل أصحاب الشعر التهمكى بعده ينتمون الى مدرسة لوكليوس ، ولكن مونتاني Montaigne وبس Pepys أيضا (١) . وكان مولد أدب النثر اللاتينى فى هذه الحقبة ذاتها . ان مصالح الرومان العملية هدتهم منذ زمن مبكر الى أن يشقوا الطريق فى ميدانى المحاكمة القانونية والتاريخ . وهنا أيضا نشعر بأحاسيسهم ، الحاضر أيدا ، بمظمة روما وعمقريتها فى القانون والنظام ومصيرها الامبراطورى ، ولكن لا تزال توجد خصيصة أخرى تميز الأدب اللاتينى عن أدب الاغريق . ان أعظم الشعراء الرومان يستبين منهم فهم صادق للطبيعة وحب لها . لقد وضع الاغريق عن الطبيعة شعرا لا يعتريه فناء ، ولكن مع كل أحاسيسهم بجمالها وجلالها ، ظلت بالنسبة لهم قوة غريبة عنهم ، قادرة فى الواقع على إثارة اعجابهم ولكنها شيء لم يكونوا فى الواقع قط يرتاحون اليه كل الارتياح . ان الطبيعة عند اليونانى كانت دائما شيئا خارجا عن ذاته ، شيئا يجب أن يعرف عنه أو يقهر ، وليس شيئا يجب (٢) .

وكان الشعراء الرومان يحبون الطبيعة كأن لها قرابة بهم . وكان اليونانى يعيش فى المدينة ولأجلها ، وإذا عن له السفر الى الخارج ، كان

(١) مكمل - « الأدب اللاتينى » - يشتمل Satura ، كما يدل عليه النص ، أكثر مما يشتمل عليه التعبير الانجليزى "Satura" . ونذكر كوتيليان (Inst. Orat. ١٠ فصل ١ § ٩٣) أنه رومانى خالص Satura quidem toto nostra est

(٢) ومع هذا يجب استثناء هزيود والقمايون
تراث العالم القديم

الدافع أن يرى مدائن الناس ، وكانت ضياعه مصبدر ايراد وليس موضع اعتكاف مختار . كان الرومانى يهرب من المدينة جذلان ، للريف . وكان أول من يقدر بيتا ريفيا ويخلق ماوى لوقت الفراغ بين الجبال أو بجوار البحر ، وعلى هذا فإن كاتولوس Catullus غادر روما الى منفاه على بحيرة جاردا ، وهوريس الى مزرعة السابنية ، وفرجيل Virgil الى خليج نابلى . وكانت الحال كذلك مع رجل الأعمال والمحامي عندما كان كما جاء فى تشبيه هوريس ، ذائع الصيت ، يطرح عنه حمل الأعمال العامة ، ويأوى الى حقول فينافرم Venafrum أو طرنطم لاكديمونيا (١) . وكان الرومان يحملون فى مناجاتهم مع الطبيعة شيئا من حرارة الود الذى كانت تتميز به أراصرهم الشخصية . وهذا من شأنه أن يجتذب قارىء أدبهم الى العطف على حياة الشاعر اليومية . ولقد كانوا أول السلالات جميعا (٢) ، احسانا بالابتهاج بجمال الطبيعة ويعبرون عنه فى أشعارهم ، يقرب من احساس شوسر أو شكسبير .

١٦٤ - وبانتشار الهلينية المعاصرة من الطرازين الهليني . والاسكندرى أصبح المجتمع الرومانى أكثر ترفا وأكثر تهديبا ، فى وقت واحد .

وكانت الثقافة الاغريقية لا تعنى ، فى الكثير الغالب ، سوى قشرة رقيقة لا تكاد تحجب الحشونة الطبيعية والوحشية فى الأخلاق الرومانية . ولم يحسن نفوذها على الدهماء من الشعب اطلاقا الا أن يكون ذلك ، فى التأثير التدرجى على الدين الشعبى ، فى تعرف الشعراء هوية واحدة للآلهة الرومان ، والآلهة الاغريق ، ولقد غدا الآلهة المعنويون فى روما الباكورة ، الى حد ما ، أولى طابع شخصى وذات محددة . ومن الوجهة الأخرى تعلم الرومانيون الارستقراطيون ، من الاغريق ، أن يقدروا الأدب والفنون (٣) .

(١) هوريس « القصيد الغنائى » ٣ ، ٥ و ٢ ، ٥٥ - ٦ .

(٢) لقد سبقهم قدماء المصريين فى هذا المضمار فان الشعر الغنائى المصرى القديم يزخر بالاحساس بجمال الطبيعة والبهجة برؤية الأشجار والزهور والطيور (المترجم)

(٣) كانت الجماعة الممتازة التى التفت حول اسقفليون اميليانوس (هازم قرطاجنة فى الحرب الفونية الثالثة) تضم بخلاف أشراف الرومان مؤلف الفاجعة الهزلية طرنس وشاعر الهجاء والتهكم لوكليوس والسياسى الاغريقى المنفى بلوبيوس ، وأعيد بلوبيوس (ولد عام ٢٠٦ وتوفى عام ١٢٤ ، على التقريب) الى اليونان من المنفى عام ١٥٠ ورافق اسقفليون فى حملاته فى أفريقيا وغيرها من الأماكن وقام بوظيفة مبعوث روما فى اليونان من عام ١٤٥ . وكان تاريخه يضم ٤٠ كتابا ، الخمسة الأولى منها ، فقط ، هى الموجودة لدينا بأكملها . وقد بقيت من الأخرى مقتبسات ، فيما دونه

ولقد حملت الى روما روائع أمثلة النحت الاغريقى ، لتزخرف بيوت
قواد الجيش المظفرين . ويوجد قول لجورج مريدث مفاده أن الفكرة المعنوية
الوحيدة التى يستطيع العقل العسكرى أن يفقه لها معنى ، هى فكرة
الغنيمة ، ودون ريب كان لتعطش الدهماء للسلب شأن كبير فى نهب
كنوز الهلينية ^(١) . هذا ، ولكن بمجرد أن استعرضت أعمال الفن فى
روما ، أتت على ذوق الجمهور بتأثير خفى . وأصبح الرومان يهتمون ليس
بمجرد الاحتفاظ بآثار الماضى التذكارية ، ولكن بتشجيع مثل هذه الابتكارات
الجدد فى الفن والأدب ، كما كانت العبقرية اليونانية لا تزال قادرة على
انتاجها . والفن الحالى يشير الى وجود جمهور . والآن صارت روما تهيب
الجمهور ، ولم يصبح الرومان قط فنانيين . والواقع أن رعايتهم قد أوقعت
الضربة القاضية على الفن الاغريقى . والفلسفة الاغريقية بدأت أيضا تتمرب
الى روما خلال القرن الثانى ، ولو أن الرومان كان لهم القليل من القدرة
على التفكير المجرد عن المنفعة وقاوموا التغلغل زمنا طويلا ، وكانت مبادئ
الرواقيين والأبيقوريين التى تتركز حول مشكلات الحياة العملية أول مبادئ
تأصلت فى المجتمع الرومانى . ولقد عاونت على تعديل ، وفى النهاية على
تقويض القيم الرومانية العتيقة للتورع والفضيلة .

ولقد وجدت علامات الفكر الارتياحى فى اشعار انيوس Ennius
وكان الشيوخ من رجال السياسة فى القرن الثانى مثل كاتو ، يرتابون
من النفوذ الاغريقى . وفى منتصف ذلك القرن وافق مجلس الشيوخ على
مرسوم بأن يغادر المدينة جميع الفلاسفة . ولكن مقاومة الأفكار كانت غير
عملية كمقاومة الثروة والترف ، وفى ارواد ولكن فى يقين ، للخير أو للشر ،
فإن روح اليونان كما جاء فى عبارة هوريس : « أخذت أسيرا ، قاهرها
الجافى » ^(٢) .

مؤلفون بيزنطيون . وهى تستغرق المدة التى تقع بين عامى ٢١٩ و ١٤٥ .
ومصنف بلوبيوس يتميز بعدم التحيز فى الحكم والصدق فى سرد الوقائع
التي يمكن تحقيقها . والمؤلف ولو أنه موال ولا متصلا لليونان وطنه ، فإن
احساسا بقوة دولة روما التى لا غالب لها ، ونبل وعظمة الخليقة والأنظمة
الرومانية كان يلهمه باستمرار . ان الصدفه تتحكم الى حد عظيم ، فى شئون
البشر (١ ، ٤) . ولكن لم يكن يوجد مصادفة فى نظر بلوبيوس فى استحواذ
روما على امبراطورية عالمية (١ ، ٦٣) . والتأملات الفلسفية التى تنهال على
القارئ وهى عسيرة الفهم ، هى - على وجه عام - على شئ من الابتذال واللغو .
(١) ينمى بلوبيوس (٩ و ١٠) على الرومان ما درجوا عليه من سلب
المدن المهزومة ، خزائنها الفنية . ويقابل هذا بما كانوا عليه سابقا من ضبط
النفس وبساطة العيش .

(٢) هوريس Epp. : ٢ و ١ و ١٥٦ .

(ب) الدولة الرومانية في القرن الثاني :

١٧ - ان خلق امبراطورية شيء ، ولكن حكمها شيء آخر أكثر عسرا ، والمشكل الذى واجه روما لم يكن مجرد مشكل ايجاد وسائل جدد لادارة اقاليمها ، ولكن أيضا اعادة تنظيم حكومة الوطن المركزية . ان المناهج التى كانت تكفى لبلدة ايطالية كان مألها أن تقيم الدليل على عدم كفايتها لحاضرة عالم البحر المتوسط ، وكانت خصيصة الدولة الرومانية فى عهد الحروب مع قرطاجنة قد أتى عليها تحول أصلى ، ليس بخطة مدبرة ولكن تحت ضغط الوقائع . وقد تركزت السلطة ، ليس كما كان يتوقع ، طبقا للقانون الهرتنسى الذى صدر عام ٢٨٧ ، فى أيدي الديمقراطيين الوطنيين ولكن فى أيدي عصابة من أسرات الأشراف ، قائمة بذاتها وكان لسان حالها (١) مجلس الشيوخ . ولما كان أعضاء مجلس الشيوخ يعينون من الموظفين السابقين ، ويضمون جنودا مجربين ورجال سياسة ، فى وقت كان فيه القناصل والمواطنون يؤدون الخدمة فى الميدان فان مجلس الشيوخ كان الهيئة الدستورية الوحيدة التى لها الأهمية على ادارة شئون الدولة . وقد ترتب على زيادة عدد الموظفين التنفيذيين لتوسع المسئوليات العامة ، حتى لم يكن يوجد أقل من عشرين من الموظفين كل سنة فى يدهم السلطة على عقد مجلس الشعب وما وقع من أنه يوجد ثلاثة مجالس شعبية للتصديق على قرارات ملزمة ، ان استدعت الحال بصفة ناجزة لرقابة تنظيمية يقوم بها مجلس دائم (٢) . وزيادة على هذا ففى الأيام التى كانت فيها الأمة

(١) يصف بلوبيوس الدستور الرومانى فى هذا العصر ، وهو يكتب عنه ، (٦ ، ١٠) بأنه خليط من الملكية (الموظفين ذوى السيادة imperium) والأرستقراطية (الأسرات التى تحتكر الوظائف) والديمقراطية (comitia أو المجلس الشعبى) راجع كذلك ممسن الكتاب الأول فصل ٢ .

(٢) كان الموظفون الذين يملكون السلطة imperium فى بداية القرن الثانى هم (١) القنصلان ، (٢) الستة برييتوريون ، منهم اثنان كانا يؤديان خدمة القضاء فى روما وأربعة يحكمون الأقاليم ، (٣) بروقناصل وبروبريتوريون يطرد عددهم فى الزيادة ، أى قناصل وبريتوريون سابقون مدت سلطتهم لهام عسكرية بعد انقضاء العام فى القيام بوظائفهم . ومن الوجهة النظرية ، لم تكن السلطة imperium تعرف حدودا . ولكن عمليا ، وضعت فواصل بين السلطة « العظمى » والسلطة « الصغرى » للقناصل والبريتوريين على الولاء وبين مراس السلطة فى منطقة روما المدنية (domi) وفى المنطقة العسكرية (militiae) . وكانت سلطة الموظف السابق تنحصر فى المجال الأخير . وباستثناء حالة الدكتاتور ، الذى كانت سلطته sine fine (دون حد) فان السلطة كانت تنحصر فى نطاق provincia معين (راجع تذكرة ٢ صفحة ٢٥٩) وعلى هذا أصبح للكلب الحارس مقودا .

تكافح من أجل حياتها أقام مجلس الشيوخ الدليل على أنه جدير بحمل السلطة، وكان كما قال مبعوث فورهمس لسيده « مجلس ملوك » وعلى هذا حدث أن سلطة imperium الموظفين وسيادة الشعب التشريعية انحلت أمام سلطة مجلس الشيوخ الأدبية . وفي ختام القرن الثالث كان مجلس الشيوخ ، بالإضافة الى سلطته التاريخية في تقديم النصح الى الموظفين يمتلك زمام رقابة تكاد تكون شاملة ، على الشؤون الخارجية والتنظيم الاقليمي والمالية والدين وجميع الأمور الحيوية في السياسة العامة . وبعد ذلك بزمان وجيز طالب بحقوق غريبة على التقاليد الدستورية وتنازعها معارضة الشعب ، بوقف الموظفين عن القيام بوظائفهم ومنح القناصل سلطات دكتاتورية افتراضيا ، بموجب المرسوم ، « بأن الموظفين يجب أن يراعوا أن الدولة لا يقع عليها ضرر » ^(١) . وفي الواقع نجد في روما موقفا يائل ذاك الذي كان سائدا في إنجلترا في القرن الثامن عشر ، عندما كانت أشكال الحكومة البرلمانية يدير دفتها ، في عهد توسع تجارى وامبراطورى ، لفيف من بيوت حزب الأحرار ، العظيمة . وفي روما أيضا أصبح مجلس الشيوخ والوظائف العليسا احتكارا للأسر الشريفة التي تقوم بأعباء الوظائف ^(٢) ، وهذا الاحتكار المتزايد وهو يتألف بانتشار الثراء والرفاهية بين الأرستقراطية الحاكمة كانت نتيجة التي لا معدى عنها تفشى المرض المزمن في دولة - المدينة القديمة وهو التشيع الحزبى ، ومنذ عام ١٣٤ وما بعدها شب الصراع المدنى بين مجلس الشيوخ والديمقراطية في عنف لم يعرف حتى ذلك الحين في التاريخ الرومانى . وتأزم مائل كان يعكس في معاملات الحكومة الرومانية مع شعوب إيطاليا وقد أصبح الخط الفاصل بين المواطنين الرومان والآلهين غير المواطنين أشد تصلبا . لقد أنزلت تلك الجماعات الإيطالية التي كانت قد انضمت الى هنييال الى حالة رق فعلية . وحتى المدن الموالية ، أى تلك التي لها حقوق لاتينية وجدت أنها تركت وقد نادت تحت أثقال بدلا عن امتيازات . وعندما نعتبر أن الإيطاليين كانوا ينتمون بقرابة الأصل للرومان ، وأنه في النشاط والحليقة كانوا على الأقل يقفون معهم على قدم المساواة ، وأنهم كانوا يجبرون على حمل وطأة الخدمة العسكرية في جهات

(١) فى القرن الأول قبل الميلاد ، بدأت قرارات مجلس الشيوخ (senatus consulta) تكتسب قوة قانونية عن طريق اغتصاب

فرضى للسلطة ، غريب على روح الدستور .

(٢) كانت لا توجد علاقة اطلاقا بين هؤلاء الاشراف الجدد والتميز القديم بين الخاصة والعامة ، الذى لم يعد له مغزى عملى . وأصبحت المرتبة تقاس الآن بعدد الآباء السابقين الذين اضطلعوا بعليا الوظائف وأصبح أمرا عسيرا ، عسرا يطرد ازديادا ، دخول « رجل جديد » دائرة الأصرات الشريفة .

من الامبراطورية ، نائية ، يمكننا أن نقدر النتائج المدمرة التي كان ملها أن تنجم عن هذه السياسة ، قصيرة النظر ، المستبدة . وفي الواقع كانت كل الدلائل التي تنبئ بعصر من الانقسام الداخلي موجودة في نطاق واسع في روما وإيطاليا قبل ختام القرن الثاني .

١٨ - وطالعت نفس الحقبة قيام روما بوضع أساس مذهبها في الحكومة الإقليمية ^(١) . وكان تنظيم إقليم جديد يحدده قانون ، يستند الى تقرير من لجنة من مجلس الشيوخ ، ينص على مبادئ الإدارة والمالية . وفيما يتعلق بفرض الضرائب فقد جرت العادة على الاحتفاظ - على قدر الامكان - بالمذهب الموجود سابقا ^(٢) .

ولقد أدخل قانون روما فيما عدا المدن التي لها امتياز « المتحالفة » ، و « الحرة » ، التي كان لها الحق ، اذا أرادت ، في الاحتفاظ بقانونها الخاص ، وكانت معفاة من تدخل الحاكم . وحتى فيما يتجاوز هذه الحدود ، كان القانون والعادة المحليان يجدان تسامحا بعيدا . ومرة أخرى ، كانت المستعمرات الرومانية والبلدان Municipia تكون مجتمعات تتمتع بالحكم الذاتي داخل الإقليم . وكانت المدن الهلينية وخاصة في صقليا والشرق تستمتع بقسط عظيم من الحكم الذاتي ، وأدرك الرومان بنظرهم الشاقب في تكييف المناهج وفق المطالب المحلية ، منذ البداية أن الاغريق المتدينين كانوا في حاجة الى معاملة جد مختلفة عن قبائل أفريقية الهمجية أو اسبانيا ، ومع هذا ، فحتى في هذه الأقاليم الغربية أنشئت مجتمعات حضرية لها امتيازات كمراكز لنشر الثقافة الرومانية . وفي الأقاليم ، كما في إيطاليا ، حلت في كل مكان ، الاتحادات المحلية القديمة ، وفيما يوالى حدود المدن ذات الامتيازات ، كانت سلطة الحاكم مطلقة الا فيما يتصل بنصوص الدستور الأصلي فقط . وكان كل إقليم يوكل أمره لبريتور praetor ، وقد زيد عدد

(١) كان معنى لفظ provincia في الأصل ، مهمة الموظف الخاصة وعندما استولى عام ٢٤١ على أول أملاك خارج إيطاليا وهي صقلية فإنها وكلت الى موظف ، كنطاقه الخاص . وقد اتبعوا هذا النهج فيما جاء بعد ذلك من توسع اقليمي . وعلى هذا ، أصبحت الكلمة تعني منطقة اقليمية تحت حكم موظف ذي سلطة imperium

(٢) وعلى هذا ، استبقى نظام العشور القديم في صقلية وفي آسيا . ولقد أدى هذا الى العادة غير الاقتصادية ، الظالمة في وكول تحصيل العشور صنفا الى محصل ضرائب كانوا يبيعون المحصول ويدفعون مبلغا ثابتا للدولة محتفظين بأرباح الصفقات .

هؤلاء الموظفين الى ستة بعد الحرب الفونية الثانية أو ، بعد ذلك ، الى قنصل سابق أو بريطور سابق ، تبقى له السلطة لهذا الغرض خلال سنة ثانية . وكان يعاونه موظف من وزارة المالية « قسطور » ، Quaestor كاداري مالى وإدارة من الموظفين العسكريين والمدنيين . ولما كان الحاكم يبقى فى دست الوظيفة مدة سنة واحدة فقط ، وكان يأتى بموظفيه معه من روما ، فإن صعوبة ضمان الاستمرار فى الإدارة الإقليمية كانت جد عظيمة . وكانت تواجه الى حد بالدستور الدائم للإقليم ، وإلى حد آخر الى ما كان يقع من أن كل حاكم يؤول اليه الحكم كالبريتورين فى روما أن يذيع مرسوما بمجرد ولايته للوظيفة يشمل فى العادة فحوى مراسيم تسالفيه . وطالما كان فى الوظيفة قتاله كان القائد الأواحد للقوات والرئيس الأواحد للسلطة التنفيذية والقاضى الأعلى . وفى الأقاليم التى فيها لم تكن الحاجة تدعو الى عمليات حربية ، كانت الدوائر القضائية ، أهم واجب لديه ^(١) . ولما كان لا يمكن محاسبة أى موظف روماني فى يده زمام السلطة ، وهو فى دعوت وظيفته بينما كانت التهم التى توجه بعد ذلك تسمع فى روما وأمام محكمة متحيزة ، فإن غوايات الجشع كان لا يمكن مقاومتها تقريبا . وفى الأزمات الأولى كان الحكام يضعون أمانتهم موضع الاختيار ، ولكن كما يلاحظ ممسن Mommsen « لا يمكن من الوجهة العملية ، ولأى مدة من الزمان ، أن يكون المرء فى آن واحد جمهوريا وملكاً » ^(٢) . وقد كان من جراء انتشار الرفاهية بين الأرستقراطية الرومانية أن تعاظمت مساوىء الحكم المطلق الإقليمى ، وحتى حاكم عدل كان يجد صعوبة تطرد ازديادا فى التحكم فى جيش من جباة ضرائب الزراع والوكلاء المالىين الذين كانت تغمر جموعهم الأقاليم الأكثر ثراء . وبمرور الزمن أصبح الحكام العبدول قلة وتباعدت المسافة بينهم ، وكان المذهب مقضيا عليه بأوخم عاقبة ، فى النهاية ، لعدم وجود رقابة فعالة على الحاكم الإقليمى المستبد . وكانت الحكومة المركزية على مسافة قاصية ولم يكن يوجد موظفون إداريون ذوى دربة لضمان رقابة دائمة فى

(١) كان الحاكم يباشر القضايا فى المعتاد ، طبقا للقانون الأهلى الذى عنى الرومان بالتصديق عليه . وفى القضايا الجنائية كان مجلس consilium من الرومان اختيروا من بين سكان الإقليم ومن إدارة موظفى الحاكم ، يستدعى للمشاورة . وكان الواجب أن لا يمكن لأى حاكم أن يهملها ، الحرب والدورات القضائية . وفى غيرهما من المسائل ، كان يمكن لقائم على الإدارة ، متراخ أن يترك إقليما مسالما وشأنه ليحكم نفسه . وكثيرا ما كان هذا يأتى بأوخم العواقب . وعندما كان شيشرون نائب قنصل proconsul فى كليكىة ، استعلم عن مناهج الموظفين المحليين ووجد أنهم كانوا يهنبون الخزينة المحلية منذ أعوام .

(٢) ممسن ، الكتاب الثالث فصل ٢ .

مقر أعمالهم . وكانت آيات الانفصال القادم التى لاحظناها فى روما وإيطاليا ظاهرة أيضا وفى صورة معظمة فى جميع أرجاء الامبراطورية الإقليمية .

١٩ - وقد ترتب على تحول مجتمع زراعى بسيط الى مركز ثراء يعج بالسكان لتجارة عالمية وحكم عالمى ، تغيرات مماثلة فى سير القانون ونهجه . وكانت الفترة الواقعة بين وضع تشريع الألواح الاثنى عشر وختام القرن الثانى فترة انشائية عظيمة فى تاريخ القانون ، وفيها تحطمت صلابة مدونة القانون الباكورة وابتكرت وسائل جدد ، وأوجدت مجموعة منسقة من الشرائع عن طريق التفسير والمراجعة والتوسع . والمصدران المعترف بهما (١) العادات التاريخية التى كانت على الدوام خالقة لقوانين جديدة (٢) القوانين الوضعية الايجابية التى زخر بها هذا العصر ، أضيف اليهما فى القرن الرابع (٣) المرسوم البريتورى (١) .

وكان كبار الموظفين على الدوام يملكون حق اصدار أوامر للجمهور (edicta) شفوية أو كتابية . وعندما نقلت فى عام ٣٦٧ وظائف القناصل القضائية الى موظف خاص ، وهو بريتور المدينة (praetor urbanus) فقد أصبح من المعتاد أن يضع فى المحكمة ، ليعيط المتقاضين علما ، ألواحا تشمل صيغ اجراءاته والقواعد التى يسير وفقها فيما ينتويه فى تطبيق القانون . والمرسوم ويطلق عليه المرسوم الدائم (edictum perpetuum) لتمييزه عن الأوامر العرضية التى تتصل بمناسبات خاصة ، كان من الوجهة النظرية صالحا فقط ، فى خلال السنة التى يكون فيها البريتور (Praetor) قائما بمهام الوظيفة ولكن جرت العادة بأن كل (بريتور) تال يدمج فى مرسومه المواد الأساسية التى وضعها سلفه ومعها التعديلات والاضافات التى يرى لزومها . وعلى ذلك فان طائفة من قوانين من صنع القاضى سرعان ما أصبح لها المرتبة التى كانت لقوانين روما الوضعية ، وقوانين العادة .

(١) كان المرسوم البريتورى مصدر القانون الرومانى اللاحق ، فى معظمه . وهو لا يمثل عمل المحامين المعترف بهم ولكن عمل أجيال من اداريين عمليين قاموا بتنسيق القانون المدنى وفق مطالب ايطاليا والأقاليم . ويطلق عليه فى « مجموعة القوانين المختارة » Digesta « صوت القانون المدنى ، الحى » وأساس تقدم العدالة البريتورية يرجع الى ما جرت عليه عادة البريتوريين فى منح « صيغة » (أى مرسوم بتعيين قاض وارشاده عن مرجع القضية القانونى) كلما رأوا أن دعوى ، حتى ولم يكن ينطبق عليها القانون المدنى الضيق ، كانت معقولة وعادلة وكان المرسوم يبين نوع القضايا التى كان البريتور على استعداد لأن يمنح « صيغة » فيها (أى السماح بالدعوى) وطبيعة الارشادات التى يصدرها للقاضى .

ويلاحظ أن البريتور لم تكن له سلطة التسريع أو الحكم فى قضية ، وكان فى استطاعته عقط أن يمنح أو يرفض دعوى قانونية عن طريق «صيغة» مكتوبة موجهة للقاضى ، المواطن العادى الذى عينه ليضع قرارا عن وقائع القضية ، ولكن هذه المهمة المحددة اتسع اختصاصها بقانون ايبوتيا Aebutia حوالى ١٥٠ ، الذى خول البريتور عند انفاذ التعليمات الى القاضى بأن يعدل أو يلغى افتراضا ، المواد الحرفية فى القانون المدنى فى ضوء العدالة والعقل^(١) . ومثال واحد يوضح طبيعة هذا التطور بموجب نصوص القانون المشددة فان تعهدا ارتبط به ، بالصورة القانونية كان ملزما ، حتى ولو أن أحد الطرفين وصل اليه بطريق الغش . والبريتور ولو أنه ملزم بالموافقة على السير فى الدعوى ، فانه يعلن أنه فى منحها سينهى الى القاضى بأن يوقع العقاب على المدعى عليه فقط اذا وجد أن المدعى لم يرتكب أى غش . وهذا الاجراء كان يمكن التوسع فيه الى حد لا نهاية له تقريبا ، وكان يهين ، وهيله فعالة لضمان انتصار روح القانون على حرفيته . وعلاوة على هذا ، فان نفس هذه الفترة طالعت مولد الفضاء العلمى . وحتى نهاية القرن الرابع ، ظلت مبادئ التفسير القانونى سرا مختوما فى أيدي لجنة الكهنة . وفى عام ٣٠٤ نشر رجل أعنفه ابيوس فلوديس Appius Claudius الرقيب بعضا من القواعد الحبرية . وبعد نصف قرن استهل أول حبر أعظم pontifex maximus شعبى مراس تقديم النصح القانونى للمواطنين علنا . ومنذ ذلك الحين كانت المعرفة بالقانون مباحة لكل روما . وكنتيجة طبيعية ، طهر الى حيز الوجود أدب فانوى ، وقد تبع الكتب القانونية العملية ، شروح ذات منهج لمبادئ القانون المدنى . وفى القرن الأخير للجمهورية ، وضعت الأسس لمذهب العلم القانونى الذى عنى عظام الشارعين فى عصر الامبراطورية الباكر بصياغته^(٢) .

(١) كان القانون الابوطى Aebutian يضع «الصيغة» الجريتورية فى مستوى دعاوى التى ترفع بمقتضى القانون المدنى . ولما كانت الاجراءات بمقتضى « الصيغة » أبسط وأكثر مرونة فان المناهج القديمة ، ولو أنها لم تلغ قط ، بطل السير عليها الى حد كبير . وزيادة على هذا ، فان التعليمات المعينة ، عن المواضع القانونية التى كانت تتضمنها الصيغ ، جعلت القاضى الذى كانت القضية تعرض عليه أكثر اعتمادا عما جرت عليه الحال فى السابق ، على القرار البريتورى ، ومنذ ذلك الحين تسيطر العدالة البريتورية على تاريخ القانون الرومانى .

(٢) ان الاجابات عن الأسئلة القانونية التى كان يضعها المشاهير من علماء القانون (the responsa prudentium) ، كانت ترجع قوتها الى شهرة الشخص الذى يضعها . ولما كان يعترف بها كشروح للالواح الاثنى عشر ، فانها كانت تتضمن فى الواقع تعديلات وتوسع واعادة تكوين==

٢٠ - وأعظم تطور قانونى فى هذه الحقبة ، الى شأو بعيد ، هو وضع قانون الأمم (*jus gentium*) (١) . لقد كان القانون المدنى قاصرا على المواطنين الرومان - أو على أعضاء مجتمع غير رومانى ، ضمنى لهم صفة قانونية بمعاهدة خاصة . وعندما أصبحت روما دولة تجارية عظيمة فقد قامت حاجة واضحة لقانون يكون تطبيقه واجبا على الأجانب فى معاملاتهم مع المواطنين ، وأيضا فى معاملاتهم فيما بينهم . ولقد كان لسد هذه الحاجة ، أن عين بريتور ثان عام ٢٤٢ وله مهمة خاصة فى ولاية القضاء فى الدعاوى التى ينضوى فيها غير المواطنين . ومرسومه السنوى الذى كان يشتمل على التنسيقات اللازمة للقانون المدنى ليطبق على الشعوب الأجنبية . كان أساس قانون الأمم (٢) . ويمكن وصفه على أنه ذلك الجزء من القانون المدنى *jus civile* الذى كان يتوافق مع القانون المحلى لدى الشعوب الأخرى . عدل بحيث يتناسب مع الأحوال المتغيرة ووسع بتمثيل عناصر هيلينية وعناصر أجنبية غيرها ، ليكون مجموعة من المبادئ العادلة التى تصلح للتطبيق فى جميع أرجاء العالم الرومانى .

رلم يكن هذا خلقا مفاجئا . لقد نما فى تدرج بطيء على مر القرون وكان يمثل ما تراكم من تجارب تدرست بها سلالة ، كان لها قدرة فريدة

وقد أنشئت مبادئ لم يكن يحلم بها قط أولئك الذين صاغوا مدونة القانون الباكرا . ويذكر مين *Maine* (القانون القديم فصل ٢) بأن هذا النوع من القانون لم يكن من عمل مجلس قضاة (لأنه لم يكن يوجد فى روما شئ يماثل مجلس القضاة فى انجلترا الحديثة) ولكن من عمل المحامين وكلاء الدعاوى ولو لم يكن علماء القانون يترافعون فى المحكمة . ولم يكن شيشرون عالم قانون *prudens* . وعلى ذلك فان الفرصة التى أتتحت بهذا للمحامى ، للنظر فى القضايا المرضية وكذلك المسائل الواقعية كان من شأنها أن تسهل التعميم وصوغ المبادئ المتسعة . ويجب ألا يغيب عن البال بأن كل رومانى تقريبا كان يطمح فى وظيفة عامة ، فى زمن الجمهورية ، كان يتلقن تعليما فى القانون . ولقد كانت المهنة الوحيدة الخطيرة بخلاف مهنة الجندي وكان معظم الطبقة الحاكمة يترسون بكليهما .

(١) عن قانون الأمم *jus gentium* راجع زليوتا فى « تراث روما » .
(٢) كان يطلق على البريتور الثانى بريتور الأجانب *praetor peregrinus* لأنه كان يمارس القضاء بين غير المواطنين (*peregrini*) . وترجع أصول قانون الأمم *jus gentium* الى زمن سابق لانشاء هذه الوظيفة . ويجب أن يكون مفهوما بأن قانون الأمم لا يعنى « القانون الدولى » ولكن القانون الذى يسرى على أفراد ينتمون الى شعوب غير رومانية . وكان فى غالبية يعنى بالعقود وكان يقوم على العادات السائدة بين مجتمعات البحر المتوسط راجع مين (القانون القديم فصل ٣) .

فى نوعها على تكييف الوسائل القانونية لتتوافق مع غايات مجتمع سياسى .
وقد كان له فى دوره رد فعل على القانون المدنى - وخاصة عن طريق قانون
العدالة الأدبية (jus honorarium) لبريتور المدينة (١) . وفى النهاية ،
وبفضل ما كان يلزمه من موافقة للنهج العقلى - فانه حل محل مواد القانون
المدنى الضيقة ليكون قانونا للمواطنين الرومان . وعلى ذلك ما عتم أن اعتبر
مدونة القانون العامة ، يصلح للبشرية جمعاء ويقوم على احساس بالعدالة
طبعى فى الانسان كائنسان ، ومن بلاط بريتور الأجانِب praetor peregrinus
ذاع فى الأقاليم حيث أضيف على القانون المحلى السائد ، قانون الأمم
ومراسيم الحكام . وقد حمل الحكام معهم الى روما ما خبروه من القوانين
الأجنبية وساعدوا فى أن يقيموا على أسس واسعة بنيان القضاء الرومانى .
وعلى هذا ، عند اكتمال الزمن ، فان القانون المحلى لدولة مدينة إيطالية
وحده ، وقد نما بإضافات من مصادر أجنبية وحورته عبقرية الشعب
الرومانى التى لها قدرة على التكليف ، صيغ فى مذهب قانونى يضم عالم
البحر المتوسط بأجمعه (٢).

« ٥ - الخاتمة »

٢١ - قبل أن يتمكن العالم من جنى ثمار القضاء الرومانى ، قدر
للجمهورية أن تعاني آلام الثورة . وقد حدث فى القرن الثانى أن أصبحت
روما تقف وجها لوجه أمام المشكل . هل تستطيع دولة - مدينة لها أنظمة
جمهورية أن تحكم امبراطورية ؟ هل كان من المحتمل تصديقه . أنه حيث
فشلت أثينا فى عصر بركليس يقدر لروما النجاح ولم تكن لها الا تجارب
ضئيلة فى الحكومة الذاتية ؟

(١) لقد اتخذ قانون المراسيم البريتورية هذه التسمية لأنه صادر عن
سلطة imperium الموظف (honor = مهمة الموظف) .
(٢) يمكن دراسة تطور القانون الرومانى فى الفترة الواقعة بين
الألواح الاثنى عشر وسقوط الجمهورية على خير وجه ، مرتبطا بتاريخ
العقود . راجع مين (القانون القديم فصل ٩) . « ان الواجب الإيجابى الذى
ينتج عن اعتماد رجل على كلمة رجل آخر ، يعد من أبطأ غزوات المدنية التى
تسير قدما » . فى المجتمعات الأولى ، حيث لا يخلق الفرد عن طوعية الحقوق
والواجبات ولكن تكون أما (أ) ملازمة للموطن الذى يولد فيه وأما (ب) أوامر
صادرة عن رئيس الأسرة أو القبيلة فانه لا يوجد مجال للعقد . ان العالم
المتحدين يدين بالعقود والوصايا ، كليهما ، لعبقرية روما القديمة ،
القانونية .

وعلى الرغم من قدرتها على الفتح والحراسة ، فانها لم تبرهن قط ، أنها كفاء للقيام بمهمة خلق حياة عامة مشبعة الفروع . ولقد ظل تصورهما للسلطة حتى النهاية ، سطوحيا وتاديبيا . لقد كانت دولة روما تقوم على القوة ، والسلاح كما هو ديدنه ، كان يرتد على من يستخدمه . وسيكون من الواضح ادراك العمق الذى تأصل فيه المرض الذى كان يقوض الكيان الاجتماعى اذا استذكرنا العوارض التى لحظناها فى الصفحات السابقة .

لقد انتزع عصير الحياة من الاستقرار الاقتصادى بسبب الثراء الذى غمر العاصمة من جميع نواحي البحر المتوسط ، ولقيام أرستقراطية المال والفقر المدقع فى آن واحد ، ولانحطاط الزراعة واستبدال زراع الأرض الأحرار بالعمال العبيد . وسياسيا كان من شأن السلطة أن تتركز فى أيدي حكومة أقلية قصار النظر ، لا تواتيهم سعة خيال ، ازدادوا غنى بنهب الأقاليم . كانوا يتاجرون بأعمال أجدادهم الجليلة ولم يكن لهم علم بواجبات عامة الا ما يكون فيها بقاؤهم فى الوظيفة . وكذلك كان يعنى بالمصالح الذاتية مركزا المعارضة لمجلس الشيوخ ، طبقة الفرسان (equites) التى تشمل ذوى الثراء من أصحاب المصارف والتجار ، والحاملون من طبقة العمال فى المدينة ، الذين كانوا يحتشدون فى المجلس ليساوموا فى الحصول على تصويت للشعب ذى السيادة لهم مقابل أنصبه من الحنطة أو بمبالغ تدفع نقدا .

وكانت الطبقة الوسطى الزراعية التى انقذت روما من هنيبال اما توارت واما تعيش على مسافة نائية عن العاصمة ، ليكون لها دور فعال فى الحياة العامة .

ولقد ازدادت هوة الانفصام بين الرومانى والايطالى اتساعا وأنكرت حرية التصويت . وعومل « حلفاء » روما الذين كان يقع عليهم عبء الخدمة العسكرية كمحكومين غرباء . ومن الوجهة الخلقية ، أصاب البلى المعايير القديمة للورع والفضيلة المدنية . أما الاستقامة وحافز الضمير اللذان كانا فى وقت ما ، المجد الذى يتميز به الرومانى فقد أصبح الرومانى صفر اليدين منهما .

كان الرومانى قد تعلم كيف يحكم بتعلمه كيف يطيع ، والآن ، حتى فى الكنائس أصبح عصيان الجنود المواطنين أمرا يغلب وقوعه . وقد أثرت فيه روح اليونان ، فان عادة التكتل والولاء للجمهورية ، غدت تخضع لمطالب المطمح الشخصى .

هل كان من المستطاع أن مجتمعا ، يزرقه التشيع الداخلى ، والذى كان قد أبعد ذوى قريباه الايطاليين يظل محتفظا بالسيطرة على امبراطورية اقليمية فسيحة ؟

لقد تكدست الجيوش على الحدود بحث امرة نواب قناصل وأقسمت الجيوش لهم وليس للجمهورية يمين الولاء (١) . هنا كان موضع الخطر أمام الزمن المقبل . الى أى مدى كان يمكن لقائد مظفر ، له سلطة غير محدودة على جنده وموارد اقليمية أن يقنع باظهار ضبط النفس والولاء المدنى ، اللذين كانا طبيعة نانية فى الرومانى فى الازمن الاولى ؟

لقد كان ترابط هذه الأحوال - عدم قدرة المدينة الملازمة على حكم العالم ، والتدهور الخلقى فى مجلس الشيوخ والشعب الرومانى ، وسلطة الحاكم الاقليمى حديثة النشأة - هو الذى أدى فى خلال القرن التالى الى سقوط الجمهورية وخلق الامبراطورية الرومانية .

(١) - (ربما) كان sacramentum أو بيمين الولاء العسكرى فى الأزمن القديمة ، اليمين الذى يقسم به - ويترتب على الحنت فيه عقوبة توقيها الالهة - طرفان فى تعامل خاص وكل منهما يعسلن وهو جاد أن توكيده لدعواه كان صادقا ، راجع مسدين الكتاب الأول فصل ٢ ودائرة المعارف البريطانية فى موضوع « القانون الرومانى » (الطبعة الحادية عشرة) مجلد ٢٣ الصفحات ٥٤٨ وما بعدها . واستخدم هذا اللفظ للدلالة على الفرائض المقدسة ، المسيحية و « الأسرار » الشرائية والاغريقية يوجد فى طار طليان Tertullian راجع دائرة معارف هيسستنجنس فى الدين والاخلاق ، عن موضوع ' sacraments (المسيحية ، الغربية) .

الفصل الثامن

الإمبراطورية الرومانية

١ - أنظمة الإمبراطورية

١ - سقوط الجمهورية

١ - ان لقصة سقوط الجمهورية أهمية خارقة العادة ، من حيث الحوادث والأشخاص كليهما ولأن لدينا علما وافيا بتلك الحقبة ، وهي تستهل بتربونية طبريوس جراكس Tiberius Gracchus عام ١٣٣ ، وتختتم بقيام أوغسطس عام ١٧ ق.م بتأسيس الإمبراطورية نهائيا .

ولقد رأينا في الفصل الأخير كيف أن بذور الثورة كانت تنبت في الدولة الرومانية منذ اللحظة التي أصبحت فيها سيدة عالم البحر المتوسط . والمشكل الذي كان يواجهها هو ذلك الذي كان يناوئ المدنية القديمة خلال تاريخها وهو الجمع بين الحرية المدنية وتوسع الإمبراطورية . وكان يمكن للرومان بقدرتهم على تكييف مبادئ الحكومة طبقا لما يطرأ على المواقف من تغير ، الكشف عن حل لو أنهم استطاعوا ادراك معنى الحكومة الذاتية داخل حدود مجتمعهم المدني الخاص . وكان سبب فشلهم يرجع الى تدهور الحياة العامة . ولقد كانت الجمهورية الرومانية منقسمة على ذاتها وعلى ذلك ، لم تستطع الصمود .

ومن بين فروع الدولة الثلاثة ، الموظفون ومجلس الشيوخ والمجلس الشعبي ، كان الأخيران قد أظهرتا دلائل الذبول وظلت سلطة الموظف فقط تحتفظ بقوتها وعندما أزيحت جميع العوائق ، وطدت نفسها في صورة جديدة وفي قوة طاغية . ولما رأى المظفرون من القواد أن الدولة أصبحت تحت رحمتهم ، استولوا على السيادة التي وضعت هكذا في قبضتهم .

وفي زحمة كل التغيرات وتصاريح مصيرها ، ظلت الفكرة الأساسية في رابطة المصالح المشتركة الرومانية في استمرار لا ينقطع . وكان نداء روما انياس Aeneas والإمبراطورية التاريخية على السواء « السلاح والرجل » .

وكانت السلطة Imperium ، صخرة الأساس لحكم العالم حكما استبداديا ذلك الحكم الذى قام على أنقاض الجمهورية . ولقد برزت عارية دون خجل كالمصدر الأول للسلطان والقانون . وفى ظل العرش ، حيث كان يقوم مرة مجلس الشيوخ (السناتو) والمجلس ، ظهر طبف الجندى والموظف ، الفاتم المنذر بالشؤم .

٢ - وسنأتى بموجز قصير عن مراحل الأزمة ، المتعاقبة :

(١) بدءا بالهجوم على الأرستقراطية الحاكمة عام ١٣٣ ، عندما وضع طبريوس جراكس كزعيم للمعارضة الديمقراطية قانونا لتخصيص مزارع فى إيطاليا لزراع أحرار على حساب الأغنياء من محتلى أراضي الدولة . وما له موضع الاعتبار ، هو انه أثار القوى الكامنة فى التربيونية كسلاح ضد الموظفين ومجلس الشيوخ معا وأنه وجد نفسه مجبرا على استخدام تلك القوى بطريقة غير دستورية . .

وعندما حاول أن يحتفظ بالوظيفة عاما ثانيا ، قتل فى عصيان أوغن به أعداؤه السياسيون . وبعد ذلك بعشر سنوات (١٢٣ - ١٢٢) نهض بالأمر أخوه كايوس Caius بصغته موظفا أعلى (تريبون) أيضا ، على مجال واسع وبعد أن استحوذ على معاونة طبقة موظفى المالية (equites) بمنحهم امتيازات كمحصلى ضرائب من الزراع وكفضاة فى المحاكم ومعاونة جمهرة الشعب بانصبه من الخنطة والوعد بمستعمرات عبر البحار ، فانه ناهض رقابة مجلس الشيوخ على الادارة الاقليمية والمالية . وكان رد مجلس الشيوخ القيام بأعمال عنف علنية وأوشك النزاع الحزبى أن يكون حربا أهلية .

(٢) والى الآن كان الصراع محصورا فى الميدان السياسى ، ولو أن أسلحة غير دستورية استخدمها كلا الطرفين المتنازعين . وقد تجلت التربيونية وجأة على أنها اعظم قوات الدولة منعة . ولقد نهض مجلس الشيوخ من الصراع ظافرا ولكنه كان مزعزا . ومنذ ذلك الحين كان المصلحون لا يفترون ينطلقون الى السون العسكرى . ولقد واتتهم الفرصة عندما حدث فى سنى القرن الثانى الحثامية أن روما هبت من جراء تهديد من الخارج كان من شأنه أن يجلب التبور على وجودها ذاته . كانت قبائل جرمانية قد غزت الغال وصحقت الجيوش الرومانية فى الاقليم الجنوبى واجتاحت ألبانيا وكانت على وشك التوغل فى إيطاليا . ولقد نهض جندى قدير ، كايوس ماريوس Caius Marius - وكان يدعى عاما بعد عام لتولى القنصلية تلبية لنداء الشعب - باعادة تشكيل الجيش ، وفى انتصارين فاصلين (١٠٢ و ١٠١) أنقذ الدولة . وقد عملت اصلاحاته العسكرية بالغاء فروق الرتب والثراء فى الجيش ، وإحلال الخدمة الاختيارية محل تجنيد

المواطنين بإيجاد جيش محترف ، على فصم الآصرة التي كانت تربط الجندي بالمجتمع المدني ، ومنذ ذلك الحين غدا القائد الناجح ، الحكم في السياسة الداخلية . وفي بكور القرن الأول واجهت الحكومة أزمة ثانية كانت أكثر حدة ، اذ عندما عرض كايوس جراكس بروح الأب السياسي الصادق ، انصاف مظالم الايطاليين بمنحهم حرية التصويت ، هجره ديموقراطيو المدينة^(١) . وفي عامي ٩٠ و ٨٩ ظفر الايطاليون بقوة السلاح بحرية التصويت . وأخذ هذا الصراع صيره ، دون توقف الى حرب أهلية (٨٩ و ٨٨) بين قائدين متنافسين هما ماريوس Marius نصير الحزب الشعبي ، ولوكيس كورنيليس سلا Lucius Cornelius Sulla نصير مجلس الشيوخ . ان انتصار سلا جعله سيد الدولة ، وكدكتاتور استخدم مضياء السيف لاعادة مجلس الشيوخ الى سيادة لا يكاد يوجد لها ضابط (٨١) . وكانت اعادة سلا في ذاتها ، ثورة ، في أنها تحققت بالسلاح . وبعد أن أنقضى خصومه السياسيين دون رحمة ، تولى الحكم كحاكم مطلق التصرف . ولو أنه كان يعمل لصالح النظام القديم وتغلي عن حكمه الاستبدادي عندما أنجز عمله ، فقد كان مما لا معدى عنه ، أن آخرين يترسمون خطاه حيث أراهم السبيل ويستخدمون القوة العسكرية لغايات قد لا تكون غير ذاتية بأجمعها^(٢) .

٣ - (٣) وقد كشفت السنوات العشرون التي جاءت بعد اعادة سلا عن عدم قدرة مجلس الشيوخ على الاحتفاظ بالمكانة التي ظفر بها له . ولقد

(١) كان الايطاليون يملنون أحسن أرومة في الدولة الرومانية ، ولما كان عليهم أن يضطلعوا بأثقل الأعباء العسكرية ، دون مزايا مقابلة ، فان هذا أعظم الأدلة خطورة على عدم أهلية الحكومة لمعالجة مسائل الدولة . وقد بذلت محاولات عديدة من عام ١٢٥ وما بعده لانصاف مظالمهم ، ولكن دون جدوى .

(٢) ان المجلد الباهر الذي وضعه ممسن عن عمل سلا وشخصيته (الكتاب ٤ فصل ١٠) يجب قراءته ولكن في حذر شديد . لقد أوتى سلا ، دون نزاع ، قدرة عظيمة كجندي ودبلوماسي وسياسي . وقد أظهر أيضا ذوقا أدبيا عظيما وقدم أعمال أرسططاليس في روما وكتب مذكراته الخاصة الخ ، وكانت له موهبة في المجانة الساخرة . ولما كان أرسطقراطيا عريفا ، فان ترفعه جعله لا يعتد بالنفوذ الشخصي . وكان لا يقيم وزنا للأخلاق على الإطلاق ، وحقق القليل مما كان انشائيا . وأعظم عمل دائم قام به هو تنظيم القانون الجنائي . وأي شخص يريد أن يقيم الدليل على أن الضرورة السياسية هي مرشد عديم الجدوى ، عندما تعزل عن الأغراض المثالية ، سيجد في الانهيار السريع لاعادة سلا لمجلس الشيوخ تأبيدا لدعواه ، يسترعى البال .

تراث العالم القديم

جلبت الحرب الخارجية وكانت هذه المرة قد شنت في الشرق ضد مترادطس Mithradates ملك بنطس في آسيا الصغرى (٨٨ - ٦٤) الى الجبهة قائدًا جديدًا في شخص بومباي Pompey (قنايس بومبيس Conaues Pompeius) وفي عامي ٦٧ و٦٦ وكلت اليه سلطات غير عادية ، تنبىء مقدما ، في وضوح ، عن حكم الأباطرة الاستبدادي ، الذي جاء فيما بعد وبمقتضى القوانين الجابينية Gabinian والمنيلية Manilian أصبحت له السلطة Imperium مع الأمبيقية على جميع الحكام الاقليميين في الشرق لمدة ثلاث سنين ، وإدارة من المبعوثين legati يبلغ تعدادهم خمسة وعشرين ، وموارد لا حصر لها من الرجال والسفن والتقود . وبعد أن قام بإعادة تنظيم الشرق ، عاد الى الحاضرة في سنة ٦١ وهو الشخصية التي لها الأمر في الدولة الرومانية (١) .

(٤) ويتركز تاريخ الاثنى عشر عاما التالية (٦١ - ٤٨) حول ثلاثة نمر كان من بينهم اثنان يدينان بمركزهما الى معاونة الكتائب . فمن جهة انساق بومباي ، وكان متعطشا للسلطة ولكن أجبن من أن يقتنص الجائزة التي كانت في متناوله ، ليقوم في النهاية بدور حامى مجلس الشيوخ والجمهورية . ومن الجهة الأخرى فان الزعيم الديمقراطي جايوس يوليوس قيصر Caius Julius Caesar - ابن عم ماريوس - الذي في صباه نجى من الموت على يدى سلا بشق النفس - استحوذ بتحالف مؤقف مع بومباي

(١) كان مترادطس أعظم خصم عنيد ، وقد أعقب موته بعد الهزيمة عام ٢٦٣ ، إعادة تشكيل بومباي لآسيا الغربية ، الذي أشير اليه في النص . وقد استغرق هذا الشطر الأعظم من عامين وكان له أهمية دائمة . وأضيف الى اقليمى آسيا وكليكية القديمين ثلاثة أقاليم جدد ، بثونيا وسوريا وكريت . وفي فلسطين ، وضع بومباي القيود على سلطة الكاهن الأعظم اليهودى . الزمنية ، وأبعد عن اختصاصه القضائى المدن الهلينية التي ازداد عددها في عهد السلوكيين . ولقد أظهر بومباي حكمة عظيمة في الاعتراف بالامراء المقطعيين والمدن الحرة والاقسام القبلية كوسائل للحكومة ، تحت سلطة روما . وقد ترك آسيا الغربية في مركز يشبه مركز الهند البريطانية في هذا العصر ولكن كان يقوم على ادارة بعضها ادارة مباشرة ، وموظفون رومانيون وكان البعض الآخر في صورة حكومات محمية . راجع دكورت Duckworth فى « الأعمال » (المقدمة : مجلد ١ ، الصفحات ١٧٧ وما يليها) لجاكسون وليك ، الذى يتناول ملك كبدوكية بنظام حيدر اباد ومملكة أرمينيا خارج النفوذ الرومانى بمملكة أفغانستان . وكانت روما معنية أشد العناية بالتسامح فى كل مختلف العقائد الدينية والعادات المحلية . وتزول الامارات المقطعة داخل الامبراطورية فى القرن الاول الميلادى .

ورجل المال الغنى كراسس Crassus على قيادة عسكرية فى الغال مماثلة لتلك التى سبق منحها لبومباى فى الشرق^(١) . وفى خلال السنوات التسع التى قام فيها بأعباء القيادة (٥٨ - ٤٩) فانه لم يصنع فقط السلاح الذى أوقع به الضربة القاضية على الجمهورية ولكن بفتح الغال ومد الحدود الرومانية الى الراين ، صد لدى قرون قوادم تيار الغزو الهمجى .

وفى هذه الحادثة ، وفى حوادث كثيرة فى حياته العملية ، أظهر قيصر ، لدرجة خارقة العادة ، القدرة التى يتميز بها كثير من عظماء الناس فى التاريخ بمزجه المطمح الشخصى بالمصالح القومية الحيوية . وبين هذين المتنافسين ، الذى ينظر الواحد الى الآخر فى ريبة متبادلة ، ويسنان سيفيهما للمعركة ، كان يقف شخص الخطيب العظيم ماركس تليوس شيشيرون Marcus Tullius Cicero وهو محافظ حر جاهد فى شدة لينقذ الدستور الجمهورى من الوقوع فريسة للطغيان العسكرى . وعلى غرار ديمستينس فى أثينا فى القرن الرابع ، قام بدور آخر نصير لدولة - مدينة حرة . وكانت سياسته سياسة اصلاح مزدوج : أن يوحد مجلس الشيوخ والمرفق المالى (equites) لدعم القانون والنظام ، ضد الفوضى ، وتوسيع أساس الدولة باشارك الطبقات الوسطى فى البلدان الايطالية ، مع حكومة الدولة الرومانية^(٢) . ولكن التصلب الضيق فى نبلاء مجلس الشيوخ الذين لما كانوا لم يتعلموا شيئا ولم ينسوا شيئا فى أثناء اضطراب دام خمسين عاما ونيف فقد ظلوا متمسكين فى استيئاس بآخر بقية من احتكارهم للسلطة وكذلك المطمح الشخصى الذى كان يساور القائدين العسكرين العظمين ، جعل كل جهود شيشيرون ليؤلف بين الشيوخ والمرفق المالى ، والرومان والايطاليين ، دفاعا عن مبادئ الدستور التاريخية ، تذهب هباء . وحتى هو ولو أنه كان من الأحرار بمولده ، فقد أجبر فى النهاية على أن ينادى بإقامة « منظم للجمهورية » واحد ، يمكنه - وكان يرجو عبثا - أن يحكم فى تعاون

(١) كان قيصر (الذى يرجح أن مولده كان عام ١٠٢) متأخرا فى الصعود الى المرتبة الامامية فى السياسة الرومانية . والى أن تولى القنصلية عام ٥٩ ، لم تكن قدراته معروفة ولو أنه كان قد أظهر استقلالا فى معارضة سلا ، فى شبابه وقدره ظاهرة كجندى وإدارى عندما كان يقوم بوظيفة بريطور فى اسبانيا عام ٦١ . وعن الغال الرومانية ، راجع مايل § ٥١ . ومن غير المستطاع الحكم الى أى مدى ، وضع قيصر خطة حكمه الاستبدادى فى السنوات السابقة لعام ٤٩ .

(٢) خلصت هذه السياسة المزدوجة فى كلمتى التنبيه Concordia ordinum (« تناسق المراتب ») و Consensus Italiae (« رأى ايطاليا المجمع ») .

ولا مجلس الشيوخ بالفانون وليس بالسيف . ولو كانت الجمهورية جديدة بالانقاذ لقام شيشرون بانقاذها ويصدق كذلك أنه لو أن شيشرون كان قادرا على انقاذها ، لكان قد أدرك أن المهمة مستحيلة . ونفضيل شيشرون الموت في النهاية على أن ينكر المثل الأعلى الجمهوري ، يفسر الى حد بعيد ما استحوذ عليه من احترام الأزمى اللاحقة . وأما ما خلا ذلك ، فإن الغرور وعدم الشجاعة أعمياء عن حقائق الموقف الذى جهد فى التحكم فيه (١) .

(٥) وبهذا نجى الى الفصل الأخير من الفاجعة ، عندما عبر قيصر فى ربيع عام ٤٩ على رأس جيشه « الروبيكون » Rubicon ، الجدول الصغير الذى كان الحد الفاصل بين قيادته العسكرية وإيطاليا . ولقد دهش الجميع . الذين كانوا يتطلعون وفرائضهم ترتعد لما سيقع على يده من اقتصاص لمذبحة سلا للديمقراطيين حين رأوا تقدمه المظفر يتميز بالاعتدال والرحمة للذين كسب بهما المؤازرة العامة فى روما وإيطاليا ، وطالعت السنة التالية (٤٨) بومباى وقد سحق فى فارساليا Pharsalia . لقد كان فوز العبقري على القدرة . ولقد صمد الجمهوريون فى الغرب طوال أعوام ثلاثة ولكن فى عام ٤٦ ، سقط كاتو رجل الحزب المثالى الذى لا يقبل مساومة فى صلح ، على سيفه فى أوطيقا فى أفريقيا . وفى سنة ٤٥ ، تركت خاتمة الانتصارات فى موندا Munda بإسبانيا قيصر سيدا للعالم الرومانى دون منازع (٢) .

(١) خطابات شيشرون (مختارات ترجمها ترجمة رائعة جينس Jeans - وقام بنشرها ماكيلان) تقدم شرحا ذا قيمة عظيمة عن هذه الفترة . راجع أيضا المقدمات التاريخية فى طبعة تيرل Tyrrell لرمائل شيشرون . وعن شيشرون كرجل أدب راجع ما يلى § ١٩ .

(٢) كان كاتو محافظا صارما ، صاغ سياسته وفقا لسياسة سالفه رقيب بواكير القرن الثانى . وقامت دعوته التى لا تقبل تصالحا ، لتضييق سياسة مجلس الشيوخ تظاهرها أمانته الشخصية عقبة خطيرة أمام سياسة شيشرون المتحررة . وطبع كاتو الخلقى السامق ، ومثاليته الجمهورية ، وما وقع من ازهاق روحه بنفسه عندما تحقق أنه لا أمل فى مزيد من الكفاح . كل ذلك جعله موضع تجلة الحقب اللاحقة . ولهذا كتب لوكان Lucan فى عهد الامبراطورية الباكورة هذا البيت ذائع الصيت .

“Victrix Causa diis placuit, sed victa Catoni” (i, 185)

(ان الدعوة الظافرة كسبت رضى الالهة)

ولكن المهزومة كسبت رضى كاتو)

واختيار دانتي لكاتو ، كأنموذج لفضيلة الوثنية العتيقة ، ليكون حارس الشاطئ الذى يقع أسفل جبل المطهر Purg, Canto i كان مرجعه صورة فرجيل لكاتو وهو يقضى بالعدل للصالحين من الموتى (Aen., VIII, 670, “his dantem jura Catonem”)

ب - يوليوس قيصر

٤ - لقد عزز قيصر سيادته بظهور له صفة قانونية ، وذلك أنه ركز في شخصه طائفة من الوظائف الجمهورية مثل القنصلية والتربونية . ولقد تقرر نهائيا عام ٤٥ بمنحه الدكتاتورية مدى الحياة . ان احياء وظيفة بطل العمل بها منذ زمن طويل ، فيما عدا حالة سلا ، وكذلك اتخاذه لقب امبراطور Imperator بين مرة أخرى ككيف كانت السلطة Imperium كما في أيام الملكية السالفة ، المنبع الاوحد للسلطان في الدولة . وكما أن الملكية تحولت الى جمهورية بالتحديد النشائي للاشتراك في الحكم (شريكان قنصليان بدلا من ملك واحد) وبتحديد الزمن (الانتخاب لمدة سنة) فقد نجم الآن عن الغاء هذه القيود التحول من جمهورية الى ملكية . لقد تحققت ثورة ، على الطراز الروماني الحق ، دون الغاء الأوضاع الدستورية الغاء تاما . وبفضل هذه السلطات وغيرها ، عين قيصر موظفين وحكاما اقليميين ووضع عدد الوظائف التنفيذية وسيطر في تحكم شامل على مسائل الحرب والسلم والشئون الخارجية وادارة الامبراطورية حتى أصبح الانتخاب الشعبي مجرد صورة للتصديق على من يعينهم الدكتاتور . وقد زيد عدد أعضاء مجلس الشيوخ الى ٩٠٠ وكان كثير منهم من الأقاليم لأن قيصر أنشأ السياسة الامبراطورية لرفع مستوى سكان الأقاليم ليكونوا متساوين مع الرومان . ولقد فتح مجال الوظائف العالية في مجتمعات ما وراء البحار للمعتقين . وفي الواقع ، أصبح مجلس الشيوخ أداة لتسجيل مواهبه . وفي التشريع ، وضع مجموعة هائلة من الخطط وكان لكثير منها مجال واسع المدى وتشمل اصلاحات اقتصادية وزراعية وتنظيم دساتير البلدان تنظيما منسجما وتوسيع حق الانتخاب . وعلى سبيل المثال ، كانت قادس في اسبانيا أول المدن الاقليمية التي نالت هذا الامتياز ، واعادة تنظيم النظام المالي (١) .

(١) لا يزال باقيا قسم عظيم من قانون يوليوس للبلدان Lex Julia municipalis الذي يتعلق بالبلدان الإيطالية وأجزاء من قانون ربريوس lex Rubria الذي يتعلق بالتنظيم الحضري في الغال على الجانب الروماني من الألب Cisalpine Gaul وهذه القوانين تفرق بين ولاية قضاء البريتور الروماني وقضاء الموظفين المحليين وتنظم شكل حكومة البلدان ، الذي يقوم به الموظفون ومجلس الشيوخ والمجالس ، والذي نما في الأزمن السابقة . وقد منح قيصر الحقوق المدنية الكاملة للغال على الجانب الروماني من الألب وأدمجها في إيطاليا ، أوغسطس (عندما كان اكتاويا) عام ٤٢ وقد ألغى قيصر نظام ضرائب العشور الرديء ، في صقلية وآسيا وعالج بقسرة عظيمة الموقف الاقتصادي الذي نجم عن الحروب الأهلية . وفي روما وضع قيودا على أنصبة الحنطة والغى المنتديات الشعبية الفاسدة . وقد كان يعززم وضع مدونة للقانون ولكن لم يواته التنفيذ .

ولقد وضعت خطط القيام بالأعمال العامة العظيمة ونفذت في إيطاليا والأقاليم وأسست المستعمرات عبر البحار مثل كورنث وموقع قرطاجنة ، ولا يزال التقويم الذي أصلحه قيصر مقبولا ، مع اليسير من التعديلات ، لدى العالم المتحدين . وكانت السرعة والنشاط اللذان وضع فيهما تصميم إعادة بناء تاريخي ، وتنفيذه يدعو إلى الدهشة كما كانت تدعو إليه حركاته في الميدان . وقد كشف هيجل Hegel بحق في قيصر « المثال لتكييف الوسائط بالغايات عند الرومان ^(١) . وفي الأموم الخمسة الأخيرة من حياته ، لم ينفق لا ثمانية عشر شهرا في روما وتمثل جلائل أعماله مجرد المراحل الأساسية ، في مشروع شامل لحكومة امبراطورية .

ومع هذا ، فقد حددت الخطوط التي سار عليها حكم العالم الروماني مدى قرون - الحكم الشخصي للملك ، عن طريق ادارة من الموظفين المعيّنين شخصيا والسيطرة الفعالة على الكتائب والادارة الاقليمية وتوسيع حقوق المواطن في أرجاء الامبراطورية ، والمحافظة على السلام الداخلي وتعادل القانون ، وتحديد التخوم والدفاع عنها ضد المغيرين غير المتحدين . وفي جميع هذه الوجوه ، كان أوغسطس خليفته يقيم البناء على الأسس التي وضعها يوليوس قيصر في مثل تلك السرعة ولكن في بصيرة صادقة .

(٥) وآخر مسألة جاء ذكرها ، مسألة حماية الحدود كانت قد أهملت اضطرابا في خلال حقبة الثورة الأهلية . ولقد تحدثنا عن الخطر الذي كان يهدد إيطاليا في خاتمة القرن الثاني عن طريق تحرك العصابات الهمجية صوب الغرب من مواطنهم في الشمال والشرق عبر الراين والدانوب . وفي ذلك الحين أنقذ ماريوس روما بجيشه الذي أدخل عليه الإصلاح . وبعد ذلك بنصف قرن أمن فتح قيصر للغال تخمها السامي بصفة دائمة ^(٢) .

-
- (١) فلسفة التاريخ الجزء الثالث ، القسم الثاني .
 (٢) كان قيصر فقط في الوقت المناسب . وفي أول حملة له في الغال (٥٨) ، كان عليه أن يواجه غزوتين ، غزوة هالوطي Helvetii بمحاذاة الرون ، وغزوة الألمان بقيادة أريوسطس Ariovistus عبر خانق بورغاندي بين الفوج والجورا . وكان أريوسطس على وشك إقامة دولة تيتونية قوية في الغال . ولو أن النصر لم يحالف قيصر ، لاجتاح القبائل التيتونية الامبراطورية ومعها بناء المدينة الاغريقية الرومانية بأجمعه . ولقد أرجأ فتح قيصر ، الكارثة الى أن تاصلت جذور المدنية ومعها العقيدة المسيحية بين الشعوب المغيرة . وقد ألحقت المنطقة الجديدة أولا باقليم الغال التربوني القديم وقد أنشأ أوغسطس ثلاثة أقاليم غالية جددا .

وفى أفريقيا اضيفت تورينا (٧٤) ونومديا (٤٦) الى قائمة الأقاليم . ولقد أتى الخطر الداهم المباشر من الشرق . وكان يومباى (٦٧ - ٦٢) قد أعاد وضع نظام آسيا الغربية السياسى عند ختام الحرب المراتبية (١) . ولقد دالت الأسرة السليوكية وآلت ممتلكاتها الغربية الى روما بينما سار اقليم سوريا الجديد مع الامبراطورية البرنية فى وادى الفرات . وفى عام ٥٤ ، شنت البرثيون شمل جيش رومانى فى « قرها » Carrhae ودعت دواعى الشرف والأمان على السواء ، للقيام بالعمل العسكرى الذى كان قد أخر أمدا استطل أكثر مما يجب . وهنا كما فى الغال ، كانت المسألة حقيقية وتتطلب السرعة . ان قيصر لم يصطنع الحروب ، للحروب فى ذاتها ، وفى الشرق ، كما فى الغرب ، كان وجود الدولة الرومانية محفوظا بالخطر . ولم يضع قيصر وقتا فى مجابهة الأمر . وفى ربيع عام ٤٤ كانت القوات العسكرية الشرقية تنتظر قائدها ، ولكن فى ١٥ مارت (Ides مارت) ، عشية رحيله من روما هاجمه متآمرون فى مقر مجلس الشيوخ وهلك عند أسفل تمثال يومباى .

٦ - لقد وصف مقتل قيصر بحق على أنه أعظم عطلة فى التاريخ لانه لم يأت بشئ سوى ازاحة أعظم رومانى عن المسرح ، وبعد ثلاثة عشر عاما من الحرب الأهلية - حشجة موت الجمهورية - أعاد وريثه الذى تبناه تكوين الامبراطورية . ولم تكن ظروف المسألة تسمح باجراء مغاير . وفى نظرس العصور اللاحقة التى تغذت على تقاليد الامبراطورية الرومانية والتى كانت تعتبر تلك الامبراطورية مقدسة - ليس فقط كمنبع القانون والمدنية - ولكن كأداة دبرتها العناية الالهية لنشر العقيدة المسيحية ، كان يظهر قتل قيصر كأخطك جريمة . وفى أعرق قرار فى جعيم دانتي ، وضع أكبر مذنبى التاريخ الثلاثة ، يهوذا الاسخريوطى الخائن لمؤسس الكنيسة العامة وبروطوس وكاسيوس ، خائنا الامبراطورية العامة . ولم يكن جريمة ولكن كان خطأ شنيعا ، لأنه - كمقاومة دمستينس العنيفة لفيليب المقدونى - كان نتاج مثالية فطنة . ولقد لاحظنا مرارا وتكرارا فى هذه الصفحات كم كان بعيد الغور نفع دولة - المدينة للمدينة الاغريقية والرومانية بما كان يسودها من جو المناقشة الحرة والعدالة المدنية . وليس من العجب أن كان خلف الرجال الذين هاجوا ، تحت حمى دولة - المدينة ، الامبراطورية الرومانية بيناهما الرائع من القانون والحكومة ، يغارون على الأنظمة التى بعثت العظمة فى روما والرومان .

(١) راجع عليه § ٣ . علاوة على الأقاليم التى ذكرت ، الحق أوغسطس كريت باقليم أفريقيا ، أما قبرص (وقد أدمجت عام ٥٨) فقد ألحقته بكلليكية ولكن أوغسطس جعلها اقليما منفصلا .

ان روائط العرنان بالجميل الشخصى او ما عجم من ترفق قيصر او اعجاب بعقريته ، ماكان ذلك كله بقادر على حطم ذلك الاخلاص السديد للجمهورية التى أوقع عليها الضربة القاضية ^(١) . ولا يمكننا ان نتوقع ان آخر جمهوريين فى روما قد أدركوا ما عجز شيشرون عن ادراكه بأن مصير دولة - المدينة أصبح قضاء مقضيا . ولقد انتقموا من الضربة بوصائل كانت مدونة القانون الخلقى عند اليونان وروما ، على السواء ، تبررها على أنها شريفة عندما تستخدم ضد طاغية وذبحوا قيصر ليس لدوافع انتقام شخصى أو مطمح ولكن من أجل الحرية المدنية وباسم روما .

ج - أوغسطس

٧ - فى عام ٣١ ، أصبح الساب أوكتاويان Octavian حفيد أخت قيصر ووريثه بالتبني ، بانتصاره فى اقطيوم على أنطونى ، « سيد العالم الأوحده » ^(٢) كما جاء فى عبارة شكسبير . لقد كان أوكتاويان الذى يعرفه التاريخ جيدا بلقب أوغسطس هو الذى وصل بالنظام الامبراطورى بتفصيلاته ، الى درجة الكمال ، ذلك النظام الذى حكم بموجبه العالم قرابة ثلاثمائة عام . والمرسوم الذى أعلن دافع وخصيصة هذا العمل الجليل ، لا يزال موجودا

(١) لقد كان تسامح قيصر نحو مواطنيه مشهورا . لقد امتنع عن ممارسة عقوبة النبد من المجتمع والمصادرة وفى توزيع اراض على قدامى جنوده ، احترام فى عناية ، حقوق المالكين الموجودين . ان اجابته على ما أفصح به شيشرون من عرفان بالجميل لتسامحه نحو خصومه السياسيين الذين وقعوا تحت رحمته عند استسلام قرنينم Corfinium أثرت فى ماكولى تأثيرا عميقا حتى نعتها بأنها « ألطف جملة كتبت على الإطلاق » وهى كما يأتى « أحسن بالظفر والبهجة بأن ما قمت به نال استحسانكم وانى لا انزعج عندما يطرق سمعى القول ان أولئك الذين صرنتهم أحياء وأحرارا سيعودون الى حمل السلاح ضدى ، لأنه لا يوجد شئ أصبو اليه أكثر من أكون لنفسى وهم كأنفسهم » (راجع ترفليان « حياة وخطابات ماكولى » فصل ١٦) ولكن قيصر لم يكن شخصية محبوبة ، وعلى ما وصل اليه علمنا ، لم يكن له اصدقاء حقيقيون . ويشهد شيشرون الذى كان يكرهه ولا يثق به على قوة شخصيته . وفى هاتين الناحيتين يرد الى ذاكرتنا مارلبوره ونابليون لا الاسكندر .

(٢) « أنطونى وكليوباترة » فصل ٥ منظر ٢ كان أبو اكتاويان ، جايوس اكتاويان ايطاليا من الطبقة الوسطى وأصبح حاكم مقدونيا وتزوج من ابنة أخت قيصر . وولد ابنه عام ٦٣ وهو العام الذى تولى فيه شيشرون القنصلية فكان عمره تسعة عشر عاما فى الوقت الذى قتل فيه قيصر وواحدا وثلاثين عاما عندما انتصر فى موقعة اكتيوم .

وهو منقوش على حجر (١) وهو يستهل بجملته تقع في آذاننا وقعا غريبا عندما نمنع التفكير في طبيعة عمله الحقيقية : « لقد نقلت الجمهورية من سلطتي الشخصية الى رقابة مجلس الشيوخ والشعب الروماني » .

ماذا كان مرمى هذه الكلمات ؟ كان معناها اذا كنا لنقتبس من كاتب محدث أن أوغسطس قد تعلم درسه عند قاعدة تمثال بومباي . وما كانت روح يوليوس المتعالية - ويمكننا أن نستذكر الصورة التي وضعها دانتى له بين عظماء العصور القديمة « قيصر بعيني سر » - لبراودها التفكير في التصالح مع النزعة الجمهورية باتخاذ مظهر المساواة بين المواطنين . وأوغسطس وهو أستاذ صنعة السياسة الذي لا سبيل للعاطفة اليه ، حجب حكما استبداديا مطلقا بقناع من المنهج الدستوري . ولما كان وليد روما القويم في احترامه للصور السطحية والسوابق المقررة ، فقد عقد النية على الاحتفاظ بوجود أنظمة الماضي العزيزة عليهم . ولقد لقب يوليوس بدكتاتور وهو تعبير كان يسيء الى الشعور الجمهوري لتداعي معناه بمعنى القيادة العسكرية وبإمبراطور وهو اللقب الذي كان يحى به الجنود قائدهم المظفر ، ويرضى أوغسطس بأن يكون مجرد زعيم princeps أى الرجل الأول بين زملائه الشيوخ (٢) . وفي مسلكه نحو أشراف الرومان أنبياء العالم الذين لا يملكون من الأمور شيئا ، كان فيأمله بدوره رائعا . لقد كانت حياته بسيطة وصارمة ، مجردة من أى أثر لآداب السلوك ورمزيات البلاط . وقد راعى أن سلطاته تمنح على الطريقة الجمهورية القديمة بتصويت مجلس الشيوخ (السناتو) أو المجلس الشعبى . وقد كان مرجع حكمه الاستبدادى الى أنه جمع فى شخصه الوظيفتين الجمهوريتين : التربيونية وهى أعلاهما رتبة وكانت أساس سلطانه فى روما ، والسلطة Imperium القنصلية مع تقدمه على جميع حاملها وهو ما ضمن له السيطرة على الجيش والأقاليم . وكانت هاتان السلطتان ، على التحقيق ، هما اللتان جلب التوسع فيهما انحلال الجمهورية فى العصر السابق . ومنذ ذلك الحين كان الجيش يقسم بين الولاء للزعيم princeps وحده وكجبر أعظم ، كان سيد أداة دين الدولة الذى كان لا يزال عاملا هاما فى القانون والسياسة . وكانت هذه الروح المحافظة عيناها ، تلك التى كان يظهرها أوغسطس لتحديد مركزه الشخصى ، حلبة للعبان فى

(١) أثر أنقرة التذكاري من أنقرة فى آسيا الصغرى . وقد أقيمت نسخ منه فى مراكز مختلفة فى العالم الروماني . ولقد حدد أوغسطس مكاتنه كرئيس للدولة عام ٢٧ ومرة أخرى عام ٢٣ . وقد عولج فى هذا القسم مجموعتنا المخطوط معا .

(٢) حتى زمن ديوقلطيان يكون لقب زعيم princeps خاصا بالإمبراطور والزعامة principate بالإمبراطورية .

اعادته أوضاع نظام الحكومة . وكانت طبقة عمال المدينة ، فى الواقع ، قد جردت عن سلطاتها التشريعية وتدهورت مجالس الشعب سراعاً الى مهزلة (١) . ومن الجهة الأخرى ، كان يعامل مجلس الشيوخ بمراعاة مدروسة . وقد كان المجلس يمنح السلطة imperium الحاكم الذى يكون قد ظفر بالتصويت من بين قائمة أسماء المرشحين للوظيفة ويوافق على المراسيم التى كانت لها قوة القانون . وكان للزعماء princeps ومجلس الشيوخ مرتبة متعادلة كترتيبونيين أعليين . وكان كل منهما يشرف على خزينة منفصلة . وكانت حكومة الامبراطورية مجزأة بين السلطتين . ولكن مما كان له مغزى ان الأقاليم التى وكلت الى مجلس الشيوخ ، كانت الأقسام المسالمة التى تقع فى الداخل . أما تلك التى تقع على الحدود حيث كانت تتركز الكتائب ، فكان الامبراطور يحتفظ بها بين يديه . وكانت مصر ، على الأخص ، بالنسبة الى أهميتها من حيث الخطط العسكرية وكونها مخزن الغلال الرئيسى لروما ، يتولى ادارتها عن طريق رئيس perfect له رتبة الفرسان equestrian وأقل مركزاً من حكام أقاليم الامبراطورية العادية . وكان يطلق على هؤلاء لقب Legates أو معاونين عسكريين ، بينما احتفظ حكام مجلس الشيوخ باللقب الجمهورى بروقنصل (نائب قنصل) proconsuls (٢)

ومن الواضح أن هذا الظل من الرقابة المزدوجة ، كان تجربة مصطنعة دبر أمرها لارضاء الأرستقراطية الرومانية القديمة . وبصفة موقوتة ، أدت الفرض منها ، ولكن فى عهد خليفة أوغسطس أظهر خروج مجلس الشيوخ أنه على الرغم من الشكوك السطحية ، كانت السلطة الحقيقية تنحصر فى الامبراطور ، وتنحصر فيه وحده (٣) .

(١) يوجد مثالان مدونان ، فقط ، للتشريع الشعبى بعد طبريوس .
(٢) كان المعاونون العسكريون يتولون الوظيفة مدة ثلاثة أعوام وغالباً ما تكون أطول من ذلك . أما نواب القناصل الذين لم تكن لهم قيادة عسكرية ، فلسنة واحدة . وعلاوة على هذا ، كان الامبراطور يؤثر تعيين نواب القناصل عن طريق رقابته على الانتخابات القنصلية ودخول مجلس الشيوخ .

(٣) لقد رأى أوغسطس هذا فى جلاء كما يتضح من آخر أقواله المدونة : « ماذا تظنون فى المسلة يا أصدقائي ؟ هل أدبت دورى فيها خير تادية ؟ » . وفى خلال حكم دام أربعين عاماً ونييف ، لم ينفذ صبره الذى لا نهائية له وتحفظه العميق وبصره النافذ بالرجال والأمور . وكانت كل أفعاله نتاج تفكير سابق ، واع . وتداول القصة بأنه لم يتناقش قط فى شئون الدولة ، حتى مع الامبراطور لويـا Iulia ، دون أن يضع تذكرات ، مقدماً ، حقاً قد يكون أوغسطس أعظم سياسى فى التاريخ .

٨ - كان هذا مبدئيا ، العهد الذى وطد دعائمه أوغسطس فى روما .
 واذا أنسحنا مجال النظر نجد ثلاثة مظاهر للعمل الذى اضطلع به فى خلال
 حكمه الطويل (٣١ ق م - ١٤ ب م) ، جذيرة بملاحظة خاصة . أولا فيما
 يختص بإدارة إيطاليا والأقاليم ، جهد أوغسطس فى حماسة لتحقيق الأمل
 الذى كان يصبو اليه شيشرون ، على غير طائل ، لادماج الإيطاليين ليكونوا
 جميعا على قدم المساواة فى تكوين الدولة الرومانية . ولقد شجعوا على أن
 يعتبروا ماضى روما العظيم ماضيهم وأن ينضوا فى كبرياء من حب الوطن ،
 فى مهمة إعادة بناء الامبراطورية . ومن بين أهل الحضرة وأهل ريف إيطاليا ،
 لم يجد أوغسطس فقط الدم الجديد الذى يجب أن يعيد نشاط الخدمة العامة ،
 ولكن وجد رجالا أوتوا عبقرية أدبية أمثال فرجل وهوريس ولوى وأوفيد ،
 الذين أمكنهم أن يشيدوا بمجد روما وقيصر فى آثار تذكارية خالدة ، شعرا
 ونثرا . وقد نمي أوغسطس تقدم البلدان والزراعة والأعمال العامة فى أرجاء
 شبه الجزيرة . واتخذت الخطوات الأولى فى عملية حطم الحواجز التى كانت
 تفصل روما عن إيطاليا وإيطاليا عن الأقاليم . وقد وضع أحصاء شامل
 امبراطورى « احصاء الأراضى وقيمتها وأصحابها Domesday Inquest »
 عن كل الجمهورية ، وكانت تعتمد السجلات التى اختزننت فى محفوظات
 البلدة كأسساس نظام عادل للضرائب . « وفى تلك الأيام صدر أمر من
 أوغسطس قيصر بأن يكتب كل المسكونة » ^(١) . وكانت الأقاليم ، لأول
 مرة ، تدار شئونها كمصالح فى دولة واحدة . وقد وضعت الرقابة على
 سلطة الحكام ووضع حد لظلم أهل الأقاليم بسحب الامتياز الخطير فى طلب
 امدادات كلما شئت الارادة وبتعيين أدارى مالى مستقل مسئول شخصيا أمام
 الزعيم princeps وبإيجاد أداة فعالة لتقديم الالتزام والاستئناف لروما .
 ولو أن عبء الضريبة كان قد خفف فإن الدخل ازداد . وقد ألغيت قيود
 التجارة داخل الامبراطورية فى كل مكان ووسعت الحكومة المحلية وأعيد
 تنظيمها على أسساس منتظم وأنشئت المجالس الاقليمية وخولت سلطات
 واسعة . وعندما قام شعب أفسوس بهياج بمناسبة زيارة القديس بولس ،
 أمرهم كاتم سر المدينة بأن يتذكروا أنه كان يوجد « حكام لآسيا »
 Asiarches . أى مستشارون اقليميون لآسيا يمكنهم أن يتقدموا اليهم

(١) لوقا ٢ ، ١ (النسخة المعدلة) كان يوليوس قد وضع الخطوط
 للتعداد والاحصاء الاقليمى . واستغرق انجاز المهمة كلها خمسين عاما ولخصت
 نتائجها فى « احصائية الامبراطورية » وهى سجل يبين موارد الدولة
 وميزانياتها وورثة أوغسطس لطبريوس (راجع طاقيطس An., i, II.) ولقد
 واصل أباطرة القرن الثانى وديوقليان العمل تباعا ليطابق آخر تاريخ .

بشكائياتهم (١) . وإذا كان أوغسطس أقل سماحا من يوليوس فى منح صفة المواطن ، فقد كانت الرغبة فى بعث حب الوطن المدنى فى روما وإيطاليا هى التى جعلته ضئيلا بتوسيع حرية التصويت لتشمل سكان الأقاليم . (٢)
وزيادة على هذا فقد وضع أساس الخدمة المدنية الامبراطورية الدائمة فكان الموظفون يعينون فى مبدأ الأمر من طبقة الفرسان (equites) ، ومن الايطاليين ، وبعد ذلك فى درجة تضطرد ازديادا من صفوف الرجال المحررين (العبيد المعتقين) . وقد تحولت ادارة الامبراطورية على التدرج من أيدي الأرستقراطية الرومانية ، لا الى أيدي الايطاليين وحسب ، ولكن الى سكان الأقاليم من ذوى الذكاء والمعرفة وخاصة الرجال الذين يرجعون الى أصل اغريقى أو اغريقى شرقى . وعلى هذا كان المجال مفتوحا لحياة عملية مزدهرة بالآمال ، أمام الجميع وضمن خلق بيروقراطية ماهرة الاستمرار لحكومة اقليمية . ثانيا ، جهد أوغسطس بالقدرة الشخصية والتشريع العام فى أن يضع حدا لفيض الانحلال فى الدين والأخلاق عند الرومان . ولقد شجع الشعراء على مناصرة القيم القديمة ، فى البساطة الصارمة وعلى الاشادة بأولئك الكرام الذين كان ورعهم وفضيلتهم المدنية ، مجد الجمهورية الباكرا . ولقد أقيمت المعابد وأعيدت الفرائض التاريخية . وكانت توقع العقوبات الشديدة عن الذنوب الخلقية ووضعت القوانين التى تقاوم العزوبة . وذهبت جهود الامبراطور عينا لأن الأخلاق لا يمكن اصلاحها بقانون وأبعد تدهور الطبقات الأكثر ثراء وذويوع الهلينية ، العودة الى القيم البسيطة التى سادت فى عصر ولى . (٣)
والاستثناء الوحيد فى موجة الفضل الذى منيت به هذه السياسة ، كان عبادة الامبراطور نفسه . ولم تساور أوغسطس أية خدعة فى هذه المسألة . وبينما كان يصرح بتادية أنواع التكريم الالهى ليوليوس ، فقد منع عبادته الخاصة ، فى إيطاليا ولكنها ذاعت كأنها النيران الجامحة ، فى الأقاليم وتطورت قبل مضى زمن طويل حتى غدت الدين الرسمى للدولة العالمية . ولم يكن يوجد شئ فى مراسمه ينبج عنه انتهاك للشعور الرومانى لأن الدين فى روما كان على الدوام فى معظمه ، سياسيا وكان يمكن أن يوضع رجل السياسة فى قائمة القديسين دون اخلاق عنيف بالاحترام الذاتى . أما فيما يتعلق بامبراطور على قيد الحياة ، فإن العبادة كانت توجه الى الهه الحارس ،

(١) الأعمال ١٩ : ١٨ .

(٢) فى عام ٧٠ ق.م. كان عدد المواطنين الرومان ٤٥٠.٠٠٠ وفى عام ٢٨ ق.م (أول تعداد لأوغسطس) بلغ ٤٠٠.٠٠٠ وفى عام ١٣ م . (التعداد الثانى) وصل الى ٥٠٠.٠٠٠ .

(٣) عن تشريع أوغسطس الاجتماعى والدينى راجع بلهم Pelham « مقالات فى التاريخ الرومانى Essays in Roman History - صياحة أوغسطس الداخلية » .

Genius . والقيام بالعبادة بعد الموت ، لم يكن غير التعبير الطبيعي عن عرفان بالجميل ، ورع . وكانت المجالس الاقليمية التي أشير اليها آنفا ترتبط ارتباطا وثيقا بهذه الخدمة الدينية « للاله الحارس لروما وأوغسطس » ، وهي التي أصبحت في خلال القرن الأول الميلادي ، الرمز الخارجي لوحدة الامبراطورية السياسية (١) . وأخيرا أتم أوغسطس العمل الذي استهله يوليوس بتحديد تخوم الامبراطورية . ولقد كانت الطبيعة هي التي أقامتها ففي الشرق ، الفرات وفي الغرب ، الأطلنطي وفي الجنوب ، صحارى أفريقيا وبلاد العرب وفي الشمال ، الراين والدانوب من القناة الى البحر الأسود . ولقد تألفت الحرب بالسياسة للمحافظة على سوريا من الفارثيين وعادت البنود التي فقدت في قرها Carrhae الى روما ظافرة . وكان أعظم تهديد يربط على الحدود الشمالية ، وهنا كانت القبائل التيوتينية تتراعى أفواجها دون انقطاع على المواقع المحصنة حديثا ، على الدانوب والراين . وفي حملة بعد حملته جهد قواد أوغسطس في كبح الألمان الذين كانوا يسكنون بين الراين والألب . ولقد جعلت هزيمة وارس Varus - في سنة ٩ م . الامبراطور يعقد النية بصفة نهائية على الاقلاع عن سياسة التقدم ، وتكدست على محاذاة الحدود الطبيعية الكتائب ، ثمانية على الراين وثمانية على الدانوب وثمانية في سوريا ، بينما كان يقوم الأسطول الروماني بالحراصة على مياه البحر المتوسط (٢) وبهذا حفظ السلام الروماني Pax Romana ولقد ظل مقيما طوال أربعة قرون يقطعه فقط ، بين حين وآخر ، ما كان يحدث عند موت امبراطور ، من سير قواد جيوش الحدود صوب روما وتقاتلهم من أجل العرش الامبراطوري .

٢ - الامبراطورية في القرون الثلاثة الأوائل (٣)

كان العالم الروماني يحكم طبقا لمبادئ أوغسطس الى أن اعتلى العرش ديوقلطيان عام ٢٨٤ ولأول مرة وللمرة الفريدة في التاريخ ، اندمج النوع الانساني المتصدين في دولة واحدة وكانت دولة استبدادية عسكرية .

(١) لم يكن يترتب على عبادة الامبراطور أية عقيدة لاهوتية . ولقد تقبل فرجل وهوريس Horace في سر تاليه يوليوس . ولم يخامر الأباطرة أنفسهم تصورات كاذبة . وعندما كان واصفاسيان Vespasian ينازع الموت سأل أحد قناؤه عن حاله فأجاب « أخشى أني أتحوّل الى اله » (Vae, puto deus fio).

(٢) هذا يمثل التوزيع في عهد طبريوس . وبلغ مجموع القوة زهاء ٣٢٠.٠٠٠ يضم خمسا وعشرين كتيبة .

(٣) من هذا الموضع فصاعدا ، تشير جميع التواريخ الى العهد الميلادي الا حيث يذكر خلاف ذلك .

وليس من شأننا أن نتقصى أثر توارى الألقعة على التدرج ، تلك الألقعة التي كان مؤسسها يخفى بها حقيقة حكمه الاستبدادى الثابتة وكيف أن المجلس الشعبى ثم الموظفين المدنيين وأخيرا مجلس الشيوخ بطل عملهم أو حيث قدر لهم بقاء ، احتفظوا بقيمة محلية شرفية وحسب ^(١) . فعلى سبيل المثال ، كانت الدولة لا تزال تعرف رسميا « بالجمهورية » حتى خاتمة القرن الثالث . ولقد سبق أن تحدثنا عن أساس سلطة الامبراطور وكان أهم عامل مزعج فى النظام ، مسألة ولاية العرش . وما كان يجرى عليه الأمر فعلا ، هو أن الأمير الذى يتولى الحكم ، كان فى الكثير الغالب يعينه ابنا أو قريبا من الذكور خلفا له بأن يعمل على منحه السلطة imperium وولاية « التريبونية » والعرف الرومانى فى التبني كان يعمل به فى كثير من الأحيان وخاصة فى القرن الثانى ، ولم تكن هذه الاحتياطات مجدية فى منع ما كان يحدث بين حين وآخر ، من مشاحنات كما وقع عند موت نيرون عام ٦٦ وكما حدث مرارا عديدة فى القرن الثالث عندما كان يطالب قائد واتاه النجاح ، يظهره أحد جيوش الحدود أو حرس « التريبونية » ، بالعسرس الحاوى . ان الامبراطورية ، كالمملكة القليلة ، لم تكن وراثية ولكن انتخابية . والنظرية القائلة ان أى مواطن روماني كان أهلا للولاية ، ظلت قائمة طوال تاريخها . وهذا يفسر السبب ، كما سيتضح فى فصل قادم ، فى أنه عند اعادةها فى الغرب فى القرن التاسع ، كان يمكن أن يعتبر أحد زعماء الفرنجة ، الخليفة الشرعى لأوغسطس . ولستنا فى حاجة الى اطالة الحديث فى سير أفراد الأباطرة ، مع كل ما فيها من تشويق شخصى ^(٢) . وعند الكثير من القراء ، تعد قصة الامبراطورية ، قصة حكماها بينما النظام الذى كانوا

-
- (١) بقى مجلس الشيوخ مدة أطول وله كيان ذو أثر فعال . ومن سلطاته ، ظلت سلطة ولاية القضاء الاستثنائى ، حتى القرن الثالث .
 (٢) يمكننا أن نميز مجموعات الأباطرة الآتية فى تسلسل تاريخي :
 (أ) أباطرة الفرع اليولى - القلودى : أوغسطس (حتى عام ١٤) ،
 طبريوس (حتى ٣٧) ، كاليجولا Caligula (حتى ٤١) ، قلوديس (حتى ٥٤) ، نيرون (حتى ٦٨) .
 (ب) أباطرة الفرع أفلاوى Flavian : واسفاميان Vespasian (حتى ٧٩) ، طيطس (حتى ٨١) ، دميان (حتى ٩٦) .
 (ج) أباطرة بالتبني : ناروا Nerva (حتى ٩٨) ، طريان (حتى ١١٧) ، هدریان (حتى ١٣٨) ، انطونيس فايوس (حتى ١٦١) ، ماركس أورليوس (حتى ١٨٠) .
 (د) أباطرة الشكنات (الذين عين أسماءهم الجيش) : من ١٩٢ الى ٢٨٤ . وكان أقدر هؤلاء سيفطيموس ساورس Septimius Severus (١٩٣ - ٢١١) ، أورليان (٢٧٠ - ٢٧٥) ، وفرويس (٢٧٥ - ٢٨٢) .

يسيطرون عليه والذي يؤثر في مصير الملايين يظل غير معروف فرضا (١) . وحتى في حالة أولئك الأمراء الذين تظهر قدرتهم في أعظم جلاء ، تعنى المسجلات الأدبية في معظمها بالسخيف من تفصيلات أقاويل البلاط . اننا فقط بجمع القصة التي تسردها النقوش المتناثرة في أرجاء الأقاليم ، نعرف كيف نسبر غور النظام الامبراطوري في نسبه الحق ، وعند ذلك يتجلى لنا أن شطحات كاليجولا أو نيرون الجامعة ، التي تتراعى بمثل هذا العظم في صفحات طاقيطس وسوطنيس Suetonius ، كان من شأنها فقط أن تثير هياجا عابرا في الحاضرة . وكانت الآلة الهائلة تؤدي دوراتها المعينة ، دون أن تلقى بالا الى نزعات صاحبها ، وعندما عرض القديس بولس أمره على المحكمة الامبراطورية فانه كان يتوقع من قيصر ، وليس من نيرون ، العدالة وقد لقيها فعلا . ويمكن ، من الجهة الأخرى ، أن يظهر عظم التأثير الذي يستطيع حاكم قدير ذو همة أن يحققه في ميادين الدفاع العسكري والادارة الداخلية والقانون ، من مثال واحد .

١٠ - لو أن الحكم الفردي الاستبدادي يستحق المديح اطلاقا ، فان الامبراطور هديان (١١٧ - ١٣٨) يمكنه أن يقيم دعواه في أن يعد حاكما استبداديا أرسلته السماء . ولما كان قد ولد في روما عام ٧٦ - وأبوه ، من أهل اسبانيا ولكن ينحدر من سلالة ايطالية ، وكان ابن عم طريان Trajan فقد تدرب في زمن باكر على الوظيفة . وفي سن الخامسة عشرة كان يخدم في الجيش ، وفي السابعة عشرة كان يقوم بوظيفة قاض في القضايا الخاصة . ولقد تولى ، على التعاقب ، في بريطانيا ومويسيا Moesia وعلى الراين وسار في ركاب قريبه العظيم خلال حملاته المظفرة في داقيا وفي الشرق . وعلى هذا فانه عند موت طريان وارتقائه العرش في سن الحادية والأربعين ، كانت قدراته الطبيعية في أصالة الحكم والخيال وتحسنه للعمل الذي لا يعثره كلال ، قد أنضجتها التجربة الواسعة في السلم وفي الحرب جميعا . لقد كان هديان سياسيا أكثر من أن يكون جنديا واعتاد أن يزهو بأنه كسب بعة السياسة أكثر مما كسب بعة السلاح . وفي حكمه الذي دام إحدى وعشرين سنة وضع طابعه ، أصلا وتفصيلا ، على تكوين الادارة الرومانية والقانون ، بأجمعه ولقد نظم مجلس الدولة الامبراطوري ووظائف كمة السر

(١) الانستان ماريا وجوليا برترام Misses Maria and Julia Bertram في رواية جين أوستن « منزه منسفيلد Mansfield Park » (فصل ٢) ولهما من العمر ١٣ و ١٢ عاما على الولاء كان يمكنهما أن يتلوا « في الترتيب الزمني ٠٠٠ مع تواريخ اعتلائهم العرش ٠٠٠ الأباطرة الرومان نزولا حتى ساورس ، » .

الامبراطورية ونظام مواصلات البريد ^(١) الامبراطورى . وقامت الأعمال العامة والأنظمة الحيرية الى حيز الوجود بابتكاره . ولقد سَجعت الزراعة ورصدت الاعانات للجامعات ومنحت صفة المواطن والحقوق اللاتينية فى سبخاء وقد كتب واضع سيرته « لقد كانت لديه معرفة شاملة شمولاً تاماً بالمسائل المالية العامة كآى رب بيت يحسن القيام على شئونه الخاصة ولم يوجد أمر تفصيلي تجاوزت دقته حداً لا يسترعى انتباهه ، وقد كشف لوح فى جنوبي البرتغال يظهر فيه وهو ينظم حياة قرية تعدين عاكفاً على ارضاء قواعد لصانع الأحذية المحلي والحلاق ووضع الخطة لتنظيف الغلايات فى الحمام العام ، كل شهر ، ومعافاة (وبالذات من نص رحيم !) أساتذة المدارس من دفع الضرائب . ^(٢) وكانت جهود الامبراطور أكثر ظهوراً وأثبتت على الزمن فى مجال القانون والحكومة الإقليمية . ولقد استهل عصر القضاء الرومانى ، الاتباعى ويرجع الى واعز شخصى صادر عنه ، ما جرت عليه الحال من إصدار فتاوى امبراطورية ترتبط بها المحاكم ووضع المرسوم الدائم ^(٣) والاعتراف بأن يكون لآراء عظام الشارعيين قوة القانون . ولقد أصبح الامبراطور الآن القاضى الأعلى لكل دعاوى الاستئناف الجنائية . وقد خفف من قسوة سلطة الوالد ومنح النساء حق وضع الوصايا وألغى الضحايا البشرية وفرض قيوداً شديدة على تعذيب العبيد : وكان الشعور الانسانى أهم ظاهرة فى خليقة هديران وأفعاله ^(٤) وكان أحد الرموز المحببة على نقوده ، منظر امرأة تبكى ، يرفعها الامبراطور عن الأرض . ولقد أنفق أكثر من نصف عمره فى تجولات سريعة خلال الأقاليم . ولقد قيل انه قطع ٢٠.٠٠٠ ميل سيرا على القدم وهو يرتدي عدته العسكرية الكاملة . ^(٥) وفى المدة التى تقع بين عامى ١٢١ - ١٢٦ ، زار كل صقع فى الامبراطورية من اسبانيا الى سموريا ومن بريطانيا الى أفريقيا وهو يأتى بالأصلاح على الادارة العسكرية

(١) كان معدل السفر فى خدمة البريد خمسة أميال فى الساعة . وكانت رحلة يوم عادية تبلغ من ثلاثين الى خمسين ميلاً ولكن كان يمكن قطع مائة ، اذا استدعت الحال .

(٢) راجع هـ . س . جونز H. S. Jones فى « تراث روما »
The Legacy of Rome

(٣) عن المرسوم الدائم ، راجع ما يلى § ١٧ .

(٤) لقد رفض التصديق على تهم الخيانة العظمى (Majestas) أو قبول تآريث الا من أصحابه الشخصيين ، ومن أولئك فقط اذا ماتوا بغير خلف . وبهذا أزال اثنتين من أشنع المساوئ العرضية فى الامبراطورية .
(٥) كان هديران صيادا عظيماً كما كان مشاء عظيماً ، وكان له قدرة خارقة العادة على تحمل المشاق البدنية ويعيش فى المعتاد عيشاً بسيطاً وكان شديد الشكسية فى المحافظة على النظام .

ويحصن الحدود ويزور الجنود المرضى في المستشفى ، ويعيش وهو في المعسكر على ما يقدم لرجال الكتائب من غذاء ، ويقوم بالتفتيش على الصناعات . وفوق هذا كله ينهض بانشاء الأعمال العامة ويعيد بناء المدائن . وبعد أقل من سنة في روما ، قام برحلة ثانية وأمضى ست سنوات (١٢٨ - ١٣٤) في الشرق الذي كان مزاج عقله يستجيب لدعوته القاسرة بطريقة فريدة . وما يجعل هدریان مشوقا الى حد عظيم ، هو حبه للاستطلاع الذي لا تشفى له غلة والحماسة العقلية التي كانت تلقى بريقا من الابداعية (الرومانسية) على نهوضه ، الذي لا يكل ، يواجهه الرسمي . « قلق في كل أمر ، طوال حياته » هو حكم واضح سيرته اصفريانوس Spartianus . ولقد كان الشغف بمشاهدة المناظر متأصلا فيه . وقد صعد جبل قاسيس Casius ليرى مطلع الشمس وأطنا لمشاهدة غروبها ، وأعاد دفن عظام أياكس Ajax في طروادة وزار حظائر الخراف في بريطانيا وقبر بومباي في مصر ، وقبر افيمننداس Epaminondas في منطيا وتلقن أسرار اليوسس Eleusis وحفر اسمه على تمثال ممنون . وفي أثينا حيث أعاد اقامة الأبنية على نطاق مسرف ، تولى الرئاسة كأحد الموظفين التسعة في عيد ديونوسوس العظيم وقد كان محبا للهلينية من صميم القلب ولقب وهو صبي بغرايولس Graeculus (الاغريقي الصغير) ، ووجه عنايته الى مصاحبة رجال الأدب . وكان يزهر كثيرا بمعرفته بالموسيقى وفنون النحت وفي جهوده الخاصة في النشر والشعر (١) . وكان ذوقه كذوق أتباع هلاس في تدهوره ، بعيدا عن أن يكون نقيا . لقد كان يتعشق ما كان غريبا ، بالغ الاسراف ويفضل انطيمachus على هومر وانيوس على فرجل . وكان يضع تصميم المعابد وواحد منها ، أقيم تكريما لفينوس وروما ، كان على موقع الجلجثة Golgotha - الذي فيه ، كما ذكر النقاد الهازلون لم تكن الآلهة يستطعن الوقوف منتصبات . وقد وضع المقرب اليه ، انطينوس Antinous ، وهو اغريقي آسيوي ، الطراز لثالث عصره لجمال الذكور الاباحي . وكان القرن الثاني عهد انتعاشات دينية ، وكلما أعمت العبادة في أن تكون غريبة وأجنبية ، كان استغواؤها للعالم الروماني أقوى . وكان هدریان يكلف أيضا بالرجوع الى الأحلام واستيجاء مهبط الوحي ويضع الحطة لحياته كل سنة على التعاقب ، وأله انطينوس وسمى نجما باسمه تكريما له ، بعد موته . ولو أن القصص المدونة في التلمود عن أحاديثه مع شراح الشريعة العبرية ، خرافية ، فانها تدل على التأثير الذي تركه في العقل العبري . ولقد دفعت محاولته الغاء فريضة الحثان واقامة مستعمرة اغريقية رومانية

(١) لقد كان على وفاق مع العبد الروائي افقريطس Epictetus والمؤرخ الاغريقي فاورينوس Favorinus ، من أهل مرسلها .

(Aelia Capitalina) على موقع المدينة المقدسة المهدم ، اليهود الى القيام بآخر ثورة لهم وأشدّها رعباً (١٣٤ - ٦) . ولقد أظهر الامبراطور للمسيحيين تسامحاً يتسم بالاحتقار . وفي هذا كله كان طراز ثقافة القرن الثاني من حيث شيوعها وقدمها ، ومغالاتها في التأنق وانحلالها . ويكتب ريشان « كان الشرق على الأخص يجتذبه ، ولقد كان يشاهد فيه المداجاة والتهريج ، وكان يتسلى بهما » . ولكن هديران لم يكن مجرد غاو للفن الجميل ، فقد ظل في قلبه ابناً لروما الوثنية . ويقول اسفريطيانس « لقد كان يعنى أشد العناية بمراعاة العبادات الرومانية ويحقر عبادات البلدان الأخرى » . ولم تكن لديه أوهام ولم تعق نزواته اطلاقاً سبيل حكمه المتزن وفي شخصه ، كان الموظف المدني المثالي يرتدى الأرجوان الامبراطوري ولتوضيح هذا بأمنلة حديثة ، كان هديران أكثر قرابة بلورد ملنر Milner أو سر روبرت مورانت Sir Robert Morant منه الى أومسكار وايلد Oscar Wilde . والشهرة ، كما جاءنا النبأ ، كان يسعى اليها في حماسة ولكن بمسالك أخرى غير هذه . وكان يعلم جيداً أنها كانت الطرق العسكرية البريطانية والألمانية ^(١) والمدائن التي ابتناها والقوانين التي وضعها ، هي التي جعلت منه واحداً من صفوة عظام الإداريين الذين ظهرُوا في الوجود . وآخر أعماله المدونة وهو طريح الفراش ، ينازع الموت في روما ، تعبّر عن شخصية متعددة النواحي : تهكماته من أطباء البلاط « ان أطباء أكثر مما يجب هم الموت لأمر » ، والسطور التي وجهها لروحه الراحلة التي تعكس باللاتينية صورة الجمال الذي يستأنى في آخر عهد للهليينية ^(٢) . وما كان يشغله عن كل شيء آخر وهو تعيين خلف ذي جدارة ، في شخص انطونينس

(١) عن الطرق العسكرية ، راجع ما يلي § ١٣ ، تذكرة ٢ .

Anīmula, vagula. blandula, (٢)

Hospes comesque corporis;

Quae nunc abibis in loca ?

Pallidula, rigida, nudula,

Nec ut soles dabis iocos.

وقد ترجمها « الى الانجليزية » ماركس س. ديمسديل Marcus S. Dimsale
(الأدب اللاتيني صفحة ٥٢٦)

« ياروحى الغامضة ، حسنة السميت والخلق

ضيفة هذا الجسيد وصديقتي

اذكري ، الى أين المسير الآن ؟

وأنت شاحبة ، ومتصلبة وعارية

وأيتها الروح الصغيرة .

كل دعاباتك قد أنت الى نهاية » .

فايوس Antoninus Pius يؤول اليه العرش الامبراطورى .

١١ - واذا تحولنا من الامبراطور الى الامبراطورية ، نجد أن حكومة العالم فى القرن الثانى تقع فى ايدى بيروقراطية عظيمة . وكان رؤساء المصالح فى روما فى الاصل ، أعضاء فى حاشية الامبراطور وكانوا لا يزالون يعتبرون معاونين شخصيين يشبهون فى ذلك كاتى السر ومديرى الضياع لدى شريف من الافراد . وكان اهم هؤلاء الاربعة مراقبين procurators وهم مراقب المالية والمستشار القضائى ومستلم الشكاوى وكاتم السر الامبراطورى (١) . وطبقا للمبدأ التاريخى بأنه يجب على الموظف بأن يشد أزره بالنصيحة ، فان الأعمال الهامة كانت فى المعتاد تناقش فى مجلس الدولة الامبراطورى . وكانت ادارة روما وايطاليا موكلة الى اربعة رؤساء ، رئيس المدينة ورئيس الحرس (البريتورى) ورئيس قموين الحنطة ورئيس الحراسة وكانوا كلهم ينهضون ايضا بأعباء وظائف قضائية عالية (٢) . وفى المحاكم الامبراطورية التى أمحت بالتدرج محاكم الشيوخ ، كان استئناف الدعاوى يعرض من جميع أنحاء العالم الرومانى . أما محاكم الاقاليم التى ازدادت فى القرن الثانى حتى اربى عددها على الثلاثين ، فقد كانت محاكم الامبراطورية ضعف محاكم الشيوخ (٣) . وكانت الرقابة الحازمة الفعالة

(١) كان يطلق عليهم ، على الولا .

a rationibus, a cognitionibus, a libellis ab epistulis.

ومن عهد هديران فصاعدا ، لم يعد يشغل هذه الوظائف معتقون ولكن مواطنون من مرتبة الفرسان .

(٢) كان يطلق عليهم على الولا urbi, praetorio, annonae, regilum

وكان الرئيس البريتورى يراعى ، من عهد هديران ، مجلس الدولة ومحكمة الجنائيات العليا .

(٣) عن مادة هذا القسم ، راجع و.ت.أرنولد W. T. Arnold ، الإدارة

الاقليمية الرومانية ، ، وخاصة الفصول ٤ و٧ وقد أدرجت قائمة بالأقاليم ومعها تذكرات شارحة فى الملحق ١ . وهاهى ذى القائمة فى عهد أوغسطس:

صقلية (لمجلس الشيوخ) ، سردينيا وقورسيفيا والفسال (٤ : إقليم لمجلس الشيوخ) ، اسبانيا (٣ : إقليم لمجلس الشيوخ) ، أفريقيا (إقليم لمجلس الشيوخ) ، قورينا وكريت (لمجلس الشيوخ) ، سوريا وغلطية وبتونيا (لمجلس الشيوخ) ، وبنطس (لمجلس الشيوخ) ، وآسيا (لمجلس الشيوخ) ، ومقدونيا (لمجلس الشيوخ) ، وأخائيا (لمجلس الشيوخ) ، ومويسيا ونوريقم ورائطيا والوريقم ومراكز الالب . وكانت مصر يديرها على قواعد خاصة رئيس من مرتبة الفرسان .

تقوم بها الحكومة المركزية . وكان حكام الأقاليم ينتخبون لأمانتهم وقدراتهم وتدفع لهم الدولة مرتباتهم ويعاونهم موظفون ماليون مستقلون وإدارة دائمة من موظفين إداريين متمرنين (١) . وفي عهد الأباطرة الفلاويين Flavian والأباطرة الأنطونيين كان أفراد من طبقة الفرسان يحلون في أطراد يأخذ في التزايد ، محل المعتقين ، في الخدمة الإمبراطورية . ولم يعد الرومان الأحرار بعد غير راضين عن شغل مناصب في « حاشية قيصر » . وكان يمكن الحصول على عدالة وفيرة ، في المحاكم الإمبراطورية في كل أنحاء الإمبراطورية . وكانت الضرائب ، على فداحتها ، تجبي على أساس عادل منتظم تهيئه سجلات التعداد التي كانت تعبدل في أوقات منتظمة لتطابق آخر تاريخ . وكان أهم مصدر للدخل المباشر ضريبة الأرض تضاف إليها ضريبة عينية للقيام بتكاليف الجيش في أقاليم معينة ، وضريبة دخل على مهن وحرف خاصة وضريبة ميراث تبلغ خمسة في المائة كانت تجبي من الطبقات الأكثر ثراء وإيراد أملاك الدولة والمنساجم وأراضي الإمبراطور الخاصة (patrimonium Caesaris) . أما الضرائب غير المباشرة فكان أهمها رسوم الجمارك التي كانت تختلف باختلاف الأقاليم . وسنرى في فصل قادم كيف أن ثقل الضريبة ازداد خلال القرن الثالث حتى كاد لا يحتمل مما أتى بنتائج وخيمة على رخاء الإمبراطورية الاقتصادية . ولكن قبل ذلك التاريخ ، أظهرت

وقد أضيفت الأقاليم الآتية بعد موت أغسطس ، ألمانيا (٢) ، في عام ١٧ م) . ومورطانيا (٢) وبريطانيا وطراقيا (هذان بين ٤٠ و٤٦) ، بلاد العرب يوداقيا وأرمينيا وما بين النهرين وأشور (هذه بين ١٠٥ و١٤١ في عهد طريان) .

ومن وقت إلى آخر كانت الأقاليم يعاد توزيعها بين الإمبراطور ومجلس الشيوخ . وتتوارى الأقاليم التابعة لمجلس الشيوخ في ختام القرن الثاني . وعلاوة على هذا ، كانت بعض المناطق يقوم بالإدارة عليها مراقبون procurators تحت إشراف حاكم إقليمي مجاور . وعندما تقدمت عملية بسط النفوذ الروماني ، فقد جعلت هذه المناطق في الغالب أقاليم . وكانت اليهودية تحت حكم مراقب يشرف عليه المعاون العسكري (Legate) الإمبراطوري لسوريا (راجع لوقا ٢ : ١) . وعندما كان وطيلىوس Vitellius ، الذي أصبح إمبراطورا فيما بعد Legate لسوريا فإنه تمكن من خلع المراقب بنطيس بلاطس .

(١) يحوى الكتاب العاشر من خطابات بلنى الأصغر (ترجم في المجلد الثانى من طبعة لويب Ioeb) الرسائل التي كان يتداولها بلنى والإمبراطور طريان أثناء قيام الأول بحكم بثونيا عام ١١١ وقد جعل طريان بثونيا أقلية إمبراطورية . وتقدم هذه الرسائل أيضا راءنا لما كانت عليه الإدارة الإقليمية في عهد الإمبراطورية الباكر .

الحكومة كرما منقطع النظر في استخدام الدخل فكانت الإعانات تمنح في يسر في حالات الوباء والمجاعة وغيرهما من الكوارث غير العادية والغيت القيود على التجارة في كل مكان . وقد نهض بالأعمال العامة مثل المرافق والطرق والجسور والرى واسترداد الأراضي البور في جميع أرجاء الامبراطورية بنشاط . ومما يسترعى النظر بصفة خاصة « السياسة التي أنشأها ناروا Nerva وتوسع فيها خلفاؤه في القرن الثاني ، في إقامة منظمات في إيطاليا وغيرها لأعانة الأرامل واليتامى ورصد منح للعلماء وشئون التعليم الأخرى ومصارف للأراضي لتشجيع الزراعة وكانت تخصص أرباحها للقيام بأود الأطفال الفقراء وتعليمهم .

١٢ - وكانت المدينة كما كان العهد بها سابقا ، أهم أداة للمدينة استخدمتها الحكومة الامبراطورية للمحافظة على الثقافة الهلينية في الشرق وغرس الثقافة الرومانية في الشمال والغرب (١) . وفي عهد الامبراطورية الباكورة ، كانت بلاد الاقليم تشمل (١) المدن المتحالفة والحررة التي تدين بانستقلالها في حالة ، لمساهمة رسمية وفي غيرها لمنحة من روما (٢) المستعمرات الرومانية والبلدان Municipia التي كانت تختلف في المكانة الموقرة أكثر من اختلافها في الامتيازات و (٣) كتلة البلاد التي لا تستمتع بامتيازات وتدفع الضريبة ، تلك التي حافظت على منظماتها المحلية القسرية تحت رقابة الحاكم الاقليمي . وهذه ، تحولت غالبيتها على مر الزمان الى بلدان Municipia بمنحها الحقوق المدنية او الحقوق اللاتينية . ومن القرن الثالث ، قل عدد المدن المتحالفة والمدن الحرة ووضعت قيود على امتيازاتها . ولقد أورد بليني Pliny قائمة بمائة وخمس وسبعين مدينة في اقليم بيطيقا Baetica الأسباني عند ختام القرن الأول : يوجد ثلاث مدن متحالفة وصت مدن حرة وتسع مستعمرات وثمانى بلدان Municipia وتسع وعشرون مدينة لها حقوق لاتينية ومائة وعشرون مدينة تدفع الضريبة . وكانت حكومة البلدة في كل مكان على التقريب ، أرستقراطية وقد نظمت طبقا لشكل روما التاريخي . وكان يقوم بالرقابة على المستعمرات والبلدان Municipia موظفون ينتخبهم كل عام المجلس الشعبى من مواطنين ذوى أهلية عالية ، بما لديهم من أملاك ومجلس شيوخ يتكون معظمه من موظفين ، وموظفين

(١) في مبدأ الأمر ، كانت السياسة الرومانية هي استخدام الأداة الموجودة حتى أقصى مدى ممكن ، فعلى سبيل المثال ، اعترفوا برؤساء القبائل ومجالسها كوسائل للحكومة المحلية . وعندما ظهر عدم كفاية هذا النظام ، فانهم أقاموا مجتمعات المدن ، يعيش أفرادها من إيطاليا ، ويحلون بين السكان الوطنيين . وحيث وجدوا مدنا قائمة ، كما كانت الحال في الشرق ، فانهم استخدموها .

سابقين . وعلى مر الزمن أصبح يوجد ميل ملحوظ فى اتجاه التدخل من قبل الموظفين الامبراطوريين . وقد بطل الانتخاب الشعبى وغدا من العسير بدرجة تطرد ازديادا حث المرشحين على مواجهة التكاليف الباهظة التى تلازم القيام بوظيفة البلدية . وقد شاهدت بواكير قرون بعد الميلاد قيام عدد جم من المدن.بقى الكثير منها امدا طويلا بعد سقوط الامبراطورية ولا تزال تزدهر حتى زمننا الحاضر . وقد هيات مواقع كتائب الحدود ، العسكرية نواة البلدان الجدد ويمكننا ان نتبع الحصن فى نموه الى قرية والقرية الى بلدة . ويحتفظ اسم ليون Leon فى اسبانيا واسم قايرليون Caerleon على اليوسك Usk فى بريطانيا بسجل مثل هذا الاصل (Legionis كتائب و Castra Legionis معسكر الكتائب) . وكانت كل بلدة تقوم على ادارة مساحة عظيمة من الريف المجاور ويحدث أحيانا أن مدينة عظيمة تقوم بالسيطرة على عدد من البلاد التابعة لها ، وبذلك تنهض حكومة مقدسة (hierarchy) لبلدة . وهكذا كانت حال الغال فى عهد أوغسطس اذ كانت لغدونم Lugdunum (Lyon - ليون) المركز الادارى لأربعة وستين مجتمعا ، لكل منها بلدته الرئيسية (وكانت أميان Amiens ونانت Nantes اثنتين من هذه البلدان) بينما كان لمارسليا ونيم Nimes السيطرة على البلدان الأخرى القريبة منهما . وكانت البلدان الاقليمية أيضا تنتخب مندوبيها لحضور المجالس الاقليمية التى كانت اجتماعاتها ، وهى ترتبط بعبادة الامبراطور ، تقوم بدور هام فى الادارة المحلية وتقدم أقرب مثال فى الأزمنة القديسة لنظام الحكومة النيابية .

١٣ - وكانت أعظم مسئولية ملحة ، خلال القرون الثلاثة الاولى ، المحافظة على الحدود . ان نصيحة أوغسطس بالبقاء داخل الحدود التى وضعها ، راعاها بأمانة خلفاؤه . وأهم استثناءات كانت ضم بريطانيا فى عهد قلوديس Claudius (٤١ - ٥٤) وداقيا Dacia (= هنغاريا قبل ١٩١٤ - ٨) وأرمينيا وأقاليم الدجلة والفرات فى عهد طريان (٩٨ - ١١٧) . وكانت حملات طريان المظفرة فى الشرق قمة السياسة النشيطة التى جرى عليها أباطرة القرن الاول . ولم تعد فارثيا بعد منيعة ، وظل تخم الفرات لا يسوده اضطراب حتى قيام المملكة الفارسية فى منتصف القرن الثالث . وفى الشمال والغرب ، من الجهة الأخرى ، طغى موج هجرة الهمج طغيانا يطرد ازديادا . أما القبائل التيوننية - وقد كانت مصدر تهديد لاطاليا منذ زمن ماريوس Marius - التى صدها قيصر للوراء عن الغال ، وثبطت جهد أوغسطس فى بسط السيادة الرومانية حتى الالب ، فانها كانت فى ذلك

الحين تحارب دون انقطاع ضد الحاجز الحصين بمحاذاة الراين والدانوب . (١)
وكان قد عمل على تقوية الخط ، بسياج أقامه هديران فيما إلى كبلنز إلى
ما يقرب من رجنسبرج على الدانوب ويحصر الغابة السوداء داخل
الامبراطورية (١١) . وقد صمد زهاء قرنين ولكن القتال كان لا ينقطع على امتداد
الحدود بأكمله ، وسرعان ما كان يلقى أى تهاون فى قبضة روما الجزء الوفاق .
وقد أثارت الانقسامات داخل الامبراطورية وتجاوز القبائل فى تجوالها
دائرتها ، الأزمات التى تقع بين حين وآخر فى شدة منقطعة النظر
وتعقبها فترات من الهدوء النسبى . ولهذا فانه بعد الحروب المروعة التى
شنها ماركس أورليوس ضد المرقمانى Marcomanni والقواضى Quadi
على الدانوب الأعلى ، ساد الهدوء طوال جيلين ، إلى أن تحول مركز العاصفة
إلى مجرى النهر الأدنى حيث كان يهدد غوط من الأكسين ، أقاليم البلقان
فى منتصف القرن الثالث (٢٥٠ - ٧٠) . وقد أمنت الهزيمة التى أوقعها
قلوديس بهم خط الدانوب مائة سنة أخرى . وفى نفس الزمن الذى نشبت
فيه الحرب الغوطية ، حطم الأليمانى والفرنجة (حوالى ٢٥٨) (٢)
الحاجز الراين ، وبعد جهاد استثناس استمر فى حظوظ متباينة ، من حكم غلينوس
Gallienus حتى حكم ديوقلطيان ، أعيد السلام مرة أخرى فى الشمال
الغربى . وفى خلال هذه المناوشات ، أصبحت العادة التى استهلها قيصر
فى منح الأراضى للمستعمرين التيتون داخل الامبراطورية جزءا من سياسة
الحكومة العامة . ولقد قدم الذين كانوا أعداء فى جيل ، مجندين لكتائب
دفاع الجيل التالى . وكانت الجيوش الرومانية تجند لمدة خدمة طويلة وكلها

(١) كان موطن التيتوتون الأصلي فى أراضى غربى البلطيق أى جنوب
السويد وجتلند وبومرانيا . ومن هناك ، بين عامى ٦٠٠ و ٢٠٠ ق م ،
ساروا صوب الغرب والجنوب الغربى طاردين القبائل الكلتية من الأراضى
الواقعة شرق الراين وفى نفس الوقت ، تشبعوا بالكثير من الثقافة الكلتية
المتفوقة التى كانوا على اتصال بها . وفى القرن الثانى قبل الميلاد ، عبر
التيتوتون الراين لأول مرة وغزوا الغال .

(٢) داخل السياج من القضبان ، كانت تسير الطرق العسكرية . وفى
تاريخ لاحق استبدله السياج جزئيا بحائط من الحجر . وقد أقيمت حصون
على مسافات تتراوح بين ميلين ونصف ميل ، وتسعة أميال بمحاذاة الطرق
العسكرية . وقد امتد هذا الحاجز الحصين بضع مئات من الأميال .

(٣) كان الأليمانى ، كما يدل اسمهم (= كل الناس) تحالفا من
قبائل كما كان الفرنجة (= رجال أحرار) . واسم الأولين لا يزال باقيا
فى اللفظ الفرنسى Allemagne واسم الآخرين فى France (وكذلك
Franconia و Franche-Comité و Frankfurt) وكان الأليمانى على
اتصال بروما من ٢١٣ والفرنجة من ٢٥٣ .

تقريبا من سكان الأقاليم . وقد يعسكر جنود من قماغين Commagene بآسيا الصغرى ، في ألمانيا أو بريطانيا ويستقرون عند رفتهم ، بمنحة وقطعة من الأرض ، في الأقطار التي كانوا يخدمون فيها ، وكانت بلدان شهيرة مثل كولوني (Colonia Agrippinensis) وكلشستر Colchester (Camulodunum) تدين بنشأتها إلى مستعمرات الجنود القدامى الذين انقضت مدة خدمتهم ، هذه . وما كانت الصبغة العالمية للجيش إلا أحد مظاهر الصبغة العالمية للنظام الإمبراطوري . وكان الموظفون المدنيون أيضا يؤخذون من سكان الأقاليم . ولقد أصبحت الخطوط الفاصلة ، القسرية ، بين الروماني والإيطالي وبين الإيطالي والأقليمي لا وجود لها . وعندما منح الإمبراطور قرقلا في عام ٢١٢ بموجب دستور انطونينا Constitutio Antonina صفة المواطن الروماني لكل مواطن حر المولد في الإمبراطورية . فربما كان الواعز المباشر لديه أن يزيد الدخل ، ولكن الاجراء كان الاتمام المنطقي لسياسة القرنين السابقين (١) . وبفضل الحكومة الإمبراطورية الأبوية ، تأصلت الأفكار والانظمة التي تمثلها روما في التاريخ ، تأصلا ثابت الدعائم في جميع أرجاء عالم البحر المتوسط .

١٤ - ويتجلى مغزى هذه الحقيقة وما كان لها من نتائج في المستقبل ، إذا أوضحنا الوسيلة التي نهضت بها روما بمهمتها في الحكم في أقاليم أوروبا الغربية - إسبانيا والغال وبريطانيا (١) كانت إسبانيا أحد الأقاليم الرومانية الباكورة . وقد فتحها ونظمها في القرن الثالث ق.م . القرطاجني العظيم هملقار بارقا ، Hamilcar Barca ثم آلت في ختام الحرب الفونية الثانية إلى روما . وكانت السيطرة على قبائل الداخل مهمة طويلة شاقة أنهكت إلى أقصى حد همم الحكام الرومان المتعاقبين ومن بينهم كان كاتو الرقيب وطبريوس سمبرنيوس جراكس Tiberius Sempronius Gracchus والد المصلح الزراعي ، بارزين لقدرتهما .

وكانت الأحوال الطبيعية تعاون حرب العصابات التي كان فيها الانتخاب على الدوام متفوقين واحتمرت متاعب الحرب والتنظيم ، دون انقطاع خلال القرن الثاني . وقد نهض كاتو بالمناجم التي كان الفينيقيون يستخدمونها

(١) كان الدافع المباشر لمرسوم قرقلا هو توسيع مدى تطبيق ضريبة الخمسة في المائة على موارث المواطنين . وقد قصر منح صفة المواطن على الأهلين الأحرار الموجودين فعلا في الإمبراطورية ، عام ٢١٢ أما المعتقون والأشخاص الذين لهم حقوق لاتيكية وأولئك الذين استقروا على أراض داخل الإمبراطورية وحازوا مكانتهم في تاريخ لاحق فانهم لم يصبحوا بذلك *ipso facto* ، مواطنين . وقد مذ يوسطينيان صفة المواطن لتشمل هؤلاء .

قبل ذلك بقرون كثيرة وغرس الكرم والزيتون . وبين عامي ٨٠ و ٧٢ ق.م . عكف الزعيم الديوقراطي سرتريوس Sertorius - وقد وجد في اسبانيا ملجأ من انقلاب سلا - على تدريب القبائل الوطنية على فنون الحرب والسلم ، وأسس الكليات العسكرية لتعليم شباب نبلائهم . وقد شجع يوليوس وأوغسطس سياسة صبغهم بالصبغة الرومانية بحماسة ونالت خسون مدينة اسبانية صفة المواطن الكاملة . وكانت قادس وطراقو (Tarraco) مركزين للتجارة والحكومة ، على الولاء : ولا تزال سرغسا Saragossa وأسطرغا Astorga تحتفظان باسم أوغسطس .^(١) وقد مد الطريق العسكري والتجاري العظيم ، الذي كان يسير من ايطاليا حول خليج ليونس Lions الى الأقاليم التي تقع فيما يواي البرانيس ، بمحاذاة ساحل اسبانيا الشرقي ومنه اخترقت الداخل حتى الوادي الكبير وميناء قادس . وما حان الزمن الذي مات فيه أوغسطس حتى كانت اللغة والملابس والعادات الرومانية قد عمت شطرا عظيما من شبه الجزيرة . وقد قسمت اسبانيا الى ثلاثة أقاليم ، ومن الثلاث كتائب التي وضعها أوغسطس هناك ، كان يمكن سحب اثنتين قبل ختام القرن الأول . وقد نشر السلم ونشر الصبغة الرومانية جنبا الى جنب . وكان كاتم سر يوليوس قيصر وأمين مكتبة أوغسطس مواطنين اسبانيين . وقد قدمت اسبانيا الى الادب الروماني ، ويرجع ذلك الى القرن الأول ، عالم الأخلاق سنقا Seneca والشاعر الجمهوري لوكان Lucan وعالم الجغرافيا مالا Mela والكاثب الزراعي قولوملا Columella وأحسن واضع للأراجيز ومأثور القول ، في روما ، مرطياي Martial وأعظم ناقدى الأدب فيها كونتليان^(٢) Quintilian . وفى بواكير القرن التالى قدمت الى روما واحدا من أنبل أباطرتها هو تراجان وفى النهاية عندما انهالت غزوات الهمج على الغرب ، وجدوا اسبانيا قد اصطبغت تماما بالصبغة الرومانية ، حتى ان استمرار ثقافتها لم يكن يهدده خطر جدى . وكانت العقيدة المسيحية متصلة كل التأصل فى قطر ربما يرجع أنه كان مشهدا لجهود القديس بولس الأخيرة ، الرسالية . ومنذ ذلك الحين ، قامت بدور هام فى حياة الكنيسة الغربية . ولقد مثلت سبع وثلاثون كنيسة منفصلة فى مجمع الويرا Elvira فى القرن الثالث . وكان هسيوس Hosius أسقف قرطبة Cordova المستشار الذى انتخبه قيسطنطين فى

(١) فى عام ١٨٦١ ، كشفت أجزاء من قوانين ملقا (ملغا) وسلبتسا وفى عام ١٨٧٠ أجزاء من قوانين أسيونا ، تلقى ضبوها عظيما على حكومة البلدان فى اسبانيا فى عهد الامبراطورية الباكر .
(٢) عن سنقا وكونتليان راجع ما يلى § ٢١ و ٢٢ . لقد قيل كتوضيح لعمل روما فى بسط المدينة أن جنودا وموظفين من الرومان كانوا يعلمون الأجانب ، مثل سنقا وكونتليان أن يكتبوا اللاتينية الصحيحة .

مجمع نيقيا Nicaea . وكان القوط الغربيون ، على خلاف الوندل ، قد قبلوا بالترحاب الثقافة الرومانية قبل أن يسيطروا سلطانهم في اسبانيا . وكان أزيدور Isidore السفيلي ، واحدا من العلماء القلائل في أيام التدهور في القرن السابع وهو الذي استطاع أن يحول شذرات من العلم القديم والأساطير القانونية الى مفكرى العصر الوسيط الباكر . وحتى غزو المشاركة الذي حدث في القرن الثامن لم يجد في محو كل آثار الماضي وقد حفظ الزعماء القوط ضوء التقاليد الرومانية والمسيحية لا تخفت خفقاته في حصونهم الجبلية . ويمكن تقصى أثر مجرى النفوذ الروماني دون انقطاع من أيام اسقفيون حتى قيام مملكتي البرتغال واسبانيا الحديثتين (١) .

١٥ - (٢) « كل الغال تنقسم الى ثلاثة أقسام » هذه ، كما يعلم كل تلميذ مدرسة ، هي الكلمات التي يفتتح بها قيصر « تذكرااته » . وقد أعاد أوغسطس ، في تقسيم القطر الى أقاليم ، تنظيم المناطق الثلاث فأصبحت بلجيكا (شمال شرق) ، لقدمينسس Lugdunensis (شمال غرب ووسط) وأكوطانيا Aquitania (غرب وجنوب غرب) وهي أسماء لا تزال باقية في « بلجيكا » و « ليون » و « أكوطين » . وفي الجنوب بمحاذاة ساحل البحر المتوسط ، كان يوجد إقليم الغال النربوني Narbonese Gaul الذي كان يخترقه الطريق العظيم من روما الى اسبانيا ، وكان مركزه في زمن الجمهورية مستعمرة ماسليا (مارصليا) الاغريقية ، القديمة وهي مدينة متحالفة مع روما ، وتحكم بدستور حكومة أقلية أثارت إعجاب شيشرون وبعد سقوطها أمام جيش قيصر في الحرب الأهلية (٢) انتزعتها منشئات أكثر حداثة مثل فورم (منتدى والأصل سوق) يولي Forum Julii (فريس) Fréjus ، محطة الأسطول كطولون في ايامنا) وأرليط Arelate (ارلس Arles) ، عند مصب الرون ، الميناء العظيم للتجارة الداخلية . وقد صيغ هذا الإقليم الجنوبي ، « البروفانس Provence » كما تعرفه الأزمنة التي جاءت بعد ذلك ، بالصيغة الرومانية بطبيعة الحال ، قبل أقاليم الداخل حديثة العهد بالفتح ، بأمدة طويلة . وظل الاختلاف قائما في زمن متأخر ، في مجال اللغة يمثله الفارق بين لغة الك Langua d' Oc ولفسة أوى Langua d' Oil في بقية فرنسا . ولقد نظمت أقاليم أوغسطس الثلاثة الجدد الى أقسام فرعية cantons ، قبلية يحكمها موظفون كلتيون ، لديهم

(١) في أفريقيا معا المشاركة كل آثار النفوذ الروماني . وكان أمراء المشاركة في قرطبة ، من الجهة الأخرى ، حكاما متنورين حافظوا على الكثير من مخلفات الماضي .

(٢) دانتى « المظهر : ١٨ ، ١٠٢ » - « لاختضاع الردا Ilerda ، طعن قيصر مارصليا ثم أسرع الى اسبانيا . »

جنود غير نظاميين (مليشيا) . وكانت لقدونم Lugdunum (ليون) المركز الرئيسي للحكومة والتجارة . وهي مستعمرة أسست عام ٤٣ واستوطنتها مواطنون رومانيون عند الموقع الذي ينتشعب فيه الطريق الصاعد في وادي الرن ، الى فروع تؤدي الى مختلف المعسكرات على التخم الألماني . وهناك كان يعقد مجلس الأقاليم الغالية الذي كان يتعاون مع الحكومة الرومانية في الضرائب وفي جمع شمل القبائل الكلتيية حول عبادة روما وأوغسطس (١) . وقد تقدمت الحياة الحضرية في الأقسام Cantons بسرعة . ومن بين المدن الأولى التي أصبح لها شأن كانت ريس وترير Trier في إقليم بلجيكا وصارت الأخيرة منهما عاصمة الغال والغرب في مستهل القرن الثالث . وقد كان شرق الغال أسرع اضطباغا بالصبغة الرومانية من الغرب . وكلما نهضت جماعات حضرية ، كانت الحقوق الرومانية تنسحب عليها ، وقد سمح قيصر للغاليين بدخول مجلس الشيوخ ووصلت إلينا خطبة قلوديس التي منح فيها حق تقلد الوظائف للغاليين الذين منحوا الحقوق السياسية (٢) . ولقد كتب قيصر عن هذا الشعب « كل مجتمع ينقسم الى حزبين » وقد استخدمت السلطات الرومانية هذه الانقسامات ، أتم استخدام ، لتوثيق حكمهم ضد الثورة . وقد ألغى الدين الدرويدى Druidic بقانون . ولم يقاوم طويلا وكان قد أوشك على التوارى عندما انتشرت المسيحية في الأقاليم الشمالية . وكان القطر غنيا بالموارد المادية . ولقد كتب يوسيفوس « في الغال ، يوجد موطن موارد الثروة وتغمر الأرض بفيضها » وكانت الزراعة أساس رخائه بينما في الشمال الشرقي ، هيأت تربية الأغنام قيام صناعة المنسوجات مما جلب ، في زمن مبكر لمدينتي اراس وطورناى شيئا من شهرتهما في العصور الوسطى والحديثة . وكان الكلتيون رجال صيد عظام وقدموا فرقا كبيرة من المحاربين لحيلة جيوش روما . وكان لهم ميل نادر للتعلم وكانت أوطن Aulun (أغسطو دونم Augustodunum) وبردو (بردغالا Burdigala) مقرى جامعات ومدارس شهيرة ، وقد عادت البديهة الحاضرة وهاب الكلام لدى الكلتيين ، عليهم بصيت بعيد في الخطابة والتعليم

(١) لم يكن كل سكان الغال من الكلتيين ، ولكن كانوا يضمون قبائل برية وجرمانية . وقد أنزلت الحكومة الرومانية الجرمانيين المهزومين في أرض غالية .

(٢) يلخص طاقيطس (في الحوليات : ١١ ، الفصول ٢٣ - ٢٥) الخطبة . وفي زمن مبكر في القرن السادس عشر ، وجدت أقسام منها في ليون . راجع أرنولد الصفحات ١٤٥ وما بعدها ، عن التفاصيل .

يرجع مبكرا ، الى القرن الأول (١) .

وقد قامت فنون النحت وخاصة ما كان يعالج مناظر من الحياة اليومية ، تلك التي كانت تنبئ مقدما بالنقوش البارزة التي تزخر بها الكاتدرائيات الغوطية في فرنسا في العصور الوسطى ، حول ترير . وفي القرن الرابع ، كان أوسينيوس Ausonius البردوى ، أحد عظام الشعراء اللاتين المتأخرين المبدعين ، يتغنى بالقصيد ذي المقاطع الستة ، بحاسن مناظر موزل الرائعة . ولقد قدمت كنائس الغال ، منذ القرن الثاني وما بعده الكثير من قادة العالم المسيحي الغربي . وكان الأساقفة من بريطانيا ، يرحلون الى أربلس لحضور مجالسها . وقصارى القول ، انه قبيل الوقت الذي انهال فيه القوط الغربيون والبرغنديون والفرنجة على سهول ووديان أنهار الغال ، كانت الغال قد تهيأت لمهمة بسط الرومانية والمسيحية على غزاتها وفي زمن لاحق ، في القرن التاسع ، كانت مدارسها الموطن المختار لعلم العصور الوسطى (٢) .

١٦ - (٣) وكانت بريطانيا تقع في أرباض العالم الروماني ، القاصية وكان احتلالها في عهد قلوديس هو الاستثناء الوحيد الدائم للمبدأ القائل ان الامبراطورية يجب ألا تمتد فيما يلي الحدود التي أقرها أوغسطس . وكانت تحكم كجزء من الامبراطورية قرابة أربعمئة عام . ولقد اتخذت ثلاث كتائب (أكثر من ١٥٠٠٠ جندي) جندت غالبيتهم من الوطنيين الذين اصطبغوا بالرومانية ، مراكزها باستمرار في الجزيرة . وكان نفوذ المدنيبة الرومانية ينحصر ، فيما عدا فترة وجيزة ، في المناطق التي تقع في الجنوب من السور الذي أقامه ساورس من ولسند ، الى الشرق من نيوكاسل ، حتى كرسلي ولا يزال جزء كبير منه باقيا (٣) . وقد ظلت كرنول وحدها ، داخل

(١) كانت مدرسة أطون لتعليم شباب نبلاء الغال موجودة في عهد طبريوس وسابقة له .

(٢) يجب ألا يغيب عن البال أنه بين الأقاليم الغالية والحدود ، كان يمتد اقليمان (الأعلى والأسفل) يتكونان من شريط ضيق من الأرض تحرسه حاميات عسكرية أمامية ومعسكرات كتائب الراين العظيمة . كانت ألمانيا العليا أعرض الاقليمين اذ كانت تشمل رقعة عظيمة من الأرض لبور المتنازع عليها بما فيها الغابة السوداء . وقد عزلها واسفاسيان وجعلها موطن Coloni Caesaris ، وهم زراع مرتبطون بالأرض . ولقد امتدت الثقافة الرومانية هنا ، بين القبائل الجرمانية الى حد أبعد مما كانت عليه الحال في ألمانيا السفلى فوق كبلنز .

(٣) كان هديان قد أنشأ طريقا (limes) في محاذاة هذا الخط . وقد أقيم في مكان أبعد الى الشمال ، حفرة وجسر من التراب وطريق ، من خليج

هذه المنطقة ، لم تقسمها روما على الإطلاق . وفي الشمال كانت توجد مستعمرات عسكرية فسيحة ، تكسدت على الأخص في محاذاة السور وفي مدينة يورك . ولكن في الجنوب وخاصة في جلوسستر وشرقي سومرست وهمبشر وبورنميتنشر كان يوجد ، كما يدل الكثير من بقايا المنازل الرومانية المنعزلة ، عدد وفير من السكان المدنيين المصطبغين بالرومانية وهناك على الأخص وضعت روما طابعها على السكان الكلتيين وكما جرت عليه الحال في جميع أصقاع الامبراطورية ، كان حكم روما يعنى قيام مستعمرات وطرق عسكرية . ولقد كانت لولسستر ولنكولن ويورك وجلوسستر مستعمرات رومانية وكانت فرو ليم (سانت البانس) تستمتع بالتكريم باعتبارها بلدة Municipium . وكانت يورك مشهد تنويع الامبراطور قسطنطين ومنوى الامبراطور ساورس . ومن الطرق العظيمة كان شارع واطلنچ يتجه الى الشمال الغربى ، من لندن الى روكستر ويسير شارع ارمين من كولشستر بجوار هنتنجدون ولنكلن الى يورك وكان الطريق من لندن بجوار استينس ، يتفرع عند سلسستر الى شعاب تنجه صوب سوثمبتن وسالسبورى والجنوب الغربى ، وجلوستر . وكان طريق فوس يسير بانحراف من لنكولن بجوار ليستر الى كيرنسترواث . وقد اخلت أرض الغابات للزراعة وكانت بريطانيا قد كتائب الراين بالحنطة . وكان البهائم البريطانيون معروفين في أوروبا الغربية . وكانت المنسوجات البريطانية تصدر للخارج . وكان محار كنت يزداد الطلب عليه في روما ، وأصبحت مرافىء الجنوب الشرقى مراكز تجارة رائجة . ولم يكن نفوذ روما على الدوام خيرا ، ففي الأدوات التى يعم استخدامها كالأوعية ، أفسدت طرز الزخرفة التى اتخذت طابعا ثابتا ، حرية التخطيط القومية الكلتية . وذاعت اللغة الرومانية أولا بين اشراف الكلتيين ثم بين المجموع الأكبر من السكان الوطنيين فى الجنوب والشرق . وكان القانون الرومانى ومناهج الحكومة عوامل للمدنية قوية المفعول . ويقص فلوطرخوس حديثه مع معلم اغريقى عائد من بريطانيا الى وطنه على شواطئ المشرق . وتوسع المسيحية دخلت بريطانيا نطاق الكنيسة . ولقد كشف عن أسس كنيسة مسيحية فى سلسستر وامتدت العقيدة الجديدة الى ويلز وفيما يلى تخوم الامبراطورية الى ايرلنده . وفى بداية القرن الخامس أدى الضغط على تخم الامبراطورية الفارى الى تخلى الحكومة الامبراطورية عن بريطانيا (١) . وعند انهيار الحكم الرومانى استعاد العنصر الكلتى فى الاقليم مكانته . وتمثل

فورث الى خليج كلايد . ونهض بذلك انطونيس فايوس وأتمه ساورس فى ختام القرن الثانى .

(١) عندما التمس البريطانيون الحماية من الامبراطور أنوريوس Honorius ، فانه أمر مدتهم أن تحمى نفسها على أحسن ما يستطيعون .

فى شخص أرثر وهو زعيم كلتى كان يحمل اسما رومانيا وشطره تاريخى والشطر الآخر أسطورى ، مقاومة الكلتيين للسكسون ، وباحتلال السكسون ، زال معظم آثار نفوذ روما . ولم يكن القانون الأنجلوسكسونى يدين بشئ من محتوياته لقانون روما . ولقد تراجعت المسيحية أمام الوثنية الا فى ايرلنده والحصون التى لم تغلب ، فى ويلز . وأتى الغزاة على المدن الرومانية بالتحريب . ان ما تبقى من آثار الحياة الاقليمية القديمة فى بريطانيا السكسونية ، كان كلتنا ولم يكن على الاخص رومانيا (١) . وفى لندن وهى أعظم المدن الرومانية ، لا يوجد شارع واحد باق الى الآن يمكن أن يبرهن على أنه يسير فى خط رومانى (٢) . ويمكن فى الواقع أن يقتصر أثر بقية من السكان الكلتيين تحت حكم أسياد سكسون فى كنت ووسكس وقد حفظت المساحات التى أخليت من الغابات لزراعة الحنطة ، والطرق العظام سجل سياسة روما . ومن بين متنوع الأشكال الزاخرة التى تظهر على أقدم عملة انجليزية ، يمكن الرجوع بالكثير منها الى أصول رومانية . ولا تزال أكثر من ثلاثين مدينة وقرية تحمل أسماء مشتقة من تلك التى كانت متداولة خلال الاحتلال الرومانى (٣) - سواء اكانت كلتية أم لاتينية - ولكن فيما عدا هذه الاستثناءات القليلة ، لم تترك روما أية علامة باقية على الزمن ، فى تاريخ حياة بريطانيا (٤) .

(١) فى كل أنحاء انجلترا ، تسلم الغزاة السكسون أسماء الأنهار التى كانت كلتية فى آخر أمرها ، دون تغيير .

(٢) مثال ذلك ، تقع أسس الأبنية الرومانية وهى تتقاطع مع خط تشيبسايد Cheapside . وتسير كثير من الطرق الرومانية على مسافة قصيرة من المدينة مثل شارع : Clapham High Street ، (شارع استين) و Mile End Road (طريق لندن - كلنيسستر) و Kingsland Road . (شارع ارمين Erminé Street) وشارع أكسفورد Oxford Street (الطريق الى سلشستر وتفرع شارع واتلنج صوب الشمال عند Marble Arch)

(٣) مثال ذلك ، Lichfield (Letocétum) و Manchester (ربما Mammiun) و Richborough (Rutupiaec Repata Caestir) و Winchester (Venta) و Mancetter فى Warwickshire

(٤) عن بريطانيا الرومانية - راجع طاقيطس « حياة أغريقولا » زوج أمه الذى كان القائد فى انجلترا فى عهد طيطس ودمطيان . وفى هذا القسم كنت مدينا بصفة خاصة الى معاونة زميلى السابق الأستاذ F. N. Stenton فى - ن . استنتون (المؤلف) .

٣ - القانون والأدب

١٧ - كانت الفترة التي تقع بين أوغسطس وديوقليان العصر الذهبي للقضاء الروماني الذي نما ووصل إلى الكمال على أيدي نابي الشراع الذين كانوا يعملون كأعوان للزعامة الملكية . ولقد فصل القانون المدني القديم عن الزيادات الرجعية والبقايا المبهالكة . وعلى سبيل المثال ، فقدت سلطة الوالد patria potestas الكثير من صلابتها التقليدية . ولقد مهد توسيع قرولا لصفة المواطن الروماني حتى تنسحب على كل سكان الأقاليم الأحرار ، الطريق لادماج قانون الأمم (jus gentium) في قانون روما المدني jus civile . وأهم مظاهر التاريخ القانوني في القرون الثلاثة التي نستعرضها ، كانت :

١ - تكملة القانون البريتوري بالمرسوم الدائم .

٢ - نهوض التشريع الإمبراطوري .

٣ - انشاء قضاء علمي .

(١) بلغ النشاط البريتوري في مجال وضع القوانين ذروته في آخر قرن للجمهورية . وقد جرت العادة في عهد الأباطرة الأوائل بأن يتخذ الموظفون البريتوريون مرسوم سالفهم دون تعديل إلا في النادر . وقد اعترف هيريان بهذه العادة عندما وكل إلى محام جليل وهو سالويس يوليانس Salvius Julianus مهمة مراجعة مراسيم بريتوري الأجانب والمدن واصدار النتيجة التي وضعت في مدونة قانون ، كمرسوم دائم edictum perpetuum ملزم . ومنذ ذلك الحين ، لم يكن في الاستطاعة ، ادخال اضافات أو تعديلات . وقد أجرى أيضا ما يماثل هذا على مراسيم الموظفين في الأقاليم . وهكذا أكمل مرسوم يوليانس ، على هذا النحو واختتم مجموعة القوانين البريتورية . وبهذا كان العلامة على توطيد السيادة الإمبراطورية على سلطة الموظفين الجمهوريين نهائيا ، في مجال القانون .

(٢) وكانت سلطة التشريع في عهد الجمهورية هي مجلس (Comitia) الشعب الروماني . وكان أوغسطس لا يزال يعرض المشاريع الهامة التي تتصل بالاصلاحات الحلقية وعق العبيد ومركز المعتقلين والاجراءات القضائية ، على المجلس للتصديق عليها رسميا ولكن منذ حكم طبريوس فصاعدا ، تحولت مهامه التشريعية إلى مجلس الشيوخ وكان من بين أعضاء هذا اللقيف كثير من نابي المحامين وأدت مراسيمه Senatus Consulta دورا عظيما في تقدم القانون في القرنين الأولين . وبينما كان الأباطرة يقومون برقابة

لا تنى تزايد ، على مداوات مجلس الشيوخ ، فانهم كانوا يترددون حتى ذلك الحين فى وضع تشريع بموجب سلطتهم الخاصة . ولكن قبل القرن الثالث ، كان قد أصبح « للدساتير » الامبراطورية قوة القانون ، وبعد ذلك التاريخ غدت الاداة الوحيدة للتشريع . وكانت تشمل : (ا) المراسيم أو الاوامر العامة التى تفسر القانون والتى كان الامبراطور بما له من سلطة imperium يعلنها على لافتات كما كان يفعل البريتوريون فيما مضى من الزمان . (ب) الفتاوى أو الأحكام المكتوبة عن الالتماسات التى يوجهها اليه الأفراد العاديون والموظفون (ج) المراسيم أو القواعد التى توضع عن الاستثناءات القضائية و (د) الوصايات أى التعليمات التى تكون لها فى الغالب صفة ادارية والتى ترسل الى حكام الاقاليم^(١) . ويجب أن نوجز شرح أداة سير القانون الجنائى الذى كان قد نظم لأول مرة ، تنظيما فعالا ، فى آخر عصر للجمهورية عندما وسع سلا نظام المحاكم الدائمة (quaestiones perpetuae) التى يرأسها رؤساء بريتوريون وتضم قضاة من طبقة الفرسان equestrian ويتوارى هؤلاء فى ختام القرن الثانى . وكذلك ولاية مجلس الشيوخ للقضاء الجنائى التى منحها أوغسطس لهذه الجماعة . وهنا ، مرة أخرى ، كان الامبراطور وهو يعمل عن طريق مندوبيه وخاصة الرؤساء البريتوريين ، يجمع كل سلطة قضائية . وعلى هذا ففى الدعاوى المدنية والجنائية ، أصبحت منصبه القضائية ، المحكمة العليا للاستئناف ، للعالم الرومانى .

(٣) لقد صيغ القانون الرومانى ، ليس على مذهب سبق تصوره ولكن عن طريق الاستقراء على أساس التجربة العملية وكان يشتمل على مجموعة عظيمة من الأحكام والقواعد المرعية التى ترجع الى العادات القديمة أو توضع لسد مطالب خاصة . وكانت مبادئه تجىء ضمنا فى تكوينه ، أكثر من أن تكون مصاغة فى وضوح . وكان أول شارح حاول استخلاص هذه المبادئ وتنظيم هذه المجموعة العظيمة من القوانين الخاصة وفقا لطبيعة محتوياتها هو كوينتس مكيوس سكاولا Quintus Mucius Scaevola الأصغر ، الذى كان حبرا أعظم Pontifex Maximus حوالى عام ١٠٠ ق.م . ويمكن أن يقيم سكاولا دعواه بحق ، فى اعتباره مؤسس القضاء الرومانى . ومنذ عهده

(١) من الوجهة النظرية ، كانت المراسيم تفقد صحتها عند موت الزعماء princeps ولو أن خلفاءهم كانوا ، فى الكثير الغالب يجددونها . وكانت الفتاوى ، تعليمات ملزمة للقاضى فى المادة الخاصة بالقضية المتنازع عليها بينما كانت المراسيم ، قواعد لها أهمية عامة والوصايا ، عندما كانت تعنى بنقاط قانونية ، كان لها قوة الفتاوى وفى حالات كثيرة ، كانت تعالج مواد سياسية مؤقتة . وفى معنى أدق ، لم تكن تعد « دساتير » .

فصاعدا تقدمت دراسة القانون دراسة علمية ، تقدما سريعا . وقد أصدر أوغسطس اعترافا رسميا بعمل الشارعين بأن قرر أن يكون لطائفة منهم ، ينتخبون لتفوقهم ، حق الادلاء بآراء يكون لها سلطة امبراطورية (jus respondendi ex auctoritate principis) . وكانت اجاباتهم المكتوبة عن مسائل القانون التي تعرض عليهم والتي تسلم للمحكمة مختومة ، يلتزم بها منذ ذلك الحين ، الموظفون والمواطنون العاديون ، الذين غالبا ما يكونون غير متفهمين في القانون ، وكانوا يؤدون وظائف القضاة Judices ومن عهد أوغسطس فصاعدا ، كان لمدارس القضاة التي نظمت في جميعيات متحدة ، تأثير على تقدم القضاء ، يطرد ازديادا^(١) . وهي لم تصنع القانون في مذهب وحسب ، ولكن خمرته بآراء نظرية من طراز لم يخطر على بال في أزمان الجمهورية . وقد تجلت بواكير ثمار هذه الجهود للبيان في مرسوم يوليانيوس سالف الذكر وفي العجالات المنظمة التي كان يضعها المحامون في عصر هدریان والأنطونيين ، من أمثال كالسوس Celsus) وكيكليوس Caecilius وأفريقانوس Afrecanus وجايوس Gaius . وقد تبع هؤلاء بين عامي ١٧٠ و ٢٣٠ كينتس كروديس سكاولا وتلميذه بابنيان Papinian ، أعظم الشارعين الرومان . وكان كلاهما من سلالة هليئية . وكان من خصائص هذا العصر ذى النهج العلمى أن عقل اليونان وضع طابعه على القانون الرومانى . وفى عهد ساورس الكسندر (٢٢٢ - ٢٥) كان يعيش أولبيان Ulpian وبول Paul وقدم أولهما ويرجع أصله الى صور ، المواد لنصف مجموعة قوانين جوستينيان المختارة^(٢) Justinian's Digest وكان خاتمة الشارعين العظام فى منتصف القرن الثالث تلميذ أولبيان Ulpian ، الاغريقى هرنىوس مدسطينوس Herennius Modestinus ولم يمض كبير زمن بعد ذلك ، حتى حلت الفتاوى الامبراطورية محل استفتاءات علماء القانون responsa prudentium وفى التفسير كما فى التشريع ، يظل الامبراطور معين القانون الأوحده .

(١) فى القرن الأول وبواكير القرن الثانى ، كانت توجد مدرستان عظيمتان فى روما أسسهما ، على الولاء ، لابن Laben وأطىيوس كابيتو Atteius Capito ، من رجال التشريع فى عهد أوغسطس . وكان يطلق عليهما اسمى أتباع المؤسسين ، المدرسة البروكيولية Proculian والمدرسة السابينية Sabinian راجع سوهم Sohm «أنظمة القانون الرومانى» § ١٥٠ . (٢) كان سكاولا Scaevola عضوا فى مجلس دولة ماركس أورليس . وكان بابنيان Papinian الرئيس البريتورى فى عهد ساورس ، زميله القديم فى التلمذة ، وقتل بأمر قرقلا (٢١٢) . وتولى ألبيان Ulpian وبول Paul الرئاسة البريتورية فى عهد ساورس الكسندر وكان امبراطورا من السلالة الهليئية .

تراث العالم القديم

١٨ - ولقد بحث أساتذة القضاء العظام أولئك روجا جديدة في قانون روما ويتجلى نشاطهم العقلي فيما بذل من جهد لتقصي النية التي ترجع إليها المعاملات بين المتعاملين وصياغتها في مبدأ منظم لجميع الحالات التي يمكن تصور قيامها . فعلى سبيل المثال ، في معالجتهم لقانون الالتزامات فانهم قلبوا كثيرا وجوه الرأي في العقود التي يجب أن تقدر فيها النية غير المفصوح عنها bona fides . ويقول أحد الثقات المحدثين « ان قانون الالتزامات ، وهو دون سواء ، يتكون منه ، في أصدق وأدق معنى ، القسم الذي لا يغنى ، من القانون الروماني . وهو لا يمكن الغاؤه . ان نية الشارح والمؤجر الخ هي بعينها في جميع العصور وهي هذه النية التي جلاها القانون الروماني . . . انه هذا التمييز العجيب ، هذا البصر الصافي في التوفيق بين المبادئ المتعارضة ، تهديه قدرة لا يعترها فتور أبدا ، على تبين العناصر المشتركة وهذه الموهبة الفريدة في وضع تعبير ظاهري عن قانون ملازم لحالات معينة وهو القانون الذي اذا وجد ، فانه يأتي بالقاعدة التي تنسحب - مع تغيرات عملية كثيرة بطبيعة الحال - على جميع الحالات الأخرى من هذا النوع ، هي المظاهر التي تدين لها كتابات الشارحين الرومان بروعتها التي لا تضارع ، والعمل الذي حققوه بقوة التي لا تغنى » (١) . وفي نفس الوقت ، كان هؤلاء المفكرون يبعثون في القضاء الروماني بأفكار مستمدة من الفلسفة الاغريقية ، تلك التي قدر لها ، في هذا الوسط الجديد ، أن تؤثر على فكر العهود اللاحقة ، الخلق والتشريعي . وأعظم مثال يسترعى النظر هو تصور قانون الطبيعة (jus naturale or naturae) . ويرجع مصدره الى الرواقية ، المذهب الهليني الوحيد الذي أثار استجابة واسعة النطاق من العقل الروماني العملي والذي كان لا يزال في القرن الثاني مدرسة الاغريق الفلسفية التي لها المنزلة الأولى . وكان البيان المسئول أصلا عن ادماج هذا التصور ، في تكوين القضاء الروماني . وكان يشمل القواعد العامة للأخلاق ، التي تفيض من طبيعة الانسان ككائن عاقل ، بغض النظر عن السلالة أو الزمن كذلك التي تأمر بالاعتراف بأصرة القرابة واحترام التعهدات والتقسيم العدل للكسب أو الخسارة واستعلاء النية على الألفاظ التي عبرت عنها تعبيرا غير مكتمل . وعلى هذا ، فان الرقيق له بموجب قانون الطبيعة ، حقوق ينكرها عليه القانون المدني وقانون الأمم jus gentium وسنرجع الى هذا التصور لقانون الطبيعة jus naturae في فصل قادم (٢) . لقد كان له تاريخ طويل

(١) سوهم § ١٥ الصفحتان ٧٣ - ٧٤ .

(٢) راجع فصل ١١ § ١٥ وما يليه . كان من العسير تحديد الخط

١. فاصلا بين قانون الطبيعة (jus naturae) وقانون الأمم (jus gentium) . قد حل البيان المسألة بتعريف أولهما بأنه القانون الذي تشترك فيه جميع الكائنات الحية وثانيهما بأنه ذاك الذي يشترك فيه كل البشر . ولم يأخذ

لا يغيب عن الأذهان وقدم مبدأ سيطر على الفكر الخلقى والسياسى فى أوربا الغربية خلال ألف وخمسمائة عام ونيف .

ب - الأدب

١٩ - ان أدب الحقبة يرتبط ارتباطا وثيقا بالحياة العامة دائمة التفسير فى الدولة الرومانية .

(أ) أنجب آخر جيل فى الجمهورية شاعرين عظيمين . لقرطيس الذى عبر فى شعره من ستة مقاطع عن مبادئ أبيقور الفلسفية ، وكاتولوس الذى تضارع قصائده الغنائية قصائد برنز Burns أو هين Heine بينما يذكرنا فى مداه وشخصيته ببيرون (١) . وبين كتاب النثر ، يبرز اتمان بروزا ظاهرا . لقد كانت عبقرية قيصر فى الأدب تلى فقط عبقريته فى الحرب والسياسة . وكانت خطبه ورسائله ذائعة الصيت ، كنماذج عليا للأسلوب .

أحد من شاعرى ذلك العصر بهذا رأى ، ولو أنه يظهر فى مجموعة جوستينيان المختارة Digest وفى كتابات القرون الوسطى . وجايوس ، وهو روماني خالص ويسبق عهده عظام الشارعين الاغريق والاعريق الشرقيين ، هو دون سواء الذى يتعرف هوية واحدة لقانون الطبيعة وقانون الأمم وقد عرف الأخير بأنه « القانون الذى يخصه العقل الطبيعى لجميع البشر » وقد احتذى جوستينيان مثاله فى هذا . وتبين حالة الرقيق التى أشير اليها فى النص وجه الاختلاف . ان الحرب والرق كليهما يناقضان قانون الطبيعة الذى بمقتضاه يولد جميع الناس أحرارا ، وهما والعقود يصدران عن قانون الأمم . قابل « أنظمة » lib. i و Iit. ٢٣

Servitus autem est constitutio juris gentium, qua quis domino alieno contra naturam subiicitur

« ان الرق هو من وضع قانون الأمم ، وبمقتضاه يصبح الرجل خاضعا لسيد غريب بما يناقض الطبيعة » . وكان jus gentium يتضمن jus inter gentes وهو أقرب ما وصلت اليه الأزمن القديمة للقانون الدولى راجع دائرة المعارف البريطانية المجلد ١١ فى موضوع القانون الرومانى ، الصفحتين ٥٦١ و ٥٦٢ .

(١) عن « أبيقورية لقرطيس » راجع عاليه فصل ٦ § ١٨ . لم ينل الا اليسير من التقدير فى الأزمن القديمة ، الا من فرجل الذى يكشف فكره وشعره على السواء ، عن نفوذه . ويضعه كونتليان فى مصف شاعر من الطبقة الثالثة فى عهد أوغسطس وينحيه على أنه أنيق فى مجاله ولكنه عسير الفهم (Inst. Orat. ١٠ فصل ١ § ٨٧) ولقد ترك للقرن التاسع عشر تعرف عبقريته الشعرية .

وكتابه عن الحرب الغالية لا يبارى كسرود تاريخي عظيم ، كما يبعث اخفساء المؤلف لشخصه ، تأثرا فريدا بعمله العظيم الرائع ^(١) . ولكن أصدق ممثل للعصر كان شيشرون الخطيب والسياسي الجمهوري ، الذي كانت كتاباته النثرية - خطبه ورسائله وعجالاته عن الخطابة والفلسفة - يعترف بها كنماذج للغة اللاتينية بالغة أعلى ذروة في زمنه وفي كل زمن لاحق . واللاتيني الاتباعي (الكلاسيكي) هو اللاتيني كما كان يكتبه شيشرون . ولقد استخدمه شيشرون ليحوى صنفين عظيمين من الآراء - عظمة روما والمثل الأعلى للثقافة الانسانية . أما عن الأول فيمكننا أن نقبس ألفاظ نيومن : « لقد أدرك شيشرون في جلاء مكانة عضو الشيوخ والسياسي الروماني و «منزلة الفخار» التي كانت لروما في كل الساحة والعظمة اللتين اتسمت بهما ، ولقد استوعب ما كان يعجب به وصار من خصاله . وكما أن مغامرات اسقفيون أو بومباي هي التعبير عن هذه العظمة في الأفعال ، كذلك كانت لغة شيشرون في التعبير عنها بالألفاظ . وكما أن أفعال الحاكم أو الجندي الروماني تمثل لنا ، بطريقة خاصة بها ، العظمة التي اختص بها سادة العالم فهكذا توردها خطب أو عجالات خطيبها مكتمل الثقافة الى خيالنا بما لا يمكن لكتابة أخرى أن تفعل » .

وما كان لوي أو طاقيطس أو طرنس أو سلقا أو بلني أو كونتليان بالمتحدث عن المدينة الحالدة ، الكفيل بذلك . انهم يكتبون اللاتينية أما شيشرون فيكتب الرومانية ^(٢) . وقد كانت الخطابة منذ البداية الفن الذي يمارسه الرومان وله عندهم أعظم احترام . ومنذ زمن شيشرون فصاعدا أصبح الموضوع الرئيسي في الأدب وفي التعليم . وكانت قيمة الشعر والتاريخ ، والفلسفة وحتى العلم تنحصر في أنها عوامل للفصاحة . وكان مطمح الشباب القدير في ايطاليا والأقاليم أن يكون خطيبا . وكانت جميع دراساتهم في المدرسة وفي الجامعة تنظم كترويض لبلوغ هذه الغاية . واستمر تأثير شيشرون ، وهو يعمل عملا مباشرا ، على هذا النحو في جيله

(١) في تقدير كونتليان ، أنه لو أن قيصر تاح له وقت فراغ ، لتعادت خطابته مع خطابة شيشرون . وقد كانت تتميز بالقوة وتوخي القصد والحماسة ، الصفات التي كانت تتجلى في ادارته رحي الحرب (Inst. Orat) ١ ، ١٠ (١١٤) .

(٢) « فكرة جامعة » (محاضرة في الأدب) الصفحتان ٢٨١ و ٢٨٢ . ان معنى العبارة الأخيرة ، بطبيعة الحال ، ليس أن أسلوب شيشرون كان أسلوب الروماني النموذجي ولكنه يعبر تعبيرا بالغا عن فخر وجلالة الدولة الامبراطورية . وقد اتهمه بعض المعاصرين بأنه « متبجح وآسوي ومتغال بنير حق » (خطابة شيشرون ، طبعة ساندر Sandys ، المقدمة صفحة ٦٠) .

والأجيال المتعاقبة ، دون انقطاع خلال القرون الوسطى حتى الأزمنة الحديثة .
وبينما قدر لشيخرون الجمهورى أن يلهم الثورة الفرنسية ، فان شيخرون ،
الباحث فى طبيعة الانسان أثر تأثيرا عميقا فى ثقافة عصر النهضة . وقد
ينعدم فى عادة كتاباته الفلسفية الابتكار وقوة التفكير ، ولكن شهرة شيخرون
كأعظم رجال الأدب الذين عاشوا أبدا ترجع أكثر ما ترجع الى أنه وحيد
فى شخصه الرجل المفكر ورجل الأعمال وفوق كل شيء الى أنه استوعب
وعبر عن الروح الحضارية والمعرفة بالطبيعة الانسانية وهو ما يتميز بهما عصر
المدنية الإغريقية الرومانية .

وبفضل المحافظة على رسائله ، فان لدينا معرفة به أفضل من معرفتنا
بأية شخصية تاريخية أخرى فى الزمن القديم .

٢٠ - (٢) وكما أن الحرب مع قرطاجنة هيأت موضوعا لأنبوس وهيا
غزو الغال موضوعا لقيصر - فهكذا كان لم شمل العالم المتمدين فى عهد
أوغسطس ، معين الإلهام الأساسى لكتاب عهد أوغسطس . ولما كان قد ربأ
ازدهار هذا العهد فى كل مجال تقريبا فى الشعر والنثر على السواء ، فقد
كان كما يدل اسمه ، عصرا للرعاية الأدبية المباشرة من جانب الإمبراطور
وووزراء دولته ، وانا لا نزال نتحدث فى شيء من السطحية عن عهود كأمثال
عهدى لويس الرابع عشر أو آن Anne بأنها عهود « أوغسطية » فى الأدب
الفرنسى والانجليزى . وكان حذب أوغسطس حرا وسخيا وعمل دون ريب
كحافظ لرجال الأدب للاشادة بالامبراطورية وحاكمها . ولكن أهم مصدر
للإلهام كانت الامبراطورية نفسها - العصر الذهبى للقانون والسلام - الذى
كان يظهر بأنه يضم البشرية المتمدينة كلها ، وأنه وضع حدا ، الى الأبد
لفوضى واضطراب الحروب الأهلية . وقد صنف لوى ، وقد تملكه احساس
بهذا العمل الجليل ، تاريخ روما من بداياته الأسطورية الى قمة البنيان الذى
وصل اليه أوغسطس ، وحتى هوريس الذى كان جمهوريا فيما سبق ، تحول
عن مباحج مزرعته السابنية الودعة ليمجد عمل الإمبراطور وواجب حب
الوطن فى طائفة نبيلة من القصيد الغنائى (١) . ولكن القصيدة التى تظل الى
الأبد التعبير الرائع عن بهاء وعظمة روما هى الانبياء لفرجل . ولقد ألهم بكل

(١) توجد القصائد الغنائية المشار إليها فى الكتاب الثالث Odes ١-٦ و
Odes (١) ، ١٢ ، ٢١ ، ٣٥ ، ٣٧ و (٣) ، ١٤ و (٤) ، ٢ ، ٤ - ٥ ، ١٤ ، ١٥
و Carmen Seculare تعالج نفس الموضوع . وينصح الى القسارى الذى
لا يلم بالآداب القديمة (الكلاسيكية) ألا يحمل نفسه مشقة قراءة لوى
حتى ولو كان مترجما وهو كمؤرخ ، أقل مرتبة من الإغريق ومن قيصر
وطاقيطس بين الرومان .

سنطر تقريبا احساس بالمصير الالهى للمدينة الامبراطورية التى غدت فى ذلك الوقت سيدة العالم *nunc maxima rerum* . لقد رشح القدر أن يساق انياس Aeneas ليضرب فى الاتفاق برا وبحرا بعد سقوط طروادة الى أن أوجدت له عناية السماء مستقرا على التربة اللاتينية كجد لمؤسسى روما . (١) وكان التقى - الولاء الجنوى للالهة - هو الدافع لكل أعماله ، لهجرانه ديدو Dido ، مؤسسة قرطاجنة ، عدوة روما التاريخية ولرحلته فى العالم السفلى حيث شاهد أشكال عظماء الرومان الذين سيتمخض عنهم المستقبل ولتحالفه مع أمير لاتينى وتأسيسه مدينة لاتينية (٢) . ومن البداية الى النهاية يداخلنا الوعي بغرض الشاعر وهو أن يخبر عن مبلغ الجهد الذى بذل لوضع أساس سلالة روما (٣) .

٢١ - ان أدب ما بعد العصر الأوغسطى يختلف جدا فى نغمته . لم يكن الا للحظة أن أمكن لنبع الحيال الخالق أن يجد الرضى فى واقعة قيام الامبراطورية وما كان باستطاعته أن يعقد اتفاقا دائما مع ما كان فى نهاية الأمر حكما استبداديا عسكريا . وانا نرى آيات التغيير بادية فى أوفيد آخر شاعر فى العهد الأوغسطى . ولما كان أوفيد رجل متعة لا يأبه لشيء ولا يقيم وزنا لمسئولية والمحجب للمجتمع وعالم العاصمة البهيج . فانه كان يملك مهارة عجيبة فى القريض والصنعة الشعرية ومما له دلالة أعظم ، فى وضع القصص الابداعى (الرومانتيكى) . ولم يكن أوفيد شاعرا من الطراز الأعلى ولكن واحدا من أحسن شعراء الطبقة الثانية فى الأدب (٤) ، وهو جدير بتنويه خاص فى هذا المقام لأن أحسن عمل له ، «التحول» "Metamorphoses"

(١) انياد : ١ ، ٣٢ (acti fati) - قابل ١ ، ٢٠٨ - ١٠ .

(٢) انياد : ١٢ ، ٨٣٨ - ٩ . كانت كهرياء الرومان تتميز تميز تقواهم (انياد : ٦ ، ٧٨١ ، ٨٢٣) . ولقد أدرك فرجل أن المزاج الرومانى كان مسالما وليس محاربا (انياد : ١ ، ٢٨٦ *Romanos verum dominos gentemque togatam* » ان الرومان ، أسياد العالم ، السلالة التى ترتدى ثوب السلام ») .

(٣) انياد : ١ ، ٣٧ - قابل ١ ، ١ - ٣٠٠ ، ٦ ، ٧٦٩ - الى النهاية ٧ ، ١ - ٢٨٥ و ٨ ، ٦٠٨ - الى النهاية ١٢ ، ٧٩١ - ٨٤٢ وهى نصوص تتضمن فكرة روما الامبراطورية . وقد دفع فرجل الى كتابة مؤلفه الأسبق *Georgics* - « أعمال الزراعة » - أصلا ، حبه لحياة الريف ، ولكن أيضا رغبة أوغسطس الصريحة فى اجتذاب الأريستقراطية الرومانية للعناية بالزراعة .

(٤) لقد كان « شاعرا تعشق الشعر عشقا جارفا » ، اذا كنا لنقتبس تقدير الأستاذ جلبوت مري أوفيد فى « مقالات وخطابات » .

حيث تنعكس شخصيات الأصاير الاغريقية من خلال جو ابداعى غريب ، كان له تأثير عميق على العصور الوسطى وعلى عصر النهضة كليهما ، وكان دانتي يستمد منه معرفته بالأسطورة الاغريقية . وكان المرجع الكلاسيكى المحبوب لمونتيني Montaigne عالم الآداب القديمة . وأوسع من ذلك فى مداه هو دين العصور اللاحقة لسنقا القرطبي وزير نيرون ، الأول وضحيته ، والرجل الذى يجيء فى مقدمة أدباء زمنه .

ولقد وضع سنقا مصنفات هائلة وفى أسلوب زاهى الألوان ومؤلفة فى الطبيعة ، ولو أنه يخلو من قيمة علمية فانه قوبل على أنه من الأسانيد ، فى العصور الوسطى ، وماآسيه وهى تزخر بالثرثرة المضنية كان يضعها بن جنسون Ben Jonson فى مصاف ماآسى كتاب الفاجعة الاتيكية (١) . أما العجالات الأخلاقية ، من الناحية الأخرى ، فانها فى الأسلوب والمادة على السواء أكثر استحقا ، لما كان لها من صيت عظيم فى الزمن السابق . ولقد عاجلت عقائد المذهب الرواقى فى صورة أنيقة وجذابة وكانت تتميز بالاخلاص فى العقيدة . وبالبصيرة النافذة فى طبيعة البشر ، وبإدراك صاف للمبادئ الفلسفية . وكانت فى نظر علماء الدراسات القديمة فى القرن السادس عشر وحتى ليدكارت فى القرن السابع عشر ، تعتبر القول الفصل فى موضوع الأخلاق ، ان هذا واحدا فقط من أمثلة كثيرة للمقيدة التى لا تناسب فيها تلك التى كانت تضيء فى القرون الوسطى وفى عصر النهضة على كتاب ما بعد العصر الاوغسطى الذين نقلوا تراث الزمن القديم الاتباعى النبيل . وفى الواقع ، لم يكن سنقا بالسياسى العظيم أو المفكر العظيم ، وكانت أهميته كرجل يقوم بالوساطة فى الثقافة تربو على مزاياه الحقيقية (٢) . وفى عطفه على ضعف الانسان وترحه ، فانه كان يضرب على

(١) مكيل : « الأدب اللاتينى » فى السطور التى كتبها بن جنسون على أول طبعة من الحجم الكبير لشكسبير ، نقرأ :
ولو أنك حصلت على القليل من اللاتينى ، والأقل من الاغريقى
ولهذا فانى لا أبحث ، لتكريمك عن أسماء
ولكن استدعى اسخولس الراءد
ويوريبيدس وسفوكلس ألينا
وباكوفيووس Pacuvius وأتيوس ، وذاك القرطبي ، الموتى ،
الى الحياة مرة أخرى ليسمعوا حذاءك الثقيل يخطو
ويهب مسرعا .

(٢) ان كونتليان الذى كان يقدر مزاياه بينما يشعر بالأسى لتأثيرات أخطائه الضارة على الذوق المعاصر ، يختتم نقده بهذه العبارة : « لقد حقق الهدف الذى نصبه أمامه ومع هذا فان طبعه كان يهينه لأغراض اسمى »
(inst. Orat. : ١٠ ، ١ § ١٣١) .

نغمة غريبة على تقاليد الرواكية الصادقة ، وكان يعلن مقدما عن المشروعات الحيرة التي نهض بها أباطرة القرن الثاني . وكان وجود هذه الروح الجديدة في كتابات سنقا ، هو الذي سبب قيام الأسطورة المسيحية عن صداقته الشخصية للقديس بولس . كذلك لا ينبغي أن نتجاهل الدور الذي قام به في العملية النسقية التي تغير بها صوغ اللاتيني الاتباعي الى ذلك الذي كان في القرون الوسطى (١) . واعتبار آخر مماثل يرتبط باثنين آخرين من معاصريه وكلاهما لاقى المصير الذي لاقاه على يدى نيزون هما لوكان Lucan ابن عم سنقا الذي تغنى بالحروب الاهلية بشعر الملحمية وبمواطف جمهورية ، وترونيوس أربتر الذي وصلتنا قصته وهي تصف مغامرات معتق اغريقي في ايطاليا ، وهي لا تعطينا صورة رائعة للأخلاق الاجتماعية فحسب ، بل ان الشذرات الفريدة الباقية منها تعد النموذج الوحيد للكلام الشعبي في عهد الامبراطورية الباكرا (٢) .

(١) في روايات سنقا الفاجعية تصلب وزهو ولكن لسنقا أهمية حقيقية في « ديالوجاته ورسائله » لأنها تعرض اللاتينية في مرحلة تكون فيها قد اكتسبت مرونة اللغات الحديثة التي انحدرت من اللاتينية الدارجة (الرومانسية) . ويستبين منه حرية مستحدثة في استخدام المصادر والصفات كاسماء وفي التوسع في استخدام حروف الجر التي يمكن أن تحمل في دقة ، معناها في الفرنسية . وكان مجددا في اختراع الألفاظ أو على أية حال في تقديم الكثير منها في الكتابة المحترمة . وعلى سبيل المثال تلك الأصول اللاتينية للألفاظ

“Inspector”, “favourable”, “vulnerable”, temporary”

ومن العسير تقدير الى أى مدى كان حديث الأشخاص العاديين أو المثقفين يختلف عن أسلوب اللاتينية الذي فرضه على العالم تفوق شيشرون ، ولكن من الجلي أن سنقا أدخل الكثير من الألفاظ النافعة التي كانت حتى ذلك الحين تعتبر عامية ، في النشر الجيد . ان الكسب الذي جلاه في مرونة اللغة ملحوظ . ولو أنه يغلو في الرغبة في تحديد النقاط ، فانه يكتب في أحسن مايسطيع في حرية ونهج طبيعي ، كما في العصر الحديث تماما . وكما في العصر الحديث أيضا تمكنه من وضع الجمل القصار وفضحه ضعفاته الصغيرة الخاصة به ومظهره الواثق بأن القارئ يعني بالصغائر التي تتصل به . ويرجع اجمال كتاباته الى القرن التاسع عشر وهو ليس حقيقا به . لقد تعلم مونتاني استاذ المقالة الحديثة الكثير منه (عن هذه التذكرة ، أقر باني مدين لعطفت السيد فرنون رندال (Mr. Vernon Rendall) .

(٢) لقد نشأت الرواية لتبقى . ويرجع أصلها الى الاغريق في العهد الهليني ولكن كتابة « التهكم » Satura الرومانية اضافت عنصرا جديدا . وفي منتصف القرن الثاني كان أفولايوس Apuleius أهم كاتب روايات =

٢٢ - وتعرف الفترة الواقعة بين واسفاسيان وهديان بالعصر النضى فى الأدب اللاتينى . ومن بين طائفة من الكتاب ، يبرز ثلاثة ، لما كان لهم من نقوذا على الازمن اللاحقة وهم استاتىوس Statius وكونتليان اللذان عاشا فى عهددميطان ، وطاقيطس الذى عاش فى عهد ناروا وطريان . ان استاتىوس يعلم به جميع قارئى ملحمة دانتي الكوميديا الالهية Divina Commedia على أنه الشاعر الذى صحبت روحه الحجاج فى المطهر وبعد رحيل فرجل ، صعد مع دانتي وبيترس Beatrice الى الفردوس ويرجع بعض ظفره بهذا التكريم الى صفته كشاعر ملحمة ، اقتفى ولو من مسافة بعيدة خطى فرجل . ولكن يرجع معظمه للأسطورة الغربية التى سجلت تحوله للدين المسيحى . وكانت لكتابات كونتليان قيمة ذاتية عظيمة وأتت بتأثير أوسع نطاقا . وكان على مثال سنقا ، اسباني المولد ، وقام فى روما بمهنة التعليم والمحاماة . وكان يسهم الى أتم حد فى التحمس الرومانى للخطابة ونشر فى عام ٩٣ أهم أعماله «شغف الخطابة» Institutio Oratoria . وكان لاعادة الكشف عنه فى القرن السادس عشر ما ميز عصره فى تاريخ احياء الآداب القديمة وفى الاثنى عشر كتابا التى كان يضمها مع كثير من المواد الأخرى التى تتصل بدراسة الفصاحة . أدمجت مراجعة لكل نطاق الأدب الاغريقى والآداب اللاتينى لا يضارها شئ فى العصور القديمة فى سعة النظر والحكم التقديرى ، ومبحثان عن تعليم صفار الأطفال وأولئك الذين بلغوا سن النضوج . وكان هذان الأخيران هما اللذان أثارا بصفة خاصة ، عقول علماء القرن السادس عشر الذين وجهوا تفكيرهم جديا لمشاريع الإصلاح التعليمى . ولقد حملت العجالات عن التعليم فى جميع الأزمنة ، فى معظمها ، طابع الوسيط من الجودة ، ولكن عجلة كونتليان هى استثناء مكرم . وفى أسلوب يتسم بالوقار والصقل ويتجرد من الحشو والادعاء على السواء وضع خطة مجملية للتعليم الذى يناسب رجل الامبراطورية الرومانى فى مبادئ تصلح لكل عصر (١) . وزيادة على

= نثرية ، لاتينى وأشهر أعماله قصة Cupid و Psyché فى الكتب ٤ - ٦ من Metamorphoses (أوالحمار الذهبى) . وقد قام ولتر باتر Walter Pater . بترجمة القصة فى « ماريوس الأبيقورى » وفى ترجمة لويب Loeb لافوليس وفى طبعة أندور لنج Andrew Lang لنسخة أدلنجتون Adlington وروبرت جريفيس Robert Graves فى Penguin Classics . راجع مكيل « الأدب اللاتينى » .

(١) لقد ترجم بتلر Butler كونتليان فى سلسلة لويب Loeb . يوجد عرض الأدب الكلاسيكى (الاتباعى) فى الكتاب العاشر فصل ١ ومعالجة موضوع التعليم فى الكتابين ١ و ١٢ . كان كونتليان يذهب الى أن مساوى العصر الحلقية ترجع الى التنشئة الناقصة ومن بين أشياء كثيرة ، كان يلج فى اظهار قيمة الأدب فى التعليم وضرورة دراسة أحسن المؤلفين ، فى سن

هذا فان كونتليان وهو يحتذى بدقة مثال شيشرون ، حدد ، للخير أو للضرر ، تصور الفصاحة الذى ظهر بمثل هذا الكبر ، فى التعليم الرومانى المتأخر وتعليم القرون الوسطى . والاسم الثالث الذى يستدعى التنويه ، ليس على الأكثر لعظمته التى لا يرقى اليها تساؤل ، ككاتب ولكن لما كان له من تأثير على حكم الخلف ، هو اسم طاقيطس ، وفى الجو المنسجم الوداع الذى ساد حكم طربان « وهو زمن تاح للناس فيه أن يفكروا فيما يشاءون وينطقوا بما يفكرون » ، كان يتطلع الى الوراء الى تلك الأيام التى كانت ترتعد فيها فرائص المجتمع تحت وقع شكوك طبريوس المشنومة ، ونزعات نيرون الجائحة . وعندما عملت جيوش المطالبين بالعرش المتنازعة تخريبا فى العالم الرومانى

الشباب وفيما يسببه حشو الذاكرة من ضرر وكذلك الكتب المدرسية التى ينخفض مستواها وعن الحاجة الى أفضل المدرسين ، للبدائن وأضرار العقوبة البدنية وقيمة الحركات الايقاعية الجيدة والتمارين الرياضية . وعن التعليم فى عهد الامبراطورية الباكر راجع هاتش Hatch « محاضرات هببرت Hibbert Lectures » (١٨٨٨) . وعن تأثير الآراء والعادات الاغريقية على الكنيسة المسيحية ، محاضرة : ٢ . ولقد كانت توجد مدارس ثانوية فى البلدان وجامعات فى أهم المدن فى جميع أرجاء العالم الرومانى . وكانت تدفع الى الأساتذة رواتب عالية من المنح التى تصرفها الدولة وبالإعفاء من أُنقال البلدان وهى ميزة كان نفعها يطرده ازيدا . وكان لدى معلمى الجامعات أجازات ويختارهم : اما الامبراطور (وازن أستاذة رجبيوس Regius عندنا) واما المجالس المحلية واما لجان خاصة ، من النخبين . وكان المعلمون والطلاب يرتدون ملابس الأكاديمية . ويرجع تاريخ لفظي "professor" و "faculty" الى هذا العصر . وفى الواقع يكون المذهب الرومانى مرحلة فى تطور «الجامعة» وهى فترة انتقال تقع بين الأكاديمية الاغلاطونية وما أعقبها من أكاديميات اغريقية ، من جهة ، وجامعات العصور الوسطى والحديثة من الجهة الأخرى . وكانت فروع التعليم الأساسية فى عهد الامبراطورية (أ) النحو أى دراسة أساليب الحديث والأدب الانيق . (ب) الفصاحة أى دراسة وممارسة التعبير الأدبى والجدل ويشمل الانشاء المبتكرة وكذلك المنطق . وهو ماكان يصل بهم الى (ج) الفلسفة . ويقص ديو خرومستوم Di Chrysostum كيف وجد فى مستعمرة اغريقية شمال الأكسين أن كل واحد من السكان على التقريب كان يعرف الايذاة عن ظهر القلب . ولقد أصبحت عادة القاء المحاضرات العامة ذات شأن عظيم أضافت (كما فعلت رعاية الدولة) الى تدهور الحياة العقلية بايجاد تعطش فى المحاضرين الى العرض الشعبى وحب استطلاع سطحي فى المستمعين . ووجود رغبة صادقة فى المعرفة ، أيضا ، توضحه قصة أونفيس Eunapius عن طالبين فى كلية ، لم يكن لهما الا رداء واحد فكان على أحدهما أن يلازم فراشه ، بينما كان الثانى يختلف الى المحاضرات .

عند موت نيرون ، وفي « الحوليات » و « التواريخ » وسم حكام القرن الأول سمة لا تمحى من تهكمه ومقتله . وطاقيطس ، إذا لم يكن أعظم المؤرخين الرومان فإنه كان أعظم كاتب روماني للتاريخ وبقوة أسلوبه ، وإتقانه للنوادير والأراجيز وضروب الإيعاز واللمز ودهائه فى تحليل الدوافع فإنه وضع لمدى خمسة عشر قرناً قرار العالم المتمددين على الامبراطورية الباكزة . انه أحد انتصارات البحث التاريخى الحديث ، انه قلب ذلك الحكم أو على الأقل عدله تعديلاً عميقاً . ولم يعد بعد طاقيطس أو تهكم وسخرية معاصره يونال Juvenal كاذبين لهداية تقديرنا لروما الامبراطورية . ولكن ما وجهه من تهمة مروعة عن انحطاط الحياة والاخلاق الرومانية واحساسهما بالاصطدام بالواقع المرير بيرزان على نقبض فاجعى ، مع الآمال التى حيا بها فرجل ، قبل ذلك بقرن مؤسس الامبراطورية ، كرسول عصر ذهبنى .

٢٣ - وبين طاقيطس وأوغسطين لا توجد شخصية من الطراز الأول فى الأدب اللاتينى . ولقد وصلت إلينا مجموعة عظيمة من الكتابات من القرون الثلاثة التى تقع بينهما معظمها من وضع مؤلفين مسيحيين ، وتبتاين فى أغراضها ويكز للعالم بفتح اللغة ، على سبيل المثال ، أن يتقصى التغير المنوء عنه آنفاً ، من اللاتينى الاتباعى (الكلاسيكى) الى لاتينى القرون الوسطى . والقصيدة الجميلة Pervigilium Veneris فى استخدامهما الموشحة والمرجع (المصراع) تعلن مقدماً عن شعر البروفانس فى بواكير العصور الوسطى .^(١) وفى بداية القرن الخامس ، وضع جيروم Jerome فى غرفة سجنه فى فلسطين الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس (Vulgate) التى كان لها تأثير على مستقبل اللغة يبلغ فى عمقه تقريباً ، ما كان لترجمة لوثر من أثر على اللغة الألمانية أو الترجمة المعتمدة فى ١٦١١ ، على اللغة الانجليزية ، وكان أوغسطين معاصر جيروم فى الغرب ، آخر مؤلف لاتينى ذى عبقرية أصيلة . ولما كان يقف على الخط الفاصل بين العصور القديمة والعصور الوسطى فإنه يمثل امتزاج الثقافة اليونانية الرومانية التى أصبحت الآن فى حشجة الانحلال وروح المسيحية المظفر . أما عن عمله كمفكر وعالم لاهوت ونفوذه الذى لا يمكن حصره ، كثقة ، على العالم المسيحي الغربى ، فإننا سنتحدث فى فصل قادم . وننوء هنا فقط باحترامه لروما والقانون الرومانى وبالحماس الذى استوعب فيه فكر وأدب الماضى . ولو أنه قرأ حكم السماء فى تدمير الأرق Alaric لروما ، لقد برر دعوى الامبراطورية الحققة فى حكم العالم على أنها الجائزة الجديرة بها فضيلة روما . ولقد استمدت أدلة الكتاب الثانى لدانتى de Monarchia من كتاب أوغسطين ، « مدينة الله » (Civitas Dei) .

(١) راجع مكيل ص ٢٤٣ - ٦ . واضع القصيدة غير معروف وتاريخها غير محقق ولو أنها دون نزاع تنتمى الى هذه الفترة المتوسطة .

وقد بقيت رابطة الادب اللاتيني الوثيقة ، بحياة الدولة الامبراطورية محفوظة في هذه المقالة الأخيرة العظيمة لروما القديمة . وعند بويثيس وثير ثيودرق ملك القوط الغربيين ، في القرن السادس ، وهو كاتب جليل بالتنبؤ له تأثيره على علم القرون الوسطى أكثر من وجود ابتكار عقلي لديه ، وصل الادب اللاتيني الى ختامه (١) .

٢٤ - وفي الوقت نفسه ، في الاقاليم الشرقية احتفظت اللغة ، والادب الاغريقيين على ما لهما من مركز . وقد خلق ذبوع الهلينية في الغرب للمؤلفات الاغريقية جمهورا أعظم انتشارا وكان كل روماني مثقف في استطاعته أن يقرأها في مظانها الأصلية .

وقد وضع مؤلفون اغريق كتباً لا عد لها في التاريخ والسير والعلوم الطبيعية والرياضية والنقد الادبي والفلسفة في القرن الذي يقع قبل وبعد ميلاد المسيح . ويرجع تاريخ مصنف جالين Galen في الطب وهو فاتحة عصر ، الى النصف الأخير من القرن الثاني . وسنعالج في الفصل التالي نهج الفكر الفلسفي وقيام علم اللاهوت المسيحي . ويجب علينا ذكر اسم فلوطرخوس من خايرونيا الذي احيا كمواطن وككاتب ، شيئا من أفضل روح سادت أزمنة اليونان العظام . وقد كتب كثيرا وعن موضوعات عديدة من بينها علم الاخلاق والدين (٢) . ولكن يرجع صيته لدى الخلفاء الى الاخص الى سيره التي لا تضارع لمشاهير اغريق ورومان الماضى ، ولم يكن فلوطرخوس مؤرخا عظيما ، ويرجع بعض السبب في كتابته الى النهوض بالمعرفة والبعض الآخر لتحمس عارم للخليقة النبيلة والاهل النبيل . وربما كان تأثير « سيره » على الادب والتاريخ ، أوسع نطاقا من تأثير أى مصنف وحد آخر من العصور القديمة الاتباعية . لقد هيأت لستكسبير مادة فاجعائه وقطعت شوطا بعيدا في بحث المثالية الجمهورية في زعماء الثورة الفرنسية ، وهي لا تزال تكون أفضل تمهيد للصغار - والكبار ، للتاريخ الاغريقي والروماني ، ولجميع عشاق الشخصيات التاريخية ، تقدم بهجة قوية اليوم ، كما كانت تفعل منذ ألف وثمانمائة عام خلت .

(١) عن أوغسطين ، راجع ما يلي فصل ٩ و ٢٢ وعن بويثيس فصل ١٠ و ٨ وفصل ١١ و ٨ .

(٢) عن فلسفة الدين عند فلوطرخوس ، راجع ما يلي فصل ٩ و ٧ و ١٠ وفصل ١١ و ٨ .

« خامسة »

٢٥ - كن التغيير من جمهورية الى امبراطورية أحد عوارض التغير الأكثر تدرجاً وأبعد غوراً ، الذى كان يطرأ على فكر وحياة العالم الاغريقى الرومانى . لقد نهضت المدنية الهلينية وازدهرت وهى ترتبط ارتباطاً وثيقاً بدولة - المدينة وسبب الغاؤها بحكم استبدادى عالمى ، ثورة فى نظرة الناس العقلية والروحية .

ومنذ ذلك الحين فصلت المثل العليا للحياة ، عن النشاط السياسى والتمس الناس العزاء والعون ، اما فى التفكير الفلسفى واما فى دين خارق الطبيعة . ولقد رأينا عندما كنا نتحدث عن العالم الهلنى فى عهد خلفاء الاسكندر كيف أن المدرستين الفلسفتين اللتين كان لكليهما السيادة ، الرواقية والأبيقورية ادعتا أنهما تسدان هذا المطلب لروح الفرد ، بمعزل عن حياة الدولة العامة . وفى الدين ، برهنت جهود أوغسطس المحافظة ، لاعادة العبادات القومية العتيقة على عدم جذورها . ولم تستطع التغلب على المعتقدات الغربية الجدد التى ذاعت فى هذا العصر من العالم الشرقى الى روما . لقد وجدت ديانات اريس وكوبيلا Cybele ومثرا Mithra أتباعاً كثيرين ، فى المدينة الامبراطورية وفى أرجاء الأقاليم ، بين أولئك الذين لم تكن لديهم قدرة أو ميل لمتابعة مسالك الميتافيزيقيا (ما وراء الطبيعة) الصارمة . تلك المسالك التى لم تيسر الا للحكيم وللقوى وهم قلة . وقد تحول آخرون ، وهم فى حاجة مماثلة للرضى الروحى صوب جهات أخرى وعلى الأخص صوب الشرق . وكان الشرق بدوره يتحول صوبهم . وسنتحدث فى الفصل التالى عن طبيعة ونتائج هذا الاتصال ، وقد دل كحافز خالق وكثير لرد الفعل ، على السواء . على أنه أعظم أزمة فى تاريخ البشر ، أهمية .

٢٦ - وجنبا إلى جنب مع هذا المطلب للرضى الروحى من جانب الفرد ، تلحظ وعياً يطرأ ازديادا بشعور انسانى عام ينتظم البشر . ولقد رأينا الافصح عنه ، فى تصور الشارعين لقانون الطبيعة وفى انعكاس العالمية الرواقية داخل مجال القانون ، وفى أصاليب حب البشرية العام التى استنتجها عناية الأباطرة العظام الابوية فى القرن الثانى : طريان وهديان والانسان الانطونيان ، وأكثر من هذا روعة هو وجود هذا الاحساس بأخوة عامة فى قصيدة الملحمة التى وضعها فرجل . لقد تحدثنا عن الانيد كانبل اثر تذكارى يبقى على الزمن لعظمة الامبراطورية الرومانية وهذه هى الفكرة التى عبر عنها تيسوسون فى أبياته عن فرجل :

والآن لم تعد ساحتك بعد تمج بالاصوات

وهوت كل قبة أرجوانية لقيصر

ولو أن محيطك يتلاطم بنغم

ابقاعى أبدا لروما الامبراطورية .

ولقد عبر شعراء لاتينيون آخرون ، ولو فى شعر أقل روعة ، عن احساسهم بعظمة روما الامبراطورية . ولكن توجد خصيصة أخرى فى شعر فرجل ليس لها نظير فى الأدب السابق . انه يتطلع الى الحياة فى صعة من العطف واحساس مرهف عام عميق ، وهذا ما يناقض مناقضة عجبية الكبرياء العقلية والثقافة الشاملة اللتين كان يتميز بهما أدب وفلسفة سابقه . ان فرجل فى تعميم شعوره هو رسول عهد جديد فى تاريخ البشر الروحي . وقد كانت الاجيال اللاحقة التى نشأت على العقيدة المسيحية تبرزه من بين كتاب ما قبل المسيحية ، على أنه روح بالطبيعة مسيحية *anima naturaliter Christiana* أى دون عسّون من وحى . ودون شك ، كانت أرجوزة الرعاة *Eclogue* الرابعة الشهيرة ، التى تنبأ فيها الشاعر بعودة العصر الذهبى بلغة توحى بطريقة تلفت النظر ، بنبؤات أشياء عن مسيا ، الواعز بهذا التبجيل نحو فرجل ، لروح القرون الوسطى الباكورة غير الناقدة ، (١) ودون شك كذلك كان الشاعر الامبراطورى يسهم فى أعينهم ، فى القداسة الخاصة التى كانت ترتبط بأنظمة الامبراطورية الرومانية . ولكن الشعور كان ينبغ من شىء أعمق من هذه الدوافع الأكثر وعياً . ان فرجل وحده من بين شعراء ما قبل المسيحية كانت تؤثر فيه « موسيقى الانسانية ، الحزينة الساكنة » ، فى سعة من الرفق الانسانى تعلن مقدما عن رسالة المسيحية الديمقراطية . وفى الكتاب السادس من الأنيد يطالع أبو روما فى العالم السفلى ، الموتى يحتشدون على الشطوط بالقرب من « برك ققوطس *Cocytus* العميقة وغدير استوجيا *Stygia* » . « وهنا اكتظح الجميع واندفعوا منهمرين الى الشاطئ » أمهات ورجال وأبطال جسورون ، موتى انقطعت أصبا بهم بالحياة وغلما وبنات لم يتزوجن وأطفال وضعوا وهم صفار على النعش أمام أعين والديهم ، جموع حفل كاوراق تهوى متساقطة فى الغابات فى أول بواكير صقيع الخريف أو الطيور تهبط أسرابها صوب الأرض من الخليج العميق عندما يقتلعهم قر السنة من فوق البحار ، ويسوقهم الى أراض تغرها المنحوة . ولقد وقفوا يتوسلون لبتاح لهم أول عبور ، وبسطوا أيديا منفعة الى الشاطئ الآخر ، (٢) . ويمكننا أن نقتفى رغبة فرجل فى الحياة فيما يلى القبر ، وهى أكثر دنوا من روح الرجاء المسيحي عن أى قول نطق به الفلاسفة الاغريق . انه لم يكن مجرد اخلاص جمالى لشاعر نحو شاعر ، أو مجرد صدى تقليد شعبي ذلك الذى حدا بدانتى لأن يلتمس هداية فرجل عبر الجحيم والمظهر ، الى عتبة الفردوس المسيحي .

(١) راجع ما سبق صفحة ٦٦ تذكرة ١ . كان الكتاب السادس من الانيد *Aeneid* السبب فى أن يعتبر فرجل أيضا ثقة فيما يتعلق بعالم ما وراء القبر .

(١) Aen. ٦ : ٣٠٥ - ١٤ (ترجمة مكيل)

٢٧ - والعصور الوسطى وهي فوية في نزعة الاعتقاد بالحق الموحى به ، جسرت على أن تفسر تاريخ الامبراطورية الرومانية في ضوء الحطة الالهية حكم ينتظم العالم . ولقد راوا في عمل يوليوس واوعسطس كما في قصة الشعب العبرى المختار *praeparatio evangelica* .

ومن الجهة الاخرى فان المؤرخين المحدثين قد رضوا بقصر بحثهم وحكمهم على نتائجها الفعلية على سعادة البشرية ومدنيتها . واذا ما سألنا بهذه الروح ماذا كان يعنى توطيد المذهب الامبراطورى للعالم الرومانى ، فيجب ألا يكون اعتمادنا فيما نصل اليه من نتائج على المؤلفات التاريخية الأدبية التى تعبر عن عداوة أصحاب المثل العليا الجمهورية ، الطبيعية أكثر من اعتمادنا على الأدلة عن نتائج النظام على الملايين الصامته الذين كان صالطهم الشأن الأول لدى الحكومة الامبراطورية . انه فى تنظيم الضرائب تنظيما عادلا ، وفى تطبيق القانون دون محاباة ، وفى تأسيس المدن والأعمال العامة ، وفى نهوض التجارة دون عائق ، وفى توسيع حقوق المواطنين والحكومة الذاتية المحلية مما أفسح المجال ، لأول مرة لآمال عراض فى الرقى لجميع الأحرار ، وفوق كل شيء فى الدفاع الفعال عن الحدود والاحتفاظ بسلام عالمى ، أن طبيعة المذهب الامبراطورى الحقة تتكشف . ان المؤرخين العظمين اللذين « غنيا بشرح روما للعالم الحديث » يظهران اتفاقا فى حكمهما ، يسترعى الببال . وقد لحص جيون وهو يكتب فى النصف الأخير من القرن الثامن عشر نظرتة الشاملة على دولة العالم الرومانى فى القرن الثانى بعد الميلاد فى هذه الألفاظ التى يلم بها الناس تمام الامام . « لو أن امرء طلب اليه أن يحدد حقبة فى تاريخ العالم ، كان الجنس البشرى فى خلالها فى أعظم حالة من السعادة والرخاء فانه دون تردد كان ليذكر تلك التى وقعت بين موت دميطيان الى اعتلاء كومودس Commodus^(١) العرش . وكان يحكم رقعة الامبراطورية الرومانية الفسيحة سلطة مطلقة تسير على هدى الفضيلة والحكمة . وكانت تكبح جماح الجيوش يد رفيقة قوية لأربعة أباطرة متعاقبين ، استرعت خصالهم وسلطتهم احترامما يجيء عفوا . وقد حافظ على شكل الادارة المدنية محافظة دقيقة ، ناروا وطريان وهديبان والأنطونيون الذين كانوا يبتهجون برأى صورة الحرية ويسرون بأن يعتبروا أنفسهم خدام القوانين المسئولين » (٢) .

وقد صنف مؤلف جيون أصلا من مجلات أدبية . ومنذ أن وضع مصنفة ، كشف تقدم البحث التاريخى عن مقدار عظيم متباين من الكتابات (٣)

(١) ٩٦ - ١٨٠ ميلادية

(٢) « التدهور والسقوط » . فصل ٣

(٣) وقد استخدم جيون أيضا السجلات التى جمعتها « أكاديمية النقوش الفرنسية Académie des Inscriptions » .

المعاصرة • وبعد قرن من نشر «التدهور والسقوط» Decline and Fall جمع ثيودور مومسن Theodor Mommsen احصاءا شاملا لهذه المواد الجدد في كتابه عن الاقاليم الرومانية في عهد الامبراطورية • وحكمه ، ولو أنه أكثر حذرا في تعبيره ، يحمل نفس المعنى الذى انطوى عليه حكم جبون •

« وحتى الآن ، توجد اقاليم متنوعة في الشرق ، كما في الغرب ، تبلغ الحقبة الامبراطورية بالنسبة لها الذروة في الحكم الصالح ، وهو متواضع في ذاته ، ولكن مع هذا لم يتح الوصول اليه من قبل أو من بعد • ولو أن ملاكا من لدن الرب ، كان ليقيم الميزان بما اذا كانت الممتلكات التى كان يحكمها ساورس انطونينس Severus Antoninus كانت تحكم في ذكاء أعظم وانسانية أعظم في ذلك الوقت ، أو في زمننا الحاضر وعما اذا كانت المدنية والرخاء القومى على وجه عام قد تقدمتا منذ ذلك الحين أو تأخرتا ، فانه من المشكوك فيه جدا أن يجىء القرار فى صالح الحاضر » (١) •

الى أى مدى يصدق هذا الحكم ؟ يجب أن تواجه المسألة اذا كنا لنقيس قدر عمل روما فى التاريخ أو القوات الجدد التى اقتحمت سيادتها وامستولت على ميراثها • ويجب ألا ندع بصرا يعميه عظم قوتها واستطالة زمنها ، أو ننسى أن حكم التاريخ يصدر دائما على نوع العمل الجليل أكثر مما يكون على كنهه ، وانا اذا وجهنا عقولنا الى هذا ، فانه يشق علينا أن نقبل أقوال جبون وممسن دون تحفظ • ان حكمهما صادق ، اذا كنا نعنى بالسبعاة الراحة المادية واذا اعتبرنا الصالح الاقتصادى واقامة النظام الاجتماعى معايرنا للمدنية • انه من السهل أن نفهم كيف أنه بعد قرون من الصراع العام والالم الخاص ، كان مجيء سلام عالمى تحت حوى القياصرة يظهر لشعراء روما فى عهد أوغسطس كأنه فجر عصر ذهبي (٢) • ان الدولة الرومانية أدركت المثل الأعلى للحكومة أبوية فى درجة لا يقدم التاريخ مثيلا لها الا حكم بريطانيا الهند ومصر (٣) حتى الأزمن الحديثة • واذا كانت الحكومة الابوية هى منتهى ما تصل اليه المدنية ، فان سقوط تلك الامبراطورية فى القرون التى تعاقبت كان أكثر الحوادث مجلبة للحزن فى حوليات البشر • لقد كان الشعراء يحلمون بأن روما ستبقى أبد الدهر وحتى حقيقة التدهور والسقوط القاسية ، لم تجد نفعا فى تبديد الحدة • ومع هذا ففي ساعة قيامها كان يوجد داخل الامبراطورية ذلك الذى كان ينبىء بانحلالها • ما كان يمكن

(١) اقاليم الامبراطورية الرومانية - تمهيد

(٢) مثل Aen. ١ : ٢٩٥ و ٦ ، ٧٩١ - ٢ •

(٣) هذا رأى المؤلف نورده وان كنا كمصريين لا نقره فيما ذهب اليه

من مثالية حكم الانجليز لبلادنا (المترجم) •

لحكومة استبدادية بيروقراطية ، مع كل ما فيها من أمانة واستنارة أن تشير استجابة حية من الشعوب المحكومة التي كانت تحصد منافعها • ان روح الانسان تصبو ليس الى الراحة ولكن الى الحرية وليس للاستقرار الاقتصادي أو الادارة العادلة ولكن الى الحق في أن تجدد السبيل الى خلاصها ملاقية في ذلك ما لا نهاية له من نصب ورزايا • ورغبتها في كل العصور ليس في السعادة ولكن في الحياة • وفي تكوين الحكومة الرومانية الهائل ، كان الناس يدركون فقط الحمل الساحق وانتظروا في جمود أخرس ، ساعة انقاذهم ، لقد كانوا دمي في يد القدر المتعالي الذي لا يتسامح ، الذي كان يجثم على حظوظ العالم (١) • وكانت روما عاجزة مع كل ما لها من جلال قوة ، على أن تعيد الانتعاش للشعوب التي دانت لحكمها • لم تقدم لهم أية « دعوة » ، في استطاعتها أن تحرك قلوب الناس للقيام بجهد من جانبهم ، فيه أمل صالح لتحقيق مظفر كالذي تقدمه المسيحية (أو الشيوعية) الى العالم الحديث (٢) • ان ينابيع الحياة كانت في مكان آخر ، في جحافل التيوتون الجامعة التي كانت الآن تعمل في الحدود ضربا وفي العقيدة الجديدة التي كان مولدها في عهد رياضة أوغسطس بين شعب محتقر من الشرق وقدّر لها قبل مضي كبير زمن أن تهز بنيان المدنية الاغريقية من أساسها هزا •

تم الجزء الأول

(١) وازن قول نابوليون « ان السياسة هي القدر » • عن امستحالة عاطفة ولاء فعالة ، نحو الامبراطورية راجع ريفس : « أوربا العصور الوسطى » الصفحتين ١٩ و ٢٠ •

(٢) راجع بيفان في « العصر الهليني » (الصفحات ٩٨ وما يليها) ، عن عدم وجود « دعاوى » في عصره وكيف أن المسيحية قدمت « دعوة » •

الصفحة	السطر	تصويب	الصواب
١٠٠	٢٦	hand	
٣٥	١ - هامش (١)	بيخو	
٤٢	١ - هامش (٣)	Nineveh	
٤٨	٣١	واضع	
٥١	١٣	sont	
٥٧	٢٨	لعبرية	
٥٧	٢٩	موادا	
٧٠	٢١	حتى ، بعد ككارة	
١٤٣	٢٢	باتحاد	
١٧١	٩	حقيقتها	
١٧٦	٥ - هامش (٢)	هذا السطر يجيء بعد الذي يليه	
٢١٨	٤ - هامش (٢)	Hellenistic	
٢٣٣	١٨	هذين العليين	
٢٤٧	١٧	ونفس	
٢٥١	٧	الأسر.	
٢٥٢	١٢	٢ - قيام الجمهورية	
٢٨٠	٤ - هامش (١)	Digest	
٢٨٢	٣ - هامش (٢)	gentium	
٢٨٣	١٣	تكيّف	
٢٨٩	٤	الأرب	
٢٩٤	٨	الا	
٢٩٦	٩ - هامش (١)	كنفسى	
٣١٣	٢٢	طريان	
٣١٥	٢ - هامش (١)	ابرية	
٣٢٠	٥ - هامش (١)	موادا	
٣٢٧	٤	الآداب	

موضوعات الجزء الاول

المقدمة	٩
تذكرة	١٣

الفصل الاول

مقدمة

خلف تراث المدنية القديمة ثلاثة شعوب ، العبريون والاغريق والرومان عالم البحر المتوسط كمجال لنشاطهم فى التجارة والمدنية الامرات السامية والهندية - اورية . اضافة كل من هذه الشعوب الثلاثة الهامة لمدنية العالم . تاريخها سجل تغير مستمر وتعديل تراثها فى عملية وصوله للعالم الحديث ، النسقية . تبرير المنهج الذى اتخذ فى هذا الكتاب ... ١٥

الفصل الثانى

مدنيات الشرق الاولى

١ - تمهيد : منهاج الفصل	٣٠
٢ - مصر : انتظام المدنية المصرية . اعادة كشف السجلات المصرية . عصور التاريخ المصرى (ما قبل الاسرات ، الدولة القديمة ، الدولة الوسطى ، الامبراطورية الحديثة ، نهضة العهد الصاوى) الى الفتح الفارسى . الخصيصة العامة للثقافة المصرية	٣٠
٣ - بابل واشور . سهل كلدنيا . اول امرة بابلية وقوانين حمورابى الامبراطورية الاشورية . نهضة بابل الى الفتح الفارسى . الخصيصة العامة للثقافة البابلية	٣٨
٤ - الحيثيون والساميون الغربيون : الشعوب السامية بين بلاد ما بين النهرين والبحر المتوسط . الحيثيون . الفينيقيون . العبرانيون فى كنعان	٤٥
٥ - كريت . اعادة كشف الثقافة الايجية الاولى . العصور المتعاقبة والخصيصة العامة للمدنية المائوية فى كريت . دولة ليديا والفتح الفارسى لآسيا الصغرى	٤٩
٦ - امبراطورية فارس : الارومة الايرانية وخصيصة مدنيتهما ، الفتوحات الفارسية ونظام الحكومة . تدهور وسقوط الامبراطورية الفارسية	٥٣
٧ - الخاتمة . اهمية المدنيات المذكورة آنفا لتاريخ العالم	٥٧
حداول تاريخية	٥٩

الفصل الثالث

ديانة العبريين

١ - تقديم - ايضاح المسألة ، دين العبريين فى ازمة ما قبل النبوة	٦٥
--	----

- ٢ - نبوة ما قبل السبي : قيام النبوة عند العبريين ، عاموس والتهديد الاشوري ، الانبياء وطبيعة رسالتهم ، فحواها الخلقى والدينى ، اشعياء والتهديد الاشورى . اصلاحات يشوع ومدونه قوانين التشية ، ارميا والفتح البابلى ... ٧١
- ٣ - السبي وما بعده : نتائج السبي على حياة العبريين الروحية كما توضحها نبوة حزقيال ، العودة فى عهد عزرا ومدونة القوانين الكهنوتية ، الدين الشخصى فى المجتمع المعاد ، موضوع الألم والعدالة الالهية ، الرجاء فى الملكوت فى ا زمن السبي وما بعد السبي ، قيام الايمان فى بعت ... ٨٣
- ٤ - الخاتمة : قوة وضعف الدين العبرى ، اليهودية والمسيحية ١٠١
- تذكرة اضافية : : عن التاريخ العبرى بعد السبي ... ١٠٥

الفصل الرابع

قيام الهلينة

- ١ - مقدمة : الغزوات الشمالية وأصول الشعب الاغريقى ... ١١٠
- ٢ - دولة - المدينة الهلينية : دولة المدينة والوحدة الهلينية . أهمية دولة - المدينة (١) فى تاريخ المدينة (ب) فى الحياة الاغريقية (ج) فى النظرية الاغريقية عن الحياة ، الفردية ، والتشيع الحزبى ... ١١١
- ٣ - توسع اليونان : المغامرات البحرية فى اليونان الباكورة ، عصر الاستعمار ونتاجه على الحياة العامة ... ١٢٠
- ٤ - بواكير أدب الشعر : قصائد هومر ، الشعر الغنائى وشعر الملحمة ، شعر الامثال وتطور الآراء الخلقية - السفسوسونية والهبرس ... ١٢٣
- ٥ - مولد الفلسفة : خلق مبتكر للعبقرية الاغريقية ، الخصائص العامة للفكر الايونى الباكر ، تطور الفلسفة فى الشرق والغرب هيرقليطس والفيثاغوريون وفارمنيدس وأصحاب المذهب النرى ، مسألة الفوسفس فى الطبيعة وفى السلوك ، العلم والدين ، النهضة الدينية فى القرن السادس وأثرها على الفلسفة ... ١٣٣
- ٦ - الخاتمة : المنطق الملازم للعبقرية الاغريقية ... ١٤٥

الفصل الخامس

عظمة أثينا

- ١ - دولة أثينا : أثينا كمركز للثقافة الهلينية ، تطور الدولة الاثينية فى القرن السادس - المقابلة بين أثينا واصبارطة ، الحروب الفارسية ومقرها لليونان وأثينا ، حرب التحرير والامبراطورية الاثينية ، الحياة العامة فى أثينا فى عهد بركليس ، الحرب البلوبونيسية وسقوط الامبراطورية الاثينية ... ١٤٩
- ٢ - الفن والادب فى أثينا القرن الخامس ، فن العمارة والنحت ، البارثنون . خصيصة الفاجعة الاتيكية وتمثيلها . ارتباطها بالدين والأخلاق كما توضحه تراجيديات اسخولس وسمفوكلس وبوريينيدس ،

- والمسلة الاتيكية وأرسطوفانس . نهوض أدب النثر - المزرخان
 ١٥١ هيرودوت وثقوديدس
 ٣ - السفسطائيون وسقراط ، استنارة القرن الخامس ،
 السفسطائيون ، مسألة الطبيعة والعرف ، شخصية سقراط ، رسالته
 الفلسفية ومنهجه ، محاكمته وموته ١٧٤
 ٤ - أفلاطون : كتابات أفلاطون وتصوره للفلسفة ، مسألتا المعرفة
 والموجود يجاب عليهما في حدود الفروق بين عالمي الفكر والحس ، ومبدأ
 الصور - صورة الخير في فلسفة أفلاطون ، مبدأ أفلاطون عن النفس
 وحياة العقل ، تصويره للمدينة الكاملة ، الاكاديمية الأفلاطونية وعمها،
 النفوذ الدائم لفلسفة أفلاطون ١٨٦
 تذكرة اضافية : عن مركز النساء ١٩٩
 عن الرق ٢٠٢

الفصل السادس

الثقافة الاغريقية - المقلونية

- ١ - الاسكندر ، نهوض مقدونيا ، مشروع حملة صليبية اغريقية
 ضد فارس ، فتح الاسكندر للامبراطورية الفارسية ، مراعي الاسكندر
 وسياسته ، هليتيته ، امبراطوريته في عهد خلفائه الاغريق - المقدونيين
 سقوط دولة - المدينة الهلينية واستهلال عهد جديد في تاريخ الهلينية ٢٠٧
 ٢ - الثقافة الهلينية : المظاهر العامة للعصر الهليني . الادب
 والعلوم - الاسكندرية وغيرها من مراكز الثقافة - الفن الهلينيستي ... ٢١٨
 ٣ - عصر ارستطاليس : مركز ارستطاليس في تاريخ الفكر الاغريقي
 مدى وخصيصة كتاباته ، بمجل عن (ا) مبدؤه عن الوجود (ب)
 مبدؤه عن الخير الأعظم للانسان ، منطق ارستطاليس وتاريخه - نفوذ
 على العصور اللاحقة ٢٢٢
 ٤ - الرواقيون والابيقوريون : الفكر الخلقى الهليني كمعبر عن ...
 السياسي والاجتماعي الذي اعتراه تغير ، الرواقية كاحتمال ...
 الفرد ، المثل الأعلى الابيقوري ٢٢٤
 ٥ - الخاتمة : أهمية العصر ٧٥٠ - ٣٠٠ ق.م . في تاريخ العالم ... ٢٢٥

الفصل السابع

الجمهورية الرومانية

- ١ - أسس الدولة الرومانية : بدايات روما ، خصيصة السلالة
 الرومانية ، الأسرة الرومانية ، الانظمة السياسية من العهد ... ٢٢٢
 ٢ - قيام الجمهورية ، نظام الجمهورية وتاريخها المبكر . الاوضاع الانسي
 عشر وقيام القانون العام ، صلاحية الانظمة الرومانية العنلية - المقابلة
 بينها وبين أنظمة انجلترا ٢٥٢
 ٣ - توسع روما : ٢٦٢

- (١) فتح إيطاليا ، سياسة روما في الحرب ، خصيصة الحكومة
الرومانية في إيطاليا ٢٦٣
- (ب) الحروب مع قرطاجنة ٢٦٧
- (ج) فتح الشرق ، بدءات امبراطورية اقليمية ٢٦٨
- ٠ - روما في العرون الثاني
- (١) روما والهلينية ، نتائج الحروب العظيمة الاقتصادية والاجتماعية ، الأثر الهليني على الادب الروماني الباكر ،
الهلينية والحياة الرومانية والفكر الروماني ٢٧١
- (ب) الدولة الرومانية في القرن الثاني ، سيادة مجلس الشيوخ ،
مذهب الحكومة الاقليمية ، تطور القانون والمراسيم
البريتورية ، قانون الأمم ٢٧٦
- د - الخاتمة : علامات النورة القادمة ٢٨٣

الفصل الثامن

الامبراطورية الرومانية

- ١ - أنظمة الامبراطورية :
- (١) سقوط الجمهورية ، مغزاه التاريخي ، وجوه الأزمة ،
المنعاقبة (١) الاعادة التي قام بها سلا (ب) عصرشيشرون
وقيصر ٢٨٧
- (ب) يوليوس قيصر ، سيادته وعمله ، حماية الحدود والمسألة
الشرقية ، مقتل قيصر ٢٩٣
- (ج) أوغسطس ، نظرية وسلطات الزعامة ، سياسة أوغسطس
فيما يتعلق بإيطاليا والأقاليم ، الأخلاق والدين ، الحدود
٢ - الامبراطورية في القرون الثلاثة الأوائل ، مظاهر العصر العظام ،
الامبراطور هديران ، نمو الحكومة البيروقراطية ، الحياة الحضرية في
عهد الامبراطورية ، مسألة الدفاع عن الحدود ، أمثلة للحياة الاقليمية
والحكومة في الغرب (١) اسبانيا (ب) الغال «ج» بريطانيا... .. ٣٠١
- ٣ - القانون والادب ٣١٩
- (١) تطور القانون والقضاء - المرحوم الدائم ، الدستور
الامبراطوري ، الشارعون العظام ، أمثلة عن الروح الجديدة
في القانون الروماني ٣٢٣
- (ب) الأدب في عصر شيشرون ، العصر الاوغسطي ، أوفيد
وسينقا ، العصر الفضي ، خاتمة الأدب اللاتيني ، الأدب
الغريقي في عهد الامبراطورية الباكرة ٣٣٣
- ٤ - الخاتمة : التغيرات في الحياة والفكر أثناء هذه القرون ، فرجيل
كرسول العهد الجديد ، الحكومة الامبراطورية والصالح الانساني ٣٣٣

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٩/٨٨٦٥

I.S.B.N 977 - 01 - 6168 - 3



المعرفة حق لكل مواطن وليس للمعرفة سقف ولا حدود
ولاموعد تبدأ عنده أو تنتهى إليه... هكذا تواصل مكتبة الأسرة
عامها السادس وتستمر في تقديم أزهار المعرفة للجميع. للطفل -
للشباب - للأسرة كلها. تجربة مصرية خالصة يعم فيضها ويشع
نورها عبر الدنيا ويشهد لها العالم بالخصوصية ومازال الحلم
يخطو ويكبر ويتعاضم ومازالت أحلام بكتاب لكل مواطن ومكتبة
لكل أسرة... وأنى لأرى ثمار هذه التجربة يانعة مزدهرة تشهد بأن
مصر كانت ومازالت وستظل وطن الفكر المتحرر والفضيلة المبدع
والحضارة المتجددة.

سوزان مبارك



٣٠٠ قرش

مكتبة الأسرة
١٩٩٩
مهرجان القراءة للجميع